

كتائب الحلال



سلسلة
ثقافية
شهرية

أفكار معاصرة

أحمد بهاء الدين



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة: أحمد مبراهيم

رئيس التحرير: رجاى النقاش

العدد ٢٣٠ - محرم ١٣٩٠ - إبريل ١٩٧٠

No. 230 - Avril 1970

مركز الإدارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب
التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ - فى سائر أنحاء العالم ٥٠ دولارات أمريكية أو ٤٠ شلنا - والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحواله بريديّة : فى الخارج بتحويل أو بشيك مصرفى قابل للصرف فى (ج.ع.م) - والأسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى - وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الأسعار المحددة

كتاب الحلال



مصلحة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة
الفنان حلمى التونى

أحمد بهاء الدين

أفكار معاصرة

دار الهلال

روسيا وأمريكا.. والإنسان والآلة

قال لي « سافيل ديفز » رئيس تحرير جريدة الكريستيان ساينس مونيتور ، ومن أبرز رجال الصحافة في أمريكا :

- اسمع مني !.. لقد أنفقت حياتي في قلب الحياة السياسية لهذه البلاد ... وأستطيع أن أقول لك أنني لم أر أمريكا تمر بفترة من النقد الذاتي ، ومحاسبة النفس ، ومحاولة اكتشاف الخطأ .. كهذه الفترة التي تمر بها الآن !

كان هذا الحديث في مبنى الجريدة العريقة ، في بوسطن ، سنة ١٩٦٠

ويومها كانت مظاهر النقد الذاتي الحاد .. لا تقاس شيئاً إلى مظاهر هذا النقد المتفاقمة اليوم : من تمرد الزنوج الذي وصل إلى حد مظاهرات مئات الألوف ، والاشتباكات الدموية العنيفة .. إلى حركات التمرد العنيفة ضد حرب أمريكا على شعب فيتنام .. وأحراق المجندين لبطاقات تجنيدهم .. إلى تجمعات الشباب في الجامعات تحت شعارات ترفض سياسات أمريكا بشكل أو بآخر .. إلى الانشقاق الكبير بين أعضاء الكونجرس الأمريكي نفسه ، حول تفسير أمريكا لدورها في العالم بوجه عام

وقد سئل الكاتب المسرحي الأمريكي الكبير ارثر ميلر أخيرا عن رأيه في الصدمات التي أصابت السياسة الأمريكية الخارجية أخيرا في أكثر من مكان.. من اليابان الى كوبا ، فقال ميلر : « أنا متفائل جدا ! لقد بدأ الأمريكيون يتعلمون انه لا يكفي أن تقول للناس : أنا أمريكي لكي يعاملوك على أنك آلة !.. اننى أجد ان روح النقد ، وعدم الازعان ترتفع في هذه البلاد مرة أخرى »

في العشر السنوات الاخيرة كان من المستحيل أن تحدث أحدا في الاخطاء الأمريكية، فقد كان كثيرون يعتقدون انه ليس في الامكان أبدع مما كان ، أما الآن فقد بدأ كثير من الناس يعترفون أن هناك أشياء كثيرة خاطئة.. وهذا حسن . فانك لا تستطيع أن تغير أى شيء الا اذا أحس الناس حقا انه في حاجة الى تغيير ! »

وأظن ان ما قاله الاثنان صحيح الى حد بعيد . ولا يمكن طبعا القول بأن روح النقد والتغيير قد شملت أغلبية الناس ، أو انها شملت الجهات المسئولة والجهات ذات القوة والنفوذ ولكن وجود هذا النقد على أى حال ظاهرة هامة .

ومن أبرز الاسماء التي تفترن في أمريكا بالنقد و (المخالفة) والمطالبة بالتغيير ، كاتب ومفكر اقتصادي وأستاذ في جامعة هارفارد . لمع في السنوات الاخيرة كواحد من أكبر الرؤوس الاقتصادية في أمريكا .. وهو الدكتور جون كينيث جالبريث ...

وقد اشتهر الدكتور كينيث جالبريث بثلاثة كتب ضخمة أصدرها عن الحياة الاقتصادية في أمريكا وهي :

AMERICAN CAPITALISM, THE AFFLUENT
SOCIETY, THE LIBERAL HOUR,

ودكتور جالبريث ليس أستاذ اقتصاد بالمعنى المتجههم
الجامد لهذه الصفة .. ولكنه كاتب لامع الاسلوب ،
يتدفق ذكاء وسخرية وبساطة .. وكل بحث أو رأى له
يشير حوله عواصف من السخط والرضى ، والذم والمدح
وقد اخترت أن أنقل رأيه في ثلاثة موضوعات رئيسية :
* ما هو المحور الحقيقي للمنافسة بين الاتحاد
السوفييتى وأمريكا ؟

* هل صحيح أن قيمة الآلات ترتفع ، بينما تهبط
قيمة الإنسان ؟

* كيف أثر التنافس الاقتصادى فى أمريكا على
الذوق .. وعلى الفن ؟

أما عن التنافس بين الاتحاد السوفييتى وأمريكا ..
فإن جون جالبريث له فيه رأى خطير .. فهو يقول :
- لو درسنا التاريخ .. لوجدنا أن هدف التنافس
العسكرى دائما واحد ، وهو أن تغلب على العدو ،
بأقل ضرر يلحقك . ولكن الأسلحة قد تقدمت وتطورت
الى درجة جعلت تحقيق هذا الهدف مستحيلا ، لأى
طرف ، مهما كانت درجة تفوقه .

والبديل الوحيد للتنافس العسكرى هو التنافس
الاقتصادى ، فإذا كان الاسلوب الاول بشعا فلا مفر
من الاتجاه الى الاسلوب الأقل بشاعة .. السوفييت
يريدون أن يسبقوا أمريكا فى الانتاج ولذلك يجب على
أمريكا أن تسبق نفسها . والجائزة فى النهاية للدولة
التي يزيد الدخل القومى فيها بنسبة أكبر ..

وفى السنوات الاخيرة نجد أن الاتحاد السوفييتى
يزيد انتاجه بمعدل ٧ ٪ بينما يزيد انتاج أمريكا بمعدل
٣ ٪ . وأزاء هذه الظاهرة يرى بعض الناس أن أمريكا
يجب أن ترفع معدل زيادة الانتاج فيها حتى ترداه

تفوقا على الاتحاد السوفييتى.. فى حين أن هناك آخرين يحاولون أن يطمئنوا انفسهم بمحاولة اثبات أن الارقام التى يذيعها الاتحاد السوفييتى عن تقدمه غير صحيحة. وقد نشأت فى أمريكا صناعة جديدة ناجحة - هى صناعة اثبات أن الارقام السوفييتية غير صحيحة. ولعل فى الاتحاد السوفييتى أيضا صناعة أخرى مقابلة تحاول اثبات أن أمريكا تتأخر !

ومع ذلك فإن هذا ليس معناه أن هدف أمريكا الوحيد يجب أن يكون الدخول فى سباق مع الاتحاد السوفييتى حول معدل زيادة الانتاج. أن زيادة الانتاج بالنسبة للاتحاد السوفييتى لها معنى ، وبالنسبة لأمريكا لها معنى آخر .

الاتحاد السوفييتى كان حتى وقت قريب بلدا متاخرا ضعيفا .. فالنمو السريع بالنسبة له هام جدا لانه يسمح له بأن يرفع مستوى المعيشة فيه ويفتح أمامه مجال التقدم الواسع فى المستقبل . ثم لكى يصبح لديه بعد ذلك فائض يوجهه الى العالم الخارجى حيث يساعد سياسته الخارجية . أن الاتحاد السوفييتى يريد القضاء على فكرة أنه يأتى فى المرتبة الثانية بعد دولة رأسمالية ، لكى يبدد الشك فى أن يكون نظامه هو المسئول عن هذا الوضع .

ولكن السبب بالنسبة لأمريكا يختلف . السوفييت يريدون أكثر لأن أمريكا لديها أكثر . ولكن ، لماذا تحتاج أمريكا الى الأكثر ؟ .. هذا هو السؤال الهام الذى يجب أن تفكر فيه أمريكا . أن مجرد الجرى الى الامام للاحتفاظ بالأولوية فى كمية الانتاج ، لا نتيجة له الا الخراب .

هل تزيد أمريكا من انتاجها فى الطعام مثلا ؟ بالتأكيد

لا ! فمرض أمريكا الآن هو التخسمة وليس ضعف التغذية !.. والتقدم في أمريكا ينصب الآن على طرق تعبئة المأكولات وتقديمها وليس على انتاج المأكولات ذاتها . وحتى في هذا المجال وصلت أمريكا الى آخر الشوط ولم يعد هناك الكثير مما يمكن ابتكاره . كذلك بالنسبة للملابس . لقد عبرت أمريكا مرحلة الحاجة الى زيادة الملابس وأصبحت تصمم الملابس للتنافس في الذوق وللمباهاة لا لمجرد الحاجة اليها . وفي مجال السلع الأخرى كالسيارات كادت أمريكا تصل الى معدل انتاج ١٠ ملايين سيارة في السنة . وكادت الطرق والجراجات تملأ كل مكان في البلاد حتى في صميم الريف .

سيقول الناس : ولكن ما زال في أمريكا من لا يجدون كفايتهم من الطعام والكساء والسيارات والبيوت المريحة وهذا صحيح . ولكن مجرد زيادة الانتاج ليست العلاج . فقبل ايجاد السلع ، يجب أن يكون لهؤلاء الناس دخل كاف لشراء هذه السلع . . ويجب أن يكون لديهم كفايتهم من التعليم والصحة والفرصة لكي يكسبوا ويشتروا .

هناك من يقول ان الاتحاد السوفيتي يزيد من الصناعة الثقيلة عنده لكي يضاعف قوته الحربية . وان أمريكا لهذا السبب يجب أن تنافسه . ولاشك ان القوة الصناعية هي أساس القوة العسكرية . ولكن يجب أن نعرف أن هذا يتوقف بمجرد بلوغ مرحلة معينة من القوة الصناعية . فبعد الوصول الى مرحلة معينة من القوة الصناعية تصبح كل زيادة في الصناعة تافهة الاثر بالنسبة للقوة العسكرية وأظن ان الاتحاد السوفيتي قد وصل أو كاد يصل الآن الى هذه المرحلة . في الحروب القديمة ، عندما كان الحديد يحارب الحديد ، كنا نجد أن هناك حدا أقصى لاستخدام الحديد في

القتال . وقد استطاعت ألمانيا مثلا في الحرب العالمية الثانية أن تهزم جيوشا معادية بكمية أقل من الحديد والصلب . فما بالنار والحرب الحديثة - كما يسمونها - وكأنها كأي موضة جديدة ، تحتاج إلى حديد أقل وخامات أقل ؟ . ان المهم الآن ليس كمية الحديد وقوة الصناعة . بدليل ان الاتحاد السوفييتي سبق أمريكا في مجال الصواريخ ، رغم ان قوته الصناعية أقل .

فالتفوق الصناعي ، من حيث الكمية ، ليس هو المهم . بل انه يمكن القول ان هذا التفوق أحيانا يزود الناس بسلع ورفاهية أكثر مما يجب لدرجة انهم يصبحون عاجزين عن الاستغناء عن هذه الأشياء بالسرعة اللازمة في الوقت اللازم . الأمر الذي يعد عنصر ضعف وليس عنصر قوة . وصناعة السيارات هي أول مثل وانذار . لقد وصلت صناعة السيارات في أمريكا إلى درجة استهلكت قوتها البدنية ! وكم كان صعبا على جنود أمريكا في حرب كوريا مثلا أن يتعودوا كيف يحاربون خصوما لا يركبون سيارات الجيب !

وأخيرا يقال ان زيادة الانتاج في حد ذاتها سوف تمكن أمريكا من مساعدة أصدقائها وحلفائها في الخارج . ولكن الواقع ان الذي كان يمنع أمريكا عن مساعدة العالم الخارجى في الماضي لم يكن قلة الانتاج ، بل كان عدم الرغبة في الانتاج من أجل هذه الغاية !

وهذا يذكرنا بمشكلة أخرى : ان السلع الأمريكية ، خصوصا الثقيلة منها ، أصبحت أسعارها عالية بالنسبة للعالم الخارجى إلى درجة هائلة . والواقع ان السعر الآن أهم من الكمية . فلا قيمة لهذا الانتاج اذا ارتفعت أسعاره إلى درجة جعلت الآخرين عاجزين عن شرائه . اذن : فمجرد زيادة الانتاج للاحتفاظ بالتفوق على

السوفيت لا قيمة له . ان الزيادة لن تذهب الى المحتاجين لها . ولن تزيد من قوة أمريكا العسكرية أو الاقتصادية . ولن يكون لها أثر الا في تحويل أنظار الأمريكان الى أشياء أقل أهمية .
اذن فماذا ؟

يستطرد الدكتور جالبريث قائلا :
لكي تفهم أمريكا طبيعة المنافسة بينها وبين الاتحاد السوفيتي ، يجب أن تنظر أولا الى الاقمار الصناعية والسفر الى الفضاء .

لنترك جانب العنصر العسكري ، اذ ليست له قيمة كبيرة . ان هذه الاقمار قد زادت من سمعة الاتحاد السوفيتي ونفوذه وهيبته الى حد كبير . ذلك انه غير الفكرة العالمية القديمة التي كانت تفترض دائما ان كل اختراع انما يأتي من أمريكا أولا . وان التفوق العلمي الأمريكي لا غالب له . والعلم اليوم ليس شيئا نظريا . انه مرتبط تماما ، لا بالقوة العسكرية وحدها ، ولكن بالطعام والصحة والتقدم في كل ميدان . فالسوفيت قد حققوا تفوقا في ناحية من نواحي العلم لا نظير لقوتها (الاعلانية) والدعائية !

التفوق في السفر الى الفضاء اثبت ان المجتمع السوفيتي يتمتع بنشاط وحيوية ذهنية وثقافية ضخمة . وهذا هو ما ترك اثره في العالم كله ، وفي أمريكا نفسها أيضا . وقد كان السوفيت بارعين ، اذ لم يركزوا دعايتهم على الاهمية العسكرية لهذا التفوق ، لأن هذا كان كفيلا أن يقلل من صورة التفوق العلمي في حد ذاته ، وهي الأكثر أهمية . لقد أراد السوفيت أن يؤثر في العالم ، لا أن يخيفوه !

اذا اخذنا هذا النموذج السوفيتي فلا بد من القول

ان التنافس مجاله في الميادين التي تدل على مدى قوة النظام الاجتماعي وسلامته وحيويته . فهو أيضا ليس تنافسا علميا ضيقا . ان كل ما يثبت كفاءة المجتمع هام في هذه المنافسة . المجتمع الذي سيثبت انه يتمتع بأكبر درجة من نقط القوة والحيوية وأقل درجة من نقط الضعف . . هذا المجتمع هو الذي سينال أكبر احترام ، وبالتالي أكبر تأييد ، أي سينال فرصة أكبر للاستمرار . هذا هو جوهر التنافس بين البلدين الآن !

وفي أمريكا ينتشر وهم غريب يقول ان المجتمع الذي يؤمن بالاقتصاد الحر سوف يحقق كل شيء ويتفوق دون أي توجيه أو تدخل . وهذا معناه الا تهتم أمريكا بمنافسة الاتحاد السوفيتي . تمسكا منها بمبدأ الحرية الاقتصادية ! وهذه نظرية لا ترجمة لها الا « يجب أن نفشل » لأن النجاح يتعارض مع عقيدتنا ! « ذلك انه لا مفر من مواجهة الحقيقة وهي : ان كل ما تتطلبه المنافسة ، ينطوي على مزيد من « القيادة الحكومية » . ليس هناك أي حل آخر !

ويقول الدكتور جالبريث :

بعض الناس يرددون هذه الايام بكثرة ان الانسان تقل قيمته بينما تزداد قيمة الآلات ! فالأوتوماشين في المصانع ، والرقابة الالكترونية عليه ، سوف يجعل الصناعة تقوم على الآلة لا على الانسان . وحتى في مجال الحرب ، الصواريخ الموجهة أصبحت أدق وأجدي من الطائرة التي يقودها انسان ويتعب نفسه في القاء القنابل على الهدف ، والصواريخ الموجهة سوف تقابلها في القريب صواريخ مضادة تقابلها في الفضاء وتفجرها في الهواء . . وهذا قمة انتصار الآلة على الانسان . .

والواقع ان العكس تماما هو الصحيح . ولم يحدث

أن ارتفعت قيمة الإنسان كما ترتفع الآن !

أول مظهر يدل على ذلك هو أن الإنسان صاحب الخبرة ترتفع قيمته ، في حين أن الإنسان صاحب المال تهبط قيمته . أن من يملك الخبرة يستطيع أن يكسب بها المال . أما من يكسب المال وتنقصه الخبرة ، فهو لا يمكن أن يصنع شيئاً . وأغلب الظن أنه سيفقد أمواله . فهو حتى لكى يتبرع بأمواله لشئ منتج سوف يحتاج للذهاب الى خبير !

في أمريكا كانت أغلب المؤسسات الكبرى يديرها أصحابها . . الآن لا نجد بين من يديرون المؤسسات الكبرى إلا القليلين جداً من أصحابها . القوة الآن هي قوة المديرين . المديرون الآن يرشحون مجلس الإدارة الذى ينتخبه المساهمون . ومجلس الإدارة بعد ذلك يعين المديرين الذين رشحوه . الرجال الأقل ثروة ، استولوا الآن على السلطة فى مجال الصناعة لأنهم أكثر ثقافة وأكثر دراية بعملهم وأطول خبرة . وكثير جداً من الشركات التى أصابها الدمار ، كان سبب دمارها أن أصحابها حاولوا الاحتفاظ بالسلطة فى أيديهم وتقليل سلطة المديرين والخبراء . فى الفترة بين سنتى ١٩٣١ و ١٩٤٠ كادت مؤسسات فورد تفلس الآن هنرى فورد الكبير ، مؤسسها ، أصر على أن يحتفظ بالسلطة فى يده . فلما مات ، أسرع خلفاؤه الى تحويل السلطة الى أيدي المديرين والخبراء ، فأُنقذت مؤسسات فورد وعادت الى النجاح . أن اصرار الرأسمالى على أن يدير أمواله بنفسه أصبح مصدراً لكثير من الكوارث .

وارتفاع قيمة الإنسان فوق قيمة المادة والآلة يظهر على جميع المستويات وليس على هذا المستوى فقط . . ومع ذلك . . فإن أمريكا لا تهتم بالإنسان الاهتمام

الكافي في وجه المنافسة المتزايدة . . أى أنها لا تهتم
بالتعليم الاهتمام الكافي . . .

ان أى أسرة أمريكية تستطيع أن تحصل على سيارة
في خمس دقائق . ولكنها لا تستطيع أن تجد مكانا
لأبنائها في المعاهد المناسبة بسهولة . بل لعل مدير مصنع
السيارات نفسه ليس واثقا من أنه سيجد لابنه المعهد
المناسب !

والتقدم الصناعى الآن — كما قلنا — مرهون بالتقدم
العلمى التكنيكى ، لزيادة كمية الخامات والأيدى العاملة
فقط . ومراجعة النمو الصناعى الأمريكى نفسه تدل
على أن التقدم العلمى ساهم فيه بدرجة أكثر مما ساهمت
فيه زيادة الخامات أو الأيدى العاملة .

ولكن الابتكار العلمى والاتقان التكنيكى هما من انتاج
الانسان ولا يمكن أن يكونا من انتاج الآلات . التقدم
العلمى هو نتيجة عمل الانسان المتقدم والاختراع كما
هو معروف الآن لم يعد كما كان قديما رهن صدفة أو
الهام عبقرى يهبط على أحد المخترعين . كلا . الاختراع
الآن أصبح وليد التعليم والتنظيم فى المعامل ومراكز
الأبحاث . المنطق العلمى والتنظيمى والتجريبى هو الآن
الأشياء التى تخلق الاختراع .

التقدم الصناعى يقوم على تحسين الآلات . وتحسين
الآلات لا يتم الا عن طريق تحسين الانسان نفسه . اننا
نكسب من الانسان المتقدم أكثر كثيرا مما ننفق عليه .

ان الانفاق على الانسان الآن وعلى تعليمه وتدريبه
أصبح أهم لسلامة أى مجتمع من الانفاق على السلاح !

وهذا لن يتم الا بأموال عامة ، وبكمية كافية . وأموال
عامة معناها أموال الدولة . . أموال الحكومة الاتحادية
لأحکومات الولايات . ولا يصح أن يخجل أحد المتحورين

بعد الآن من الدعوة الى هذا !
والدكتور جالبريث من هواة الفن ، وفن الرسم
بالذات .. وقد ألقى محاضرة عن هذا الموضوع قال
فيها :

من أهم الأشياء التي جنى عليها الاسراف في التنافس
التجاري ، الفن ، والفنان ...
فهناك دائما صراع بين نزعتين : نزعة تحسين الانتاج ،
ونزعة زيادة المبيعات .

ان ذوق اغلبية الناس ليس دائما الذوق الاحسن
وليس دائما الذوق الأكثر تقدما . ان الفنان عادة قائد
لذوق الجماهير . ولكن المصنع الذي ينتج سلعة للناس
يهمه طبعاً ان ينتج ما يأخذه الناس بسرعة . فهو
لا يحاول ان يصنع ما هو أجمل . انما هو يتحرى :
ما هو الذي يعتبره الجمهور جميلاً .. ثم ينتجه له ،
ليبيعه في نطاق أوسع بدرجة أسرع . حتى ولو كان
هذا المطلوب تافهاً أو قبيحاً ..

ولكن الصناعة ، فيما اعتقد ، بدأت تعاني حتى
من هذا . ان الذوق ليس شيئاً ثابتاً . انه شيء متغير .
والتغير في الذوق يبدأ بين ذوى الحاسة الفنية المتفوقة ،
ثم يبدأ في الانتشار ، عن طريق الاقتناع والقدرة والتقليد .
والصناعات عندما عزلت نفسها عن الفن ، واستبدلت
به « دراسة السوق » ، انما عزلت نفسها عن الحاسة
التي تسبق الى التذوق . وهكذا بدلاً من ان تتقدم
الى الامام درجة ، تراجعت درجة الى الوراء .

ومن نتائج هذا الوضع ، ما تراه من ازدياد وصعوبة
تصدير السلع الامريكية الى الخارج وازدياد استيراد
السلع الاجنبية الى أمريكا . ذلك ان الصناعة هبطت
من حيث لا تشعر عن مستوى ذوق الشعب الامريكي .

نرى هذا في مصنوعات الاثاث والزجاج والخزف والجلد،
حيث هجر الأمريكي صناعته الى المستحضرات الايطالية
والفرنسية والسويدية .

ان البلد الفقير لا يتمنى أكثر من أن يصنع السلعة
التي يستعملها . أما البلد الفنى فيجب أن يطلب شيئاً
أكثر من هذا : يطلب الجمال أيضاً ! فى البداية يكون
« الميكانيكى » هو المهم وعندما يتوفر الميكانيكى ...
يأتى دور الفنان !

ثم انظروا الى المباني والمدن فى أمريكا . ان منطق
المنافسة التجارية يسىء اليها . تصوروا مثلاً ميدان
سان مارك فى ايطاليا لو امتلأ باعلانات الكوكاكولا وشركات
اسو وتكساكو وهوارد جونسون « محلات جيلاتى
وسندويتشات منتشرة فى كل أنحاء الولايات المتحدة » !
ان هذا يحدث فى المدن الأمريكية . فإذا اعترض واحد
قالوا له انه رجل غير عملى ، وانه ينتقص من النظام
الذى صنع لأمريكا كل هذا الرخاء !

ان الاعلان يقوم على لفت النظر . والشئ يلفت النظر
حين يتعارض مع ما حوله ويشذ عنه . . وتصوروا
ما يحدث من اجتماع عشرات الاشياء المتعارضة ، غير
المنسجمة ، بل التى تعتمد عدم الانسجام !

ان المجتمع فى أمريكا مازال أقل تقبلاً لفكرة التخطيط ،
من أجل ايجاد التناسق بين الفنان والوسط المحيط
به . اننا نقبل تحطيم الجمال اذا كان يبيع أكثر . الذين
يفسدون جمال المدن ما زالوا يقولون انهم انما يخدمون
الغاية العليا للمجتمع !

ان رجل الاعمال الأمريكى ، كما استطاع ان يوفق
بين مصلحته وبين ضرورات العلم . . أصبح عليه ان يوفق
بين مصلحته وبين ضرورات الفن !

ويستطرد جالبريث فيقول : ان التقدم العلمى والصناعى ليس وحده الدليل على تقدم المجتمع ! ان التقدم الفنى والثقافى هام أيضا . ان المثقفين ما زالوا هم الذين يقولون الكلمة الأخيرة عن مدى تقدم هذا المجتمع أو ذاك !

وينتقد جالبريث ، بهذه المناسبة ، البرنامج الذى وضعته أمريكا لزيارة خروشوف مثلا : « لقد جعلوه يقابل الساسة ورجال المال والصناعة فقط . وبعض من رآهم لا يمثلون الشعب الأمريكى مطلقا . لقد جعلوه يرى المصانع الضخمة وكيزان الدرة الهائلة ولكنهم لم يرتبوا له أى مقابلة مع فنانيين أو كتاب . لم يضعوا فى برنامجهم زيارة متحف الفن الحديث أو متحف جوجنهايم » من أعظم وأحدث متاحف العالم . لم يهيئوا له أن يرى آرثر ميلر ، أو تينيسى وليامز ، أو غيرهما من الكتاب المبدعين . لم ير أى مكتبة ضخمة ولا أى جامعة كبرى .

ويقول جالبريث : لأعرف اذا كان هذا يهم خروشوف أو لا . ولكن حذف أمريكا لهذه الاشياء من برنامج الزيارة له معنى عميق . معناه ان القائمين على مثل هذا لا يعرفون ان هذه اشياء عظيمة . لها اكبر الاثر فى كسب احترام الآخرين !

قصة فاطمة

« فاطمة » هو الاسم الذي تعود الفرنسيون أن يرمزوا به للمرأة الجزائرية ، فالكاتب الفرنسي اذا قال « الفاطمات Les Fatmas » فهو يعنى : الجزائريات .

ومن الوهلة الاولى ، يندهش الزائر في الجزائر لانتشار الحجاب و « الحايك » الى هذا الحد . الحجاب هو مثلث من القماش الابيض المطرز في نهايته ، يغطى الوجه ، و « الحايك » هو الاسم المحلى للملاء البيضاء الواسعة التى تلتف المرأة المتحجبة بها . .

يندهش الزائر لانتشار الحجاب و « الحايك » في مجتمع قريب من أوروبا الى هذا الحد . وممتزج بالاوروبيين على هذا النطاق . في مجتمع خاض غمار ثورة تقدمية لا نظير لها ، اشتهرت خلالها البطلات جنبا الى جنب الابطال . . وذاع صيت « الجميلات » أو بالاحرى « الفاطمات » اللاتى يفجرن القنابل ، ويحملن المدافع الرشاشة ويصمدن للتعذيب الوحشى في أعماق السجون .

فكيف صمد هذا الحجاب الحريرى الرقيق في وجه كل هذه الاحداث . . . ؟

من حديثي مع الجزائريين والجزائريات ، ومن قراءتي لسكتاب بديع أسسمه « الثورة الجزائرية في هامها

الخامس « للمرحوم المناضل الدكتور فرانز فانون ،
خرجت بالإجابات التي أسجلها في هذا المقال ..

منذ سنة ١٩٣٠ تقريبا ، بدأت معركة الاستعمار
الفرنسي ضد الحجاب .

ولم تكن معركة بريثة تستهدف تحرير المرأة وتطويرها
بدليل عدم اهتمام الاستعمار بتحرير الرجل أو تطويره .
بل بدليل اهتمام الاستعمار بعدم تحرير الرجل وعدم
تطويره .

ولكن الفرنسيين كانوا قد وجدوا أن القضاء على
الحجاب هو خطوة هامة للقضاء على « شخصية »
الشعب الجزائري ، بوصفه رمزا يدل على شخصية
المرأة الجزائرية وموقفها وحالتها الاجتماعية . ولاحظوا
مرة أخرى أن هدف الاستعمار هناك لم يكن الاستغلال
فقط بل ومحو الشخصية الجزائرية واذابتها في
الشخصية الأوروبية .

ولم يكن هذا قرارا « إداريا » اتخذته الإدارة
الفرنسية ، ولكنه كان قرارا توصل إليه خبراء فرنسا
في العلوم النفسية والاجتماعية والسياسية .. وقد
صاغوا قرارهم هذا في عبارة شهيرة هي : « اكسبوا
النساء أولا ، والبقية تتلو » .

وذلك أن خبراءهم قالوا لهم : أن المجتمع العربي
بوجه عام إذا كانت تسوده في الظاهر سلطة الأب ، فإن
الذي يؤثر فيه ويوجهه - في الخفاء وخلف الحجب
والأستار - سلطة الأم والخالة ، والجدة المعجوز .

وبناء على ذلك فما على فرنسا إلا أن « تفزو النساء
أولا ، وبذلك تكسب عنصر المقاومة والعزلة والمقاطعة في
المجتمع الجزائري » . على فرنسا أن « تفتش عن المرأة
الجزائرية ، خلف حجابها ، وحيث يخفيها الرجل » .

ثم ان هذا سوف يكسب الادارة الاستعمارية صورة
تقديمه . فهذه الادارة الاستعمارية سوف تدعو الى
« تحرير » المرأة « المظلومة » .. « المضطهدة » ..
« السجينة » خلف حجابها ، وخلف مشربيتها . انها
فرصة ذهبية لوضع الرجل الجزائري في قفص الاتهام .
وايقافه في موقف « الظالم » .. « المتعسف » ..
« المستبد » ..

كذلك فانها فرصة لالقاء تبعة التخلف والتأخر والفقر
والامية ، لا على عاتق الاستعمار والاستغلال الاجنبي
ولكن على عاتق « المجتمع » الجزائري وعلاقاته
الداخلية المتخلفة ..

كان المستعمر يعتقد - بوجه عام - انه كلما قل
« الاختلاف » بين المجتمع الجزائري والمجتمع الاوربي ،
قلت مقاومة المجتمع الاول لسطوة الثاني ، وقلت قدرته
على المقاومة ، والتمنع ، والرغبة في الاحتفاظ بشخصيته
الأصيلة ..

كانت الدعوى الاساسية للاستعمار الفرنسي في
الجزائر هي : انه لا يوجد شيء اسمه شعب جزائري .
ولا يوجد شيء اسمه شخصية جزائرية . ولذلك فقد
كانوا حريصين أولا وقبل كل شيء على تدمير كل ما يمكن
أن يميز هذا المجتمع الجزائري ويذكره بأن له شخصية
مستقلة حتى ولو كان هذا المثلث الرقيق من القماش
الابيض المشفول ..

وبالعكس ، كان المجتمع الجزائري ، كلما اشتدت
ضراوة الهجوم على ملامحه هذه ، لا يفكر الا في أن يزداد
تمسكا بها ، وتأكيذا لاستمرارها ..

وقد بلغ الهجوم الفرنسي على الحجاب درجة وصلت
احيانا الى أن بعض المصنّعين والمؤسسات ذات الادارة

الفرنسية كانت تعتمد الى اقامة حفلات تدعو فيها
الجزائري البسيط الذي يعمل فيها للحضور مع زوجته ،
ويضغط رئيس العمل الفرنسي على مرعوسه الجزائري
« ان المصنع أسرة كبيرة يجب ان تحضر زوجتك وبناتك .
هل هن محجبات ؟ مستحيل . يجب ! » ويتأزم الرجل
الجزائري . هل يحضرها الى الحفلة ، وبذلك يكون قد
خضع لمشيئة الفرنسي . . وفيما يتعلق بزوجه بالذات .
أم يقول له : « زوجتي لن تنزع الحجاب » ، ويفقد
عمله ؟ . . نعم . فقد كان أحيانا يفقد عمله لهذا السبب .
وكان هذا الاصرار الفرنسي كافياً لأن يقنع الجزائري -
والجزائرية - ان نزع الحجاب عمل مشبوه . .

أما بالنسبة للجزائري المثقف ، فالحملة أشبه .
فالفرنسي كان يعرف جيداً ان الجزائري المثقف لا يؤمن
بالحجاب كحقيقة اجتماعية ، ولا يوافق من حيث المبدأ
على استمراره ، ولذلك فلا تفسير لموقف هذا الجزائري
حين يصر على بقاء زوجته محجبة الا انه رجل « وطني »
متعصب وانه في باطنه شديد الكراهية للاستعمار ، لأنه
يحتفظ بالحجاب لأسباب وطنية عارية .

فاذا تركنا الاوروبي المشترك عامداً في هذه الحملة
على الحجاب ، وحاولنا أن نعرف موقف الاوروبي العادي
منه . . فسوف نجده غريباً بدوره . فالمحامى أو الطبيب
الاوروبي الذي يرى - بحكم مهنته - بضع جزائريات
سافرات ، لا يمل من التعجب أمام مجتمعه من هؤلاء
الناس . ان المجتمع الاوروبي حين يمتلك جمالا أو اثقانا
من صنع الطبيعة ، يعتمد الى اظهاره وإبرازه ، والتباهي
به . . فكيف يفسر موقف هذا الشعب العكسي ، واخفائه
لما يتمتع به من جمال ، خلف هذا الستار الكثيف من
التحجب والسكران . .

أو يكون رد الفعل ، على العكس ، معاديا يشير في
الاوروبي الفيظ والحفيظة والرغبة في الاعتداء : يجب
نزع حجاب هذه المرأة ، يجب تعرية سرها وتحطيم
مقاومتها ، وجعلها مجالا للمغامرة . أن اخفاء الوجه
لا معنى له إلا اخفاء سر ، واقامة عالم مصمم على أن
يظل رافضا منفصلا .

هذه المرأة التي ترى المستعمر دون أن يراها ، تثير
أعصابه . ليس في هذا الوضع أى مساواة . انها
لا تستسلم ، لا تهادن ، لا تعطى .
والاستعمار الفرنسى ، ودخول جنوده الى القرى
الجزائرية ، اقترن منذ بدايته الاولى بالاعتداء على
النساء ، مما جعل لهذا التشبث بالعباءة والحجاب
سببا تاريخيا خاصا . .

ولهذا ظلت امكانيات اللقاء بين الجزائرية والاوروبى
- على المستوى الفردى - نادرة الى أقصى الحدود .
ولهذا فالاوروبى كان اذا ساورته أحلام يقظة عن المرأة
الجزائرية ، لم يخطر له قط أى حلم عن لقاء فردى ،
عادى مع جزائرية ، كلقائه مع الاوروبية . لقاء فيه
تدرج ، وتطور ، ومعرفة . كلا كانت أحلامه عن الجزائرية
يعرف انها لن تتحقق الا بدرجة عالية من العنف ،
والقسوة ، فلا أسلوب هناك يوصله الى هذا اللقاء الا
الاغتصاب .

ازاء كل هذا الموقف الاوروبى المريض المعقد ، الفاسد ،
الشاذ . . وازاء التاريخ الطويل ، وازاء الاغتصاب
والانتهاك والتدمير ، وازاء الرغبة فى محو الشخصية
الجزائرية محوا نهائيا . . ازاء هذا كله . . اكتسبت هذه
الرموز الميتة . . الحجاب والحايك . . حياة جديدة ،
واصبح لها مغزى جديد . .

أزاء تركيز الاستعمار ضد الحجاب عمد الوطنيون
الى تقديس الحجاب .

أزاء محاولة الاستعمار نزع الحجاب كدليل على
« التعايش السلمى » بين المجتمعين الاوروبى والجزائرى ،
احتفظ الجزائريون بالحجاب كدليل على المقاومة السلبية
للمجتمع الاوروبى .

وهكذا .. بعد ان كان الحجاب شيئا يعبر عن موقف
المرأة من الرجل .. أصبح رمزا على موقفها - بل وموقف
أسرتها - من الاحتلال .

فى هذا الجو النفسى والسياسى معا ، انفجرت الثورة
التحريرية الخالدة ، يوم اول نوفمبر سنة ١٩٥٤ .
ثورة قومية ، فهى بالتالى تحافظ على مقومات
الشعب ، وتنمى شخصيته ، وتعزز بكل ما له من
تراث ..

وثورة تقدمية ، فهى بالتالى تعرف ان الحجاب
منقرض .. والعبادة منقرضة .. وان التطور لابد آخذ
طريقه ..

فماذا حدث ؟

حتى سنة ١٩٥٥ كانت الثورة الجزائرية ثورة الرجل
فقط . فالطابع الثورى الفدائى لهذه الثورة فى أيامها
الاولى ، والحاجة الى السرية المطلقة ، جعلت المناضل
يخفى عن زوجته - تماما - العمل الخطير الذى يشترك
فيه . ولكن تطور الثورة أدى الى تطور أشكال الارهاب
الفرنسى وبالتالي أصبحت الحاجة ماسية الى تطوير
أساليب النضال ذاتها . لم يعد هناك بد أزاء تثبيت
العدو ووحشيته من الحرب الشاملة ، الحرب التى
لا تستثنى أى عنصر أساسى من عناصر الأمة .. وهكذا
برزت ضرورة اشراك المرأة الجزائرية فى المعركة . ولم
يكن هذا القرار سهلا .

كان لابد من تحقيق هدفين : الاول اشراك المرأة في المعركة . والثاني هو الاحتفاظ للمعركة بمستواها العالي من الاستعداد للتضحية والفداء وتحمل كل آلام الكفاح الهائل . اى ان المرأة سيكون عليها أن تقدم نفس ما يقدمه الرجل من تضحيات .
كيف ؟ ..

كيف تواجه المرأة الجزائرية المستعمر ، وتتصدى له ، وهى التى تربت - كما رأينا - على أن تتجنبه ؟
المرأة التى تعودت الحجاب ، وجدار البيت ، وأمان العزلة .. كيف تتحمل مواجهة السفور ، والطريق المزدحم ، والخطر المتربص ، والمكائد ، والطلقات القاتلة ، بهذه السرعة ؟

وقد رأى رجال الثورة وحشية المستعمر .. اذ مروا جميعا بسجونهم ، وممسكرات اعتقاله ، وغرف التعذيب فيها .. ولن يتردد المستعمر في ارتكاب نفس الوحشية مع النساء .. المرأة التى تقع سوف تعذب بالتأكيد حتى الموت ، كالرجل تماما .

الا يمكن أن يكون قرار ادخالها المعركة ذا أثر قاتل على الثورة ذاتها ؟ ..

ان المرأة الجزائرية لم تدرب على القتال كالرجل . لم يسبق لها مواجهة الموت في صفوف الجيش الفرنسى كبعض المناضلين . لم تفكر قط في العمل السرى . بل انها لم تقرأ قصص البطولة في الروايات ولم تشاهدها في السينما حتى يقال انها اندفعت وراء الخيال .. لا شيء من هذا قط . ومع ذلك فقد فوجئ العالم بهذه المرأة تخرج دون اى سابقة ، وفي طيات ثيابها قنابل يدوية ، أو رسالة سرية ، تواجه أقسى تجربة : تجربة المتأمر الوحيد ، في الشارع الصاخب المزدحم ، الذى

يعج بالجنود ، وبنظرات الأعداء الفاحصة .. أقسى تجربة يمكن أن تتعرض لها الأعصاب .
ان الثورة - في تطورها - تحتاج الى مهمات جماعية كثيرة غير القتال في ساحات القتال . جمع الأموال ، التدريب ، التجسس ومقاومة التجسس ، نشر الوعي السياسى ، تكوين التشكيلات السرية الواسعة ، اعداد ثلاث خلايا بمثابة احتياطي لكل خلية تناضل فعلا ، لتحل محلها اذا ضربت أو انكشفت .. كل هذا أجبر رجال الثورة على البحث عن عنصر جديد يقوم بالمهمات ذات الطابع الفردى . وهكذا تقرر ، بعد تردد طويل ، أن تدخل المرأة ساحة النضال والشرف .

وفي البدء تقرر ألا يشترك في التنظيمات السرية الا النساء المتزوجات من مناضلين . ثم أدى اتساع الثورة الى اشراك الأراامل والمطلقات . ثم كل النساء دون الفتيات . لأن البنت الجزائرية التى لم تتزوج قلما يكون قد سبق لها الخروج الى الشارع على الاطلاق . ولكن الفتيات بدأن يتطوعن بكثرة ، ويثرن اذا رفض تطوعهن . ويروى شهود العيان أن البنات الصغيرات في ذلك الوقت كن يجتمعن ويقسمن أن لايتزوجن الا اذا كان العريس عضوا في جبهة التحرير! .. وهكذا اتسعت الثورة فشملت كل نساء الجزائر ، دون قيد ، كما شملت من قبل كل رجالها .

وفي البدء ، كانت المرأة المناضلة تقوم بمهمة ضابطة اتصال بين خلايا أو ناقلة لرسائل ومعلومات ، أو حاملة لمتفجرات أو بطاقات شخصية مزورة بالمئات ، أو أموال الثورة بالآلاف ، أو تقوم بمهمة السير في الطريق بضع عشرات من الامتار أمام مناضل رئيسى أو فرقة من المناضلين لتسرع بتحذيرهم اذا اكتشفت حركة غير عادية

أو كمينا معدا .. كانت المرأة تقوم بكل هذا وهي مازالت في حجابها وعباءتها التقليديتين .. ولكن ضراوة المعركة كسرت كل قيد .. لم يعد حي « القصبة » حصنا طبيعيا للنساء . لقد اقتحم الغزاة حي القصبة كما أصبح على المناضلين أن يقتحموا أحياء الغزاة ..

ان الأوروبيين والجزائريين لا يعيشون مختلطين . ولكن كلا من الفريقين له أحياء خاصة به تماما . وعلى ذلك فالمرأة التي تؤدي مهمة في حي أوروبي ، إذا لبست عباءة أو حجابا فسوف تلفت الانظار .. وسوف تسقط في الحال .. لا بد لها أن تسير في الزحام كما تسير الأوروبيات ، حتى لا يعرف حقيقتها أحد . لا بد إذن أن تخلع الحجاب والعباءة ، خصوصا إذا كانت شقراء حتى يحسبوها فرنسية عابرة .

لم تكن المرأة الجزائرية تعبر الأحياء الأوروبية قبل الثورة قط إلا لضرورة ماسة كالذهاب إلى المقابر في أقصى المدينة إذا مات أحد ، ويومها تعبر الحي الأوروبي في سيارة ، وفي الصباح الباكر جدا على الأغلب ، لأنها تعبر أرضا حراما ، تخشاها . فالآن عليها أن تخلع حجابها وتقتحمها وحيدة ، متخفية ، في طيات ثيابها حيثيات عذابها وموتها ...

وفي بعض الأحيان ، كان يحدث أن يقع على عاتق امرأة جزائرية لم تعرف القراءة والكتابة قط ، أن تذاكر بضعة أيام متواصلة تعليمات دقيقة معقدة ، حتى تحفظها شفويا عن ظهر قلب ، ثم تخترق بها - في ذاكرتها - الأحياء الأوروبية ، لتصل إلى خلية أخرى في أقصى المدينة تليفها التعليمات المعقدة ، التي قد تؤدي غلطة واحدة فيها إلى ارتباكات خطيرة ، ثم تعود ، حتى لا تحمل ورقة تدينها أو تكشف اتصالاتها ..

وقد يحدث ان يكون على فتاة الا تبتعد كثيرا عن مبنى معين يجتمع في داخله المناضلون حتى تنبههم الى الخطر وعليها أيضا الا تقف ساكنة حتى لا تلفت النظر .. فلا يكون أمامها مفر من ان تمشي على الرصيف على طريقة بائعة الهوى الأوروبية التي تنتظر زبونا يلتقطها، وتشعر في باطنها بالخجل الهائل ، بل الرعب ، وتحتاج مع ذلك الى كل أعصابها لكي تتحاشى الزبائن الذين يظنونها بالفعل بائعة هوى ولكي ترى كل صغيرة وكبيرة تدور في الطريق الساكن أو المزدحم .

وعندما مرت السنوات ، كان كل الجزائريين « الخطرين » في أى مدينة من المدن قد أصبحوا معروفين للبوليس الفرنسي ، فاذا مر واحد منهم في الطريق فتشوه أكثر من مرة . لهذا ابتكرت طريقة أن يسير المناضل الذاهب الى مهمة مسلحة ، دون أن يحمل أى سلاح .. الى مقهى سينسفه بقبيلة مثلا أو مكان يحتشد فيه الجنود الفرنسيون سيطلق عليه مدفعه الرشاش .. أما السلاح فتحملة فتاة جزائرية بريئة ذات مظهر عادى ولا يفكر البوليس في خطرها .. وفي لحظة معينة وفي نقطة قريبة من مكان العمل المسلح ، تسلم الفتاة السلاح للرجل ، الذى يستخدمه خلال لحظات في أداء المهمة . هذه الفتاة تكون أشبه بقائد الاوركسترا . فهي التى تستطلع ، وتقيس الخطر ، وتتصرف . لأن الاستشارة مستحيلة . تتصرف سواء بأن تسلم السلاح للرجال فلا يكون ثمة مجال للتراجع عن المخاطرة ، أو تتصرف بالعودة بسلاحها اذا اكتشفت أن الظروف غير ملائمة .

هكذا وصلت المرأة الجزائرية الى قلب عمليات النضال المسلح ذاتها . وأصبح الكثير من خطط المقاومة يعتمد أساسا عليها . ولم تمض سنوات قليلة حتى خطت المرأة

الجزائرية خطوتها الأخيرة : أصبحت تقوم هى بنفسها بتفجير القنابل بين البوليس الفرنسى ، وضباط الباراشوت ، ومراكز تجمع المستعمرين ، وحتى فى العلاقات الاجتماعية ذاتها ، حدث تغير كبير .

كانت المرأة - الزوجة - تترك بيتها وتسافر فى مهمات بعيدة أياما طويلة ومعنى هذا أن تسافر بمفردها وتبيت فى عربة القطار بين ناس لا تعرفهم ، وتقضى الليالى فى معسكر سرى للجنود . أو يسافر الرجل المناضل ويترك فى البيت مع العائلة رجلا غريبا ومناضلا آخر مختفيا حيث لا يعرف مكانه أحد . ويكون على المرأة وأولادها أن يخفوا سره ويقوموا على طعامه والعناية به حتى يعود الأب . .

علاقات انسانية جديدة ، جديدة تماما على البيت الجزائرى المحجب ، المنفصل ، أحاطتها الثقة والشرف والفداء . . وحررت النفسية الجزائرية تحريرا سليما عميقا . .

ولعل من اللحظات التى لا تنسى ، تلك الايام الاولى لدخول المرأة ساحة النضال . . حين كان الشاس يصادفون فتاة جزائرية يعرفونها تسير سافرة ، دون أن يعرفوا انها فى مهمة . فيتهامسون عن سيرتها وعن تقليدها للفرنسيات . ويصل الهمس الى الأب . وحين يواجهها الأب بغضبه ، يكشف بعد اللحظة الاولى - من عينيهما - أن الأمر ليس أمر سفور . إنما الأمر هو أن ابنته الشابة قد دخلت التنظيم السرى . ويحل محل خوف الأب التقليدى على سمعة ابنته خوف من نوع جديد . . خوف عليها من الموت ، أو من التعذيب الرهيب ، وفى أيام تصبح الأسرة كلها ، بما فيها الأب القديم صاحب الأمر والنهى ، واقفة خلف البنت

الشابة ، كل أعصابها مشدودة إليها ، ويكون التطور الطبيعي : أن تصبح الأسرة كلها أعضاء في التنظيم السرى .. بعد أن دخلته « أضعف » عناصر الأسرة ... هكذا ، فوق موج الأحداث ، دخلت الجزائر كلها ، رجالها ونساؤها وأطفالها ، بوثقة الثورة ، لتصهرها الأحداث ، كما لم تصهر قبلها شعبا عربيا قط !

وأصبح جنود الاستعمار يطاردون الجميع : السافرة والمحجبة .. والجزائرية التي تشبهه الأوروبيات ، والأوروبية التي تشبه الجزائريات .. كان عذاب نساء الجزائر شديدا .. وكان يأس جنود الاستعمار أشد .. وقد كانت « صحوة الموت » بالنسبة للاستعمار الفرنسى فى الجزائر هي : ثورة المستوطنين فى ١٣ مايو .. واسقاط الجمهورية الرابعة فى فرنسا .. واستيلاء ديغول على الحكم ..

يومها فتش الاستعمار فى دفاتره القديمة عن كل سلاح مفلول ، يحاول أن يجربه لآخر مرة . ومن بينها سلاح السفور وتحرير المرأة الجزائرية .. وعقد سوستيل اجتماعات « شعبية » سيق إليها الناس بالقوة . وخطب داعيا الى تحرير المرأة . وتحت ضغط السلاح أكرهت بعض النساء على خلع الحجاب فى حركة مسرحية أمام الجماهير بعد الخطاب .

وكان هذا الحادث كله كائنه كلمة سر . ففى اليوم التالى لم تظهر امرأة جزائرية واحدة فى الطريق سافرة . حتى اللواتى كن قد أسفرن عن وجوههن عدن الى الحجاب .. كأنهن يقلن للمستعمر ان المرأة الجزائرية لا تخلع حجابها بدعوة من المستعمر الفاجر ! ولسكنها تخلعه فى ساحة القتال .. أو فى وطن مستقل حق !

من هم الذين ينجحون في الحياة .. ولماذا ؟

لماذا يتقدم شخص ويتأخر شخص آخر ؟ .. مهن
المحاماة والهندسة والمحاسبة .. هل كل منها له عصر ؟
متى يبرز ذوو الاعصاب الثائرة ومتى يبرز ذوو الاعصاب
الهادئة ؟ .. « المحلل » مهنة من أبرز المهن في هذا
العصر .. فما هي بالضبط ؟ .. كيف حلت عبقرية
« التنظيم السياسي » في العصر العلمي محل عبقرية
« الفصاحة » و « الخطابة » ؟ .. هناك حقائق انسانية ..
تتغير فيها أجزاء وتبقى منها أجزاء ! .. وهذا كتاب
طريف وهام معا .. الترجمة الحرفية لعنوانه هي :
« من يملك ماذا ؟ ومتى ؟ وكيف ؟ »

وهو للمؤلف الأمريكي هارولد لاسويل !
وموضوعه موضوع خالد ، هو : مكان كل فرد في
المجتمع .. على ضوء ثروته .. أو مهارته .. أو الطبقة
الاجتماعية التي ينتمى اليها .. أو مزاجه الشخصي ..
يقول المؤلف : ان « صاحب النفوذ » أو « الشخص
القوى » .. هو ذلك الشخص الذي يحصل على اكبر
كمية ممكنة من الاشياء التي يمكن الحصول عليها .
الاشياء التي يمكن ان يحصل عليها الانسان - مادية
ومعنوية - تتركز آخر الأمر في ثلاثة أشياء أساسية هي :
الأهمية ..

والثراء ..

والأمن ! ..

والذين يحصلون على القدر الأكبر من هذه الأشياء هم « النخبة » ..

ولنبداً بعنصر « الأهمية » مثلاً ..

ان توزيع « الأهمية » بين الناس واضح لا يحتاج الى بيان . وهو شيء بديهي ، بل حتمي ، يوجد في كل مجتمع وتحت أى نظام من الكنيسة الكاثوليكية الى الحزب الشيوعى السوفييتى .. والفرق فى درجة التركيز فقط ... أى فى مدى تركيز الأهمية فى أيدي أفراد قليلين أو توزيعها على عدد أكبر نسبياً من الناس الكنيسة الكاثوليكية مثلاً .. على ضخامتها وانتشار رعاياها فى أنحاء العالم .. يرأسها عدد قليل نسبياً . فهناك « بابا » واحد فقط ، يليه ٥٥ كاردينالاً ، ثم ٢٢ مندوباً بابوياً ، ثم ٢٤٥ اسقفاً .

والحزب الشيوعى السوفييتى ، أكبر حزب حاكم فى العالم ، هرم الأهمية فيه ساحق الانحدار ، ينتهى الى قمة شاهقة ، هي المكتب السياسى للحزب ، الذى كان عدد أعضائه عادة لايزيد على تسعة أعضاء ، وفى بلد ذى نظام اجتماعى مختلف ، كالولايات المتحدة الأمريكية ، نجد فى قمة بناء الأهمية فيه رئيساً واحداً للجمهورية ، وتسعة هم أعضاء المحكمة الاتحادية العليا ، ومئات قليلة هم أعضاء الكونجرس بمجلسيه .

فالتدرج الاجتماعى من حيث « الأهمية » اذن واضح .. وهو عادة يتركب فى صورة هرم شديد الانحدار ..

الشيء الثانى الذى يمكن أن يحصل عليه الناس - بعد الأهمية - هو « الأمن » وهو مدى استقرار الفرد

في حياته واطمئنائه الى مصيره ومستقبله ، وعدم تعرضه
للهزات ، ان « الامن » دائما مطلب عميق في نفوس
الناس . . أى شيء يحصلون عليه لا تكون له قيمة ما لم
يكن مستمرا او قابلا للاستمرار .

وهنا نجد ان توزيع « الامن » بين الناس يبدو غريبا
بعض الشيء . فليس اقوى الناس او أغناهم أو أهمهم
هو بالضرورة أكثرهم أمنا .

لقد أجرى المؤلف احصاء بعدد الملوك في العالم خلال
فترة تاريخية معينة فوجد ان عددهم ٤٣٩ ملكا . ظهر
ان ٣٢٪ منهم ماتوا ميتة غير طبيعية . . . في حين ان
نسبة الموت غير الطبيعي بين الناس العاديين البسطاء
اقل من هذا بكثير جدا . . بل ان ٩٪ من البابوات
الكاثوليك - رغم ان أهميتهم دينية لا دنيوية - ماتوا
بالعنف وهي ايضا أعلى من نسبة الموت بالعنف بين
الناس العاديين .

ونسبة توافر الامن للناس - بوجه عام - تختلف
من عصر الى عصر . . حسب حالة الحروب والأوبئة
والمجاعات والاضطرابات الاجتماعية .

الشيء الثالث هو الثراء . . ونحن نعرف جميعا ان
الثراء ليس موزعا بين الناس بالتساوى . واننا في بعض
البلاد قد نجد ١٪ فقط من السكان يملكون ٧٠٪
مثلا من ثروة البلد .

هذا هو التقسيم العام .
ومنه نرى ان صاحب القوة أو صاحب النفوذ هو
الذي يتمتع بقسط أكبر من هذا المزيج الثلاثي :
الاهمية ، والثروة ، والامن .

ولكن حظوظ الناس في الحياة لا تختلف طبقا لاختلاف
هسته القيم فقط . . ولكن هناك أشياء كثيرة يؤدي

توافرها أو عدم توافرها إلى وضع الأفراد في هذا المكان أو ذاك . وإلى تمتع الفرد بقسط كبير أو بسيط من الأهمية والثروة والأمن .

هناك المهارة مثلا . .

المهارة في أى فرع من فروع الحياة .

ولكن ليس كل المهرة سواس . فهناك فروع من الحياة تدفع الماهر فيها إلى الامام بعكس فروع أخرى . والأمر يتوقف أيضا على الظروف التاريخية والاجتماعية . فان الفرع الذى قد يكون مهما في وقت من الاوقات ، كثيرا ما تقل أهميته في وقت آخر .

المهارة في الحرب مثلا ، كانت دائما إحدى المهارات البارزة التى تقود الناس إلى القمة بسرعة . . سواء كانت الحرب في سبيل الله أو الأمة أو الطبقة . ولكن هذا كان يقتضى أن تكون المرحلة مرحلة حروب واصطدام عسكري . فبغير هذا لا يصعد أصحاب المهارة العسكرية إلى القمة ، مهما كانت درجة مهارتهم .

وهناك المهارة في التنظيم السياسى انها تكاد تكون أبرز أنواع المهارة التى تقرر حظ الإنسان من الأهمية على الأقل . ويضرب المؤلف مثلا بالصراع الفذ الذى دار بين ستالين وتروتسكى ، والذى كتب النجاح فيه للأكثر عبقرية في التنظيم والتكتيك السياسى ، وهو ستالين . رغم أن تروتسكى مثلا ، أكثر فصاحة وأنصع بلاغة وأوسع ثقافة من ستالين . فقديمًا كان التقسيم في السياسة يتوقف على المهارة في الخطابة والكتابة والاثارة أما الآن فهو يتوقف على المهارة في التنظيم السياسى ، وفي الفهم المذهبى معا .

وإذا استبعدنا هذه المهن — مهن الحرب والسياسة — ونظرنا إلى مهن الحياة العادية الشائعة . . الطب

والمحاماة ، والهندسة ، والزراعة ، والصناعة ، الى
آخره ، نجد أن المهارة في الحرفة التي يعيش منها الفرد
من أهم العوامل التي تحدد مركزه ووضعه الاجتماعي .
ولكن هذه المهن نفسها تختلف من عصر الى عصر .

ففي بعض العصور .. نلاحظ ان مهنة المحاماة مثلا
تفوق سائر المهن . في بلادنا كانت هي الطريق الأسرع
الى مناصب الحكم والسياسة والاقتصاد والنفوذ من
أى لون ، ذلك ان المحاماة تطلب في المجتمعات التي تطالب
بحريتها . أما في البلاد التي تمر بمراحل البناء مثلا
فإننا نجد أن مهنا أخرى تصبح أنجح في دفع صاحبها
الى المقدمة ..

ولكن رجال الهندسة والزراعة والمحاسبة في نفس
الوقت ، مهما برزوا ومهما نالوا من الثراء أو الأهمية
الا أنهم من النادر جدا أن يصبحوا من « معبودي
الجماهير » .

ومن الاعتبارات الهامة جدا التي تؤثر أثرا حاسما في
تحديد حظوظ الناس : الطبقة الاجتماعية التي يولدون
فيها .. وينتمون اليها ..

ففي بعض العصور والبلاد .. حيث يسود النظام
الارستقراطي والعائلي .. نجد أن أبناء الطبقة
الارستقراطية هم الذين ينالون أكبر قسط من الأشياء
الثلاثة : « الأهمية ، والثراء ، والامن » مهما كانت حرفتهم
أو مهارتهم .. أو عدم حرفتهم وعدم مهارتهم ! ..

في دراسة لهارولد لاسكى .. يقول : انه من بين
السبعين وزيرا الذين تولوا الحكم في بريطانيا من سنة
١٨٠١ الى سنة ١٨٣١ يوجد ٥٢ وزيرا من أبناء النبلاء !
وفي وزراء الفترة بين سنة ١٩٠٦ وسنة ١٩١٦ ،
تساوى عدد أبناء النبلاء بأبناء سائر الطبقات .. أي

أصبح الوزراء أبناء الطبقة الأرستقراطية . ٥ ٪ بعد أن كانوا ٧٥ ٪ « مع ملاحظة قلة عدد أفراد الطبقة الأرستقراطية نفسها » . وبين سنة ١٩١٧ وسنة ١٩٢٤ « بعد الحرب الأولى » هبطت نسبتهم الى ٢٥ ٪ فقط . . وهكذا ! . .

وفي اليابان . . عندما قامت الثورة الصناعية ، لم يمتلك الصناعة أبناء طبقة جديدة . إنما امتلكها أبناء الطبقة الاقطاعية ذاتها التي تملك الارض اذ كانوا مستعدين - بما لديهم من ثراء - لتسلم وامتلاك مصدر الثروة الجديد .

ويمضى المؤلف فى التقسيم والتفتيت الى أبعد من هذا . .

انه ليس الطبقة ولا المهنة ولا المهارة فقط هى التى تحدد حظ الفرد من الأهمية والامن والثراء . . ان المزاج الشخصى أيضا له أثر .

ذلك ان كل مرحلة معينة تحتاج الى مزاج خاص .

فى فترات الهياج والقلبان والسخط مثلا . . يبرز زعماء من ذوى الاعصاب الملتهبة . . زعماء لديهم قدرة التهيج واثارة السخط ورفع درجة الحماسة . . فى حين انه فى فترة ما بين الأزمات أو فترات البناء يبحث الناس عن زعيم هادىء الاعصاب يوحى اليهم بالثقة .

ويضرب المؤلف المثل مرة أخرى بالتاريخ الانجليزى القريب . .

فحين ثارت عاصفة هتلر والحزب ، تخلى « تشمبرلن » التاجر الهادىء الطبع عن مركزه لتشرشل المفامر الحاد المزاج الحماسى النزعة . . وحين انتهت الحرب ، أسقط الشعب تشرشل وأتى بأتلى الهادىء الاعصاب البسارد الطبع للاصلاح والترميم !

وقد رويث غن المؤلف منذ قليل : أن الزراعيين ،
والمهندسين ، والمحاسبين ، وأصحاب المهن المشابهة ،
مهما نالوا من تقدم وبرز ، ليسوا عادة الفئة التي
تكون من « معبودى الجماهير » أى الذين يتمتعون بحب
شعبى عارم لهم .
لماذا ؟ ..

يقول المؤلف ان هناك أناسا مهمتهم التخصص فى
« الأشياء » كالصناعة ، والزراعة ، والطب .. وهناك
أناس مهمتهم التخصص فى « المعانى » التى تملأ أحلام
الجماهير .. كالزعماء السياسيين والكتاب والفنانين .
ان هؤلاء يمثلون « معانى » و « رموزا » فى حياة
الجماهير . لذلك فهم يتمتعون بالحب أو الكراهية ، بالتأييد
الشديد أو العداء الشديد .

فى المجتمعات التى تؤمن بالخرافة نجد أن حملة
« المعانى » و « الرموز » هم الرجال المتخصصون فى
« الطقوس » الدينية . ثم أصبحوا رجال السياسة
والمعبرين عن السياسة والأفكار السياسية سواء كانوا
زعماء أو مفكرين أو فلاسفة . ويذكر المؤلف ان أول
كرسى فى جامعات أمريكا لتدريس العلوم السياسية
أنشئ سنة ١٨١٨ فقط ، وقبل ذلك كانت السياسة
والاقتصاد يدرسان مع الكيمياء فى مادة واحدة ! ..

وهناك مهنة جديدة فى حياة الانسانية ، أصبح
أصحابها يتمتعون بفرصة كبرى للنجاح والتقدم
الاجتماعى .

انها مهنة « المحلل » .. الذى يبرع فى تحليل
العلاقات الاجتماعية من أى ناحية . المحلل السياسى ،
والمحلل الاقتصادى ، والمحلل الاجتماعى

يقول المؤلف : ان « المحلل » فى هذا العصر العلمى

يشغل مكان « المتنبىء » و « المنجم » فى عصر الخرافات .
قيمة كل منهما انه « يقرأ المستقبل » اذا صح التعبير !
اى أن يفرش الطريق أمام اتخاذ القرارات ذات التأثير
المستقبلى ! ..

كان « المتنبىء » أو « المنجم » فى عصر الخرافات
يحظى بأهمية كبيرة .. ولكن « قراءته للمستقبل »
كانت كلها من وحى الخرافة .

أما الآن « فقراءة المستقبل » ، والتنبؤ بالأحداث ،
وبرد الفعل المنتظر .. لكل حادث أو قرار .. تحتاج
الى ثقافة واسعة جدا وعميقة جدا ودراية بالواقع
الاجتماعى وبعثرات الاعتبار الاخيرة ، فالمحلل أو
الخبير فى العلاقات الاجتماعية سواء كانت سياسية أو
اقتصادية أو نفسية يحظى بأهمية كبيرة !

وبعد ..

لقد قلت فى أول المقال .. ان هناك حقائق انسانية
تتغير فيها أجزاء .. وتبقى أجزاء .. !

ومن هذا النوع : تلك الموضوعات التى يطرقها هذا
الكتاب .

ان مكان كل فرد فى المجتمع سىظل دائما موضع
صراع وكفاح ، وموضع حرص كل فرد ونضاله وجهده
.. فبهذا تتقدم الحياة ، بل تستمر .

صحيح ان هناك عوامل يقل أثرها .. كالطبقة
الاجتماعية .. التى يقل أثرها بتحطيم الحواجز الطبقيّة
.. ثم بالقاء الفوارق الطبقيّة . وشيوع الملكية العامة
للعناصر الأساسية المؤثرة فى حياة المجتمع .. ولكن
هناك عوامل ستبقى .. كالميل الشخصى ، والطبيعة
المزاجية والجهد والمهارة .. فبهذا يستمر طعم الحياة
المتجدد ..

الاشتراكية الوطنية وسقوط الرايخ الثالث

من أهم الكتب التي صدرت عن مأساة النازية في ألمانيا كتاب « قيام وسقوط الرايخ الثالث » ، وهو كتاب من ١٢٤٥ صفحة من القطع الكبير ، يروي قصة هتلر والحزب النازي والنظام الاستبدادي الفد الذي فرضه هتلر على شعب ذكى متحضر عريق كالشعب الألماني ، والنهاية التي انتهى اليها هتلر ، ونظامه ، وشعبه ، كنتيجة منطقية لمثل هذا النظام .

وعندما صدر هذا الكتاب سنة ١٩٦١ ، أثار من الضجة والجدل أكثر مما أثاره أى كتاب سياسى آخر فى تلك السنة . وأعنف هذا الجدل كان فى ألمانيا بالذات . فالمؤلف أمريكى . وألمانيا هى موضوع الكتاب . والكتاب لا يجعل النازية جريمة فردية ارتكبها هتلر وأفراد آخرون ، ولكنه يصورها على أنها جريمة جماعية ارتكبتها فئات ومؤسسات وقوى اجتماعية عريقة فى ألمانيا . يضاف الى ذلك ان الكتاب صدر فى وقت اشتد فيه الخلاف بين المعسكر الشيوعى والمعسكر الرأسمالى بسبب ألمانيا بالذات ، وأحس فيه العالم انه اذا كان هناك احتمال لقيام حرب عالمية ثالثة ، فأغلب الظن ان ألمانيا ، للمرة الثالثة ، سوف تكون السبب . لكل هذه الأسباب كان الراى العام الألمانى حساسا جدا وهو يقرأ

هذا الكتاب . وكانت الصحافة الالمانية عنيفة جدا وهى
تهاجمه وتهاجم مؤلفه . والأول مرة نجد السفارات
الالمانية فى أنحاء العالم تطبع نشرات تهاجم فيها الكتاب
ومؤلفه !

ولاشك ان من يقرأ الكتاب ويستخلص منه حكما
بالادانة على الشعب الالماني ، يكون مخطئا . صحيح ان
الشعوب تختلف فى كثير من سماتها وملامحها . ولكن
ليس صحيحا ان هناك شعبا من صفاته الاستبداد وقبول
الظلم وشعبا آخر من صفاته حب الحرية والمساواة .
ان حب الحرية والمساواة صفة غريزية فى كل فرد من
البشر بوصفه انسانا . ولكن الظروف التاريخية
والاجتماعية والاقتصادية هى التى تجعل هذا الشعب
أو ذاك يقع صريع نظام استبدادى ، بل ويتقبله . لو
اننا جردنا أى فرد من كل الظروف التى تصنعه ، وهو
فرض نظرى لا يمكن ان يتحقق فى الحياة الواقعية ، لوجدناه
نفسا جياشة بحب الحرية والمساواة ، تماما كما انه
جسد حى لا يمكن ان تعيش خلاياه دون طعام أو غذاء .
وقد نجد فردا أو شعبا تعود على حياة الجوع والشظف
والحرمان ، ولكننا لا نستنتج من ذلك ان هذا الشعب
يحب الجوع ويستسلم للشظف والحرمان . كذلك فاننا
حين نجد شعبا أو قعته الظروف بين أنياب نظام استبدادى
وحشى لحقبة من الزمن ، يجب ألا نستنتج من هذا انه
شعب من طبيعته ان يقبل الاستبداد ويسلس قياده
للظلم . . .

والذى يؤيد هذا المنطق هو اننا نكاد لا نجد شعبا
واحدا لم يعرف تاريخه ساعات من الانطلاق والحرية ،
وساعات من القهر والظلم .

والتجربة الانسانية العيسة حين تحدث فى بلد من

البلاد ، فهذا البلد في الواقع يفدى سائر البلاد ! ذلك ان فشل التجربة في بلد يجعل البلاد الاخرى تتجنب تكرار النموذج البشع . وهكذا فنحن نلاحظ انه حين كان هتلر في اوج سلطته ، والنازية في قمة نجاحها المظهرى الاول ، لم يكن هناك بلد في العالم يخلو من زعيم يحاول ان يكون « هتلر » ومن حركة تحاول ان تكون حكومة نازية . ولكن انهيار النازية الرهيب في ألمانيا ، والآلام التي صببتها على شعب ألمانيا ، والبشاعات التي كشفت بعد سقوطها ، كل هذا أدى الى اختفاء هذه الحركات النازية من كل أنحاء العالم تلقائيا تقريبا . فكما ان التجربة النافعة تصبح ملكا للانسانية كلها ، كذلك فان التجربة الضارة تصبح عبرة للانسانية كلها ..

وقد يتساءل قارئ : ألم تصبح حكاية هتلر ، والنازية ، والحرب العالمية كلها ، حكاية قديمة ؟ .. ألم يفت أوان الحديث عنها والصراع حولها ؟ ..

ولكننى احب ان أقول للقارئ الذى قد يطرح مثل هذا السؤال : انه لا يوجد سطر في التاريخ يمكن ان يموت . الانسان نفسه في رأي حيوان له تاريخ . الفرق الاساسى بين الانسان والحيوان هو ان السلالة الواحدة من سلالات الحيوان تعيش مليون سنة لايتعلم «جيل» فيها من «جيل» ! .. الفأر يتم اصطياده اليوم بنفس الطريقة التي كان يصطاد بها مندمثات أوآلاف السنين : مصيدة وقطعة خبز ! .. أما الانسان فبالعكس : انه يعرف التاريخ ، ولذلك فهو يتعلم ويتقدم .

على أن لقضية هتلر والنازية أهمية خاصة . ان النازية ليست الا « اقتراحا » من الاقتراحات لحل المتناقضات الاجتماعية التي عرفتها الحضارة الحديثة . ان حضارة الآلة والصناعة الضخمة والعلم الذى يتقدم

بسرعة قد صادفت ، غيرها من الحضارات ، مشاكل اجتماعية جسيمة ، وكالعادة ، تجرب الإنسانية حلولاً كثيرة لاجتياز هذه المشاكل ، حتى تستقر على حل أو على عدة حلول ، والنازية محاولة فاشلة . انها مصل قاتل . ولهذا يجب أن نعرفه . ألسنا نجد أن الصراع العالمى الضارى الذى نعاصره الآن ، يحتدم أكثر ما يحتدم بسبب الخلاف بين المذاهب والنظريات والنظم . . أى بسبب الخلاف بين «الحلول» المقترحة لمشاكل الحضارة الحديثة والعلاقات الإنسانية المتغيرة ؟ . .

ومؤلف الكتاب « وليم شيرر » ، من الصحفيين الأمريكيين الذين اشتهروا بمؤلفاتهم السياسية والروائية . وقد عاش أخصب فترات حياته مراسلاً صحفياً فى ألمانيا . فرأى رأى العين النازية وهى تولد ، وعرف الأفاقين والمغامرين وهم يقفزون الى مراكز السلطة ويديرون تاريخ العالم كله فى اتجاه الحرب . كما انه عاش المراحل الاولى من الحرب فى ألمانيا وخلف قواتها الزاحفة . وقد كان على بعد أمتار قليلة من هتلر وهو يرقص طرباً على أرض فرنسا ، ساعة كانت جيوشه تمزق آخر معاقل المقاومة الفرنسية وتطرق أبواب باريس .

وكما رأى المؤلف اقطاب النازية وهم مغامرون فقراء منبوذون فى حانات ميونيخ ، ثم قادة وحكاما ترتجف الدنيا أمام كلماتهم ، وآهم فى آخر القصة ذابلين شاحبين فى قفص الاتهام خلال محاكمات نورمبرج قبل أن تحملهم أعواد المشانق . .

وليست هذه هى العناصر الوحيدة لدراية المؤلف وليم شيرر بالموضوع الذى يتعرض له . فقد حدث فى نهاية الحرب أن كل وثائق العصر النازى وقعت فى أيدي القوات الأمريكية التى دخلت ألمانيا . . من المذكرات

الرسمية والخطط العسكرية التفصيلية خلال شتى مراحل الحكم النازى والحرب .. الى المذكرات و «المفكرات» الخاصة بزعماء وأقطاب مثل جوبلز وزير الدعاية والساعد الايمن لهتلر ، وبقيادة كبار مثل «هالدر» رئيس هيئة أركان حرب الجيش الالمانى خلال الحرب ..

وقد كان من حظ وليم شيرر أن يقع على هذا الكنز الذى لا يحلم بمثله مؤرخ .. ومن هذه الثروة التى لا نظير لها ، الى جانب المعرفة الشخصية التى ظفر بها ، يستمد المادة الغزيرة لكتابه الضخم ..

وأول حقيقة تبرز من ثنايا الكتاب ، وتلخص لنا الكثير مما فيه ومما فى العصر النازى ، هى ان النازية تدخل فى بند ما يسميه المؤرخون السياسيون بالثورة المضادة .

فالثورة هى التى تحطم الاشكال الاجتماعية القديمة لتحل محلها أشكالا اجتماعية أرقى .. والثورة المضادة هى التى تتوخى — على العكس — الرجوع الى الاشكال الاجتماعية القديمة أو تدعيمها ولو انطوت على تغيير مظهرى .

وقد اضطر المؤرخون السياسيون الى استخدام هذين التعبيرين — تعبير «الثورة» وتعبير «الثورة المضادة» — حتى لا يضل الناس فى فهم أحداث التاريخ . لأن بين الثورة والثورة المضادة شبيها ظاهريا خادعا ، كلاهما عمل عنيف يستولى على السلطة ويقلب الحكومة القائمة ويحطم ويدمر . ولكن «الحكومة» بالمعنى الإدارى والرسمى ليست هى القوى الحقيقية للمجتمع . فالانقلاب على الحكومة قد يكون غرضه الانقلاب على ما تحميه الحكومة ، فهو هنا ثورة . ولكن قد يكون غرضه عزل الحكومة بسبب عجزها مثلا عن حماية القوى التى تمثلها ، فالانقلاب هنا غايته

توفير حماية أحسن للنظام القديم ، فهو «ثورة مضادة»
والمؤلف لم «يفلسف» حركة هتلر على هذا النحو.
ولكننى مع ذلك لا أتجنى على المؤلف حين أستخلص هذه
الحقيقة الأولى . فالوقائع والمعلومات التى يرويها المؤلف
هى التى تؤدى الى هذا الاستخلاص ..

يروى المؤلف فى أكثر من موضع أن هتلر كان يقول
دائما ، قبل أن يستولى على الحكم ، أن تكتيكه للوصول
الى الحكم يقوم على أساس واحد هو : أن يكون صديقا
لكل القوى العريقة فى البلاد ، وهى : الجيش ،
وأصحاب القوة الاقتصادية ، والكنيسة ! ..

وقد كانت ألمانيا فى تلك السنوات تضطرم بالحركات،
الساخطة على هذه القوى .. الحركات الساخطة على
الجيش ، بضباطه البروسيين الذين يكونون طبقة
اجتماعية خطيرة والذين يقودون البلاد الى حروب متوالية
ويكرسون اقتصادها بل وحتى ثقافتها للحرب ، مقابل
المزايا الاجتماعية الضخمة التى يتمتعون بها. وأصحاب
الثروات الكبيرة ، سواء كانت أقطاعات شاسعة معفاة
من الضرائب تقريبا أو صناعات هائلة . وأخيرا الكنيسة
التي تبرر التفرقة الاجتماعية وتحمى الامتيازات الطبقية
وتدافع عنها ..

ولكن هتلر كان يتوخى أن يصل الى السلطة بوافق
تام مع هذه القوى القديمة . متعهدا لها بحماية كل
امتيازاتها . فهو فى الواقع حين قاد «انقلابه» لم يكن
ينقلب على القوى الاجتماعية القديمة . إنما كان يعرض
عليها قيادة أقوى وأجسم . كان يعرض عليها زعامة
تنقل هذه القوى الاجتماعية القديمة من موقف الدفاع
ضد التيارات الداعية للتغيير الى موقف الهجوم على
هذه التيارات لسحقها . ومن هنا فهو حين وصل الى

الحكم لم ينكل بالقوى القديمة . ولم يطارد الذين امتصوا
دماء الشعب وقادوه الى حرب خاسرة وهزيمة مؤسسية
قبل سنوات قليلة ، بل انه على العكس حمى هؤلاء
وكرمهم واخفى هزائمهم ، في حين شن هجومه واضطهاده
ومذابحه ضد كل المطالبين بالتغيير والتطوير . ومن هنا
انتهى بألمانيا سنة ١٩٤٥ الى نفس الموقف الذى انتهى
به النظام القديم سنة ١٩١٨ ، ولكن الكارثة اكبر وافدح
وقد كانت «البرشامة» التى استخدمها هتلر بسيطة
في «تركيبها» : أن ينافس كل الفئات الاخرى في المطالبة
بالعدل والمساواة والتغيير الاجتماعى علنا ، ثم يذهب
سرا الى اصحاب القوى القديمة يقول لهم ان هذا الصياح
هدفه خداع الشعب لاغير ، وانه حين يصل الى الحكم
سوف يكون رجلهم . وسوف يسحق كل المطالبين بالتغيير
ولو كانوا في صفوف حزبه ، بل خصوصا الذين هم في
صفوف حزبه ، وهو ما حققه بدقة بواسطة حمامات
الدم الشهيرة .

وأهم صفحات الكتاب في رأى هي الصفحات التى
تروى أسرار هذه العملية الغريبة ، التى تمكن بها هتلر
من شراء رضا الجيش ، واصحاب الاحتكارات
الاقتصادية الكبرى .

بالنسبة للجيش مثلا . .

كان الجيش في ألمانيا - تقليديا - ليس مجرد جيش ،
اى ليس مجرد جهاز من أجهزة الشعب والدولة . ولكنه
كان منذ دولة بروسيا القديمة ثم منذ تأسيس دولة
ألمانيا ، سلطة فوق الدولة . سلطة لها نفوذ سياسى
 واجتماعى . ولها بالتالى امتيازات سياسية واجتماعية .
وكان يبرر هذا ان الجيش والضباط البروسيين لعبوا
دورا بارزا في بنسء الوحدة الألمانية وفي اقامة الروح

العسكرية الألمانية الشهيرة . ثم جاءت الحرب العالمية الأولى لتكون أول هزيمة عسكرية ساحقة للجيش الألماني ، وقد كان المسؤولون عن شن هذه الحرب هم القيصر ، والجيش ، وملوك الصناعة الكبار . وقد رحل القيصر بعد الهزيمة وبقي الجيش وملوك الصناعة .

وهبت التيارات تطالب بأن يتحول الجيش من سلطة توجه البلاد الى جهاز في يد البلاذ . وكان الضباط يدافعون بالطبع عن سلطتهم القديمة وعن امتيازاتهم . وتحقيقا لهذا الفرض بدأوا يقولون ان الجيش لم يخسر الحرب ولكن المدنيين هم الذين استسلموا وعقدوا الصلح وطعنوا الجيش من الخلف . نفس ما يقوله ضباط الجيش الفرنسي المنحدر في الهند الصينية والجزائر وغيرهما . وأراد الضباط أن يطمسوا الحقيقة التي تقول ان القادة الكبار مثل هندنبرج ، ولوندورف ، هم الذين قالوا رسميا انهم خسروا الحرب وانهم غير مسئولين اذا استمر القتال . أراد الضباط أن يطمسوا هذه الحقيقة التاريخية ويلصقوا الهزيمة بالقوى الاجتماعية الجديدة والزعامات الجديدة التي تطالب بالتغيير . وبهذا الثمن اشتراهم هتلر . فهو أيضا تبنى هذه الدعوة ليطعن الاحزاب الاخرى وليتحالف مع الضباط القدامى ، الذين سيحتاج اليهم بعد ذلك في بناء جهازه الحربي .

يضاف الى ذلك ما يسجله الكتاب من ان هتلر انقذ اقطاعيات الضباط الكبار من الضرائب المستحقة عليها ومن كل قوانين الدولة ومن الدعوة الى توزيعها . . بما فيهم هندنبرج نفسه ، اكبر ضباط المانيا واعظمهم اسما فماذا عن ملوك الصناعة ؟ . .

يروى الكتاب كيف ان هتلر ، قبل أن يستولى على الحكم ، كان فقيرا معدما ، ثم انقلب فجأة الى زعيم

يُثْفِقُ عن سعة ، ويسكن عشيقته في أفخر بيوت ميونيخ ،
ويركب أغلى السيارات . .
وكانت الضرائب تلاحقه ، تسأله عن مصادر ثروته ،
وكان هتلر يراوغ دائما ، ولا يقدم اجابات شافية ، حتى
وصل الى الحكم ، فكان من أول ما اهتم به أن ينتهز
فرصة إحدى مذابحه ليقتل الرجل الذي اطلع على هذه
الأوراق في الضرائب !

ويرجح كذلك أن كبار رجال الصناعة والأغنياء بدأوا
من ذلك الوقت في تمويل هتلر . ولكن الترجيح يصبح
يقينا في السنوات التالية ، التي سبقت وصول هتلر الى
الحكم ، حينما انطلق المالى الشهير «دكتور شاخت» ،
يعرف هتلر بملوك المال والصناعة ، ويشرح لهم حقيقة
حركته ، فيدفعون له الملايين سرا .

في محاكمات نورمبرج ، روى « والتر فونك » مدير
بنك الرايخ في عهد هتلر ، أن « أصدقاءى من كبار
الصناعيين خصوصا من أصحاب المناجم طلبوا منى أن
انضم الى الحزب النازى سنة ١٩٣١ ، لكى أفرض نفوذهم
فيه » . وكان هتلر قد كون « فرق العاصفة » التي
بلغ أعضاؤها ١٠٠ ألف شاب ورجل قبل أن يصل الى
الحكم . وكان لابد من اتفاق مبالغ هائلة على هذه الفرق
التي بثت الرعب فى قلب أوروبا كلها . . والمال لا يوجد
الا عند اقطاب المال والصناعة .

وكان هتلر يحيط بعلاقاته بملوك المال بستار كثيف
من السرية . الآن انكشاف هذه العلاقة للناس قبل أن
يصل الى الحكم كان معناه تحطيم آرائه نهائيا . حتى ان
قليلين جدا فى الحزب كانوا يعرفون هذه العلاقات التي
لم تنكشف تماما الا من الوثائق المضبوطة بعد الحرب . .
مثلا . .

أميل كيردورف ، ملك الفحم ، بدأ يدفع لهتلر بانتظام من سنة ١٩٢٩ ، وفريتز تيسن رئيس اتحاد الصلب ، ذكر أن أول ما دفعه لهتلر وحزبه كان ١٠٠ ألف مارك ذهباً . وكان ملوك صناعات الحديد والفحم بالذات هم أكبر ممولى هتلر لكى يصل الى الحكم .

ويمضى الكتاب فيذكر القائمة التى اعترف بها «والتر فونك» عن أسماء ملوك المال الذين كانوا يمولون الحركة النازية لكى تصل الى الحكم وهى قائمة طويلة من بين أسمائها فون شنيتزلر مدير شركة فارين الكبرى للصناعات الكيماوية - اوجست روسترج واوجست واين صاحب صناعة البوتاس - كونو صاحب خطوط السفن الكبرى « هامبورج - امريكا » - مناجم براون للفحم فى وسط ألمانيا - كونتى للمطاط - كورت فون شرودر رئيس اتحاد البنوك فى كولونيا - بنك دويتش - بنك التجارة - بنك درسدن - أكبر شركة تأمين ألمانية وهى شركة اليانتر .

بل ان عددا من ملوك الصناعة والمال أسسوا «حلقة» لتمويل هتلر وفرق العاصفة بالذات تحت ستار الانفاق على دراسات خاصة بالجنس الأرى المتفوق !
ثم دفع ملوك المال والصناعة لهتلر حتى يوم وصوله الى الحكم ! ..

قال فونك فى اعترافاته ان المبلغ لايزيد عن مليونين من الماركات . ولكن المالى الكبير تيسن يقول فى كتابه : « أنا دفعت لهتلر » ، انه شخصيا دفع مليون مارك خلال بضعة سنوات . . فالمبلغ لابد أن يكون أكبر من هذا بكثير ! وعندما كلف هتلر بتشكيل أول وزارة برئاسته ، كانت سلطته لم تكتمل بعد . كانت أمامه معركة انتخابية قاسية . فكان أول ما فعله بعد تشكيله الوزارة أن عقد اجتماعا مع دكتور شاخت واثنى عشر آخرين من ملوك

المال ، والصناعة ، وكان اجتماعا سرى لم يعرف به أحد ، ولكن المحضر الكامل له ظهر بعد نهاية الحرب . ومنه نعرف أن هتلر قال لهم أن مصانعهم وأمبراطورياتهم المالية والصناعية لا يمكن أن تبقى لهم لو استمرت الديموقراطية في ألمانيا . ولذلك فقد تقرر أن يقضى على الديموقراطية . وقال انه حتى لو خسر الانتخابات فلن يترك الحكم بل انه سوف يبقى فيه بالقوة . ويروى الدكتور شاخت أن ملوك المال قفزوا طربا وبعدها - كما يقول شاخت - « دعوتهم للتبرع لتمويل دعاية النازى الانتخابية ، فجمعت منهم ثلاثة ملايين مارك فى هذه الجلسة الواحدة ! »

ومع ذلك فان الرجل الذى قام بهذا كله سمي حركته باسم : الاشتراكية ... الوطنية .

لقد وجد هتلر أن القوة النامية هى الشعب وجماهير العمال الواسعة فى بلد صناعى مثل ألمانيا . . فأراد أن يستولى على قيادة هذه الفئات الواسعة ثم يقوم بترويضها حتى يسلس قيادها فى خدمة الاهداف اليمينية هل يبدو هذا الكلام غير معقول ؟ .. ربما . ولكن هذا هو ما حدث بالضبط ..

فعندما أسس دريكسلر وفيدر وهتلر سنة ١٩٢٠ ، « حزب العمال الوطنى الاشتراكى الالمانى » - ومن اختصار هذا الاسم جاء اسم « النازى » - وضع هتلر فى برنامج الحزب ، بناء على الحاح دريكسلر ، فقرات لأغراء الشعب . فنصت المادة ١١ من البرنامج على إلغاء كل ايراد بدون عمل . ونصت المادة ١٢ على تأمين الصناعات ذات الطابع الاحتكارى . ونصت المادة ١٣ على دخول الدولة شريكة فى الصناعات الكبرى .

ولكن هذه المواد لم تكن للتطبيق . كانت نهايتها أن

تعيد الشعب النائم المتخبط في بئر سحيقة من الهزيمة والفقر والبطالة الى استسلامه القديم تحت قيادة القوى القديمة ، وهى الرأسمالية والاقطاع والجيش .. ولهذا ...

فعندما حوكم هتلر سنة ١٩٢٤ ، لأنه حاول القيام بانقلاب مسلح للاستيلاء على الحكم ، قال أمام المحكمة : « نعم أنا ثورى .. ولكن ضد الثورة ! » بمعنى انه يريد ان يشن ثورة يسبق بها الثورة الاجتماعية ويمنعها

وعندما جلس في السجن بعد ذلك يكتب مؤلفه الشهير « كفاحي » قال : « ان الدولة ليست مؤسسة اقتصادية ، ولكنها كيان عنصرى . ان قوة الدولة لا تلتقى مع الرخاء الاقتصادى الا في حالات نادرة . بل ان الرخاء الاقتصادى على العكس ، كثيرا مايكون دليلا على بدء التحلل والانهيار ! »

وفي سنة ١٩٣٠ ، عندما أصبح حزبه حزبا قويا له نسبة كبيرة من مقاعد البرلمان ، قدم بعض نوابه - جريجور ستراسر وفيدير وفريك - الى المجلس مشروع قانون لتأميم البنوك الكبرى تطبيقا لمبادئ الحزب ، فثار هتلر وأقطاب حزبه على هؤلاء « العصاة » داخل الحزب ثورة هائلة ، وأمرهم بسحب مشروع القانون من المجلس . وأراد نواب الاحزاب اليسارية المعادية لهتلر ان يكشفوا حقيقته فقدموا نفس المشروع الى المجلس ، ولكن هتلر لم يتزحزح عن موقفه ولم يخرج ، بل أمر نوابه بالتصويت صراحة ضد المشروع ، ففعلوا !

وعندما دخل بعض زعماء الحزب النازى بعد ذلك في وزارة ائتلافية برئاسة الجنرال شليشر ، حاول رئيس الوزراء ان يقدم قانونا بتوزيع ٨٠٠.٠٠٠ هكتار من اراضى الاقطاع التى تملكها طبقة الجونكرز ، على ٢٥ ألف عائلة من الفلاحين ، ولكن الحزب النازى - او الاشتراكى

الوطني - احتج وهدد بسحب وزرائه من الحكم ، فمات المشروع ...

ومع ذلك ففسد ظل فريق كبير من رجال الحزب الاشتراكي الوطني يصدقون كلمة الاشتراكية الواردة في اسم الحزب . كانوا يظنون ان هذا كله «تكتيك» من هتلر حتى يصل الى الحكم . ولم يكونوا يعرفون ان هتلر كان خلال هذا كله يلتقى بملوك المال والصناعة والبنوك سرا . وان الحزب كان يتلقى منهم ملايين الماركات سنويا لينفق على منظمته العسكرية وفرق العاصفة الشهيرة . وان «دكتور شاخت» الاقتصادي الشهير الذي ما زال يعيش في ميونيخ الى الآن ، كان قد أصبح الوكيل السري لهتلر في دوائر ملوك المال والصناعة .. وكان شاخت في ذلك الوقت يعمل مديرا الأكبر شركة تأمين في ألمانيا .

فلما تولى هتلر وحزبه الحكم ، دهش أنصاره المخدوعون حين وجدوه على العكس ، يأمر فرق العاصفة باحتلال نقابات العمال وحلها ، والغاء طريقة المساومة على الأجر بين نقابات العمال وأصحاب العمل ، وأعلن انه يجب أن تعود السلطة المطلقة في المصانع « الى القادة الطبيعيين وهم أصحاب رأس المال » ..

أما الذين طالبوه بالثورة الاجتماعية فقد أعلن لهم صراحة : « انه لا توجد ثورة ثانية » . ولكنه لم يكتف بهذا . بل انه انتهز فرصة « حمام الدم » الشهير الذي قام به ليلة ٣٠ يونيو سنة ١٩٣٤ ، فقام رجال فرق العاصفة بقتل كل خصومه السياسيين في بيوتهم بحجة انهم كانوا يدبرون انقلابا ضده ، وكان في مقدمة الذين قتلهم في تلك الليلة الرهيبة التي سارت مثلا في التاريخ : الذين بدأوا يتململون ويقولون له أين الاشتراكية ؟ ..

في تلك الليلة الرهيبة قتل هتلر ، اغتيلالا ، كل خصومه

القدماء ، والمختلفين معه داخل الحزب ، وزعماء المعارضة ، وكل الذين يعرفون عنه وعن اتصالاته أكثر من اللازم . ويومها قيل أن عدد القتلى في تلك الليلة بلغ أربعمائة ، ولكن ظهر بعد انهيار هتلر أن عددهم وصل الى ألف قتيل .

واستطاع هتلر بعد ذلك أن « يفلسف الاشتراكية » ، فيقول : « الاشتراكي هو الذي يؤمن بشعار (ألمانيا فوق الجميع) .. »

وبقى من « الاشتراكية الوطنية » أو من النازية جانبها العنصري وحده . ومضت هذه النازية تقول للشعب : ان مهمة الدولة الاساسية هي حماية « العنصر » الألماني نقياً من التلوث بأي عنصر آخر . وان سبب فناء الدول ليس الخراب الاقتصادي ، ولا حتى الهزيمة في الحرب ، ولكنه تلوث الدم النقي للأمة بدم آخر غريب . وبناء على هذه الفكرة بدأت عملية إبادة الأجناس والشعوب الأخرى التي ارتكبها النازي !

ولم يكن ممكناً في حقيقة الأمر ، منذ البداية أن تلتقى الفكرة الاشتراكية مع الفكرة العنصرية في إطار واحد . لأن الفكرة الاشتراكية تؤمن بالمساواة بين كل البشر مهما كانت أجناسهم وأديانهم . ولكنها كذبة كبيرة ، انتهت وألمانيا كلها تحترق !

وبنفس الدقة والتفصيل اللذين يروى بهما وليم شيرر خطوات صعود هتلر .. يروى خطوات هبوطه وأقول نجمه ..

والصورة البعيدة لهتلر توهم الناس انه انهزم وانهار لمجرد انه رجل مجنون . ومن هنا يعجب الناس كيف ان مجنوناً استطاع أن يحكم شعباً عظيماً ، ويخضع لارادته قادة عسكريين عابرة ، واقتصاديين ذهابة ،

وفلاسفة وأساتذة ، وان يحرز انتصارات عسكرية
وسياسية ساحقة . . .

ولكن هتلر لم يكن مجنوناً . . وان كان الخبل قد بدأ
يستولى عليه من تأثير الهزائم . فهو من الشخصيات
التي لا تتحمل الهزيمة . ولا تعيش الا بخمر الانتصار . .
ولذلك فهو شخصية قابلة للكسر . .

والذى يدافع عن قضية عادلة وبأسلوب نظيف لا
تصيبه الهزيمة بالجنون ، بل ربما تحمل اليه مزيداً من
الحكمة . أنها تجعله شهيداً لا غير . أما الذى يرتكب
الجرائم والمظالم البشعة ثم ينهزم ، فهو لا يجد حتى
اقتناعاً معنوياً بريئاً يتكىء عليه فى محنته . . فينكسر . .

اذن . . بما انه ليس مجنوناً . . فكيف يصور له
عقله انه يمكن أن يحارب الدنيا كلها بمفرده . . من
روسيا الى أمريكا ، وهو يعرف مواردها الهائلة ؟ . .
أليس هذا القرار فى ذاته يدل على الجنون ؟

الجواب الذى نجده فى صفحات الكتاب هو : ان
التقارير الكاذبة هى التى صورت لهتلر ان هذا ممكن .

فقد كانت النتيجة الطبيعية للطفيان الذى لا يرحم ان
أصبح كل العاملين مع هتلر يكذبون عليه ، ويقدمون له
الحقائق كما يحب هو . أن يراها لا كما هى فى الحقيقة . .
فالتقارير التى قدموها له عن قوة الجيش الروسى
كانت مضللة ! . .

والتقارير التى قدموها له عن الراى العام البريطانى
كانت مضللة ! . .

والتقارير التى قدموها له عن الموقف فى أمريكا كانت
مضللة ! . .

ولم تكن هذه تضليلات مرجعها جهل الذين قدموا له
التقارير بقدر ما كانت نفاقاً منهم ، الأمر الذى يدل

عليه الكتاب بقصص ووثائق تفصيلية كثيرة ..

وفي هذا المجال يروي الكتاب مآس مضحكة حقاً ..
لعل أغربها تلك القصة التي زين فيها بعض الناس لهتلر
أنه يمكن التفاوض مع دوق وندسور ، الذي كان ملكاً
على بريطانيا ثم تنازل عن العرش ، على أن يتزعم حركة
لعقد الصلح مع ألمانيا وعزل أخيه والعودة إلى العرش .
وكيف أن موظفي هتلر لم يجرؤوا على أن يصارحوه
بالحقيقة وهي أن هذا لا يمكن أن يحدث فمضوا يزيفون
التقارير عن مباحثات وهمية جارية !

فاذا جاءت النهاية ، رأينا هتلر ، في أيامه الأخيرة ،
واقفاً في مخبئه يصدر أوامر وهمية ، إلى جيوش غير
موجودة ، بشن هجمات مضادة لم تبدأ أبداً .. كأن
الأمر كله مسرحية في الخيال !

أزمة الضمير الحديث

مات أوبنهايمر .. أبو القنبلة الذرية الاولى التى ألقيت على هيروشيما .

مات بعد أن عذبه ضميره .. وطارده .. فأخرجه من عمله .. وأرسله الى قاعات التحقيق ..
الضمير ..

انه ذلك الشيء الفامض المركب فينا جميعا - نعم
فينا جميعا - والذي يخفق بالراحة أو القلق ...
بالحيرة أو الهدى ..

وهو من أجل ذلك كان هدفا لكتاب المآسى وشعرائها
منذ أقدم العصور ... يتخذون من ذلك الشيء الفامض
مسرحة لأروع مآسى الإنسان ... وليس مجهولا ماذا
صنع الضمير بـ « ماكبث » بعد أن قتل الملك ، ليظفر
من بعده بالعرش فلم يكسب الا صياحه : « ان نفسى
تأكلها العقارب » ولا ما صنع الضمير بـ « عطيل » بعد
أن خنق ديدمونة الطاهرة لأنه زوج أحمق غيور ..

وليس الضمير بعد ذلك مسرحة لقصص الشعراء
وحدهم .. ففي الحياة الواقعية أيضا نجد أمثلة كثيرة
كانت حياة تولستوى كلها فرارا من ضميره .. كان هذا
الاقطاعى الذى يملك آلاف الفدادين يعرف انه لا حق
له في الترف الذى يحيا فيه على حساب آلاف التعمساء

.. وكان ضميره يعذبه لأنه كان ينفق على مائدة القمار في ليلة واحدة ما يطعم عشرة بيوت بأكملها لعام بأكمله ..

ولم تكن كل كتاباته دفاعا عن الفقراء - وهو يملك هذه الأرض - لتسكت ضميره المرهق .. فهو يكتب في يومياته : « اننى لا أستطيع أن أحرر نفسى .. فأكتب عن الحق كلمات رنانة لأخدع نفسى .. اننى أدعو الى الماء وأشرب الخمر .. ان ضميرى يهتف بى ، فكيف أستطيع أن أفسر له ما لايمكننى تفسيره لنفسى ؟ »

كيف أستطيع أن أدافع أمامه عن نفسى ؟
وفر تولستوى من بيته وأملاكه وزوجته .. ليموت على رصيف قطار .. وهذا الضمير هو الذى جعل نوبل بعد أن اخترع الديناميت يكفر عن اختراعه المدمر بأن يهب أمواله لتكون جائزة للسلام ..

هذا الضمير نفسه .. هذا الشئ الغامض الحساس ، هو الذى يقدم لعالم اليوم أروع مآسيه جميعا ، وهى مأس لا تتخذ مسرحها فى ضمائر العشاق أو الأزواج الفيورين ، بل ضمائر الذين تتكون منهم صفوة الذكاء والمقدرة الانسانية فى هذا العصر : العلماء الذين يصنعون الذرة ..

ان هؤلاء العلماء بشر مثلنا وليسوا شياطين .. انهم ينفضون أيديهم آخر كل يوم من أجهزة الذرة التى قد تدمر المدن وتقتل الملايين ، ويعودون الى بيوتهم حيث يضمون - بنفس الأيدي - زوجاتهم الجميلات ويداعبون أطفالهم الباسمين وأن لهم بعد ذلك ضمائر .. تنتبه بين حين وآخر ، وتناقشهم الحساب ..

وأصبحنا ، لا تمضى بضعة شهور ، الا ونقرأ أن واحدا من هؤلاء الذين كرسوا حياتهم للعلم ، وانصرفوا يكتشفون المفاتيح السرية لهذا الكون ، قد فر أو اختفى .. أو

اتهم بالخيانة والقي به في السجن ..
والمؤكد ان هؤلاء العباقرة النادرين لا يمكن ان يكونوا
خونة أو مأجورين ، كذلك فانهم ليسوا شيوعيين بالعقيدة ،
فهم لا يهربون من أمريكا لمجرد خدمة المعسكر الشيوعي .
فما هو السر اذن في هذه المأساة ، أو في هذه المآسى
جميعها ؟ ..

السر تكشفه لنا قصة آخر واروع مأساة من هذا
النوع .. مأساة الدكتور أوبنهايمر الذي تخوض صحف
العالم كله في قصة حياته ، وتفوص في أعماق ضميره ..
والذي يمكن أن نقول عنه انه : « هاملت » هذا القرن
العشرين

ان الدكتور أوبنهايمر هو العقل الثاني في العالم كله ..
بعد انشتاين .. وهو الذي صنع القنبلة الذرية الاولى
التي ألقيت على هيروشيما وحسمت الحرب الأخيرة ،
وهو نفسه الذي أبعدته ايزنهاور أخيرا وأمر بإقامة جدار
كثيف أسود بينه وبين الأسرار الذرية بعد أن حامت
حول براءته الشكوك ..

أما أقوى دليل ضده فهو انه « يبدو منذ سنوات
وكان ضميره غير مستريح .. وصاحب مثل هذا الضمير
الممزق يجب ألا يعهد اليه بأمانة عمل خطير ... »
وازاء هذا الاتهام .. نشر أوبنهايمر على الناس قصة
ضميره كاملة .. نشرها في مذكرة طويلة من ثلاث وأربعين
صفحة .. رسم فيها صورة صادقة للانسان المثقف ،
الممزق في هذا القرن العشرين ..

لقد ولدت في نيويورك سنة ١٩٠٤ ، أي مع مطلع
هذا القرن تقريبا ، وقد هاجر أبى من ألمانيا وهو في
السابعة عشرة من عمره الى هذه البلاد ، حيث أصبح
من رجال الاعمال الناجحين .. ودخلت جامعة هارفارد
لأدرس الرياضة سنة ١٩٢٢ .

وفي جامعة هارفارد بدأت آيات ذكائه النادر تظهر :
كان يلعب الكرة مع بعض زملائه في فناء الكلية ، عندما
قذف أحد الزملاء الكرة بشدة ، وكان أحد الاساتذة
يمر فنهزمهم ، وقال لهم ان الكرة قد تصيب احد
العابرين .. وبسرعة غريبة أجرى أوبنهايمر للأستاذ
عملية حسابية ، حسب فيها قوة الدفع ومقاومة الهواء
وما الى ذلك حتى أثبت له بسلسلة من المعادلات
الرياضية ان الكرة لا يمكن ان تصل الى أى عابر في الطريق
ثم أغرم فجأة بالادب الاغريقي القديم الذي تعد
دراسته أصعب دراسة لفوية في العالم ، وبعد ثلاثة شهور
كان قد تعلم اليونانية القديمة وأتقنها حتى أصبح قادرا
على ان يقرأ سوفوكليس في لغته الاصلية بلا قاموس .
وبعد ان درس الادب اليوناني درس الادب الفرنسي
... ثم الهندي .. ومضت به الايام حتى أصبح من
أندر المثقفين في العلم والادب جميعا ... ولما تخرج
أصبح هذا الشاب ذو العقل الذي يشع كالجواهر الاصيل
مدرسا للرياضة في الجامعات الامريكية . على انه كان
بالرغم من ذلك كله منطويا على نفسه ، يعشق الوحدة ،
ليس له اصدقاء ولا زملاء يختلط بهم . ربما لأنه أعلى
منهم مستوى ، فهو يشرف على الناس من قمة عالية
بل انه رفض ان يعمل في نيويورك أو غيرها من المدن
المزدحمة ، وأثر أن يكون عمله في القرب ... حيث
السهول الواسعة والوديان العميقة ، التي يستطيع ان
يركب فيها جواده ، ويرخي له العنان أميالا طويلة دون
أن يعكر صفو وحدته وانطلاقه مع نفسه انسان .
ويعترف أوبنهايمر بأن تربيته كطفل « جعلته لايعرف
ان في هذا العالم أشياء رديئة أو قاسية » وهو اذ يعدد
قراءاته الادبية الرائعة يقول : « ولكنني لم أقرأ شيئا

قط في السياسة أو الاقتصاد ، كنت أعيش في انفصال تام عن الحالة العامة في هذه البلاد أو غيرها ، بل لم أكن أقرأ أبدا أية جريدة أو مجلة ، ولم أقتن في بيتي أبدا راديو أو تليفون ... كنت مهتما الى أقصى حد بالعلم .. وبدراسة الانسان في ذاته . دون أن يكون لدى أى فهم عن علاقة الانسان بمجتمعه » .

ولكن الانسان الشريف لا يجد راحة ضميره أبدا في هذا القرار ، وفي النجاة من أمواج المجتمع بالركون الى صخرة عالية ... وأوبنهايمر رجل شريف .

لا يمكن أن يجد انسان شريف راحة ضميره في أن يكرس علمه وجهده لكي يحقق لنفسه أحلام الراحة والهدوء والامن ... في وسط عالم يزخر بالقلق والظلم والصراع .. لا يمكن أن يقرأ مجلداته في حجرة مضاءة وخارج نافذته عالم بأكمله يطبق عليه الظلام، وهذه الثقافة الرفيعة كلها اذا كانت لا تخلق في صاحبها ضميرا حيا فكأنها لم تصنع به شيئا .

ان العقل في الانسان مهما بلغت قدرته ، لا يفنى عن الضمير ، وان ضميرا بغير عقل ، لخير ألف مرة من عقل بلا ضمير .

وأوبنهايمر كما قلت رجل شريف ! وضميره ينتظر الهزة التي تخرجه من القوقعة وتنزله من برجه العاجي . وجاءته الهزة الاولى كما يقول في سنة ١٩٣٦ ، عندما سمع عن انتصار الظلام النازي في أوروبا .. وما يهدد به من القضاء على حريات الناس وكرامتهم . « ورأيت الى جانب ذلك آثار الأزمة الاقتصادية تبدو على تلاميذي » فهناك اذن فقر يسببه الظلم الاجتماعي ! « فبدأت أشعر بأننى يجب أن أساهم بقسط أكبر في حياة المجتمع . ولكن ذهني كان خاليا من أى صورة سياسية صحيحة أو

أى خبرة تعطينى القدرة على هذه المساهمة .
وهنا يقول المعقبون : « ان من تعلم اللغة اليونانية في
ثلاثة شهور ، ليس صعبا عليه أن يتعلم السياسة
والاقتصاد في ثلاثة شهور أخرى ! .. »

وبعد نشوب الحرب ، أقيت على كاهل أوبنهايمر
مهمة رهيبة ، لعلها من أخطر مهام الحرب .

كان عليه أن يطوف أمريكا ليختار صفوة علمائها ، ثم
يجمعهم في فريق واحد يعيش داخل معامل مغلقة ، في
قلب الصحراء ، تحت حصار عسكري صارم ، حيث
يعملون تحت رئاسته بلا كلل لصنع أول قنبلة ذرية ! ..

وإذا كان أوبنهايمر قد اكتشف المجتمع منذ سنوات ،
فانه خلال صنع القنبلة الذرية اكتشف شيئا آخر :
قدرته على الزعامة والتفوق والتأثير في الناس .

نعم .. فقد أصبح زعيما روحيا لعلماء الذرة هؤلاء
من جميع الجنسيات .

واستمر العمل بلا كلل ..

وفي ١٦ يوليو سنة ١٩٤٥ ، عندما انفجرت أول قنبلة
ذرية - للتجربة - في صحراء مكسيكو .. وعندما ارتفع
السحاب الذري القاتل الى عنان السماء .. ارتعد
أوبنهايمر لأول مرة . ارتعد وهو يتأمل ميلاد هذا السلاح
الرهيب وقال : « لقد عرف العلماء طريق الخطيئة !! »

وهذا التعليق الحزين هو الذى يسجله عليه الاتهام
اليوم ، كأول بادرة من بوادر أزمة هذا الضمير .. ولا شك
انه بات تلك الليلة مؤرقا يحرق عشرات السجائر ويسأل
نفسه آلاف الأسئلة : « هل كان هذا الدور الذى شارك
به في حياة المجتمع دورا شريفا ؟ هل يضمن ألا يستعمل
هذا السلاح الرهيب في المستقبل إلا لحساب العدل
والحرية وحدهما ؟ أو انه سيؤدى الى قتل المزيد من

البشر عبثا ؟ .. »

ولاشك أن هذا الضمير اليقظ قد ارتعد رعدة شديدة عندما أقيمت أول قنبلة صنعها على هيروشيما . وعندما جاءت أنباء النجاح بموت عشرات الآلاف وحرقت آلاف البيوت ، وتلويث الجو ، وبأن الذين سيولدون ممن تعرضوا للأشعاع سيكونون مشوهين .. و .. و ..

ولكنه ظل بوجه عام متفائلا . كان يعتقد أن نهاية هذه الحرب وظهور هذا السلاح سيحملان للإنسان سلما طويلا ، وكان زملاؤه العلماء يشعرون بالزهو والفرح لأنهم نقلوا العالم في وثبة واحدة إلى عصر جديد تماما . تستطيع الذرة فيه أن تحقق للناس رخاء لم يسبق له مثيل ، وتعلقت آمالهم بأوبنهايمر أن يقود الأبحاث في هذا الطريق .. وفعلا استطاع أوبنهايمر بقوة شخصيته أن يجعل الحكومة تقرر وضع شئون الذرة في أيدي المدنيين لا العسكريين .. وقام بالنصيب الأكبر في وضع أول مشروع للرقابة الدولية على الطاقة الذرية ..

على أن الأيام مضت ، وأخذت آمال ما بعد الحرب في الذبول ، وعاد التوتر الدولي مرة أخرى . وبدأ أن مظاهر الظلم والاستبداد والاستعمار لن تختفى بسرعة . وكرست أبحاث الذرة للحرب لا للسلام . وتحدث الناس عن الدمار الرهيب الذي سيراه عصر الذرة .. وتمزقت ضمائر الكثيرين من العلماء الذين صنعوا الذرة ... فهربوا بأسرارها إلى المعسكر الآخر ، وأعلن من قبض عليهم منهم في المحاكمة أنهم وجدوا أن خير طريقة لمنع الحرب الذرية هو أن تكون أسرار الذرة متعادلة عند الطرفين .. فيضطرون إلى عدم استخدامها . فهم يرتكبون ما يوصف قانونا بأنه الخيانة .. وفاء للجنس البشري نفسه .. وللحضارة الإنسانية بوجه عام !

وأوبنهايمر وسط ذلك كله يتوء ضميره بأهوال ثقال ،
وقد بدأ أصدقاؤه وزملاؤه يلاحظون أنه يبدو . . . وكأن
شيئا ما يرهق ضميره . . . كما يقول الاتهام ! . . . وان
الكثير من سلوكه يضطرب ، وأن ذكائه اللامع يختلط !
وقال الذين يعرفونه أيضا : أنه أصبح يعتقد أن الظروف
ألقت عليه هو وزملائه تبعة تغيير هذا الكون والقضاء على
مشاكله . وأنه ثائر الآن السياسة والعسكريين على السواء
يقودون العالم الى الدمار . . . الدمار بالقنبلة التي صنعها
هو وزملاؤه ! وقال آخرون : كأنه يعتقد أنه مكلف
بإنقاذ الانسانية ولكنه لا يعرف ماذا يصنع !

انه لا يستطيع أن يهرب كما صنع بعض زملائه ، لانه
لا يقر الوسيلة ، ولا يستطيع أن يبقى مطمئنا . ويقف
جهده عند الحدود السلبية : فعندما عرض أمر صنع
القنبلة الايدروجينية عارض في صنعها معارضة شديدة ،
وعرض نفسه بذلك لاتهام آخر ، وشك جديد !

وأخيرا . . . لكل هذه الاسباب . . . ولأن ضميره غير
مستريح ، قررت الحكومة الامريكية أن تبعده عن أسرار
الذرة ! . . .

أليس أوبنهايمر هذا . . . طبعة جديدة من «هاملت» .
لقد رأى هاملت بعقله الذكي المثقف الفساد الذي
ينخر في كل شيء حوله . ورأى أنه مكلف بازاحة كل
هذا الفساد . . . ولكن الفكر فيه يشل الإرادة ويوقف
العمل . . . فهو يقف دائما على حدود العمل دون أن
يعمل شيئا ! . . .

حتى عندما رفع خنجره ليقتل الملك الذي هو أصل
الفساد ، عاد فتراجع . . . لأنه لا يستطيع أن يرتكب
جريمة ! . . .

ومن يدري ؟ . . . لعل أوبنهايمر سهر ليلالى طويلة يفكر

في الفرار ، أو في أى شيء آخر ، ثم عاد فتراجع ..
كما تهاوى الخنجر في يد هاملت ، لأنه ليس متأكدا تماما
من الوسيلة .. ولا من أى شيء ! ! ..
ومن يدري ؟ .. لعل هذا الذهن النادر الذى قرأ
الآداب كلها قد قارن نفسه فعلا بهاملت .. ولعله صاح
في نفسه وهو يرى ترددها وحيرتها كما كان يصيح هاملت :
حراكا أيتها الرأس حراكا ! وأماما أيها العزم أماما ! ..
نعم .. ان مأساة أوبنهايمر هى مأساة كثير من المثقفين
في هذا القرن . ننتظر شكسبير جديدا لكى يكتبها !
مأساة الذين تتحول العزيمة فيهم بفعل التفكير الى
شحوب ! ..



والحديث عن أوبنهايمر يذكرنا بعالم آخر .. انجليزى
هذه المرة ، هو : ج . هالدين .
فعندما هجمت القوات الانجليزية على بورسعيد ،
أعلن استقالته من منصبه فى جامعة لندن وتنازله عن
الجنسية الانجليزية ، وقال : انه سيسافر الى الهند ،
ليبحث هناك عن عمل ، وليطلب منحه الجنسية الهندية
.. « ان انجلترا دولة مجرمة منذ شنت هذا الفزو ،
وأنا لا أريد أن أموت انجليزيا ، أريد أن أموت حاملا
جنسية أكثر مدنية وتحضرا ! .. »
وذكرت ، عندما قرأت هذا النبأ ، ان هذا العالم
العظيم له فى مكتبتى كتاب حملته معى من لندن ، اسمه
« اذاعة ممنوعة » . وعندما أخرجت الكتاب الأعيد
قراءته ، تداعت فى رأسى عشرات من القصص الغريبة ،
التي تتكون منها قصة حياة هذا الرجل الغريب ..
والواقع ان حياة هالدين حافلة « بالانفجارات »
لا بالقصص العادية فحسب ..

وهذه الانفجارات جاءت من انه ليس عالما من العلماء الذين يحبسون أنفسهم في سكون المعامل ، لا يبالون اذا كان هذا العلم الذى يصنعونه لخير الانسانية او دمارها ، انه ليس عالما من الذين يظنون ان بحث العالم لا يختلف عن عمل أى «سمكرى» أو «سباك» عليه ان يصنع ما يطلبه منه الذين يدفعون الاجر فحسب ! ! ..

ان جداول الحساب في هذا الذهن العبقري مرتبطة بتاريخ التطور البشرى ، ان العلم الذى يكرس له حياته ليس الا وسيلة لكى يجعل حياة الناس حافلة بالعدل والحرية والفكر والجمال ، ومن هنا كان اشتغال هالدين بالسياسة ، وانغماسه فيها ، وشهرته عن طريقها ، لا تقل عن اشتغاله بالعلوم ، وعكوفه في معاملها ، ونبوغه العلمى فيها ..

وفي أول الأمر، كان هالدين عضوا في الحزب الشيوعى الانجليزى ، وكان في نفس الوقت رئيس هيئة التحرير المشرفة على جريدة «الدليلى وركر» لسان الحزب ، وكان أيضا متزوجا من رفيقة له في الحزب ، ومن النشاطات في الحركة الشيوعية الانجليزية ، ثم ثارت زوجته على الحزب الشيوعى ، وأصبحت خصما لدودا للحركة الشيوعية فى انجلترا ، وتحطم زواج هالدين على صخرة الخلاف السياسى ، فطلق زوجته ، وبقي هالدين زمنا بلا زواج ، حتى تزوج من مساعدته فى العمل ، فزواجه الثانى زواج علمى بحث ، وليس زواجا سياسيا كالزواج الاول ! ..

وكان أول انفجار هام في حياته العامة ، هو خروجه من الحزب الشيوعى ، وكان سبب خروجه سببا اقترن فيه العلم بالسياسة ..

فقد حدث أن خرج العالم الروسى المشهور ليسنكو

بنظريته العلمية المعروفة عن البيئة والوراثة ، وثارث مناقشات عنيفة حول هذه النظرية اشترك فيها كثير من علماء البيولوجيا ، ومن بينهم هالدين ، وفجأة أعلن العالم الروسى ليسنكو أن اللجنة المركزية للحزب الشيوعى فى روسيا تؤيد نظريته العلمية ..

ومنذ تلك اللحظة أصبحت نظرية ليسنكو نظرية رسمية فى الاتحاد السوفيتى .. ولم يرتح هالدين الى هذا الوضع ، لم يقبل أن يحسم البحث العلمى بقرارات سياسية من اللجنة المركزية للحزب الشيوعى ، وزاد سخط هالدين ، أن الحزب الشيوعى الانجليزى بدأ بعد ذلك حملة دعاية لنظرية ليسنكو العلمية عن البيئة والوراثة ! بدأ ينشر كتباً الأباتذة غيرمتخصصين تماماً، يقولون فيها أن النظرية صحيحة . فى حين أن هالدين ، أكبر ذهن بيولوجى فى انجلترا ، وعضو الحزب ، لا يقر تماماً هذه النظرية ..

وأعلن هالدين استقالته من الحزب الشيوعى ! قال انه ما زال محتفظاً بمعتقداته السياسية ولكنه لا يستطيع أن يطيع أوامر الحزب فى مسائل علمية ! ..

وقد كانت الحرب العالمية الثانية من أنشط الفترات فى حياة هالدين ، من الناحية العلمية أو السياسية ، على السواء ، كان يكتب فى الصحف بلا انقطاع ، يشرح ويبسط النظريات العلمية المعقدة ، ويربط الثقافة العلمية بالتيارات السياسية ، وينبث الوعى بضرورة مكافحة الفاشية حتى النهاية ، وفى نفس الوقت ، كان يكرس مجهوده العلمى البحث فى خدمة المجهود الحربى . لجأت اليه انجلترا فى أبحاثها على صناعة الفواصات وكان من أجل التجارب على قياس الضغط تحت الماء ، يحبس نفسه أحياناً فى غرف التجارب ، كان يجرى

التجارب على نفسه ، متعرضا لأخطار الموت اختناقا أو بالانفجار الداخلى ، وفى احدى تجاربه على نفسه أصيب هالدين بجراح ، ولكنه ظل حتى آخر الحرب يقاوم الفاشية بعلمه وبقلمه ، وبثقافته ..

وفى آخر مرة تحدث فيها فى الاذاعة البريطانية ، كان المذيع يوجه اليه أسئلة وهو يجيب ، فقال أنه يتمنى أن يسافر يوما الى الهند ، وأن يساهم فى برنامجها الثانى للسنوات الخمس ، وأنه معجب بالطريقة التى تتجه بها الهند الى الاشتراكية ، ولم يكن هالدين يتوقع أن تجيء المناسبة لتحقيق أمنيته بهذه السرعة ، عندما بدأ العدوان الانجليزى على مصر ..

وأعود الى كتاب هالدين « اذاعة ممنوعة » .. ان لهذا الاسم أيضا قصة .. قصة انفجار من انفجارات حياته .. فقد نظمت محطة الاذاعة البريطانية سلسلة من أربعة أحاديث عن موضوع واحد هو : « لماذا تقوم الحرب ؟ » وأختارت أربعة متحدثين من أبرز الشخصيات ، وهم :

القسيس انج ، وسير نورمان انجل ، ولورد بيفر بروك ، ثم هالدين . وأذيعت الأحاديث الثلاثة الاولى ، وجاء الدور على هالدين ، فاذا به يقدم حديثا ناريا يهاجم فيه السياسة البريطانية ، والاستعمار البريطانى ورؤوس الأموال الاحتكارية فى انجلترا . ويسخر من المتحدثين الثلاثة الذين سبقوه ! ..

ورفضت الاذاعة البريطانية أن تذيع الحديث ! وأعاد هالدين النظر فى حديثه ، فخفف بعض الكلمات القاسية ، ووقع المعانى الجارحة .. ولكن الاذاعة رفضت أيضا أن تذيعه ، ورفض هالدين أن يغير فى حديثه أكثر من ذلك ، ونشره بصورته الاصلية فى جريدة الديلى هيرالد ، جريدة

حزب العمال ، مع حملة عنيفة على الديمقراطية الانجليزية ، والحياد المزعوم لمحطة الاذاعة البريطانية . .

وعندما جمع هالدين مجموعة مقالاته وأحاديثه في كتاب ، أعاد نشر هذا الحديث ، وأطلق على الكتاب كله اسم « اذاعة ممنوعة » ! . .

ماذا قال هالدين في هذه الاذاعة الممنوعة ؟

* ان الذين يقولون ان الحرب سببها الخوف والحق كمن يقول ان الحرائق سببها وجود مادة الاكسجين في الهواء ، نعم ان الاكسجين موجود في الهواء ، وهو قابل للاشتعال ، ولكن ما هي الاسباب العميقة الاساسية لاشتعال الحرائق ؟ . .

* اذا اشتعلت الحرب ، فابحث عن الذين يكسبون منها . هذه كلمة قديمة ، وليس كارل ماركس هو الذى قال : « حيث توجد أموالكم ، توجد قلوبكم ! »

* انا لا اقول بالطبع ان حاملى الأسهم فى شركات السلاح يطالبون بالحرب ، كلا ، ولكنهم فقط يعرفون ان زوال شبح الحرب يهبط بالأرباح التى توزع عليهم فى آخر السنة . . اننى أريد أن أقول الحقيقة فى أرق كلمات ممكنة ، حتى لا يفضب أحد ويفلق الراديو ، ان حملة الأسهم هؤلاء لا يتألمون كثيرا ، اذا قامت حرب صغيرة فعلا ، فى مكان بعيد عن بلادنا ، اذا كانت هذه الحرب الصغيرة ، البعيدة ، ترفع أيراداتهم ! . .

* ان الجيوش المحاربة لا تحتاج الى السلاح فقط ، انها تحتاج الى كل شيء من الثياب الى الاحذية الى الخضر واللحوم . فلو قامت حرب ، حرب بعيدة جدا ، حتى لا ينزعج أحد ، بين روسيا واليابان مثلا ، فسوف تروج التجارة ، سوف يشتد طلب الدول المحاربة على كل شيء ، من السلاح الى أحذية الجنود وطعامهم ! . .

واقلب بعد ذلك صفحات الكتاب ، والتقط منه هذه
الخواطر والأفكار :

* يقول لورد بيركنهد: ان علم السياسة وعلم القانون
هما أقل العلوم قابلية للتغيير العميق ، وهذا خطأ
تماما . . لقد راح عهد احتكار المحامين ورجال القانون
للسياسة ، اننا نجد الآن بين رؤساء الدول من كانوا
مهندسين أو علماء أو ضباطا ، ان أفول نجم « المحامي
السياسي » وذهاب احتكاره له مفزى عميق . . ولنضرب
مثلا بسيطا : ان العلماء يعرفون مثلا ان « النحاس »
و « الألومنيوم » لهما خصائص واحدة ، فكلاهما موصل
جيد للحرارة ، وعلى هذا الأساس تعامل هذين العنصرين
معاملة واحدة ، ولكن انظروا الى الامبراطورية البريطانية
مثلا : ان فيها عناصر كثيرة مثل السكسون والعرب
والهندوس والزنوج ، كلها عناصر بشرية لها خصائص
واحدة ، ولكن السياسة الانجليز لاعاملونها بالطبع معاملة
واحدة ، ولا يعطونها حقوقا واحدة ! . .

* الامبراطورية البريطانية (من حيث الاستراتيجية
الجغرافية) دولة قوية في حالة الهجوم ، لان قواعدها
منتشرة في كل مكان ، ولكنها دولة ضعيفة جدا في موقف
الدفاع ، لان حياتها تعتمد على الخارج ، فهي عرضة
للاختناق السريع . . اما روسيا ، فهي بحكم وضعها
الجغرافي أيضا ، على العكس تماما ، فهي ضعيفة في
الهجوم ، ولكنها قوية جدا اذا كانت في موقف الدفاع . .

ووضع الامبراطورية البريطانية هذا (اذ هي قوية في
الهجوم وضعيفة في الدفاع) سيء من ناحيتين : فهو
يجعل الآخرين يكرهوننا ويخافون هجومنا عليهم ، من
ناحية ، ويجعلهم يظنون ان الهجوم علينا سهل من ناحية
اخرى ، فلو قويتنا انفسنا داخليا ، ووجهنا أقل تهديد

للآخرين ، فسوف تقل ولا شك أسباب الحروب ! ..
* ان اروع ماصنعه هتلر.. هو انه وحد صفوف
الكثيرين ضده . اننى احارب ضد هتلر ، من أجل شيء
يتفق عليه .. أنا ، وعامل انجليزى وفلاح صينى ،
ومليونير أمريكى ، وقومسيير سوفيتى .. هذا الشيء
الذى اتفقنا عليه هو : ان كل فرد فى الحياة يستحق
ان يكون له اعتبار ، وهذا ما ينكره هتلر .

* اننى احب ان ارى وطنى انجلترا ينتصر ، ولكن
ليس معنى ذلك اننى كنت اتمنى ان ينتصر وطنى ضد
ثورة الاستقلال فى أمريكا . او ضد ثورة الهند ..

* اننى اريد ان ارى الاشتراكية تسود فى انجلترا .
ولكنها لن تكون اشتراكية كالموجودة فى روسيا ، ان
الكنيسة البروتستنتية مثلا تختلف عن الكنيسة
الارثوذكسية ولكن كليهما مسيحية ..

* اننى اعرف كثيرين المان واطليان ويابانيين ، سعداء
لاننى احارب ضد حكوماتهم ، ذلك اننى احارب من أجل
حريتهم ! ..

* اعلن اخيرا ان ثلاثة من المؤرخين اخذوا جائزة
ضخمة لانهم ألفوا كتابا من ثلاثة اجزاء عن تاريخ
الفلسفة ، وقد سألنى ناس كثيرون : ما قيمة نظريات
الفلسفة القديمة الآن بالنسبة للعلم !.. ما معنى ان
نبذل مجهودا لدراسة افكار ناس قدامى ، ثبت بطلان
أغلبها ..

لهؤلاء أقول : ان هناك أسبابا كثيرة تبرر دراسة ما
قاله الفلاسفة قديما ، ان هذه الافكار القديمة الخاطئة ،
كان لدى أصحابها أسباب وحجج قوية لاعتناقها ،
وعندما ندرس هذه الحجج ، ونعرف التجارب التى
اثبتت بطلانها بعد ذلك ، فهذا يساعدنا على معرفة

البصواب من الخطأ فى كثير من المسائل التى تعرضنا
اليوم ..

ودراستنا لهؤلاء الفلاسفة القدماء تعلمنا كيف ان كل
مفكر انما يعكس العصر الذى يعيش فيه فقط ، وبناء
على ذلك فأى مفكر اشتراكى اليوم لا يستطيع ان يصف
المجتمع بعد عدة أجيال قادمة من تطبيق الاشتراكية .
ثم ان معرفتنا لهذه المبادئ القديمة تجعل مبادئنا
التي تؤمن بها اليوم أكثر صلابة ، ان كثيرا منا يأخذون
هذه المبادئ على انها بديهيات مفروغ منها ، ولكن
دراستنا لمن سبقونا تعلمنا كيف ان أناسا آخرين أذكاء ،
كانت لهم آراء مختلفة عنا تماما ..

ثم اننا محتاجون الآن نستعد للمستقبل ، ولن نستعد
للمستقبل الا بناء على فلسفة ما ، ان بعض الناس يقولون :
علينا ان نؤدى واجبنا طبقا لما تواضع عليه البشر ، والله
بعد ذلك يصنع ما يشاء ..

وآخرون يقولون : ان التطور التاريخى سيقع حتما ،
سواء عملنا أم لم نعمل .. وكلا القولين خطأ ، ان
المستقبل يتوقف أيضا علينا ، حتى ولو كنا نحن أنفسنا
جزءا من حركة التاريخ ، وهذا الايمان شئ عظيم ،
يلهمنا العمل والفكر والانتاج ..

ونحن اذن محتاجون دائما الى فلسفة والى مرشد
يقودنا الى العمل ، وأيا كان نوع المذهب الذى تؤمن
به ، فلن نفهم الا اذا عرفنا تاريخه جيدا .
لهذا كانت معرفة تاريخ الافكار والفلسفات أمرا هاما
وضروريا .

* قراء كثيرون يسألوننى عن بعض مشاكل علم
النفس : كيف اتغلب على خوفى من كذا ؟ كيف أعالج
نفسى من نقص كذا ؟ وأنا لا أفهم كثيرا فى علم النفس ،

ولكننى أقول لهؤلاء ببساطة : ان الإنسان يستطيع أن يتغلب على كثير من مشاكله النفسية الداخلية اذا اهتم بشيء كبير ، خارج حدود نفسه .

ان هجرة هالدين ، وطنه وجنسيته ، وهجرة علماء كثيرين تحت وصف قانون مختلف - هو خيانة الأسرار الذرية من هذا المعسكر الى ذاك - ظاهرة من ظواهر عصر العلم .. عصر الوصول الى مفاتيح رهيبة لها أعظم الأثر في حياة العالم .. حاربها مكتشفوها ، فى أى مجتمع وأى نظام يضعونها ! ! -

في مخاطبة الثورات

انهم يعملون للثورة بأيديهم واسنانهم . كل واحد منهم وضع مصلحة الثورة فوق مصلحته الشخصية ، وفوق حاجاته الخاصة ، بل وفوق وجوده وحياته ذاتها حياتهم متسمة بأفكار الذات المطلق ، والتخلي عن كل طيبات الحياة . وغالبا ما تنتهي حياتهم هذه بتضحيات بطولية كالاساطير . انهم ناس لا ينتمون الى النمط العادي للناس . انهم مفرغون من كل ما يشغل الناس العاديين ، من مشاكل الأسرة ، والنجاح في العمل ، والسعادة الشخصية . انهم لا يعيشون في الحاضر ، ولا يتذوقون له طعما . . انهم يعيشون في المستقبل . . يتظلمون حين تهب رائحته عليهم !

هؤلاء هم الثوار !

انك اذا نظرت اليهم عن بعد ، خيل اليك انهم - جميعا - متشابهون . ولكنك اذا عشت معهم ، وخالطتهم عن قرب ، فسوف تجد انهم نماذج مختلفة متفاوتة ، بل انك قد تدهش حين تجد بين أعنف الثائرين من هو في حقيقته أبعد ما يكون عن محتوى الثورة الحقيقي !

هذا رأى واحد من الثوار أنفسهم . واحد من الثوار الذين اشتركوا في ثورة أكتوبر الكبرى في روسيا سنة ١٩١٧ . .

ان ستينبرج هو الوحيد الحي الباقي الى الآن من
مجلس وزراء لينين الاول الذي أسفر عن الثورة في
بترسبرج التي أصبحت ليننجراد ! كان زعيما للجناح
اليساري في حزب الاشتراكيين الثوريين ، الذي تحالف
مع حزب لينين البلشفي في تدبير الانقلاب المسلح ضد
حكومة كيرنسكي ، ثم كان وزيرا في أول مجلس وزراء
سوفييتي ، وكان يومئذ في التاسعة والعشرين من عمره
فقط .

ولكنه لم يلبث بعد ذلك أن أصبح واحدا من « الذين
كنسهم التاريخ في ترابه » . وهو التعبير الذي أطلقه
تروتسكي آنذاك على الذين عجزوا عن مواصلة الثورة
الى النهاية . فقد أصبح معارضا للينين ، ثم قبض عليه ،
ثم فر . . . الى حيث يعيش الآن ، في الولايات المتحدة
الامريكية . . . فهناك لحق سستينبرج بمن انقلب عليه
« كيرنسكي » الذي كان قد سبقه الى هناك ، ثم لحق
بالاثنين ، الى المكسيك ، تروتسكي نفسه ، أشهر الأسماء
التي كنسها التاريخ في ترابه !

وَألف ستينبرج كتابا سماه « في مطبخ الثورة » تحدث
فيه عن الايام التاريخية بين سنتي ١٩١٧ و ١٩٢١ .
والكتاب بالطبع مليء بالأحكام والحملات الشخصية ،
ومكتوب بكل غيظ وموجدة « واحد من الذين كنسهم
التاريخ في ترابه » بعيدا عن مجرى الثورة . . . ولكن
ما لفت نظري فيه هو فصل يقول فيه الكاتب : ان
الثوار ، وان بدوا متشابهين ، إلا أنهم في الواقع ينقسمون
الى خمسة أنواع . . . عرفتها ، وستظل تعرفها ، كل
الثورات . . .

النوع الاول هو الشائر من أجل نفسه ، انه ذلك المواطن
الذي يثور بسبب الظلم الواقع عليه شخصيا . انه ذلك

الذي يندفع اندفاعا تلقائيا ، ويحارب باخلاص ، من أجل نفسه ، من أجل حقوقه المنتهكة ، وحياته الضائعة المهدورة . انه عنصر أساسي في كل ثورة من ثورات التاريخ : عنصر جمهور الثورة ، وتابعيها ..

هذا النوع من الثوار ، هو الجمهور الذي صنع انتفاضات العبيد في العصر القديم ، وثورات الفلاحين في العصور الوسطى ، وهو الذي صنع العواصف التي اجتاحت شوارع باريس في الثورة الفرنسية .

انهم الرجال المسحوقون ، الذين يحدث لهم ، في لحظة تاريخية خاصة ، أن يكتشفوا أنهم يمكن أن يكونوا بلا أغلال على الإطلاق .. وفي قوة بركانية ، تنفجر من قلوبهم نيران الألم والغضب والحقد والانتقام ! كل حب الفرد لعائلته وناسه ، مقترنا بالكبت المرهق الطويل ، ينفجر ! لا يبقى ولا يذر !

وليس معنى ذلك ان هذا النوع من الشائرين «انانى» بالمعنى الضيق الشائع .. انه يقدم أكبر التضحيات ، ويأتى أروع ضروب البسالة والاستشهاد .. ولكن نقطة البدء في نفسه هي : حقوقه المكبوتة ، شرفه المثلوم ، أيامه الحافلة بالفقر والضعفة ، خوفه من أن تفشل الثورة وتعود الأيام السوداء !

ان المؤلف يروى لنا مشهدا مؤثرا ، عاشه في موسكو سنة ١٩١٩ .

كان المسرح يقدم رواية عن سجن كارتوجا القيصري الرهيب . لم تكن رواية لها حبكة وبداية ونهاية . كانت مجرد عرض أمين دقيق لروتين الحياة في ذلك السجن . مجرد المنظر الحقيقي للسجن والزنايات ، والمساجين والسلاسل ، والمشاجرات والفظايات .. بدون أى مؤثر

مصطنع ، ولا حتى لحن موسيقى . وكان المسرح مكتظا
بمئات الرجال الخشنيين الشجعان ، الذين خاضوا وما
زالوا يخوضون أعنف الأحداث . وفجأة ، في لحظة
واحدة ، بكت القاعة كلها ! تلفت المؤلف حوله فرأى
أعتى المحاربين من العمال والفلاحين والجنود وقد نكسوا
رؤوسهم ، يبكون كالاطفال ، وبكاء يذيب الصخر ! ..
وكان الواحد منهم يهمس بين دموعه المتساقطة : تمام !
مثل زنزانتنا بالضبط ! كيف احتملنا ! كيف عشنا
هذا ! تصور ! تصور لو عاد هذا مرة أخرى !

دموع خارجة من بئر عميق .. من قلب عرف المرارة
بكل خلية فيه ! ..

ويروى الشاعر الروسى «الكسنندر بلوك» ، وكان من
الاقطاعيين ، انه كان يتنزه هو وعروسه على ظهر جواديهما
ذات يوم في احدى مزارعه .. وقد بدا لهما ان كل شيء
جميل سعيد .. حتى الشمس ، والخضرة المزدهرة ،

كانت كأنها تشاركهما الفرحة . وفجأة ، لاح على الطريق
فلاح عجوز .. واحد من عشرات الملايين الذين يعملون في
الارض الروسية .. ظهر في أسمال بالية ، محنى الظهر ،
مفضن الوجه بالآلام أجيال من العبودية . ولم يكد الفلاح
يراهما حتى تنحى بسرعة ، ووقف في الحقل صامتا

ريثما يمر السيدان .. وفي لمحة ، التقت عينا الشاعر
سليل النبلاء بعين الفلاح العجوز .. وفي هذه اللحظة رأى
في عينيه مزيجا مثيرا من الرهبة ، والاحترام ، والحقد ،
والخوف ، وكراهية عميقة . وفي تلك اللحظة أدرك

الشاعر ماذا حدث في نفوس هؤلاء الناس ، والهوة
الساحقة المخيفة التى تفصل بين القلة المتمتعة والكثرة
من التعساء .. فلما نشبت الثورة ، وجاءت أنباء

الفلاحين الذين هجموا على بيوت الاقطاع في بسالة وأحرقوها ، تذكر الكسندر بلوك على الفور : هاتين العينين ! ..

النوع الثانى من الثوار ، هو : الشائر العلمى ..

هذا الشائر لا ينبع نشاطه الثورى من العاطفة ، او من التجاوب التلقائى مع الحوادث ، ولكنه يستمد دافعه من اقتناعه المطلق بنظرية علمية واضحة ، وعملية حسابية محددة . انه يحمل فى نفسه منطلقا صارما لا يرحم ، واقتناعا بحتمية تاريخية لا مفر منها .

وليس معنى ذلك ان الثوار من هذا الطراز لا يحسون المشاعر الاخرى .. كالآلم للواقع الانسانى الظالم مثلا .. فلا شك انهم قبل كل شىء ناس من ذوى الضمائر ، ولكن القوة الكبرى التى تدفعهم الى تقديم التضحيات الهائلة هى : قوة الاقتناع العقائدى ، والحساب اليقينى ..

والشائر العلمى فى الثورة الروسية كان الشائر الماركسى اللينينى . ولكن الثوار العلميين كانوا موجودين فى كل ثورة أخرى حتى قبل ظهور الماركسية : كل ثورة كان فيها الثوار اصحاب الحساب الواضح والاقتناع الراسخ بأنهم أداة مرحلة حتمية من مراحل التاريخ .

والنموذج الاساسى الذى يقدمه المؤلف على هذا الطراز من الثوار ، هو ، لينين نفسه . فقد كان لينين يعتقد ان الثورة هى الأداة أو العجلة التى يسير بها التاريخ فى طريقه الحتمى . وأنه — أى لينين — ليس الا «ميكانيكى» يعمل فى خدمة هذه الأداة أو العجلة والعناية بها .. ومن هنا كان عزوف لينين عن أية محاولة لفرض اسمه الشخصى على مسرح الحوادث ، ونفوره من أى دعاية شخصية له .. اذ كان يعتبر هذا عملا ضارا ،

وغير علمي !

والمؤلف يوجه نقداً حثيفاً لهذا النوع من الثوار ، فيقول : انهم عادة أقدر الناس على اتخاذ القرارات القاسية . انهم يركزون على المستقبل ، وعلى تحقيق

العمل التاريخي الكبير ، لدرجة انهم لا يبالون بالثمن ، أو بالآلام التي قد يدفعها الافراد من أجل تحقيقها . . « نفس المنطق ، الذي جعل النمل البشري ، منذ أربعة آلاف سنة ، يبنى الاهرام ، من أجل مجد فرعون الخالد »

هذا الثائر يطلب من الفرد العادي ثمنا باهظا « ومن أين للرجل الصغير ، المحدود الزمن والمسافة والنظرة ، أن يستوعب الصورة الشاملة لزحف التاريخ العظيم ؟ »

انه يريد أن يحصل على ثمرة تنفعه اليوم ، لا غدا . انه يقول : بيتي ! ولا يقول : العالم . .

الثائر العلمي يظن أن كل انسان يمكن أن يحتمل ويضحي كما يضحي الثائر ، وهذا غير صحيح !

والواقع ان هناك رداً بسيطاً على كلام المؤلف . والرد هو ان قرارات الثائر العلمي ، تجد من التاريخ دائماً ما يبررها . والمسألة تتوقف على نوع البناء : فبناء خزان

هائل يرفع مستوى معيشة الناس وينتشلهم من وهدة الفقر ، ليس كبناء أهرام هائل لدفن فرعون واحد ميت !

والثائر الجمالي هو النوع الثالث من الثوار . انه الثائر الذي تدفعه الى الثورة حاسة مرهفة تتذوق الجمال وتتفهمه .

فقد تجد - مثلاً - انساناً يعتنق الاشتراكية ، لأن النظام الرأسمالي أو الاقطاعي ، بما ينطوي عليه من اسراف في ناحية وفقر في ناحية أخرى ، يؤذي احساسه

الفنى بالجمال .. انه يرى القبح والتشويه والسكابة
والضياع .. فى حياة الفقير وحياة الفنى على السواء ..
ان هؤلاء الثوار ناس ازعجتهم عفونة المجتمع ، فهم
يحلمون بمستقبل « أجمل » !

ويضرب المؤلف لهذا النوع امثلة من كتاب انجلترا
وفنائها ..

كان « جون رسكين » مثلا يصف المستقبل الذى يريد
صنعه وصفا فنيا فيتحدث حتى عن تغيير الشباب ،
وطراز البيوت ، ومفرش المائدة ..

وأوسكار وايلد كان يريد تدمير حياة الارستقراطيين ،
لأنها خالية من الجمال .. لأنه كان يراها حافلة بالتظاهر ،
والسخف ، والثراء المضيع ، والجفاف الروحى ..

و « وليم مديس » فى كتاب له بعنوان : « كيف
أصبحت اشتراكيا » يقول : ان نقطة البدء فى الثورة هى
احياء فن الشعب ، وهى أن تخلق لدى الشعب الفقير
الرغبة فى الاستمتاع بالجمال ، وتقنعه بأن الجمال والفن
أشياء هامة فى حياته كالخبز .

وهناك من ثوار الجمال هؤلاء نوع آخر ، أولئك الذين
يجدون فى « اللحظة العظيمة » جمالا فنيا بديعا . فى
ذهنهم صور وثورات تاريخية سلفت ، وأحداث وأعجاف
.. ثم هم يجدون أنهم يعيشون فى لحظة ثورة أخرى
مجيدة .. ويرون أمام أعينهم مشهدا مهيبا ، فيجدون
فى ذلك لذة غامرة ، لذة خروج حياتهم من الروتين
العتيق .

ويروى المؤلف قصة طريفة عن رائد مشهور من رفاق
لينين ، هو « لوناتشارسكى » ، الذى كان على ما اظن
أول وزير للتعليم بعد الثورة الروسية .. فيقول : ان

أكبر همومه خلال أيام ثورة أكتوبر العاتية ، كان الخوف من أن يصاب أثر من الآثار الفنية أو السكنوز التاريخية بالدمار ، وعندما أصابت قنبلة طائشة متحف الفنون ، ثار وقدم استقالته احتجاجا ، ونشر بيانا علنيا يندد بذلك ، وكان لينين يطيب خاطره ضاحكا ..

الشائر الرابع في هذا الجدول من الشوار ، هو الشائر الشفوق .

هذا الشائر لا يثور لظلم وقع عليه شخصا ، ولا لأنه يؤمن بنظرية علمية تدفعه الى الثورة ، ولكنه يثور بسبب الظلم الواقع على الآخرين . انه ذلك الذى يمكن أن نسميه بالرجل الشريف ، ذي الضمير الحى .. انه لا يطيق أن يرى الآخرين محطمين مهانين .

ويقول المؤلف ان الادب الروسى فى القرن التاسع عشر ، كان يركز جهده على اثاره هذه الروح فى النفوس ، على ايقاظ عواطف الناس وضمائرهم : ففي رواية «الجريمة والعقاب» لدستويفسكى لابد أن يعطف القارىء على «راسكولينكوف» .. كما لابد أن يعطف على «كاتيوت» فى رواية «البعث» لتولستوى ، وعلى المشردين الذين تحفل بهم روايات مكسيم جوركى .

انه الشائر الذى يثور ، نيابة عن الضعفاء والتعساء ! وعيب هذا النوع من الشوار ، ان علاقة العطف والشفقة تفترض وجود قوى وضعيف . القوى هنا يشعر أن الضعيف يحتاج الى مساعدته وعطفه ، ومن العطف والمساعدة يتدرج الى الرغبة فى الوصاية على هذا الضعيف . انه يشعر بأنه مسئول عن الضعفاء ، وهذا فى رأى المؤلف طريق قصير الى : الدكتاتورية ... وعلى العكس من ذلك ، النوع الخامس والاخير من

الثوار ، وهو الثائر المحب ! ..

ان الثائر بدافع الحب ، يثور أيضا بسبب الظلم الواقع على غيره ، ولكنه يختلف عن الثائر الشفوق ، لأن علاقة الشفقة ليست علاقة مساواة ، أما علاقة الحب فهي علاقة مساواة كاملة ..

ويضرب المؤلف مثلا على هذا النوع من الثوار بحركة المثقفين الروس قبل الثورة ، التي سميت «حركة الرجوع الى الشعب» . ونماذجهم موجودة في المثقفين الذين نصادفهم في رواية « الأم » لمكسيم جوركي .

ان الثائر المحب يحب الانسانية كلها حبا عميقا .. يريد لبنى البشر كلهم أن يتحرروا . انه يربط مستقبله تماما بأقل طبقات المجتمع . انه يرتكب العنف مع انه يكره العنف ، انه يحمل السلاح وهو يكره السلاح . ان نموذجه هو الثائر جريجورى جريستون الذى قال للقضاة الذين كانوا يحاكمونه :

— انا نكرهكم ، لا لأنكم تسفكون دماءنا .. ولكن لأنكم ترغموننا على أن نسفك دماءكم !!

ونموذجه أيضا: الفتاة الروسية نيسيتولا راجوزينيكوف ، التى وضعت الديناميت حول جسدها وهى فى العشرين من العمر ، لتسف مقر البوليس القيصرى ، وتخلط أشلاءها بأشلائه .. وعندما ذهب بها جلادوها الى حيث ينفذون فيها حكم الاعدام ، كانت تفنى فى الطريق ، وتداعب الجنود ، الذين كانوا يرتجفون رعبا وتأثرا لمشهد ثباتها وتفاؤلها .. وحتى اللحظة الاخيرة رفضت أن تبوح باسم واحد من أسماء رفاقها .. وقالت لهم : ليس الواجب وحده هو الذى دفعنى الى هذا العمل .. ولكنه شيء أكبر من ذلك . انه الحب ! حب الانسانية كلها .

ما أجمل أن نحب الناس ! وما أعظم القوة التي يمنحها
لنا الحب ! «

ربما كانت الملاحظة التي يمكن أن يقال تعليقاً على
هذا الكتاب : هي أن هذه الأنواع الخمسة ليست -
بالضرورة - منفصلة . ولكنها كثيراً ما تمتزج كلها ، أو
يمتزج بعضها ، في نفس ثائر واحد . . فنجد ثائراً
واحداً يثور بالمنطق العلمي ، وبالحب ، وبحاسة الجمال
معا . . وهو عادة النوع العظيم من الثائرين !

..الإعلانات .. الإعلانات

هل يوجد شيء اسمه حرية اقتصادية ؟

بل هل يوجد شيء اسمه « حرية » على الإطلاق ؟ ..

هكذا هو السؤال الذى يسأله المرء لنفسه ، حين ينتهى من قراءة هذا الكتاب العجيب الغريب .. الكتاب الذى يقول مؤلفه - على خلافه - « انه يكشف لنا كيف ان رجال الاعلانات يستفلون فرائزنا وأمراضنا النفسية لكي يبيعوا لنا كل شيء .. من الثياب النايلون الى الزعماء السياسيين » .

وقد أحدث الكتاب ضجة هائلة حين صدر فى الولايات المتحدة الأمريكية .. ومن يوم صدوره دخلت اصطلاحاته وتعبيراته فى أغلب الكتب والمقالات .. وأصبح عنوانه : « الدعاة المستترون » لقباً يطلق على رجال الدعاية ، والاعلان ، والعلاقات العامة ، من جميع الاشكال والالوان ودائماً ، حين أقرأ أو أفكر فى أى موضوع سياسى أو اقتصادى أو اجتماعى ، أجد انى أتأمل فى النهاية صورة واحدة : صورة المواطن العادى .. الرجل البسيط أو المرأة البسيطة أو الطفل البسيط ..

وحين أكتشف - فيما أقرأ - القوى الهائلة التى تتحكم فى الفرد فى عالمنا هذا الحديث .. تفزعنى صورة الفرد العادى البسيط .. فى وحدته وفى ضالته .. فى

وقفته أمام الأدوات الجبارة التى تصنع له آراءه السياسية وعقائده الاجتماعية ، وذوقه فى اختيار الثياب ، وطريقته فى معاملة زوجته .. ثم تبتسم هذه الأدوات الجبارة ، كاشفة عن أسنانها الفولاذية الضخمة ، وتقول للفرد الصغير البسيط :

— أنت حر ! ..

نعم حر ! حرية الريشة فى مهب الرياح ! حرية النملة فى غابة تسكنها الأفيال ! ..

وقد كانت الطريقة القديمة ، البدائية ، التى يفقد بها الفرد حرите ، هى أن تصدر اليه الأوامر والنواهى من الخارج ، مصحوبة بالتحذيرات والتهديدات ، فيخضع ويدعن ، ويتصرف كما تقول له الأوامر والتعليمات . ولكن هذه الصورة أصبحت قديمة . ففيها قد يتقيد الإنسان فى الظاهر ولكنه يحتفظ — على الأقل — بحرية مطلقة فى باطنه .

كانت مشكلة الفرد فى مثل هذا الوضع أن نصفه — الخارجى — عبد ، ونصفه — الداخلى — حر ! ..

أما العصر الحديث ، وأدوات العصر الحديث ، وعلوم العصر الحديث .. فهى لا تكتفى بأن تصدر الى الفرد تلك الأوامر والنواهى من الخارج . لقد اكتشفت فى هذا الفرد آفا من الثقوب تستطيع أن تتسرب منها الى باطنه ، وتحتل نصفه الداخلى الحر ، وتصدر اليه الأوامر من الداخل ! ..

أليس هذا قظيما ؟ ..

ان الإنسان يعيش الآن فى مرحلة تتميز بأن الأدوات التى خلقها الإنسان والعلوم التى اكتشفها أصبحت أقوى منه — أى من الإنسان نفسه .

وصراع الإنسان الاجتماعى ، وكفاحه للبحث عن

فلسفة اجتماعية جديدة ، غايته في الواقع أن يحل هذه المشكلة ، وأن يتوصل الى نظم تضع الانسان على عرشه الطبيعي : حيث يستطيع أن يكون أقوى من الادوات التي خلقها .

واذا كان هذا الوضع فظيما ، فالأفظم منه ان الانسان لا يدري الى أي حد هو يعيش فاقدًا حريته !.. بل انه أحيانا يتشدد ويذهب بأنه يعيش في حرية مطلقة !.. ليس الانسان الأمريكي مثلا ، من أبرز الذين يتباهون بهذا الوهم ؟..

ان هذا الكتاب The Hidden Persuaders مؤلفه «فانس باكارد» يروي لنا قصة غريبة !.. قصة فن الاعلان ! كانت الطريقة البسيطة هي أن يعمد البائع الى سؤال الناس واستفتائهم عما يريدون . ثم ظهر أن الاجابات التي يدلون بها لا علاقة لها أبدا بالحقيقة . ما يقولونه للسائل لا يمت بصلة لسلوكهم الحقيقي لحظة الشراء . فلو سألت واحدا من الناس ماذا يسمع في الاذاعة مثلا ، فقد يقول لك «(الاحاديث)» لمجرد أن هذا هو ما يليق بمقامه ، في حين انه في الواقع لن يفتح الراديو الا ليستمع الى الاغاني ، فالمهم اذن معرفة هذه الحقيقة . ووصل خبراء الاعلان الى ثلاث حقائق :

أولا : ان الفرد لا يعرف بالضبط ماذا يريد .

ثانيا : انه حتى اذا كان يعرف ، فانه لن يعترف لك بالحقيقة . انه يجيب بما يناسب الصورة التي يرسمها لنفسه أمام الناس ، لا بما يعبر بصراحة عن نواذعه الخفية :.. سئل الناس مرة عن المجلات التي يقرأونها ، فكانت أغلب الاجابات تشير الى المجلات ذات المستوى الرفيع ، في حين أن هذه المجلات لا تباع الا قليلا . وفي مرة أخرى أرادت إحدى مؤسسات الاثاث أن

تعرف ذوق الناس فجاءت قبل احدى المحاضرات التي تقبل عليها النساء وفرشت حجرتين للانتظار : حجرة فرشتها بأثاث عصرى بسيط ، وحجرة فرشتها بأثاث كلاسيكى قديم وتحف تاريخية .. الى آخره ، ولاحظ المراقبون الواقفون سرا ان النساء يقبلن على الجلوس والانتظار فى الحجرة الاولى . ولكن حين سئلن أى طراز من الاثاث يفضلن؟ أجبن : الاثاث التاريخى. ذلك ان هذه الاجابة تظهر من تقولها فى هيئة المثقفة بنت العائلة العريقة فى حين انها فى لحظة الاختيار التلقائى ، ذهبت وجلست فى الحجرة البسيطة .

شركة سيارات كروزلر صدقت ما قاله الناس فى الاستفتاءات من انهم يفضلون سيارة بسيطة ، حجمها معقول ليسهل ركنها فى الشوارع المزدحمة .. الى آخره وصنعت سياراتها على هذا النحو واذا بها تكسب كسادا رهيبا هدد الشركة بالخطر . فقد اشترى الناس السيارات الكبيرة ذات الاجنحة والتي لا تناسب أبدا مع الزحام ، لأنها ترضى أثرا نفسيا معيناً فى أفئدتهم .

وقد واجه المعلنون فى أمريكا مشكلتين خطيرتين : المشكلة الاولى ان كل أمريكى تقريبا أصبح يملك سيارة وثلاجة وراديو وجهاز تليفزيون وما الى ذلك ، وعدم امشبدال هذه الاشياء الا بعد ان تستهلك .. معناه ان يقل البيع بشكل ذريع ، وهذا غير معقول ، اذن لابد من اثارة سخط المواطن على ما لديه . لابد من جعله يشمئز من فكرة بقاء سيارته دون تغيير أكثر من ثلاث سنوات ، لابد من اقناعه ان سيارته التي اشتراها وكان شكلها بديعا منذ سنتين قد أصبح الآن شكلها قبيحا جدا ! ويسمى المتخصصون فى هذا الفرع باسم « تجار السخط » .

المشكلة الثانية هي ان كل السلع ذات النوع الواحد بدأت تتشابه الى حد بعيد ، فلا يوجد في الواقع أى فرق جوهري بين الانواع المختلفة للسيجارة أو الويسكى أو البيرة أو معجون الاسنان أو البوتاجاز.. اذن كيف يقنع المعلن المستهلك بأن يشتري هذه الماركة دون تلك ؟.. واجتمع مؤتمر المعلنين لمناقشة مشكلة اتجاه السلع الى التشابه السريع واتفقوا على انه لايمكن اقناع المستهلك هنا عن طريق العقل الواعى .

اذن فلا بد لمواجهة المشكلتين السابقتين من التأثير على العقل الباطن !

وقد توصل علماء النفس الذين يخدمون شركات الاعلان الى أن وعى الانسان - أى انسان - له ثلاثة مستويات أو ثلاث درجات :

الدرجة الاولى : يكون فيها وعى الانسان كاملا ، فهو يعرف ما يريد بالضبط ولماذا يريد .

الدرجة الثانية : هى العقل الباطن ، والانسان فيها ربما يتحسس بوجه عام ما يريد ، ولكنه متأثر فى ذلك بعوامل خفية ، كمخاوفه وأحلامه غير المتحققة ونوازعها وما الى ذلك .

والدرجة الثالثة : هى النوازع والمشاعر التى لايعرفها الانسان .. واذا عرفها فهو لايناقشها .

وقال خبراء الاعلان : ان رسالتهم هى التركيز على الدرجتين الثانية والثالثة فى نفس الانسان .

ومن هنا ولد مبدأ تطبيق قواعد التحليل النفسى على سوق التجارة .

ومن أشهر الاسماء التى يذكرها الكتاب فى هذا المجال ، اسم ايرنست ديتشر مدير معهد البحث فى الحوافز البشرية.. والذى تقصده الشركات لكى تستشير

في عمليات البيع والشراء . . ولدى هذا المعهد مئات من العائلات التي يستخدمها كحيوانات التجارب ، لاكتشاف النوازع النفسية الكامنة التي تتحكم في الفرد حين يشتري هذا أو لا يشتري ذلك . ولهذا الخبير «ديتشر» عبارات أصبحت أقوالاً مأثورة يهتدى بها التجار والمعلنون . فهو القائل مثلاً : « أنت لا تبيع للمرأة حذاء ، ولكن تبيع لها أملاً في قدمين جميلتين ! » . وفي معهد ديتشر هذا يعمل مئات من علماء النفس والباحثين والاختصاصيين . ودستوره أن السلعة لا تباع لمجرد أنها جيدة ، ولكن يجب أيضاً أن « تلبي حاجة في نفس الإنسان وفي مشاعره أو في غرائزه » . .

ويروى الكتاب بعض تجارب هذا المعهد والنتائج العجيبة التي حققها .

في تجارة الويسكي مثلاً : لقد وجد تجار الويسكي أن ٨٠ ٪ من الخمر يشربها مدمنو الخمر ، لا الشاربون العابرون ، ووجدوا أن المدمن يشرب الخمر لأن الخمر تعطيه شخصية أخرى غير الشخصية التي يعيش بها في العادة . ولذلك تتحول شخصية المدمن تماماً في لحظة السكر . فبعض الأشخاص الهادئين جداً يصبحون عدوانيين ، وبعض الذين عرفوا بقلّة الكلام يصبحون ثرثارين ، وهكذا . .

وأرادوا أن يكتشفوا « الشخصية الأخرى » التي يحن كل فرد إليها من خلال الخمر فكانوا يحضرون للفرد مثلاً عشر صور لعشرة أشخاص . كل واحد من هؤلاء العشرة معروف للشركة جيداً ومعروف أنه مريض بشيء معين . . شذوذ جنسي ، أو بارانويا ، أو هستيريا ، إلى آخره . ويسألون « الزبون » إذا كان مسافراً في قطار لمدة طويلة : من يختار من هؤلاء ليكون في صحبته ؟ . .

ان الزبون في هذه الحالة سيختار تلقائيا الشخص المصاب
بالمرض الذي توجد ملامح خفيفة منه لدى الزبون ، دون
ان يدري بالطبع .
لماذا ؟ ..

لكي تنشر هذه الصورة في اعلانات تفرى على المزيد
من الشرب !

وبعض السلع يشتريها المستهلك لمجرد انها تقترب في
ذهنه بصورة معينة لمن يستهلكها ، وهو يريد ان يرى
نفسه في هذه الصورة ، وهذا ينطبق على اشياء غريبة ،
من السجاير والسيارات الى محطات البنزين ..

فبالنسبة للسيارات مثلا ، ظهر من التحليل النفسي
للجمهور ان الفرد العادي قلما يهتم بالجانب الميكانيكي
للسيارة ، ولكنه يهتم بمنظرها وبما تمثله من صورة
اجتماعية ، يرى انها تعبر عن شخصيته ، او يريد ان
يظهر بها امام الناس : « فالسيارة الكاديلاك يشتريها
صاحب الذوق المبهرج ، الذي يريد ان يبهز الناس ،
رجل الاعمال الذي يعقد الصفقات التي تقدر قيمتها
بالملايين ، الرجل المتوسط العمر ، والسيارة «الفورد»
يشتريها الرجل السريع الحركة ، العملي ، ابن الطبقة
المتوسطة الناجح ، الشاب بوجه عام » . و « الستودي
بيكر يشتريها المثقف ، الذي يريد ان يتميز بفرديته
وأخلاقه عن الآخرين ، الشاب أيضا ، والبونتيك يشتريها
رجل مستقر غير طموح ، او رجل عادي يجد سعادته
في ان يكون كالأخرين ، او امرأة متزوجة ، أو أم ! » .

وقد اكتشف علماء النفس أيضا ان التاجر يستطيع
ان يكسب الملايين اذا عرف كيف يستغل في الناس
مخاوفهم الكامنة ، وشهواتهم بالذنب ، وقلقهم
واحساسهم بالوحدة ، والتوتر العصبي الذي يشكون

منه ..

فتدخين السجائر مثلا عادة تقترن دائما باحساس مبهم بالذنب .. اما بسبب تحريمها على الفرد وهو صفيّر واما بسبب ما يقال من انها مضرّة بالصحة أو انها تسبب هذا المرض أو ذلك ..

كانت شركات السجائر عادة ترسم في اعلاناتها وجه رجل ينفث دخان السيجارة وقد ارتسمت على وجهه آيات السعادة والراحة والاطمئنان . وقال دكتور ديتشر لمنتجى السجائر انهم مخطئون. ذلك ان المدخنين يعرفون جيدا انهم يحتاجون الى السيجارة حين يكونون تحت ضغط معين أو حالة اجهاد أو يصارعون ضد الزمن . وقال لهم ان تركيز الدعاية على ان السجائر غير ضارة سوف يقتل تجارة السجائر . وبعد أبحاث نفسية وتحاليل معقدة ارجعوا التدخين الى أسباب محددة منها : تهديّة الاعصاب ، والظهور بمظهر اجتماعي ، كتعويض عن التعب بعد مجهود شاق ، كمساعد على التفكير ، كدليل على الشجاعة والجرأة ، كدليل على مشاركة الناس في عاداتهم وعدم الخروج عنها. كما ظهر ان من الافراد من يشعل سيجارة حين يدخل حجرة ممثلة بالناس لكي يبدو أقل توترا وقلقا ، أو ليخفي خجله ، أو ليبدو أكثر رفاهية واستعلاء ... وسجل البحث ان الأمريكيين بالذات يدخنون كثيرا لسبب رئيسي هو : أن يبرهنوا على أنهم ناضجون ، نشيطون ، أكفاء ! وان الشاب الصفيّر يدخل ليبدو أكبر من سنه ، والرجل المعجوز يدخل لكي يبدو أصغر من سنه !

وباستفلال هذه التحليلات ، يمكن رسم صور الاعلانات عن هذه السيجارة ، ولكن بالطريقة التي تلبي في نفس الجمهور الصورة التي يريد أن يراها لنفسه ، أو تلمس

الحاجة الكاملة في عقله الباطن .

ويضرب الكتاب عشرات الامثلة عن عشرات من السلع ، من اللبان الذي ساعد على ترويجه نشر حالة من الرعب من جراثيم الفم ، الى الحديد والالومنيوم والادوات الكهربائية .

فأحد الجرارات الزراعية الممتازة لم يلق رواجاً لأن مقعد السائق يبدو مكشوف الظهر وفي مكان ضعيف ازاء مقدم الجرار الضخم الثقيل ، الأمر الذي يشعر سائقه بعدم الأمن ، ولذلك بدأ يروج حين امكن تلافى ذلك في تصميم مكان السائق وتوزيع الثقل بين مقدم الجرار ومؤخرته ...

والطائرات كان سر عدم الاقبال عليها ليس بخوف الرجل من الموت ، ولكن خوف زوجته وأهله الذين لا يسافرون فأصبحت الاعلانات كلها ترسم صورة الزوجة تودع زوجها وهي باسمه مشرقة ، أو تضغط على فكرة ان الطائرة تعيد الزوج الى زوجته بسرعة اكثر .. الى آخر كل ما يؤكد فكرة موافقة الزوجة ومشاركتها لزوجها الذي سيركب الطائرة ...

واقبال الناس على الاقتراض من شركات الاقتراض واعراضهم عن الاقتراض من البنوك ، سببه ان البنوك لها مهابة معينة . وان الفرد حين يذهب الى البنك ليقترض يكون كالطفل الذي ارتكب ذنباً وهو ذاهب الى أهله الذين سيعاقبونه وينظرون اليه شذراً .. في حين انه يذهب الى شركات الاقتراض بالربا الفاحش كالرجل الذي يذهب الى مكان سيء السيرة .. المكان هو الجدير بأن يخجل من الرجل !

وأحدى شركات معجون الاسنان استفلت شعور الناس بالذنب لأنهم لا ينظفون أسنانهم بعد الاكلات الثلاث ،

وانما يستخدمون المعجون مرة واحدة في اليوم ، فكسبت الشركة ملايين الجنيهات لمجرد أنها أضافت الى اعلاناتها كلمة : « هذا المعجون يفيد الذين لا يجدون وقتا لدعك أسنانهم ثلاث مرات ! .. »

واحدى الشركات التى تطبع وتبيع بطاقات المعايدة ، وجدت من التحليل النفسى للزبائن ان أكثر الناس اقبالا على شراء بطاقات المعايدة فى المناسبات هم الذين يعانون من الشعور بالوحدة ، كالأرامل والمطلقات والذين يعملون فى أماكن بعيدة عن أهلهم ، فأصدرت أوامرها الى الرسامين الذين يرسمون لها البطاقات بأن يختاروا لرسومهم موضوعات تجذب أصحاب هذه النفسية بالذات ، كشجرة وحيدة فى جزيرة ، أو قمر حزين فى سماء زرقاء خالية ! ان القاعدة الذهبية فى فن البيع كما يقول الكتاب هى : انك لا تباع السلعة نفسها فقط .. ولكنك تباع المعنى الذى يرتبط بها فى ذهن المشتري ، وبقدر نجاحك فى استغلال هذا الضعف المعين فى نفس المشتري ، بقدر ما تنجح فى مضاعفة مبيعاتك ..

وأهم « المعانى » التى تباع للناس هى :

● بيع الاحساس بالامن :

لقد وجدت شركات انتاج الثلاثجات ان شراء الطعام ووضعها فى الثلاثجة ثم استخدامها ليس عملا اقتصاديا ولا مبرر له . اذن فلا داعى للتركيز فى الاعلانات على الناحية الاقتصادية . ولكنها وجدت ان استخدام الفريجيدير قد زاد بشكل ساحق منذ الحرب العالمية الثانية وما حدث من قلق على ندرة الطعام واختفاء هذا الصنف أو ذاك ، واكتشفت أن الثلاثجة فى البيت تعطى احساسا بأن الطعام موجود دائما فى البيت ، ووجود الطعام فى البيت يعطى احساسا بالامن ، والدفع ..

وان الذين لا يشعرون بالامن يحتاجون الى أن يكون لديهم من الطعام أكثر مما يستهلكون بالفعل .

وتكثيف الهواء يشتريه بعض الناس ليلبي في نفوسهم رغبة في العزلة ، والانطواء ، والبعد عن الناس ، بالاحتفاظ بالنوافذ مغلقة ، بل أحيانا يلبي في الفرد حاجة خفية للعودة الى رحم الأم !

والادوات التي تباع لأنها تقول للفرد : « اصنع هذا وذاك بنفسك » قال ديتشر انه من الخطأ أن يتركز الاعلان عنها في أنها توفر فلوسا .. انها تلبي لدى الفرد حاجة الى الانطواء والعزلة وعدم الاحتكاك بالناس .. فالفرد العاكف على آلة خاصة ، يصنع لبيته شيئا ، هو في الواقع فرد ينعم لحظة بعالم مغلق خاص به ، انه متحرر من ضغط العلاقات الاجتماعية . انه مشغول بحوار هادئ مع نفسه ! ..

● بيع الاحساس بالاهمية :

فقد نصحت إحدى مؤسسات التحليل النفسي لشركة من شركات الأدوية ألا تقول في اعلاناتها ان هذا الدواء أو ذاك يشفي المرض بسرعة وببساطة . لأن هذا يتحدى شعور الأطباء ، ويبدو كأنه يحاول الفاء مهنتهم ، فمن الصعب أن يصفه طبيب لمرضاه ، اذ سيبدو انه يكرر لهم ما يعرفونه مقدما من الاعلانات انما الاحسن أن يضغطوا في الاعلان على فكرة ان استشارة الطبيب ضرورية أو انه يجب أن يستعمل تحت اشراف الطبيب . ان هذا يرد للطبيب شعوره بالاهمية وبأنه هو الذي يشفي المريض ، فلا يجد الطبيب حرجا من أن يصف الدواء لمرضاه .. وبالتالي يريد توزيع الدواء !

● بيع الاحساس بالخصوصية :

فالمرء يحب دائما أن يشعر بأنه خصب ، منتج ،

مشهور . لذلك لوحظ ان اثاره الاهتمام بالجدائق والمن هور
ينجح لدى النساء العجائز او الرجال الذين لا اولاد لهم
فان العناية بحوض من الزهر كالعناية بطفل . كذلك
لوحظ ان احساس المرأة حين تصنع كعكة لأسرتها يشبه
احساسها بانجاب طفل . فالاعلانات التي تريد أن تباع
أنواع المواد اللازمة لصنع أصناف « التورتة » لا تحدث
المرأة عن فوائد الغداية ، ولكنها تركز على منظر المرأة
الفخور التي ترتاح نفسيا لأنها خصبة ، مشمرة .

وبعض شركات الأغذية المحفوظة تقدمت في الصناعة
لدرجة انه لم يعد على ربة البيت أن تصنع أى شيء
لتقديم كعكة مثلاً أكثر من وضع كمية من الماء . ولكن
اكتشفت هذه الشركات أن المرأة لا تقبل على هذه الأصناف .
وانها تريد أن تشتري شيئاً يحتاج الى أن تضيف اليه
ربة البيت أى شيء قبل أن يصبح صالحاً للطعام . لأن
هذا الشيء مهما كان بسيطاً يعطيها الاحساس بأنها
ما زالت ربة البيت ، وان صفاتها كامرأة هي التي أدت
الى صنع هذا الشيء !

● بيع الحب :

كحالة المطرب « ليبراس » الذي كسب شهرة هائلة
سريعة . لقد لوحظ انه معبود النساء اللواتي تخطين
السن الصالحة للحمل والانجاب . فكان التركيز في
تقديمه على هذه الناحية ، حتى لقد صفقوا له شعر رأسه
بشكل يجعله أقرب الى الاطفال ، حتى تشعر كل امرأة
تعدت سن الانجاب انها تود لو ربت بيديها على وجنتيه !
● بيع الاحساس بالقوة :

وهو ما تريده شركات السيارات حين تصنع للسيارة
ذيولا ضخمة ، وأطرافاً من النيكل اللامع الشامخ ، لا
فائدة لها الا انها تعطي لصاحبها احساساً بالقوة

● بيع الاحساس بالخلود :

فقد لوحظ في الدعاية للتأمين على الحياة ، ان اقناع رب الأسرة بالتأمين على حياته خشية الموت المفاجيء لا ينجح بقدر ما ينجح اقناعه عن طريق اثاره رغبته الكامنة في أن يكون مؤثرا في حياة أسرته حتى بعد وفاته على أساس ان هذا نوع من البقاء الذي يحن اليه الانسان

وليس غريبا أن يلتفت خبراء الاعلان بعد ذلك الى الجنس ، وما له من دور خطير في الاغراء بالشراء . .

ومن أطرف الامثلة ما لاحظته باعة السيارات من أن الرجال يقبلون في صالات عرض السيارات على مشاهدة السيارة المكشوفة والاعجاب بها الى أقصى حد ، ولكنهم يشترون بعد ذلك سيارات عادية غير مكشوفة .

وقال لهم دكتور ديتشر أن المسألة بسيطة جدا . ان السيارة المكشوفة تشبه العشيقة في نظر الرجل . انها تعطيه جوا من المفامرة ، والشباب ، والمخاطرة ، والمتعة المملوبة . وكما فعل قديما حين عرف أكثر من عشيقة ولكنه تزوج فتاة محتشمة ، فهو يفعل الآن نفس الشيء حين يعجب بالسيارة المكشوفة ثم يشتري سيارة عادية مغلقة ، أنه يتزوجها ، انه يشعر انها أقل روعة وجاذبية واغراء ولكنها أكثر الفة وأمنا واستقرارا واستكانة ! ولو أمكن صنع سيارة يمكن أن تكون مكشوفة ولكن لها سقف معدني يمكن أن يركب فيها لكان هذا أشبه بالعشور على امرأة فيها مزايا الزوجة ومزايا العشيقة ! وبالفعل ، نفذت شركات السيارات هذه النصيحة وكانت أنجح أنواع السيارات لسنوات طويلة !

ولكن استغلال الجنس في الاقناع بالشراء يبرز الى حد كبير ، الاعلان عن أدوات التجميل والملابس الداخلية للنساء . . الى آخره . وقد كانت النعمة أولا هي اقناع

المرأة بأن هذا الشيء أو ذاك هو الذى « يلفت إليها نظر الرجل الذى تريده » . .

ثم أصبحت هذه نفمة قديمة . واكتشف خبراء التحليل النفسى ان المرأة يهتمها فى الاعلان أن يؤكد لها أولا أن هذه السلعة تحفظ لها أنوثتها - أى يهتمها أولا أن ترى هى نفسها جميلة . . ثم أن تبدو جميلة فى نظر النساء الأخريات . . وبعد ذلك يأتى الرجال فى المرتبة الثالثة من الأهمية .

فصورة امرأة معطرة بعطر معين وهى داخلة الى حفلة وقد نظرت اليها النساء الأخريات فى حسد . . تبيع أكثر من صورتها والرجال يتطلعون اليها فى إعجاب !

ويتساءل المؤلف بعد مائتى صفحة يسرد فيها عشرات الحالات : هل هذا النوع من « الاقناع الخفى » يعد عملا أخلاقيا . . أم انه عمل غير أخلاقى ؟

ويرد قائلا : « ان الاعلان لاشك خدمة كبيرة للبائع وللمشتري على السواء . ولا يمكن أن نتصور الحياة الانتاجية والاستهلاكية الحديثة بدون اعلانات . . »

ولكن أين المنصر الأخلاقى فى اقناع ربة البيت بأن تشتري أشياء لاتلزمها ولا تؤدى الا الى افلاس زوجها ؟

أين المنصر الأخلاقى فى استغلال نقاط ضعف الناس ، وفى البحث عن مشاعر الاحساس بالذنب والقلق والنقص فى نفوس الناس ، لا لعلاجها ، ولكن لتنميتها والنفوذ منها الى بيع مزيد من السلع ؟

أين المنصر الأخلاقى فى استغلال الفرائز الجنسية لرفع أرقام المبيعات ، ولو أدى الأمر الى تشويه هذه الفرائز ؟

أين المنصر الأخلاقى فى استنزاف موارد البلاد عن طريق اقناع المستهلك بأن ما لديه ردىء ويجب أن يلقيه

فى الزبالة ليشترى بدلا منه ؟

ثم يعقد المؤلف بعد ذلك فصلا مثيرا يسجل فيه كيف ان خبراء البيع عن هذه الطرق قد دخلوا ميدان السياسة . . وأصبحوا هم المسيطرين على الحملات الانتخابية . . وهم الذين أشرفوا على عمليات بيع كنىدى أو نيكسون أو ايزنهاور للناخبين !

ويقول : ان خبراء «الاقناع الخفى» يصنعون للانسان نفسا على هواهم : نفسا معبأة فى ربطة انيقة ، كاية سلعة أخرى من السلع التى يصنعونها ويبيعونها !

مشورة الأمل الكبيرة

أعلن يوجين بلاك ، مدير البنك الدولي ، مولد مهنة جديدة !

أعلن ظهور « دبلوماسي التنمية » و « دبلوماسي التنمية » .. وهي مهنة تختلف عن مهنة الدبلوماسي السياسي كما عرفها العالم قبل ذلك ..

قال يوجين بلاك في كتاب أصدره : « ان العالم قد عرف السياسي الذي لا ينظر الا الى الاعتبارات السياسية .. كما عرف التاجر والمستثمر اللذين لا يعرفان الا التجارة والربح والخسارة أي لا يعرفان الا الاعتبارات الاقتصادية المحضة .. ولكن بين الاثنين فجوة واسعة ظهرت الآن ليملاها نوع جديد هو « الدبلوماسي الاقتصادي » .. أو « دبلوماسي التنمية » ! .. »

أعلن يوجين بلاك هذا في كتاب اسمه « دبلوماسي التنمية الاقتصادية » ..

والذي أوحى له بتأليفه ، بالطبع ، هو منصبه كمدير للبنك الدولي ، والتجربة التي أضأت له الفكرة تجربتان :

الاولى - الدور الذي قام به بعد حرب السويس ، مع الجمهورية العربية المتحدة ، لتصفية الآثار الاقتصادية للمشكلة .

والثانية - الدور الذي قام به لحل الخلاف بين الهند

وباكستان حول استغلال نهر السند .
يقول يوجين بلاك ان هذه « الدبلوماسية الاقتصادية »
الجديدة هي التي تصنع أكبر الانباء في هذا العصر . .
وان كانت هذه الانباء ليست من النوع الذي تنشره
الصحف في صفحاتها الاولى .

ويطالب يوجين بلاك بأن يكون لهذه الدبلوماسية كيان
قائم بذاته مستقل عن الجهاز الدبلوماسي السياسي
المعروف . .

يقول يوجين بلاك ان دبلوماسية التنمية الاقتصادية
هي فن تحقيق التنمية بأقل قدر ممكن من الصراع .
ذلك ان كل تطوير اقتصادي ينطوي حتما على تغيير
اجتماعي . والتغيير لا يتم بسهولة . ومن هنا كانت
التنمية مهمة دقيقة وخطيرة .

ويقول يوجين بلاك ان الناس في البلاد الفقيرة بدأوا
يرفضون الاعتراف بأن فقرهم حظ لامر منه ، ويؤمنون
ان الانسان يستطيع أن يسيطر على حياته ويغيرها .
وقد وجد هذا التغيير الشعبي قادة يعبرون عنه ، وزعماء
يريدون أن يحققوا لشعوبهم في أجيال قليلة كل ما وصلت
اليه الحضارة عبر قرون طويلة . ويطلق يوجين بلاك على
هذا اسم : ثورة الآمال الكبيرة !

ودبلوماسية التنمية الاقتصادية عليها أن تواجه هذه
الآمال المتحمسة ، فالدبلوماسية السياسية منذ قرون
تعرف عملية « توازن القوى » . أما الدبلوماسية
الاقتصادية فعليها أن تواجه عملية جديدة يمكن أن
تسمى « توازن الآمال » . أي : كيف تكون للبلاد
المتخلفة اقتصاديا آمال متوازنة .

ويركز يوجين بلاك موقف البلاد الناشئة في أن مشكلتها
الكبرى هي الفقر وازدياد عدد السكان . وهذه الزيادة

في السكان قضت على الأمل التقليدي للمواطن في تلك البلاد ، وهو امتلاك قطعة خاصة به من الأرض ، لأن الأرض لا تكفي . فنحن هنا نواجه حالة «انهيار» الآمال القديمة » . وهذا الفلاح نفسه اذا اضطر للهجرة الى المدينة فانه يحس - أول الأمر على الأقل - بالضيق وعدم الأمن ازاء هذا الشكل الجديد للحياة والعمل والعلاقات .

أما الآمال الجديدة فهي في الواقع مركزة في الاقلية المتعلمة . ويعتقد يوجين بلاك ان الاقلية المتعلمة هي أبرز عوامل الخطر في البلاد المتخلفة اقتصاديا . انها تواجه أزمة نفسية حادة . فالثقافة أعطتها من الآمال والاحساسات أكثر مما قدمت لها من فرص مادية لتحقيق هذه الآمال . الطبيب الذي يعرف ماذا يستطيع الطب أن يصنع من معجزات ، ولكنه لا يجد الأدوات . المهندس الذي لا يجد المصانع . المدرس الذي لا يجد المدارس . والكاتب السياسي الذي لا يجد الأتباع الذين يفهمون حقا ما يريد أن يصنعه من أجلهم .

هذه الفئات المرهقة نفسيا ، التي قادت ثورات التحرر الوطني في البلاد المتخلفة . وهي التي عليها الآن مهمة اعداد بلادها لنظم اقتصادية حديثة .

ان يوجين بلاك يعتقد ان الزعماء في تلك البلاد يواجهون مهمة من أقسى وأصعب ما واجه الزعماء من مهمات في جميع مراحل التاريخ !

انهم يعرفون أن شعوبهم لابد ان تضحي ، لكي تتخلص من فقرها وتخلفها .

والسؤال الخطير هو : هل يستطيع مجتمع فقير أن يتطور ، دون أن يضطر الى الأخذ بنظم قاسية ، أو غير عادلة ؟ ..

وفى الفصل الثانى من هذا الكتاب وعنوانه «دبلوماسية المساعدات الاقتصادية» يبدو يوجين بلاك أكثر فهما لمشاكل البلاد الناشئة من كثير من المفكرين الاقتصاديين فى الغرب .

فهو يعترف بالدور القيادى الذى يجب أن تقوم به «الدولة» فى عملية التنمية الاقتصادية .. ولا يتشبه بفكرة اعطاء كل شئ للاقتصاد الفردى كما يطالب عادة الاقتصاديون الرأسماليون .

وهو يعترف بأهمية أسلوب «التخطيط» فى انهاض البلاد الناشئة .. بل ويطالب بالتخطيط كسلاح أساسى فى هذه المعركة .. فالتنمية الاقتصادية ليست مجرد اقامة سلسلة من المشروعات . بل لابد أن تكون هذه المشروعات داخلية فى إطار خطة عامة اقتصادية .. وهذه الخطة الاقتصادية لابد أن تكون جزءا من السياسة القومية للبلاد .

وهو يطلق على التخطيط تعريفا طريفا فيقول : التخطيط معناه أن يعرف السياسى نتائج القرار الذى يتخذه قبل أن يتخذ هذا القرار ، وليس بعد ذلك . والتخطيط معناه ايجاد صلة وتجارب مستمر بين الذين يتخذون قرارات الخطة ، والذين يتولون تنفيذها ..

وهو بعد ذلك يحذر بشدة من وضع خطة شاملة بشكل أكاديمى على أساس ما يتمناه الناس ، لا على أساس الحقائق . لأن مثل هذه الخطة غير الواقعية ، اذ تصبح قانونا للبلاد ، قد تؤدي الى عواقب وخيمة .

ولكن يوجين بلاك - وهو يسجل أهمية دور الدولة وأهمية أسلوب التخطيط - يقول : أن الأخذ بهذا الأسلوب لا يحتاج الى عقيدة معينة أى «ايدولوجية»

معينة . فهو يعترف بهذه الاساليب ، لأسباب عملية محضة .

والمعنى من هذا الكلام واضح . . فهو يريد أن يستبعد أى فكرة اشتراكية من الموضوع . انه ، كمؤمن بالنظام الاقتصادى الغربى ، يعترف بدور الدولة وبأسلوب التخطيط ، ولكنه يرفض أن تكون هذه الاساليب جزءا من عقيدة اشتراكية . انه يرفض فكرة ان الاشتراكية قد تكون أكثر فهما لمشاكل الدول الناشئة وأكثر ملاءمة للنهوض بها . فهو يرفض فى الواقع أن يوجد أسلوب آخر للحياة غير الاسلوب الغربى ، ولكنه يقبل الأخذ بإجراءات استثنائية لفترة مؤقتة ، تعود بعدها الحياة الى شكلها الطبيعى ، أى شكلها الغربى .
انه لا يقول هذا طبعاً ، ولكن هذا هو المعنى النفسى الكامن فى الكتاب .

ولذلك فهو يستبعد من الموضوع كله أى لون عقائدى . ويقول : ان الاعتراف بدور الدولة القيادى فى التنمية وبضرورة التخطيط الشامل ، لا يحتاج الى عقيدة معينة فهو يحاول اقامة «جسر» بين هذه الاتجاهات وبين الدول الرأسمالية . . بدلا من أن يقوم جسر آخر بينها وبين الاشتراكية .

وليس هذا استنتاجا محضا . فالمؤلف نفسه ، فى الصفحات الاولى من الكتاب ، يذكر هذا البحث لروستو بالتقدير الكبير . .

ثم يعود يوجين بلاك الى اظهار تقديره للصعوبات الجمة التى تواجه البلاد الناشئة ، فى هذا المجال . . فيقول فى صفحات بليغة ان عملية التنمية تصطدم كل يوم وكل ساعة باعتبارات كثيرة .
فهناك صراع دائم بين مطالب التنمية ، وبين مطالب الناس

العادية ورفاهيتهم .
وهناك صراع دائم بين مطالب التنمية وبين مطالب الأمن
والدفاع الوطنى .
وهناك صراع بين مطالب التنمية وبين الرغبة فى
تشغيل أكبر عدد .

كل هذه الأنواع من الصراع تواجهها خطة التنمية ،
كل لحظة يواجه المسئول عنها موقفا يحتاج الى اختيار
.. والقاعدة ان أى اتفاق فى أى شىء آخر ، يعد ضارا
بمصلحة التنمية ، وبالتالي يؤجل حل مشكلة الفقر .
ولكن الزعيم السياسى لا يستطيع أن يلقى كل شىء فى
سبيل التنمية فحسب .. ان عليه أن يوائم بين أشياء
كثيرة .. بين مصالح البلاد السياسية ، وظروفها
الدفاعية ، ورغبات الناس العادية ، واتجاهات الفئات
المحافظة التى لا تتلاءم بسرعة ، وعشرات أخرى من
الظروف .

ويقول يوجين بلاك ان «دبلوماسية التنمية الاقتصادية»
يجب أن يعترف بأهمية هذه الظروف كلها ويدركها .
فلا يمتحن كل شىء على ضوء الربح والخسارة فقط .
ونقطة الخلاف الأساسية مع يوجين بلاك هى انه بعد
ان يسرد فى فهم دقيق كل ظروف البلاد الناشئة ..
لا يصل الى النتيجة المنطقية لذلك وهى : أهمية العقيدة
فى الموضوع ، فبغير العقيدة فى الواقع لا يمكن ربط هذه
الأشياء كلها فى حركة متناسقة مندفعة الى الامام .

وقد ركز يوجين بلاك حديثه على ناحية رفع الانتاج ،
ولم يشر بشىء الى عدالة التوزيع . وقد يقال ان هذا
موضوع خارج عن اختصاصه كمدير بنك لا شأن له
بالسياسة الداخلية لأى بلد ولكن اذا كان المجال مجال
دراسة لوجهة نظر متكاملة .. فلا بد من القول بأن عملية

رفع الانتاج لابد أن يراعى فيها «اعادة التوزيع» تدريجيا .
وهذا فى الواقع هو أهم ما أراد يوجين بلاك أن يستبعده
من دراسته ، وهو من أهم ما تؤمن بضرورة وجوده فى
أى خطة اقتصادية للتنمية .

فالمجتمع لا يمكن أن تقوده فى تطلعه الى المستقبل مهمة
اقتصادية فقط ، انما لابد أن تقترن هذه المهمة الاقتصادية
بمهام أخرى معنوية ، وأن تكتسب صفات أخرى
كالعدالة ، والتحرر الاجتماعى ، والكبرياء القومى ،
والمساواة ، أى لابد أن تقود الشعب عقيدة شاملة على
نحو ما ، تشعره أنه يغير «نوع» حياته ذاتها ، لا كمية
طعامه وكسائه فقط . وبغير ذلك نكون قد اقتصرنا فى
التنمية على جانب اقتصادى تجارى بحت ، ونكون قد
وقعنا فى الفلطة التى وضع يوجين بلاك كتابه لكى يحذرنا
منها !

المنحة التي تواجهها الاشتراكية

الاهمية الخاصة للمقال الذي أريد أن أعلق عليه هو أنه يلخص في تركيز شديد ، أهم ما يردده خصوم الثورة وخصوم الاشتراكية على المستوى العالمي ..

يقول « سرفان شرايبر » الكاتب السياسي الفرنسي المعروف ما معناه أنه يعلن موت الثورات ، وموت الاشتراكية ، في العالم ، يقول ان الاشتراكية قد هزت العالم أكثر مما هزه أى شيء آخر خلال الخمسين سنة الأخيرة . ولكن الآمال التي كانت معقودة على الاشتراكية قد تبخرت . روسيا باقتصادها المخطط لم تلحق بأمريكا ذات الاقتصاد الحر . شرق أوروبا ما زال يناضل لرفع مستواه وغرب أوروبا غارق في الرخاء . وقد بدأ له أن الثورة والاشتراكية ربما تكون حلا ملائما للدول المتخلفة النامية .. ولكن ها هي ذى كوبا والجزائر وغينيا تقاسى ألوانا من المتاعب . أما الذى جعله يعلن هذه النتيجة فهو ما يحدث هذه الأيام فى الصين . فبعد آمال جديدة فى مساواة لا مثيل لها ، وجيش بلا رتب عسكرية ، وما إلى ذلك ، تحول الأمر إلى ما يشبه الحرب الأهلية صراعا على السلطة « أن أحفاد فورد وروكفلر - يقول الكاتب - ينعمون بالرخاء والنجاح فى حين أن تلاميذ ماركس ولينين وتروتسكى يتناحرون فى كل مكان ! » .

وهكذا انتهت الثورة العالمية. وانتهت أحلام الاشتراكية.
العصر الحالى لم يعد عصر الملاحم المثيرة ، ولكنه عصر
العقول الحاسبة والتنظيم العلمى للعمل .

ولو كان هذا الخلط الشديد موجودا فى ذهن الكاتب
الشهير وحده لما كان للأمر أهمية . ولكن هذا الخلط
نموذج لما يختلط فى الذهن الاوروبى الغربى بوجه خاص
وفى الذهن « البورجوازى » العالمى بوجه عام ..

الذهن البورجوازى الاوروبى لا يرى على الارض الا
مدرسة ثورية واحدة هى الماركسية اللينينية ، ويعتبر
كل شىء آخر متفرعا عنها ، ناسيا ان الينايع التى تفجر
الثورات هذه الايام كثيرة ، وان التراث الثقافى والفكرى
للتأثرين متنوع .. فهناك ما يجمعهم وهناك ما يفرق
بينهم .

والذهن البورجوازى - الاوروبى والعالمى - يجد
أوروبا الغربية غارقة فى الشراء والرخاء ، ويرى باقى
النظم والبلاد ليست على هذا المستوى ، يرى فى هذا
أقوى حجة لمصلحة النظام الرأسمالى ..
ولكن ..

ما هو عمر « الاستقلال » فى آسيا وأفريقيا ؟ .. عمره
- فى المتوسط - عشر سنوات !

ما هو عمر « الوجود الاوروبى » فى آسيا وأفريقيا
قبل ذلك ؟ .. عمره - فى المتوسط - مائتا سنة !

ماذا استفادت آسيا وأفريقيا من « الوجود الاوروبى »
فيهما خلال مائتى سنة ، وماذا استفادت من الاستقلال
- وأحيانا الاستقلال النسبى فقط - خلال عشر سنوات ؟

أوروبا تركت الجزائر والكونغو وغيرهما وليس فيها
عشرة أطباء ، ولا جامعة واحدة ، ولا عشرة محاسبين
اقتصاديين . تركتها هكذا بعد وجود يزيد على القرن ..

ثم يجيء الخواجه شرايبر فيتساءل عما صنعتها الجزائر وكوبا والكونغو وغيرها بعد سنوات من الاستقلال لا تبلغ العشر سنوات . بعد فترة لا تكفى لأن يدخل الطفل المدرسة الابتدائية ويتخرج ويصبح فنيا نافعا لبلده .. طبيباً أو مهندساً أو محاسباً ..

وهذا الوجود الاوروبى الذى دام - فى المتوسط - مائتى سنة فى آسيا وافريقيا .. وكان مأساة بالنسبة لآسيا وافريقيا .. هو نفسه الذى كان خيراً وبركة على غرب أوروبا . فنهب ثروات الهند والصين والشرق العربى وافريقيا لحساب أوروبا قصة لا تحتاج الى تكرار .. ولا تحتاج الى تذكير .. لأن الكثير منها مازال قائماً الى اليوم !

الفرب نهب من آسيا وافريقيا كل شيء وتاجر فى كل شيء ، تاجر حتى فى البشر ، حين شحن ملايين الزوج فى تجارة بشعة واسعة الى مزارعه فى أمريكا . وأفسد حتى شن حرباً رسمية ضد الصين لارغامها على اباحة تجارة الافيون فى الصين .. الافيون الذى خدر الصين مايقرب من قرن بأكمله .. بنيت بأرباحه الآلات والمصانع والسفن والجامعات فى انجلترا وغيرها . واذا كان هذان النموذجان - العبيد والافيون - لهما صفة أخلاقية أبشع من صفتيها التجارية ، فلمجرد التدليل على ان الفرب لم يقف عند أى شيء فى سبيل امتصاص أكبر قدر من الثروات من آسيا وافريقيا .. وترك أكبر قدر من الفقر والتخلف فيهما .

لا مقارنة اذن بين بلاد عرفت المصانع والجامعات والانسيكلوبيديا والبارود منذ مئات السنين .. وبلاد عشعش فيها الظلام هذه المئات من السنين ، وبسبب فعل فاعل هو هذه البلاد المتقدمة ذات المصانع والجامعات

والانسيكلوبيديا ! والتموذج حاضر في مصر ذاتها - وان لم يذكرها الكاتب في مقاله - فالانجليز عندما احتلوا مصر سنة ١٨٨٢ كان أول ما عملوه أن فكوا كل ما كان لدينا من صناعات بازغة.. صناعات الاسلحة والاقمشة والسفن والزجاج وغيرها وباعوها خرقة ..

قبل مائة سنة كانت مصر - سياسيا - فيها اجزاب تطالب بالدستور والديمقراطية واثاحة الفرص أمام المصريين .. متقدمة بذلك على بلاد في أوروبا لم تكن قد عرفت ذلك بعد . وكانت فيها صناعات بازغة لم تكن بعض بلاد أوروبا تجاريها بعد . ولكن عجلة الدول الكبرى الممثلة ذلك الحين في انجلترا ، داست هذا وتعمدت تحطيمه وتدميره حتى يتحقق ما قاله كرومر في زهو : « اختفت كل الصناعات المصرية من الذكاكين التي امتلات بالسلع الواردة من أوروبا » .

يتحدث الكاتب الفرنسي عن فشل « الثورة » بمعناها الواسع العالمى ، بعد أن هزت العالم وأربكته خمسين سنة .. لأن الدول التي قامت فيها هذه الثورات لم تصبح بعد مثل فرنسا وانجلترا وأمريكا . يكفى أن هذه الخمسين سنة اسقطت معظم أبنية الاستعمار التي أقامها الغرب عبر مئات طويلة من السنين ! أما قضية تركة التخلف وتحويل المجلة في اتجاه التقدم . وتحقيق المستوى العالمى من التعليم والتصنيع التكنولوجى فهذا أمر يستتفرق أجيالا طويلة مهما كان نوع النظام الاجتماعى .. « أولا » لأنه صعب وقد استفرق في الغرب نفسه قرونا . و « ثانيا » لأن الغرب ما زال من وجوه كثيرة يقاوم هذا التطور نفسه . وما نحن نرى الكونفو مثلا تحاول بكل بؤسها وتعاستها أن تستخلص ثروتها الوطنية ليتنفق منها على نفسها في وجه مؤامرات

هائلة من الاذكياء الاغنياء الاقوياء المترفين !

هذا هو الخلط الاول الذى يردده العقل البورجوازي العالمى والمحلى ، حين يعقد مقارنة لا تتوفر أسبابها من الاساس . ينعى الثورة الوطنية العالمية الى الناس ، بطريقة يصبح لا بديل معها الا العودة الى الازعان للغرب ! كان مئات السنين الماضية بنتائجها المخربة ليست درسا كافيا !

الخلط الاول خاص بالمستوى المادى ، اما الخلط الثانى الذى يردده العقل البورجوازي العالمى ، فهو عن الاستقرار . انظروا الى الاضطرابات والانقلابات والقلق فى العالم الثالث . . وانظروا الى الاستقرار فى أوروبا وأمريكا .

نعم . . تعالوا ننظر الى الاستقرار فى أوروبا وأمريكا . سنفترض - لكى يسهل التركيز على نقطة الاستقرار - ان دول غرب أوروبا مثلا قد وصلت الى نوع مستقر من النظام السياسى والاجتماعى والاقتصادى متشابه بين شتى دولها . . وان علاقاتها كدول قد استقرت بحيث لم يعد مجال لقيام حروب أو اصطدامات أساسية وهى مؤامرات متبادلة . . وانها توشك أن تحقق مرحلة أخرى من النضج وهى السوق المشتركة وربما الوحدة الأوروبية ولكن . . عبر أى طريق وصلت أوروبا الغربية الى هذه المرحلة من الاستقرار ؟ . .

إذا كان تاريخ النظام الاجتماعى والسياسى والاقتصادى الأوروبى الحالى قد بدأ بالثورة الصناعية والثورات البورجوازية كالثورة الفرنسية ونظائرها . . فهذان القرنان تقريبا قد شهدا فى أوروبا عددا من الانقلابات والثورات والحروب المحلية والعالمية ، لم يعرف العالم

لها مثيلا في عشرة قرون مجتمعة في أى حقبة من تاريخه الطويل ..

كم مرة دخلت جيوش الفرنسيين المانيا وكم مرة داست جيوش الالمان باريس .. كم من ثورة وكم من انقلاب ودستور وكم من ملكية وكم من جمهورية عاشتها فرنسا في مائة سنة فحسب ؟ كم مرة توالى النظم بين ديمقراطية مطلقة وديمقراطية موجهة ونازية وفاشية ودكتاتورية عسكرية ورأسمالية مطلقة ورأسمالية مقيدة .. على فرنسا ومانيا وايطاليا .. كم مرة نزلت جيوش انجلترا أرض القارة وكم مرة قاطعت القارة انجلترا أو حاصرتها اقتصاديا أو دمرتها بالقنابل ؟ .. كم مرة انفجر القتال في الشوارع وشكلت فرق الاعداء وافلست البنوك وجاع العمال واحترقت المدن ؟ .. كم مرة تمخضت أحشاء أوروبا عن مذاهب وحركات عنصرية ورأسمالية وشيوعية واشتراكية ودينية والحادية وفوضوية حتى تلخص قليل من هذه التيارات في قليل من المؤسسات السياسية المستقرة نسبيا ؟ خاضت أوروبا غمار هذا كله ، قبل أن تعرف درجة الاستقرار الحضارى التى تتباهى بها اليوم . كان هذا هو المخاض الذى تحمّله أوروبا والذى لابد أن يتحمّله أى كيان حضارى فى مرحلة النمو والتطور . والبحث عن الذات قبل الرسو عند شاطئ الهيكل القابل للاستمرار والاستقرار حقبة تاريخية من الزمن ..

ان ما يحدث فى الصين اليوم .. بصرف النظر تماما عن معناه ومفراه والمذهب الذى يدور حوله الصراع .. ما يحدث فى الصين ذات السبعمئة وخمسين مليونا اليوم لا يختلف عن التقلصات الداخلية التى حدثت فى مرحلة النمو الحضارى - فى اطار النظام الرأسمالى تلك

المرّة - في ألمانيا وفرنسا وإيطاليا في هذا القرن أو القرن السابق عليه . . ألم تعرف أمريكا مثلاً حرباً أهلية طاحنة في إحدى مراحل نموها الحضارى بعد الاستقلال . . ما زالت آثارها باقية في ولايات الجنوب حتى اليوم ؟ . . ألم يكن الصراع بين نظام الحزب الواحد والأحزاب المتعددة دائراً في أوروبا منذ قرن فقط . . وتخضبت أوروبا بسببه بالدماء في إسبانيا ثم في إيطاليا ثم في ألمانيا . . فضلاً عن الاصطدامات داخل كل دول القارة حتى وصل الأمر إلى الحرب العالمية الثانية ؟ ألم تكن الحرب العالمية الثانية صراعاً على ترتيب بيت الرأسمالية على مستوى أوروبا وعلى العالم . . انتهى ببدء أفلات العالم من قبضة أوروبا ؟ . .

حوادث الصين الراهنة لاشك مخاض هائل . قد يكون تطوراً وقد يكون مأساة . لا أحد يعرف بعد . ولكن أى فرق بين الظروف الحضارية للصين اليوم والصين التى كانت نائمة تحت أقدام الغرب قبل نصف قرن ؟ أى فرق بين الصين ذات الأفىون وبيع الأطفال واقتناء الجوارى والاحتلال من عدة دول والمذابح اليابانية والهوان العميق . . من صين اليوم التى تربض كالتنين الهائل يرهبه الأصدقاء والأعداء على السواء ؟ . .

ولكن . . . أين مكان « الاشتراكية » من هذا الجدل كله ؟ . .

هذا هو الخلط الثالث المقصود ، الذى يردده «العقل البورجوازي» في كل مكان ، والذى عبر عنه « سيرفان شرايبر » في مقاله الذى أثار هذا التعليق . .

فالكاتب الفرنسى الذى يعبر عن العقل البورجوازي المعاصر ، عندما يضرب الأمثلة بالبلاد التى تواجه صعوبات ، لا يختار أى نموذج في بلاد العالم الثالث فحسب ، تلك

البلاد التي تشترك في تركة التخلف وفي مخاض البحث عن صورة مستقرة ، ولكنه يختار بالتحديد البلاد ذات التجارب الاشتراكية أو ذات التجارب الشيوعية . . فهو يذكر الصين مثلا في آسيا ولا يذكر تايلاند . وهو يذكر كوبا ولا يذكر سلفادور ونيكاراجوا وكورستاريكا وكولومبيا . وهو يذكر غينيا ولا يذكر ساحل العاج أو داهومي . ويذكر الجزائر ولا يذكر السعودية . ولا قياس طبعا بين حالة الاغلبية الساحقة من الشعب في البلاد من النوع الاول وبينها في البلاد من النوع الثاني .

هذا في حين ان الانقلابات في البلاد ذات النظم الثورية كما يسميها لا تزيد على الانقلابات في أمريكا الجنوبية ، لجنة الرأسمالية الغربية والأمريكية بالذات ، مع فارق طبعا هو ان البلاد في النوع الاول ربما تحاول هجر الانقلابات أن تبحث عن شيء ، بعكس انقلابات البلاد من النوع الثاني التي تقع عادة بين نوع واحد من الجنرالات الذين يشتريهم رأس المال الأجنبي .

ويتفرع عن هذا الخلط ان الكاتب يفترض ان في العالم نوعين فقط من النظم : مجتمع رأسمالي ومجتمع غير رأسمالي ، تارة يسميه شيوعيا وتارة يسميه اشتراكيا . هذا في حين ان عالم اليوم فيه أشكال وأنواع من النظم . فهناك الرأسمالية المطلقة . وهناك الرأسمالية المطعنة بخدمات كبيرة مأخوذة من الفكر الاشتراكي . وهناك الشيوعية . وهناك الاشتراكية . بل ان هناك اليوم أكثر من نوع من الشيوعية وأكثر من نوع من الاشتراكية . ثم هناك نظم ما زالت اقطاعية ونظم ما زالت قبائلية . والكاتب المعبر عن العقل البورجوازي يحاكم النظم الاشتراكية والثورية بأضعف تجاربها ، أي انه يريد أن يجمع كل ما يواجه هذه النظم من مشاكل وعقبات وأخطاء

ومتناقضات ويضعها كلها على رأس كل دولة على حدة .
ويرجع الكاتب الى « معدل النمو » مقياسا يقيس به
كل شيء ...

ومعدل النمو الاقتصاى مقياس هام ، ولاشك ، ولكن
كيف نستعمله استعمالا صحيحا ؟ ..

حين نستخدمه فى المقارنة يجب أن نقارن بين بلاد
تتفق فى ظروفها الحضارية ، وتاريخ تحررها من الاستعمار
ومستواها الحضارى العام ، وثرواتها الطبيعية المتاحة .
فى هذا الاطار يمكن استخدام معدل النمو للمقارنة بين
نظام ونظام . اما أن نقارن هكذا خبط عشواء بين المانيا
والهند أو بين أمريكا وبلغاريا ، فهو خلط آخر يمارسه
العقل البورجوازى عن عمد وقصد لأن هذا هو بيت
القصيد فى كل الدعايات البورجوازية .

اذن . . فالمحنة التى تواجه الاشتراكية ، والتى يدرف
الكاتب الدموع عليها كاشتراكى سابق ، لا وجود لها . .
ليست محنة . . ان الثورية والاشتراكية هزتا العالم
خلال خمسين سنة وحررتا أو كادتا تحرران آسيا
وافريقيا كلها . ومهما كانت شطحات بعض الدول التى
تحررت وانزلاق بعض الثورات أو تعصبها أو انكفاؤها ،
فقد كان لابد أن تستقل هذه البلاد أولا ، ثم تبدأ التجربة
والخطأ . .

ليست محنة . . ان العالم الثالث يتقدم ويقع ويتعثر
وينهض من جديد . ذلك ان العالم الثالث يعلم جيدا انه
يصعد جبلا شاهقا حافلا بالمزالق والمهالك . . ولكن
لا مفر من صعوده . .

ليست محنة ان العالم الفنى المترف لا يدرك بعد
مسئوليته ازاء العالم الثالث ويتصرف فى معظم الظروف
محاولا الضغط عليه وإبقاءه فى مكانه . . فالعالم الثالث

الذى كسب استقلاله سوف يكسب سائر معاركه وفي
مقدمتها ايجاد منطق عادل لتوزيع الثراء بين العالم
بأكمله ..

ولكن ، اذا كان هذا كله ليس محنة بالمعنى الذى
يذهب اليه العقل البورجوازى .. واذا كان الذى يعنيننا
فى الدرجة الاولى من شتى أنواع النظم والمذاهب هو
النظام الاشتراكى بالذات ... فما الذى يواجهه اليوم
حقا ؟ ..

هل تواجهه محنة ما ؟ .. أم تواجهه تحديات هامة ؟
سؤال .. سنحاول الاجابة عليه فى المقالين التاليين ..

هل الاشتراكية تنقل من الرأسمالية.. أم العكس؟

كتبت في الفصل السابق عن « العقل اليميني » وكيف يفكر فيما يسميه بالحنة التي تواجهها الاشتراكية .. واستعرضت الألوان الثلاثة من المغالطات الكبيرة التي يروجها العقل اليميني ..

وكان المفروض أن يكون الفصل الثاني عن « العقل اليساري » وكيف يفكر في « التحديات » التي تواجه الاشتراكية . فهناك ولاشك مشاكل وتحديات تواجه الاشتراكية ، وان كانت غير ما يتحدث عنه « العقل اليميني » .

ولكنني استأذن القارئ في أن استكمل في هذا الفصل الحديث عن تفكير العقل اليميني ..

فبعد الأفكار الثلاثة التي ذكرتها في الفصل السابق التي يروجها العقل اليميني بوجه عام .. هناك فكرة رابعة يروجها ويردها العقل اليميني بنفس الاصرار والتكرار تحتاج الى وقفة خاصة بها ..

يقول العقل اليميني : انظروا ! هؤلاء هم الاشتراكيون في كل مكان يستعيرون من النظام الرأسمالي ! هذا ليبرمان في روسيا يدعو الى اللامركزية في الانتاج والى قدر من المنافسة ، هذه يوغوسلافيا تعترف بقوانين العرض والطلب في السوق ، هؤلاء هم الاشتراكيون

يتحدثون عن تشجيع الحافز الفردى .
وهم يستنتجون من هذا ان الافكار الاشتراكية
تنقرض ، وان موجتها تنحسر ، وان الدنيا عائدة يوما
الى « الشكل الطبيعى » العادى ، الشكل الفردى
الراسمالى ..

والآن لننظر الى هذه القضية التى يروج لها العقل
اليمينى بنشاط ، ونأملها جيدا ..
الاشتراكية والراسمالية ، فى هذه المرحلة المتغيرة من
حياة العالم ، اى نظام منهما يستعير من الآخر ويبحث
لديه عن اكسير الحياة ؟ ..

هناك أسس واحدة للفكر الاشتراكى ولكن هناك
تطبيقات كثيرة لها ، ومرة أخرى نفرق هنا بين تطبيقات
«ماركسية لينينية ستالينية» أعلنت الشيوعية هدفا لها،
وبين تطبيقات اشتراكية مختلفة عنها ، هى التى تؤمن
بها ونتحدث هنا عنها .

هذه الافكار الاساسية فى الاشتراكية هى :

- ١ - الملكية العامة لوسائل الانتاج والتوزيع الاساسية
- ٢ - القضاء على الاستغلال ، والمعنى العام النظرى
للاستغلال هو أن يحصل فرد على ايراد مصدره عمل
فرد آخر .
- ٣ - الاخذ بنظام التخطيط فى توجيه الاستثمار
القومى .

٤ - سياسة ديموقراطية فى الخدمات ، تكفل للمواطن
تكافؤ الفرصة فى العمل والعلاج والتعليم والترفيه وما
الى ذلك .

هذه المبادئ الاساسية ، لا يوجد اى فكر او نظام
اشتراكى الا ويعترف بها .. سواء طبقها كلها ، او بدأ
فى تطبيقها ، او وضعها فى برنامج الى ان يتمكن من

تطبيقها . . كالأحزاب الاشتراكية في غرب أوروبا ذاتها .
ما هي حدود الملكية العامة ؟ ما هي درجة استئصال
صور الاستغلال ؟ ما هو نطاق التخطيط ؟ . . هنا ندخل
في دائرة القضايا النسبية لا المبدئية ، هنا تختلف تجربة
عن تجربة وتختلف ظروف عن ظروف .

وهناك بالطبع الحرفيون الجامدون الذين يطبقون
هذه المبادئ على إطلاقها وإلى آخر حدودها مهما كان
الثمن وبصرف النظر عن كافة الظروف الاجتماعية
والسياسية والتاريخية ، ويعتبرون أي شيء غير ذلك
انحرافا عن الاشتراكية .

وهناك آخرون - نحن منهم - يرون أن المبدأ الأساسي
شيء ودرجة تطبيقه وتوقيته وظروفه شيء آخر . لأننا
نعتقد أن المبادئ تخدم الواقع وليس العكس .

المهم . . أنه في مجال التنازل عن الأفكار الاشتراكية
والنقل عن الرأسمالية . . نجد أنه لا يوجد اشتراكي
واحد ينفي التزامه بهذه الأفكار الثلاثة الأساسية أو
يتحلل منها .

أما سائر التفاصيل . . كإيجاد درجة من المنافسة
بين مؤسسات الملكية العامة ، والاعتراف بوجود سوق
تؤثر على الأسعار بشكل أو بآخر . . وتنشيط الحافز
الفردى . . فهذه أشياء لا ينكرها الفكر الاشتراكي
السليم طالما بقيت في إطار الاشتراكية .
فالحافز الفردى في نظام اشتراكي غيره في نظام
رأسمالي .

وأيضا السوق في نظام اشتراكي غيره في نظام رأسمالي .
والتنافس بين قطاعات من وسائل الإنتاج المملوكة
ملكية عامة أو التنسيق بينها غير التنافس الفردى
والاحتكار الفردى في نظام رأسمالي .

فهذه كلها أساليب في إدارة العمل ورفع مستواه وتحريك حوافزه ، لا ينصب عائدها في النهاية في جيب الرأسمالي ولكن ينصب - في الاشتراكية - في الدخل الذي يوزع ويعاد استثماره بطريقة عادلة .

والاشتراكية نظام تال في التاريخ الانساني للنظام الرأسمالي ، وهو يجرى بعده ..

وعبر التاريخ الانساني ، كان كل نظام اجتماعي تال يحمل معه بعض ملامح وخبرات النظام الاجتماعي السابق عليه . وهذا طبيعي ، لأن توالي النظم الاجتماعية نوع من النمو والتقدم الانساني المستمر المرتبط ، وبعض الخبرات الانسانية تبقى مراحل تاريخية طويلة . فما اكتشفه العقل الانساني عقب الثورة الصناعية من ترشيد الانتاج وتنظيم علمي للعمل وأساليب لخفض التكاليف وتقدم تكنولوجي . هذا كله تراث انساني مستمر ، يستفاد بالمزيد منه في اطار العلاقات الاجتماعية الجديدة .

وليس بين مراحل التاريخ الانساني جدران صماء تفصل بينها تماما ، والانتقال من مرحلة الى مرحلة ليس كالانتقال من الارض الى المريخ .

أما النظام الذي ينقل عن غيره حقا ، ويبحث لديه عن اكسير الحياة ، فهو نظام الرأسمالية ، الذي ينقل باستمرار عن الاشتراكية ، محاولا أن يطيل في عمره . ● أن كل أنواع الخدمات والضمانات الاجتماعية التي تعرفها دول الغرب .. كالعلاج المجاني والتأمين الصحي ، والحد الأدنى للأجور ، والتأمينات ضد البطالة والعجز والشيخوخة .. كل هذه النظم ، جاءت وليدة للفكر الاشتراكي ، ويضطر المجتمع الرأسمالي الى تقبلها يوما بعد يوم ، كطريقة لتخفيف الضغط عليه ، أو كاستسلام في بعض المواقع لحماية مواقع أخرى أهم .

وكل نظام من هذه النظم لم يطبق الا بعد مقاومة شديده عاتية من المؤسسات الرأسمالية والعقل اليميني سواء في ذلك انجلترا أو فرنسا أو أمريكا أو غيرها . الفكر الرأسمالي المتكامل يرفض أنواع الرعاية الاجتماعية كلها ، اذ يعتبر أنها تدعو الفرد الى التواكل والاعتماد على المجتمع في حين ان الفرد يجب أن يكون مسئولا عن نفسه في الفنى والفقر والصحة والمرض ، فاذا جاع أو مرض وعجز عن العلاج أو بلغ سن الشيخوخة دون مدخرات كافية فهذا ذنبه وتقصيره ، يرفض الفكر اليميني أن تكون الظروف الاجتماعية أحيانا مسئولة عن بؤس البؤساء وحاجة المحتاجين . واذا كان هذا الكلام يبدو لبعض القراء قديما .. فيمكنهم الرجوع الى كتب ألفها زعماء معاصرون مثل لودفيج إيرهارد في كتاب «الرخاء للجميع» وجولد ووتر في كتاب «إيمان محافظ» ومن جوهر النظام الرأسمالي ، رفض التخطيط الذى يتولاه المجتمع في جميع صورته وأشكاله ، فالمحرك الوحيد للنمو الاقتصادى فى رأيهم هو المنافسة ، وفى ساحة المنافسة - وهى السوق - يسقط مشروع وينجح مشروع ، وتتجه رؤوس الاموال مدفوعة بعنصر البحث عن الربح الى أكثر أنواع المشروعات ربحا وبهذا وحده ينمو الإنتاج وتسد حاجات المستهلكين ..

وقد بدأ العقل اليميني يستسلم تدريجيا فى هذا المجال ، فى البدء قال : ربما كان التخطيط ضروريا للبلاد الناشئة بالذات . اذ ليس لديها عادة فائض كبير من الاموال يسمح لها بترف المنافسة ، وهى أيضا محتاجة الى اقامة مشروعات أساسية غير مربحة ولا يمكن أن يتجه اليها المال الخاص كمد طرق المواصلات وتوليد الطاقة الكهربائية وما الى ذلك ، ولكن النظام الرأسمالى حتى فى الدول المتقدمة بدأ يشعر بالحاجة

الى التخطيط ، ازاء ارتفاع تكاليف انواع الانتاج المتقدمة ، وظهور قوى دولية أخرى منافسة ، وعجز الوفرة الانتاجية في حد ذاتها في حل مشكلة رفع مستوى المعيشة العام وتحقيق المساواة .

هكذا بدأت بلاد في غرب أوروبا مثل انجلترا وفرنسا تأخذ على استحياء بفكرة التخطيط ، فرنسا فيها درجة من التخطيط يشترط فيها أن يحصل أى مشروع صناعى جديد على اذن من الدولة بمكانه الجغرافى ونوع انتاجه ، وانجلترا في اواخر عهد حكومة المحافظين ومن باب محاولة انقاذ ما يمكن انقاذه كونت أول هيئة للتخطيط. فلما جاءت حكومة العمال وسعت سلطته ووضعت أول خطة عامة للتنمية ، ولست هنا في مجال الحديث عن الفرق بين تخطيط وتخطيط ، ولكن في مجال الاجابة عن سؤال محدد فقط هو : أى نظام يتعاطى جرعات من النظام الآخر ، يتقوى بها ؟

● على ان القضية الكبرى في الموضوع تبقى : قضية الملكية العامة لوسائل الانتاج والتوزيع الاساسية . وما أكثر ما نجد المجتمع الرأسمالى اليوم يتقبل - طائعا أو مضطرا - فكرة الملكية العامة في بعض وسائل الانتاج الاساسية .

ولا يهم هنا ان المجتمع الرأسمالى يصل الى هذه النتيجة عن غير الطريق الايديولوجى ، فاذا كان المجتمع الرأسمالى يضطر اليها من باب الواقعية فالمذاهب الفكرية انما تستمد جدورها من الواقع !

في السنوات الاخيرة منذ نهاية الحرب حتى الان اتجه كثير من دول غرب أوروبا الى تأميم صناعات أساسية ، فمعظم البنوك المركزية وشركات الطيران والبترول

والكهرباء والفحم وبعض شركات السيارات وغيرها تؤمم بصورة أو بأخرى في إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وغيرها .
والواقع انه قد ذكرنى بهذا الموضوع كله قضيتان عاشتهما إنجلترا مؤخرًا :

القضية الاولى : هي قرار مجلس العموم البريطانى بالعودة الى تأميم ٩٠ ٪ من مصانع الحديد والصلب فى إنجلترا .

ان هذا القرار ذو أهمية خاصة لما لابس من ظروف . فقد أمتت حكومة القمال فى إنجلترا هذه الصناعة الأساسية لأول مرة سنة ١٩٤٨ ، فلما عادت حكومة المحافظين الى الحكم أبقت كل قرارات التأميم ما عدا تأميم الصلب ، فقد ألقته وأعادته الى الملكية الخاصة من جديد . وفى مكتبتي أكثر من كتاب ضخمة مؤلفين انجليز أعلنوا فى مؤلفاتهم موت التأميم بهذا العمل ، وقالوا ان أكبر سبب لسقوط حزب العمال هو تأميم الصلب .

وعندما عادت حكومة العمال الى السلطة منذ بضع سنوات عادت بأغلبية بسيطة قيل ان سببها تمسك الحزب بتأميم الحديد والصلب . فلما أجريت انتخابات عامة جديدة بعد ذلك ، ركز المجتمع الرأسمالى ، الحاكم الحقيقى فى إنجلترا ، كل ثقله على قضية تأميم الصلب . كان الظن ان التركيز على هذه القضية هو الذى يمكن أن يسقط حكومة حزب العمال ، ولكن الحزب عاد الى السلطة بأغلبية كاسحة . وعاد تأميم الصلب بعد الغائه بأربع عشرة سنة . عاد هذه المرة ليقبى بالتأكيد .
لماذا عاد ؟ ..

لأن اليساريين ظلوا على اعتقادهم القديم الذى عبر عنه وزيرهم « ستافورد كرييس » سنة ١٩٥٣ ، وهو

يقدم قانون التأمين الاول من ان صناعة الصلب التي تعد اساس كل الصناعات بما فيها صناعة الاسلحة لا يمكن ان تبقي في ايدي افراد يملكونها فيكون اساس الاقتصاد القومي في ايدي افراد هم اقوى من الحكومة ومن البرلمان . ولان بعض المعتدلين وحتى اليمينيين وجدوا ان بقاء عدة شركات متنافسة لم يعد الوضع الذي يمكن صناعة الصلب الانجليزية من التجميع والتكامل والتجديد وتخفيض النفقات بحيث تواجه المنافسة الخارجية الخطيرة . المهم ان الواقع قد جمع أكثر من اتجاه على انه لا مفر من جعل هذه الصناعة الاساسية تحت سلطة المجتمع بان تكون مملوكة له .

هل يمكن ان يكون لملوك الصلب حقا مثل هذه السلطة في بلد كبير قوى كإنجلترا ؟ نعم . بل وفي أمريكا ذاتها . حيث نذكر جميعا القصة الشهيرة .

كلنا نذكر كيف ان ممثل اتحاد اصحاب مصانع الصلب في أمريكا ذهب الى البيت الابيض أيام رئاسة كيندي في ساعة متأخرة من الليل وسلم اخطارا بان سعر الصلب سيرفع من صباح غد . . تماما كالطريقة التي كان يتبعها هتلر في اصدار الدول الصغيرة قبل ان تجتاحها جيوشه .

كان معنى هذا رفع اسعار كل شيء حتى في بلد ضخم كأمریکا . . من ابرة الخياطة الى السيارة الى الدبابة الى المباني . . الى كل شيء . فهو قرار اقوى من أي سياسة اقتصادية يمكن ان تضعها أية حكومة او أي مجلس منتخب .

كان معناه ان نفقات الدولة بالذات تزيد بمئات الملايين من الدولارات فلا يكون مفر من فرض ضرائب جديدة وهكذا يصل قرار ملوك الصناعة الى جيب كل مواطن ، ويومها لم يجد كيندي في يده أي سلطة قانونية لوقف

هذا القرار . . فعند الى استخدام سلاح المشتريات الحكومية الهائلة خصوصا في مجالات التسليح وامر بالا تشتري الحكومة من اية شركة حديد ترفع اسعارها . ومع هذا كان مطلوبا لينجح هذا القرار ان «تخون» احدى شركات الصلب زميلاتها وتبيع بالسعر القديم . وهذا ما فعلته شركة بتلهم للصلب ، فانهزم قرار ملوك الحديد واضطروا الى التراجع .

ولكنهم ظلوا يتحينون الفرصة ، ومات كيندى وجاء جونسون وزاد تورط أمريكا في حرب فيتنام وزادت نفقاتها . وعاد ملوك الحديد الى رفع الاسعار، بالاجماع هذه المرة . واصدر جونسون بيانات يعبر فيها عن اسفه لهذا القرار الذى سيؤدى الى التضخم الاقتصادى والى التأثير على مجهود أمريكا الحربى ، ولكن دون جدوى . .

وبعد شهور أعلن ملوك الالومنيوم قرارا مشابها . . واصدر جونسون بيانات أسف واحتجاج مشابهة ! !
● القضية الثانية التى عاشتها انجلترا مؤخرا ، هى قضية جريدة التايمز ، أهم مؤسسة صحفية او اعلامية يزهو بها الانجليز ويفخرون . .

ان منطق التنافس الرأسمالى سعيا وراء الربح ينطبق على المؤسسات الصحفية كأي مؤسسات حديد أو خشب أو زلط . ومع تزايد نفقات الصحف وزيادة اعتمادها على الاعلانات والصلة الحميمة بين الرأسماليين اصحاب الصحف اليمينية وبين الرأسماليين اصحاب الاعلانات . . بدأت الصحف التى تحاول ان تكون مستقلة تفلس أو تباع نفسها لمالك اكثر ثراء . .

حدث هذا أكثر من مرة في السنوات الاخيرة . وفي كل مرة . كانت تحدث ضجة . . لكن ليست كالضجة التى ثارت يوم عرف ان المليونير الكندى الاصل الذى يشتري

الصحف لأغراض تجارية ، والذي يعلن أنه لإشأن له
بالسياسة مطلقا ، والذي قال مرة في زهو أن المقالات
والإخبار لا قيمة لها لديه إلا أنها لازمة لتوضع بين
الاعلانات .. هذا المليونير روى طومسون ، أعلن أنه
اتفق على شراء جريدة التايمز !

وقال رئيس الوزراء أن الأمر أصبح يحتاج إلى تدخل
من الحكومة !

وكلف اتحاد الصحف مجلة الإيكونوميست بعمل دراسة
في أحوال الصحف الانجليزية ولماذا يحدث هذا .. ؟
والسبب بسيط ...

أن القوة الاقتصادية للمؤسسة الصحفية أصبحت
هي مصدر قوتها الصحفية ، وليس العكس .
القوة الاقتصادية تمكنها من شراء آلات أحدث ،
واستئجار كفاءات أكبر ، والقيام بعمليات ترويج أوسع ،
وبالتالي فقد قالت دراسة مجلة الإيكونوميست - اليمينية
- أن المؤسسة ذات « الإدارة » القوية والموارد الاقتصادية
الكبيرة لابد أن تطحن الصحف التي ليست لديها هذه
الأسلحة .. مهما كان رأيها ، أو لونها ، أو رسالتها .
وأنه في مرحلة معينة من مراحل تراكم القوة الاقتصادية
تصبح المنافسة غير صحفية على الإطلاق !!
ومن أين تجيء هذه القوة الاقتصادية ؟

من رأسمالي كبير ، أو من نفوذ خاص يشق الطريق
لدى المعلنين الرأسماليين ، كما فعل بيفربروك من قبل .

ولم يتمكن أحد طبعاً من أن يفعل أي شيء لوقف روى
طومسون من شراء فخر إنجلترا ورمز صحافتها « المستقلة » !

ولكن لأول مرة يقف نواب انجليز ويقترحون تأميم
جريدة التايمز أو وضعها في يد هيئة عامة مستقلة على
أنحو ما .. حتى يبقى في إنجلترا صوت « مستقل » حقاً !

الاشتراكية ما زالت تبحث عن شكلها السياسى!

نطرح خلف ظهرنا ، ألوان الخلط المتعمد الذى يستخدمه « العقل اليميني » فى وصف الموقف الراهن للاشتراكية ، ونوع المشاكل التى تواجهها .. كما تعرضت له فى المقالين السابقين .

ماذا اذن يقول العقل اليسارى ، أى العقل الاشتراكي يقول : ان دحض مزاعم اليمين ليس معناه ان الاشتراكية لا تواجه مشاكل وتحديات شتى . فهى على العكس ، منذ دخلت مرحلة التطبيق فى أماكن مختلفة وتحت ظروف متباينة ، كان لابد لها ان تواجه انواعا من المشاكل والتحديات ، بعدد البلاد والظروف التى نبتت فيها ...

وهذا بحث قد يكون له أول ، ولكنه ليس له آخر .. ولا مفر من الوقوف ، عند بعض أنواع هذه التحديات الكبيرة .

التحدى الذى يخطر على البال ساعة كتابة هذه السطور ، ربما لأننا نؤشك فى مصر أن نتباحث فى وضع دستور دائم جديد، هو مشكلة الحكم فى ظل الاشتراكية ، أو بتعبير آخر الشكل السياسى للمجتمع الاشتراكي ، أو بتعبير ثالث المؤسسات السياسية التى تناسب علاقات اجتماعية اشتراكية ...

بصورة أو بأخرى نجد أن المجتمع الرأسمالي
البورجوازي ، له صورة سياسية عامة يمكن التعرف
عليها . البرلمان المنتخب انتخاباً مباشراً وتتركز فيه
السلطة التشريعية والسياسية العليا . تعدد الأحزاب .
الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية .

ليس معنى ذلك أن هذه الصورة السياسية صورة
مستقرة ثابتة واضحة في كل مجتمع رأسمالي بورجوازي .
فعلى الرغم من أن النظام الرأسمالي البورجوازي في غرب
أوروبا بالذات عمره يقرب من مائتي سنة في جانبه
الاقتصادي والاجتماعي ، إلا أن شكله السياسي ظل يهتز
بعنف حتى وقت قريب ، ولا يزال . وكما لاحظ المفكر
الفرنسي اليميني « ريمون آرون » في سنة ١٩٣٦ ، قبل
الحرب العالمية مباشرة ، كادت هذه الصورة للديمقراطية
البورجوازية تختفي في أوروبا عدا إنجلترا واسكتلندا ،
اختفت الديمقراطية البورجوازية من مجتمعات رأسمالية
مثل ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا ورومانيا والنمسا والمجر
وتشجعت العناصر الفاشية في بلجيكا وفرنسا ذاتها .

لم يكن هناك إذن تلازم تلقائي بين النظام الرأسمالي
والديمقراطية الغربية بالملاحم السابقة حتى في أوروبا
بتقدمها الصناعي والاجتماعي والحضاري . وإلى الآن
نجد أن هذا التلازم غير قائم في البلاد الرأسمالية التي
ليست في مستوى أوروبا من حيث التقدم . فنظم الحكم
الفردية والدكتاتورية موجودة مع المجتمعات الرأسمالية
في أمريكا الجنوبية وفي إيران وغيرها وكل بلاد إفريقيا
التابعة للمعسكر الغربي .

بعد هذه التحفظات الهامة ، أعود من باب التبسيط
إلى القول بأن المجتمع البورجوازي الرأسمالي ، في حالة
النضج الاقتصادي ، له صورة سياسية عامة يمكن

التعرف عليها ، باللامع التي سبق ذكرها ..
ولكن الاشتراكية - في تقديرى الشخصى - لم تجد
بعد الصورة السياسية النهائية لها.. أى الشكل السياسى
النهائى لممارسة السلطات فى المجتمع الاشتراكى ...

وقد يبدو ذلك غريبا ، وهو فى الواقع ليس بغريب
إذا ذكرنا أن العلاقات الاشتراكية فى المجتمع عمرها يقاس
بعشرات السنين وأحيانا بأحاد السنين ، فى حين أن
الرأسمالية يقاس عمرها بالقرون ...

وقد يبدو ذلك مستنكرا لدى بعض الاشتراكيين ،
ولكن هذا البعض من الاشتراكيين هم على الأغلب الذين
يقيدون فكرهم بنصوص معينة أو بتجارب معينة أى هم
الاشتراكيون الماركسيون اللينيونيون بالذات ...

ولكن ، ليس أسهل من التدليل على أنه حتى فى
التجارب الماركسية اللينينية بالذات ، التى تعتبر
«مراجعة النظرية» عارا وتهمة لا تفتقر .. تجرى
المراجعة على قدم وساق .

روسيا فيها مراجعة ، والصين فيها مراجعة ،
ويوغوسلافيا فيها مراجعة ، ورومانيا فيها مراجعة .
فى الجانب السياسى المحض الذى أحصر فيه حديثى
هذه المرة ، نجد أن الثورة الثقافية معناها أزمة حكم ،
معناها أن التعبير السياسى الذى كان موجودا عن المجتمع
هناك ما زال فى رأى البعض فى حاجة إلى تفسير ، فى
الجانب السياسى المحض ، نجد أن نقد ستالين وماتلاه
من تفسيرات معناه أن التعبير السياسى عن المجتمع هناك
قد تبينت فيه ثغرات سمحت بعبادة الفرد وسمحت
بهتك الشرعية وأنه لابد من تطوير لها ... وهكذا ..
وهذا بدوره موضوع طويل ، ولكن يكفى هنا مجرد
تسجيل الظاهرة كما أراها ، لمجرد إثبات : أنه حتى

أكثر القائلين بكمال النظرية وثبات التجربة ، يراجعون ويراجعون ، الأمر الذى يعنى ان الوصول الى ثوب سياسى يناسب العلاقات الاجتماعية الجديدة هناك لم يتم بعد ، وليس هذا غريبا ولا هو ضد طبيعة الأمور .

فماذا عن التجارب الاشتراكية التى لا تعتبر أقوال ماركس ولينين كتباً مقدسة ولا مراجع وحيدة ، انما تعتبرها اضافات فكرية كبيرة سبقتها اضافات وتلتها اضافات وسيتلوها أكثر مما تلاها الى الآن ؟

معظم هذه التجارب الاشتراكية الجديدة فى بلاد تحررت حديثاً من الاستعمار ، وفى المراحل الأولى لتثبيت استقلالها وتنمية اقتصادها .

ومعنى هذا انها فى معظمها - ان لم تكن كلها - تواجه مصاعب التحول الاشتراكى فى حد ذاته من جهة ، ومصاعب التنمية الاقتصادية من جهة ثانية ، ومصاعب تثبيت الاستقلال الوطنى ودرء الضغوط الاستعمارية عنه من جهة ثالثة ...

هذه المرحلة التى تواجه عملية انتقال مثلثة الجوانب ، من شأنها أن تكون مرحلة تجربة وخطأ وبحث عن الشكل السياسى المتطور للعلاقات الاجتماعية المتطورة ...

ولكن ما هى القيمة النظرية للتأكيد على ان هذه المرحلة فى حياة التجارب الاشتراكية مرحلة تجربة وبحث وانتقال ، لمرحلة ثبوت ووجود وتشكل نهائى ، فى الجانب السياسى ؟

قيمة هذا التأكيد تكمن فى نقطتين :

النقطة الاولى - انها تجعلنا نفرق بين ما هو وقتى وبين ما هو دائم . بين ما هو خاص بالاشتراكية كشكل اجتماعى وما هو خاص باعتبارات أخرى ...

فالاشتراكية مثلاً لم تجيء الى أى بلد من البلاد

حتى الآن ، مهما كان لون هذه الاشتراكية ، الا عن طريق الثورة ، والثورة من طبيعتها انها تنطوي على درجة من «الفرض» لأنها تحطم هياكل اجتماعية قديمة وتقيم هياكل جديدة وتجري جراحات اجتماعية تختصر الزمن . هذا شأن كل ثورة وليست الثورة الاشتراكية وحدها . فالبورجوازية الرأسمالية فرضت نفسها بالثورة العنيفة على الاقطاع وبتدمير العلاقات الاقطاعية أحيانا بحمامات الدم كما حدث في الثورة الفرنسية ، فالثورة التي تفرض ارادتها ، لأن هذه الارادة متمشية مع منطق التاريخ ، ولأن هذه الارادة تلبى الحاجات العميقة للشعب ، الحاجات التي لا يقدر الشعب على انجازها بالوسائل العادية ، «الفرض» فيها سمة من سمات كل ثورة تنقل المجتمع من صورة الى صورة .

«الفرض» إذن صفة مرتبطة بالحدث الثوري ، وبمرحلة الانتقال التي تتحمل الثورة مسؤولياتها ، ولكنها ليست صفة مرتبطة بالاشتراكية كنظام اجتماعي أو بالاشتراكية حين تصبح نظاما اجتماعيا عميق الجدور .

والثورة حين تفرض ارادتها بنجاح ، لا تكون في عزلة عن الشعب ، بل انها تتفدى وتستمد قوتها الدافعة من التأييد الشعبي ، ولكنه تأييد شعبي مباشر ، وليس عبر مؤسسات سياسية محددة ، إذ لا يكون هناك في أول مراحل الانتقال الا المؤسسات السياسية بأشكالها القديمة التي ثبت عجزها فحطمها الحدث الثوري . ومعنى هذا أن على الثورة بعد ذلك أن تسعى لصياغة مؤسسات سياسية جديدة تناسب المجتمع الجديد .

ومن الأخطاء التي ارتكبها بعض الاشتراكيين في بعض التجارب ، أنهم ظنوا أن الأشكال التي لازمت الحدث الثوري وكانت ضرورة له ، هي الأشكال النهائية ،

فتجمدوا عندها ، وأفقدوا التطبيق الاشتراكي كثيرا من خصوصيته ، وعطلوا عملية التوصل الى أشكال سياسية أكثر صلاحية للثبات والاستقرار ، وأكثر تعبيرا عن العلاقات الاشتراكية .

النقطة الثانية - ان الاشتراكية ليست نظاما «شموليا Totalitarian للمجتمع» ولكنها نظام يستهدف الديمقراطية

ان الاشتراكية قامت على أساس ان الديمقراطية البورجوازية ناقصة ، لأنها ديمقراطية سياسية فقط ، تقف عند حد منح الفرد حق الانتخاب وحق تكوين تجمعات سياسية ، ولكنها لا تمنع بأن تكون الرأسمالية والاحتكار وتركز ملكية أدوات الانتاج في أيدي أفراد قلائل ، عقبة تسلب حق الانتخاب والتجمع مفزاه الحقيقي ... فحين تكون البنوك والمصانع والأراضي والمتاجر والصحف ومحطات الإذاعة في أيدي طبقة محدودة ، يصبح لهذه الطبقة قوة أكبر من أن توازنها أي قوة أخرى في المجتمع .

الاشتراكية تقوم لكي تكون الديمقراطية سياسية واجتماعية معا . أو بالأصح اجتماعية وبالتالي سياسية . لهذا فالديمقراطية ، أي مشاركة الشعب مشاركة فعالة في التفكير لنفسه لا حكم نفسه ، هدف أصيل من أهداف الاشتراكية .

وفي بحث الاشتراكية عن تعبيرها السياسي الديمقراطي لابد لها أن تتجنب خطأين شائعين كبيرين :

الخطأ الاول - هو أن تقع تحت تأثير العقل اليميني في قوله بأن الديمقراطية البورجوازية هي الشكل الوحيد للديمقراطية . فالمجتمع الرأسمالي ، وقد أصبحت هذه بديهيات ، مجتمع طبقي تعبر الأحزاب المختلفة فيه عن مصالح مختلفة بينها تناقضات أساسية . وفي هذا

التقسيم الطبقي نجد أن كل الأسلحة ذات الأثر من أموال
وملكية وبنوك وصحافة وأحيانا اذاعة وتليفزيون. وقد
ترتبت على هذا الوضع كل ملامح ومعاني النظام
الديمقراطي البورجوازي .

ولنقرأ الآن ما تنشره الصحف الغربية هذه الايام .
فنجد الصحف الفرنسية مثلا تتحدث عن اجتماعات
رجال المال والصناعة في فرنسا لتقرير استراتيجيتهم في
الانتخابات المقبلة ، وإى حزب يمنحونه أموالهم لتساعده
في الانتخابات ، وكيف انهم اختاروا حزبي الوسط -
حزب جان لوكانويه وحزب جيسكار ديستان - لاعطائهما
هذه الأموال ، حتى يقللوا من قوة اليسار الذى يطالب
بتأميم بعض البنوك والشركات ، ومن قوة حزب ديغول
الذى يتعارض تخطيطه للسياسة الفرنسية العامة مع
مصالح رؤوس الأموال أحيانا ، كموقفه من أمريكا .
ولنقرأ ما تنشره الصحف الأمريكية والأوروبية من أن
كبار الرأسماليين بحثوا عن رجل جذاب وأجوف هو
الممثل السابق رونالد ريجان لكى ينفقوا عليه ويضعوه
في مركز حاكم كاليفورنيا ، حتى يقضى على التيارات
المتحررة التى نمت في جامعة كاليفورنيا ، فكان أول
قرار له بعد تسلم السلطة فصل مدير الجامعة لأنه ترك
الطلبة يحتجون على حرب فيتنام ... الى آخره .

وإذا كان نظام الديمقراطية اليمينية في المجتمعات
الرأسمالية الفنية المتقدمة يقف أثره عند تثبيت الوضع
الاجتماعى الرأسمالى ، فان هذا النظام - وأهم ملامحه
تعدد الاحزاب - في البلاد النامية الصغيرة يصبح بابا
لأخطار أكبر: يصبح بابا لأن تشتري بعض هذه الاحزاب
لقوى خارجية أكبر وأقوى .

الخطا الثانى - الذى يجب أن يتجنبه الاشتراكيون

هو أن يخلط البعض بين «الجماعية» التي تنطوي عليها الاشتراكية والتي هي جوهر ديمقراطي، وبين «الشمولية» التي لا تنطوي عليها الاشتراكية في معناها الديمقراطي النهائي ..

أن الشمولية Totalitarianism في تفسير فقهاء السياسة هي أن تجتمع كل السلطات الاقتصادية والدعائية والعسكرية في يد فرد أو فئة محدودة ، بقصد فرض فكرة واحدة تحكم كل شيء من الاقتصاد الى الفن الى البحث العلمي والاكاديمي .

والشمولية ، تهمة يحاول أن يلصقها اليمين بالفكر الاشتراكي ويربطها به ، في حين أنها تيار أو انحراف يقع في مجتمعات ذات نظم سياسية متعددة . فالنازية رأسمالية وشمولية معا .

أما الاشتراكية غير الجامدة ، فهي في عملها لاذابة الطبقات ، ووضع مرافق الثروة والانتاج الأساسية في المجتمع ، تحاول في نفس الوقت أن توسع دائرة المشاركين في السلطة وفي الحكم والادارة على كافة المستويات وتفرق مرة أخرى بين منطق الثورة لبناء الاشتراكية ومنطق الاشتراكية ذاتها ، فالحدث الثوري يحتاج في أي مرحلة تاريخية الى تثبيت وحماية وتدعيم ، ونجاحه النهائي هو أن تصبح أفكاره هي القاعدة ، بحيث تتحمل الجدل والمناقشة والتجديد والنقد دون أن تتأثر ركائزه الأساسية بشرط أن يكون هناك انتباه مستمر الى ما هو مؤقت وما هو دائم ، وألا يعيش الموقت أكثر من مرحلته التاريخية اللازمة .

والاشتراكية غير الشمولية بهذا المعنى ، تفترض استمرار المناقشات مرحلة طويلة بعد بدء التطبيق الاشتراكي وبالتالي تفترض درجة من التفاعل والنقاش

في اطار الاتجاه الاشتراكي، وهي تنفتح على قوى الشعب العاملة كلها ، غير آخذة بنظام الفئة المحدودة التي تحتكر الحكم وهي تضع قوى الشعب العاملة في بوتقة تنظيم واحد لكي يتخذ الخلاف بينها شكل التفاعل ويتجه نحو اذابة الفوارق الطبقية ، بدلا من أن تتجه كل قوة منها الى اقامة تنظيمها المستقل ، فتتمو نموا متنافرا ، وتتحصن كل منها في حصونها ، ويتحول التناقض المحدود والذي يجب أن يذوب الى تناقض اساسي وصراع ، وعودة تدريجية الى تدعيم النظام الطبقي غير الديمقراطي والاشتراكية غير الشمولية ترفض البيروقراطية الفكرية وتحذر منها ، هذه البيروقراطية التي تتجه عادة ، بحكم ضحالتها الفكرية ، الى رفض التجربة والتجديد والاستكشاف وحق الخطأ ، فتتهبط بالفكر الى مستواها البيروقراطي ، وتحرم المجتمع من محركات التجديد والتطور .

وبعد ...

فانني لا أعرف اذا كنت قد وصلت الى ذيل المقال دون أن أفقد الصلة برأسه ، أم لا . وقد كان رأس القضية ان الاشتراكية تواجه تحديات بالفعل . وهذا ليس غريبا . وان الاشتراكية ما زالت تبحث عن اشكالها السياسية النهائية ، وهذا أمر طبيعي ، اذا حسبنا عمرها التطبيقي القصير وما تريد أن تدخله من تغيير انساني عميق واذا كان اليمين يشوش على هذا البحث عن الشكل السياسي النهائي بالقول بأن الشكل السياسي البورجوازي هو الشكل الخالد ، فان بعض اليسار يشوش على هذا البحث حين يرفض القول بأن هناك تحديا من هذا النوع ، أو حين يعتبر ان ما قام من اشكال بحكم الحدث الثوري وظروفه في بلد آخر ، هو خاتمة المطاف .

في الشباب والحرب

هل صحيح ان شباننا وشاباتنا غير جادين ؟
هل صحيح ان الشباب - قبل الثورة - كانوا أكثر
اهتماما بالسياسة من الآن ؟

هل السينما والتليفزيون ، وارتداء الملابس الشاذة ،
و « معرفة الجنس الآخر » هي كل ما يشغل بال الولد
والبنت في هذه الايام ؟

هل صحيح ان الشبان والشابات في البلاد العربية
الآخري ، عدن مثلا ، أو الاردن ، أو العراق ، أكثر
انفعالا بالقضايا القومية والفكرية من شباب القاهرة ،
ودمشق ، وحلب ، والاسكندرية ؟

أسئلة تلح في عقول كثيرة وفي مجالس كثيرة !
وهي تلح على الأقل على عقل تلك الفتاة من الخليج
العربي التي قالت لي : انه لا يعجبها في بنات القاهرة
اهتمامهن الكبير بالخلاف حول موضوع فريد الاطرش
وعبد الحليم حافظ ، وأيهما يتمتع بصوت أعذب !

هذه الاسئلة .. أحب أن أقرنها بهواجس أخرى تدور
في خاطري ، ولعلها أيضا تدور في خواطر الكثيرين .

عندما كنا - نحن أبناء الجيل الذي أنتمى اليه - طلبة
في الجامعات ، ، لم نبلغ العشرين من العمر بعد ، كنا
نحلم بقيام نظام جمهوري ، وكأننا نحلم بخطيئة كبرى .

لو كانت رؤوسنا زجاجية شفافة ورأى الناس ما فيها من أحلام لحطموا لنا هذه الرؤى ! كان الحلم بالنظام الجمهوري حلما خطرا . وكنا اذا تحدثنا به كأمنية قد نراها ، وربما لا نراها ، رحنا نهمس به كأنه عالم مسحور دونه مقامرات رهيبة . ذلك ان نظام الحكم كان ملكيا . وأجهزة الدولة كان شعارها ملكيا . ومناهج الدراسة - حتى في الجامعات - تدرس لنا مزايا النظام الملكي !

ولكننا الآن نعيش فعلا في نظام جمهوري ، بكل ما ينطوى على ذلك من تطور عميق . ونحن الذين عشنا النظامين : الملكي ، والجمهوري ، نكاد ننسى أحيانا أننا كنا نعيش ذات يوم في ظل نظام ملكي . وحين نتذكر هذه الحقيقة ندهش ! ولا نكاد نتصور كيف عشنا - حقا - في ظل ملك اسمه فاروق ، اذ يبدو لنا هذا كأنه حدث في عصر ما قبل التاريخ . وحين كنت جالسا في أحد المطاعم منذ أيام ، ودخل أحد الأمراء السابقين دهشت ! ودهش من كانوا معي ! دهشنا من مجرد وجود هذا الأمير السابق على قيد الحياة . لا لأنه أكبر سنا من سائر الأحياء ، ولكن لأنه ينتمي في ذهننا الى عصر يبدو لنا بعيدا سحيقا . . رغم أننا كنا نعيش تحت وطأته منذ بضع سنوات ! . .

هذه كلها هي مشاعرنا نحن الذين عشنا العصرين ، فماذا عن الأولاد والبنات الذين تبلغ أعمارهم الآن عشرين سنة أو أقل قليلا ، أى الذين كانوا أطفالا يوم قيام الثورة فلم يكونوا يدركون - بعمق - معنى هذا الذي زال . . هل تراهم يأخذون «الجمهورية» قضية مسلما بها ، وبديهة ؟ . أم هل يتحمسون لها حماسنا نحن الذين عرفنا النظام الأخير ؟ . .

نموذج آخر ، هو .. الاشتراكية ..
على أيام صبانا ، كانت الاشتراكية كلمة محرمة ،
وكانت اليسارية مرضا يجب أن يخفيه صاحبه ، وكان
هذا جزءا من جاذبيتها في نظرنا ! .. كان الاشتراكي
يخفي عقيدته وهو يشعر انه يخفى سرا يتحدى به
المجتمع ، السر الذي سيقرب به كل شيء ، الاختراع
الذي سيفير به وجه الحياة ! ..

وحين كان الاساتذة يدرسون لنا محاسن الرأسمالية
والاقطاع ، كنا نضحك منهم في أكمامنا ، وكنا نهزأ منهم .
نهزأ من أنهم جبناء لا يجهرون بالحق ، أو نسخر منهم
لأنهم لا يعرفون الصيحة الجديدة في عالم النظم الانسانية
وكان هذا يفيظنا منهم ، ولكنه كان يرضى فينا ذلك
الزهو الذي يحب أن يحس به كل جيل جديد ، احساسه
بأنه هو الذي سيفير الحياة ، وسيحرك عجلة التاريخ ،
وسيأتي بما لم تستطعه الأوائل .

أما الآن .. فالذي يتزعم الدعوة الاشتراكية هو
رئيس الدولة ، والاذاعة والصحف الكبرى ، والمدارس
تبشر بالاشتراكية وتشرحها ، ووزير الاقتصاد والخزانة
يجلجل بها ميزانية الدولة ، وضابط الشرطة يحميها .
فما هو يا ترى شعور الشاب الجديد الذي ولد وجدانه
في هذا الجو ؟ ما هو شعوره نحو هذه الشعارات ؟ !
الذين عاشوا حين كانت الاشتراكية خطرا تطارده
الدولة .. ما زالوا يرون ما في هذه الكلمة من لهب ..
ويحسون مافيه من ثورية .. وما تصنعه من تفجير
للهاكل القديمة . ولكن ما هو شعور الشبان الجدد
نحوها ؟ .. الذين ولدوا وهي شيء مشروع ، هل يجدون
لها هذا الطعم نفسه ؟ ...

وإذا كانوا لا يجدون هذا « المذاق الثوري » لكلمات

الاشتراكية والجمهورية وما الى ذلك .. فما هو
« الثورى » فى حياتهم اذن ؟ ..
وأعود الى الاسئلة التى طرحتها فى اول المقال ، وهى
وثيقة الصلة بهذا الاستطراد ! ..
ان امامنا الآن سؤالين :

الاول ، هو : هل شباب هذا الجيل اقل جدية
وحماسة من الجيل السابق ؟

والثانى ، هو : هل - اذا ثبت ذلك - يكون السبب
هو ان الاهداف « الثورية » أصبحت الآن اهدافا
« شرعية » ليس فيها مغامرة ولا مخاطرة ولا خفاء ؟ ..
اننى اعتقد - وهو اعتقاد مطروح للمناقشة - ان
الفرق ليس فرقا من ناحية الدرجة ، ولكنه فرق من
ناحية النوع . فمن الخطأ ان نقيس الحماسة والجدية
بدرجات واحدة . ولكن نوع الجدية ونوع الحماسة
يختلفان . ذلك ان المرحلتين التاريخيتين - ما قبل
الثورة وما بعدها - مختلفتان اختلافا عميقا .. ومن
الطبعى ان يختلف « نتاجهما » من الشبان والشابات
نفس الاختلاف العميق ! ..
كيف ؟ ..

ان هناك نوعا من الأعداء ، لابد ان تواجهه بعمل
صاحب . . هو القتل مثلا !

وهناك نوع آخر من الأعداء .. لابد ان تواجهه بعمل
هادىء .. فيه من المشاورة اكثر مما فيه من الشجاعة .
وعندما نتأمل الكلمة الشهيرة التى قالها على بن
أبى طالب : « لو كان الفقر رجلا لقتلته ! » نجد هذه
الحيرة ازاء العدو الذى لا يمكن التخلص منه الا بواسطة
القتل ! ..

أنت تقتل المستعمر أو الغاصب أو تسجنه أو تطرده ،

ولكن الفقر مثلا لا يمكن اقصاؤه بهذا العمل الدرامي
العنيف . انه ليس هدفا محدودا تصيبه بضربة واحدة .
انه هدف واسع متشعب عميق الفور ..
ولنطبق هذه الصورة العامة على موضوعنا ..
ان الشاب يكون ثائرا ، بقدر ما يكون هناك شيء آخر
يشير ويستفز ويتحداه .

الاحتلال الاجنبى مثلا.. اننا نراه فى كل زمان ومكان
يستفز الناس الى الثورة ويجعل الغليان والعنف طابع
الشباب بوجه خاص . ذلك ان الاحتلال الاجنبى حقيقة
صارخة ، واضحة ، مهينة ، تصفع الناظر اليها كل
يوم وكل ساعة .

وقد نشأت الاجيال السابقة فى عصر حافل بالحقائق
المهينة ، التى تتحدى وتستفز ، التى تشعل الحرقه
وتزرع المرارة العميقة ..
الاستعمار الاجنبى ..
الهوان الدولى ..
النظام الملكى الخائن ..

المجتمع الاقطاعى الراكد ، بينما المجتمعات الاخرى
تقفز وتحرك وتخترع ، التعطل بالوراثة يتربع على
عرش يعنو له كل الذين يسفحون عرقهم فى التراب !
الى آخره .. الى آخره ..

هذه الاشياء وغيرها كانت تصدم الشاب منذ بضع
سنوات وتستفز وتوسع مشاعره . لذلك كان من
المنطق ان يكون طابع شباب ذلك العصر الحماسة الملهبة
والانفعال والتطوع للخطر وكان هذا يصل الى القاء
القنابل على الانجليز ، واطلاق الرصاص على الوزراء ،
وحرق عربات الترام .. الى آخره ..

وهذه المظاهر الانفعالية .. هذه الأدلة على الجدية

والحماسة .. ليست أشياء مقصودة لذاتها ، ولكنها نتيجة أوضاع معينة . فهي في حد ذاتها ليست علامة النضج والاهتمام بالمسائل العامة .. إنما هي علامات استثنائية تبدو على الشباب في ظروف استثنائية .. ولكن .. هل زال كل نقص في حياتنا .. وبالتالي هدأ كل غليان في نفوس الشباب ؟ ..

بالطبع ، لا .. وإن أكثر ما كان يبعث على الغليان ليس وجود هذه المشاكل والأوضاع الصارخة فقط ، ولكن عدم وجود حركة شاملة قوية للتخلص منها . فهذا وحده كان يبعث أعظم الغليان في نفوس الشباب . لم يكن الشباب يعتقدون أن المهمة الطبيعية لهم مثلاً هي القتال لإخراج الانجليز من القناة ، ولكنهم كانوا يفتشون أكثر وأكثر من جمود الأحزاب والزعماء والوزارات وتقاعسهم عن هذه المهمة ، فكانوا أحياناً يصبون غضبهم على الانجليز ، وأحياناً على هذه القوى التي كان يجب أن تكون مهمتها الأولى هي محاربة الانجليز ..

أما الآن .. فقد حدث تغير في المهمتين :

— فمن ناحية ... زال « اصرخ » ما كان يستفز الضمير والأعصاب .. كالاحتلال والتبعية الدولية والعرش الخائن والاقطاع والرضا بالمكان المتخلف .

— ومن ناحية أخرى .. زال « جمود » الدولة والقيادة والمجتمع أزاء المشكلات ... فلم يعد هناك الاحساس القديم المستفز بأن من يمسكون الزمام لا يتحركون ولا يتقدمون .

وهذه أشياء لها أثر عميق جداً في نفوس الشباب والشابات .. وإن كانت لا تبدو واضحة للعيان .. الشباب والشابات الآن في سن ١٧ أو ١٨ أو ٢٠ ،

يجدون ان بلادهم تسير في ركب الصيحات الجديدة التي
تتردد في جنبات العصر الحديث : الجمهورية والاشتراكية
والصناعة .. فهم يشعرون ان القضايا الاساسية
لا خلاف عليها ..

ثم ان الشبان والشابات لا يرون حولهم ركودا ولا
جمودا . بل يجدون الدولة في حركة عنيفة واسعة
النطاق ، حركة تكاد تصم الاذان ، وتجعل الانفاس
تتلاحق لاهثة !

فمن الطبيعي اذن الا تكون لاهتمامهم بهم طبيعة
صاحبة . ومن الطبيعي اذن ان نستبعد « الانفعال »
و « الغليان » كأدلة على الجدية والاهتمام !

ان الشائع في وصف الشباب الآن هو: انهم منصرفون
الى طلب الرزق .. في شكل عمل او وظيفة او شىء
آخر ..

ولكن .. ما هو « طلب الرزق » آخر الامر ؟
ان طلب الرزق ليس عملا هداما بل انه عمل بناء من
الدرجة الاولى . في لحظات الخطر او الثورة او الاستفزاز
يكون مطلوبا من الناس ان يتركوا طلب الرزق ، لأن
الثورة والتطوع هنا يكونان لطلب الحياة الكريمة نفسها .
يكونان لصيانة الوطن الذي سنطلب فيه الرزق بعد ذلك !
أما في الاحوال الطبيعية ، حين يكون الوطن كله في حالة
سعى وعمل من أجل التقدم والصعود والارتقاء .. فان
طلب الرزق يكون اشتراكا ايجابيا في عمليات البناء
هذه . الشاب الذي يطلب الرزق انما يدفع نفسه الى
الأمم في دراسة ، او في اتقان عمله ، او في البحث عن
عمل أحسن .. وهكذا .. ومن مجموع هؤلاء الشباب
الذين يطلبون الرزق يحدث « الصعود العام » وتتكامل
عملية البناء الشاملة ..

ولكن .. هنا يرد تحفظ خطير ، ونحن نناقش «جدية الشبان والشابات» .

لأبد أن نوضح ان هناك فرقا بين طلب الرزق بشكل انتهازي ، وبين طلب الرزق عن طريق المجهود ومحاولة التفوق والالتقان واحترام الخدمة العامة . وفي رأى ان هذه الناحية لا تتوقف على الشباب أنفسهم ، ولكنها مرهونة بالكبار ، بالاجيال السابقة عليهم .. كيف ؟ ..

ان الشاب يبدأ حياته ونفسه طاهرة .. والمثل العليا في فؤاده بريئة من الشوائب الى حد كبير . والمجتمع هو الذى يضيف الى وجدانه هذه الشوائب او لا يضيفها . وهو المجتمع الذى يحكمه الكبار ، والاجيال السابقة على جيل الشباب الجديد ...

لننظر مثلا الى صورة شاب دخل الجامعة وجد واجتهد لكى يتفوق ويضمن عملا يحبه ويحلم به . ثم فوجيء لحظة تخرجه ان احد الذين كانوا اقل منه مجهودا ينال هذا العمل وتنتفتح أمامه الفرصة .. بسبب قرابة أو صداقة أو محسوبية من أي نوع . هذه الصدمة تذهب بطهارة الشاب كلها . انها تقلب كل القيم التى كان يصدقها رأسا على عقب . انه يتصور ان هذه « القيم » نوع من الدراسات النظرية التى لا علاقة لها بالحياة العملية . انها موضوعات انشائية سخيفة . وتضيع طهارة الشاب أو تضيع جديته . فالجدية ليس معناها التجهم والزهد فى الحياة وعدم الاستمتاع بها . ولكن معناها احترام القيم الاساسية وتصديقها والتصرف على هداها .

هذا الشاب تصبح الدراسة والاجتهاد بالنسبة له سخرية . والرابطة العائلية سخرية والجنس الآخر لهوا

ومغامرة . ان نظرتة كلها تتغير . و « حاول أن تنهب ما تستطيع بصرف النظر عن أى شيء » . . سيكون شعارا له بدلا من أن يكون شعاره : « ابذل المجهود لكى تتقدم . كن أحسن من غيرك لكى تتفوق ! »

ولذلك فحين ترى بعض الشباب « غير جادين » ، بهذا المعنى السابق للجد . . فانه يجب على الاجيال السابقة دائما أن تحاسب نفسها ، وأن تسأل ضميرها . ماذا قدمت للشباب لكى ينقدوا جديتهم ؟ ! . .

ولا أحد ينكر أن مجتمعنا - بماضيه وحاضره - مشغل بشوائب كثيرة . ولا أحد ينكر ان النزعات القبلية ما زالت تسكن المدينة وان المحسوبية والاهمال والكسل وعدم الاهتمام والمنافسة غير المشروعة فى مجالات العمل . . الى آخره . . أشياء ما زالت عميقة ومنتشرة . ومن الطبيعى ان الشباب حين يدخلون هذا «الطقس» تصيب بعضهم العدوى .

وفى الوقت الذى يجب أن نحرص فيه أقصى الحرص على « حصر العدوى » . . يجب ألا نسرع بلوم الشباب حين يصاب بالعدوى فعلا . . وحين يصبح غير جاد . . وكأنه هو الذى حمل العدوى إلينا ، ولسنا نحن الذين حملنا العدوى إليه ! . .

وإذا كان بعض الشباب يفقد جديته بفعل النماذج السيئة التى يصادفها ، فبعض الشباب يفقدون جديتهم للسبب العكسى ، وهو المبالغة فى القيود والسدود التى نفرضها عليهم !

فالشباب آخر الأمر لهم عقولهم وقلوبهم التى يفكرون ويحسون بها ، وحين يرون الكبار يحاولون أن يفرضوا عليهم أفكارا اجتماعية بالية ، هى من تركة عصر مضى ، فانهم ينقلبون الى موقف من التحدى وعدم الثقة بأي

شيء يقدمه لهم الكبار ، تماما كالأب الذي يحاول مطالبة ابنته اليوم بالأ تذهب الى السينما مثلا ، انها لن تقبل هذا القيد أبدا والعصر من حولها يعاكس رأى أبيها تماما ، انها اما ستثور على أبيها وتناقضه تماما ، واما سوف تنصرف الى ممارسة كل ما تريد في السر ، وفي كلتا الحالتين تنقطع الصلة بينهما تماما ، وترفض هي من أبيها الحسن والسيئ على السواء وتفقد الثقة بقيمته كلها ، وقد تصبح غير جادة أبدا !

وأعود الى القضية العامة ...

ان الشباب يكونون أكثر جدية وحماسة ، كما قلت ، حين يصددهم شيء ، يشعرون بالرغبة في مقاومته والتغلب عليه ..

والخدمة العامة نفسها تستهوى نفوسهم حين يتوافر لها عنصر الحماسة والاثارة والتحدى ..
فما هي القضية التي يمكن أن تثير في نفوس الشباب هذه الطاقة من الحيوية والاهتمام ؟ ..

لقد أشرت في صدر المقال الى الأشياء التي كانت هدف حماسهم ثم زالت ولكن بقي لنا ولاشك الكثير مما يمكن أن تتجه اليه طاقة الجدية والحماسة والتحدى في الشباب ..

ولكني أقترح قضية بالذات ...
هي قضية : التخلف !

انها قضية « الفقر » الذي قال عنه على بن أبي طالب انه لو كان رجلا لقتله ! .. فهي قضية لا تحلها الاعمال العنيفة ، انما يحلها المجهود العنيف والمثابرة العنيفة !
لو أمكننا أن نجسد « التخلف » في بلادنا بوصفه « الدراما » الكبرى التي تواجهنا .. تماما كما كان الاستعمار مجسدا .. فمن المستطاع أن نثير مخيلة

الشباب بحيث تنفع حماستهم بآلاف الوسائل المختلفة
وأنه من الممكن أن نجسد « التخلف » كعدو وطنى ،
وأن نجسد مهمة محاربة التخلف كمهمة لا تقل شرفا
عن مهمة محاربة المعتدين فى بورسعيد ، يوم تطوع لها
كل الشباب !

بشرط أن يكون هذا التجسيد عميقا ..

نجدد التخلف المادى ...

نجدد التقدم الذى تسير فيه البلاد الأخرى والعوالم
الجديدة التى يكتشفها الجهد الإنسانى يوما بعد يوم ..
ونجدد أسباب التخلف .. حتى الأسباب النفسية
والاجتماعية والأخلاقية ..

ونجدد ما يمكن عمله ...

ونجدد جريمة الذين يخرّبون أو يعرقلون مهمة
محاربة التخلف ، عن طريق الكسل أو المحسوبية أو
استغلال المركز أو الدوافع الشخصية كأنهم يخرّبون
قضية وطنية !

نجدد بطولة الذين يعملون ... كأبطال وطنيين
وشعبيين ..

الشباب والحب

هل هناك مكان للحب في حياتنا الجديدة ؟ ..
اننا ننطلق في الطريق الى بناء مجتمع اشتراكي ،
ونحن نريد أن نشحذ كل همّة من أجل زيادة الانتاج
ومضاعفة الدخل ، وقد نحتاج الى التقشف في هذا
الفرع من فروع الحياة أو ذاك

فهل هناك مكان للحب في حياتنا الجديدة ؟ ..
هل مطالبة المجتمع بأن يحول فوضى حياته الى خطة
مرسومة ، معناها تحويل الانسان الى مسمار في آلة ،
أو الى كيان ميكانيكي أصم ؟ هل معناها تجريد الفرد
من انسانيته التي تجعله يقع في الحب ، ويبحث عن
المتعة ، ويرتكب الحماقات ، ويستلقي على ظهره في
ليلة جميلة ، لا يفعل شيئاً سوى أن يتأمل النجوم ؟ ..
اننا محتاجون الى كل دقيقة من وقت كل مواطن
ومواطنة ، لأننا نريد أن نبني في سنوات ما بناه غيرنا
في عشرات من السنين ، فهل معنى ذلك أن نلغى الدقائق
التي تنفقها الفتاة أمام مرآتها ، أو التي ينفقها الفتى
في ترتيب رحلة أو سهرة مريحة ؟ ..

اننا نريد أن نحمل مجتمعا من الانحراف والضعف
فهل الحب انحراف ؟ وهل الوقوع في هوى الطبيعة
الجميلة ضعف ؟ ..

ليس هذا صحيحا !.. بل ان الذين يقولون هذا الكلام ، اما انهم خصوم للمجتمع الجديد ، يريدون تشويه صورته مقدما ، واما انهم ناس لا يهمهم الا أن يكونوا أكثر المتكلمين حماسة وتطرفا ، ولو على حساب المجتمع الجديد نفسه !

ومن الممكن أن نقول ببساطة : ان المجتمع الذى يعمل ويشتج ، هو المجتمع الذى يعرف كيف يستمتع بحياته ، ان الكثيرين منا يقعون تحت وهم الصبور الناقصة التى تنقل اليهم عن الخارج .. ! فالناس يقرأون ويشاهدون الافلام عن لندن وباريس ونيويورك وغيرها ، فيظنون أن لندن ليست سوى حدائق هايدبارك حيث يباح الهوى ، ونيويورك ليست سوى شوارع برودواى حيث أكبر مسارح اللهو ، وباريس ليست سوى مونمارتر حيث يسهر الفنانون بلا عمل حتى الصباح .. ! ولكن هذه ليست انجلترا وفرنسا وأمريكا ان أهم ما فى هذه البلاد هو الجهد العنيف ، هو المناطق الصناعية الهائلة ، هو قاعات العلم ومعامل البحث وأفران الحديد المصهور .. ! والذين تراهم الشوارع والحدائق والمسارح يلهون ويمرحون ، هم أنفسهم الذين تراهم المعامل والمصانع والمدرجات يبحثون ويعملون ويتصصبون عرقا .. ! ان ازدهار اللهو جاء نتيجة لازدهار العمل وليس العكس .. !

وبالعكس .. يقرأ الناس عن موسكو مثلا فيحسبون انها مجرد معسكرات هائلة للعمل الشاق العنيف ، وان الناس هناك لا يتسمنون ، وهذا أيضا غير صحيح . ففي هذه البلاد التى قفز فيها الانتاج .. قفز أيضا عدد المسارح الهائلة ، وانتشرت الحدائق المضيئة طول الليل والفاسة بأنواع التسلية والألعاب ، وبدأت الشوارع

والخدائق تزدهم بالشباب الذين ينفقون ، لأنهم يؤدون عملهم ويكسبون .

ولكن .. تعالوا نفكر في الموضوع من زاوية أخرى ان الحب يتأثر الى حد بعيد بنظام المجتمع ، وبدرجة نموه الاجتماعى والاقتصادى

ولو حاولنا أن نتبع تطور الحياة فى أسرة واحدة ، خلال عدة أجيال ، لوجدنا الدليل على ذلك .

فى البدء ، كان المجتمع — بوجه عام — اقطاعياً ، وسيادة النظام الاقطاعى معناها ان تقاليد المجتمع وأخلاقه وعاداته كلها تنتسب الى هذا النظام . فى ظل هذا النظام نجد الأب يتمتع بسلطة مطلقة على زوجته وعلى أولاده وأحفاده ، سلطة أشبه بحق الملكية الخاصة ، بل انها بالفعل ملكية خاصة ، فالزوجة مملوكة لزوجها ، اشتراها من أبيها بمهر ضخم ، اشتراها دون اختيارها وهى تعلم جيداً ان مهمتها هى أن تخدمه وتطيعه وتخلص له ولا تناقش رغباته .. فى حين انه هو ليس مطالباً بالوفاء أو الاخلاص لها .. وكذلك الابن أو البنت بالنسبة له .. الابن اذا عمل فهو يعطى ايراده لأبيه ، واذا تزوج فأبوه هو الذى يختار له زوجته ، وهو على الاغلب .. يقيم بأسرته الجديدة مع أبيه . أما البنت فوضعها معروف ، مثل وضع أمها تماماً .. !

وفى صفقات الزواج تلعب قيمة المهر وثمان الشبكة وكمية العقارات التى يملكها الزوج الدور الأكبر فى الاختيار . فالمال فى حد ذاته له قيمة خاصة مستقلة عن قيمة الرجل ..

ولكن هذا الوضع تغير الى حد بعيد .. وما زال يتغير باستمرار .. اكتسبت المرأة حق التعليم والعمل ، وبهذا كسبت حق الاختيار وحق المساواة ، وليس

ضروريا ان تعمل كل النساء ليتمتعن بهذا الحق ، ولكن ظهور هذا الحق يترك اثره بالنسبة لجميع النساء ، وكذلك بالنسبة للأبناء والبنات . لقد زاد حقهم في الاختيار والاستقلال والانفصال ، أصبح الشباب أو الشابة يختار مستقبله ويختار شريك حياته ويستقل بمعيشته ، وفي الزواج تراجعت أهمية الشبكة والمهر ، وتراجعت دلالتهما على نوع « العريس ! » فقد بدأ الاحساس ينمو بأن القيمة الأساسية هي قيمة العمل . والعمل صفة لاصقة بالشخص لا تنفصل عنه ، وهي المعيار الذي يقاس به ، ولذلك أصبح «العريس» الناجح أو المتعلم أو الذي « له مستقبل » أهم من عريس خامل استطاع أبوه أن يدفع له مبلغا ضخما في المهر والشبكة ، أو من عريس خامل يملك بضعة فدادين .

في نموذج هذه الأسرة .. نجد ان التطور الاجتماعي ، الذي يستند الى تطور مادي واقتصادي ، قد غير معالم الحب القديم تماما . لم يعد الحب هو الخضوع ، ولكنه أصبح المساواة والاحترام ، لم يعد الحب يطالب المرأة - دون الرجل - بالوفاء ، بل أصبح يطالب الاثنین على السواء بهذا الوفاء .. لم يعد الحب قرارا يصدره الأب لابنته بأن تعيش لهذا الرجل أو ذاك .. ولكنه قرار تصدره الفتاة بنفسها ، لأنها هي التي سترتبط به . وليس هذا سوى مثل بسيط جدا ، يصور لنا مدى الاندماج التام بين نوع العلاقات الاجتماعية والاقتصادية ، وبين الحب .

ولنقارن مثلا بين فتاة لم تتعلم ولم تعمل وأبوها يعولها بصعوبة .. وبين نفس الفتاة لو انها تعلمت ، وأصبحت تعمل ..! انها في الحالة الثانية تستطيع أن تخرج .. أن تذهب الى السينما .. أن تبحث عن ثوب

تشتريه وعن ذوق يناسبها .. أن تختار شريك حياتها
أو توافق على اختياره لها .. أن تكون لها صديقات .. !
والفرق هو التغير المادى والاجتماعى الذى حدث لها
نتيجة ثقافتها وعملها .. !
كذلك البيئة الاجتماعية كلها ..

ان الكاتب « كريستوفر كودويل » الذى حارب
الفاشية فى اسبانيا حتى سقط قتيلًا وهو فى ريعان
الشباب - هذا الكاتب كانت له كلمة جميلة تقول :
« ان المجتمع عبارة عن انتاج اقتصادى ممزوج بالحب !
وكما ان الحب هو الذى يجعل الحياة تمضى ، فان
الطريقة التى تمضى بها الحياة تؤثر فى صورة الحب ! »
والحب ليس حب الرجل والمرأة فقط . انه حب
الآباء والأبناء .. حب الأزواج والزوجات .. حب الطلبة
والاساتذة .. حب الرؤساء والمرؤوسين .. حب
الزملاء والرفاق .. وهو يتمثل فى صور أخرى كثيرة ..
كحب الانسان لوطنه ، أو حب الناس جميعا ومشاركتهم
لأى انسان يمر بمحنة .. كل هذه ألوان من هذا الحب
الذى يحرك الحياة .. وكلها ألوان من الحب تؤثر فى
قرارات كل فرد وفى مواقفه ومشاعره .. وكلها ألوان
مرتبطة ببعضها البعض .. فالشباب الذى يعجز عن حب
زوجته يعجز أغلب الأمر فى النهاية عن أن يحب أى شيء
آخر فى المجتمع ، كذلك فان الرجل الحاقد الكاره
للحياة والناس والمجتمع ، يستحيل عليه فى الواقع ان
يحب فتاة واحدة حبا حقيقيا سليما صادقا .. !
وأغلب أنواع الانحراف ترجع فى الواقع الى نقص فى
الحب .. وأى شاب ينحرف يرجع انحرافه دائما الى
نقص فى حب أهله أو أساتذته أو زملائه .. أو الى
شعوره بأن « المجتمع » بوجه عام ، ككيان واحد ،

لأحبه .. ! وكلما أنتشر الانحراف ، كان هذا دليلاً على
اختفاء الحب من الحياة .

والتخلف الاقتصادي من أكبر العوامل التي تطرد
الحب من المجتمع .. !

ان التخلف الاقتصادي ، وعدم مجاراة المجتمع لمطالب
الناس المتزايدة ولوعيتهم الذي ينمو ، والفروق الهائلة
بين الطبقات .. كل هذا يؤدي في النهاية الى ضيق
الارزاق ، وضيق الصدور ، وارتفاع موج العداوة على
موج المحبة .. في هذا الجو ستجد الابن ساخطا على
أبيه ، لأنه لا يفهمه ولا يعطيه ما يريد . وستجد الاستاذ
ساخطا مهملاً لتلاميذه لأن المجتمع لا يكافئه على جهده
ولا يوفر له حياة معقولة مقابل هذا الجهد .. وستجد
الشباب الناشيء ممزقا بين أحلام حياة رغدة وبين واقع
حياة ضيقة مقبونة . انه على الاقل يئس من أن يتزوج
ويؤسس لنفسه بيتا .. فيئس بالتالي من العلاقات
المشروعة ، ويلجأ الى الانحراف .. وهكذا ..

وعندما يتقهقر الحب .. يحل محله شعور مزدوج
من الحرمان والاشتهاء .. كل واحد يحس بالحرمان
والاشتهاء معا .. اشتواء الجنس أو اشتواء المال ،
أو اشتواء المركز والنفوذ .. والاشتهاء غير الحب . ان
الاشتهاء هو اقتناص لذة عابرة ، أما الحب فهو احساس
بناء ، تمتزج فيه العاطفة بالمسئولية . ان المجتمع في
هذه الحالة لا يتقدم ولا يتطور بنظام .. انما تتقرر فيه
أشياء كثيرة بناء على الحظ والفرصة .. وكل واحد
عليه أن يمسك بفرصته الخاصة ولو على حساب
الآخرين ، والا اقتنصها الآخرون على حسابه .. ! الحل
العام لمشكلة المجتمع غير موجود فلا مفر من الحلول
الخاصة بكل فرد ! وهي عادة حلول وقتية فردية

ضيقة .. هي التربة الخصبة للانحراف .. وهي التربة
الخصبة لكل ما يفدى الانحراف مثل أدب الانحلال
وأفلام الانحلال وفكر الانحلال .. وكل ما يهيء للفرد
فى الخيال حياة لن يحققها فى الواقع .. وكل ما يبرر
للفرد انحرافه الخاص اذ يقول له : ان الجميع هكذا !
والدنيا كلها هكذا .. !

وأعود مرة أخرى الى كلمة جميلة قالها «كودويل» :
« ان تحويل الحب الى شذوذ وانحراف .. هو خيانة
لقدرة الانسان على الحب .. ! »

وبعد .. فهل هناك علاقة مباشرة بين هذه الرحلة
الطويلة ، وبين مجتمعنا الجديد .. ؟
نعم ..

ان نقطة الارتكاز فى أى كلام عن مجتمع اشتراكى
هى : أغلبية الشعب وليست فئة محدودة منه .. !
فحين نتكلم عن حق الانسان فى كذا وكيت ، نقصد بهذا
« الانسان » مجموع الشعب ، وليس فئة قليلة طافية
على السطح .. !

وبنفس المنطق .. حين نتحدث عن الحب ، ومكانه
فى المجتمع الجديد ، لا نتحدث عنه داخل الطبقة
الاجتماعية الفنية اللامعة وحدها .. انما نتحدث عن
مكانه ومستقبله بالنسبة لمجموع الشعب ..

ومشكلة الشعب - بمجموعه - هى زيادة الانتاج !
هى تكريس كل شىء لرفع مستوى المعيشة .. لتطوير
المجتمع ماديا واقتصاديا واجتماعيا بما يسمح للحب أن
يزدهر .. ويصبح عاطفة من عواطف الصحة لا المرض ،
ومن أسباب السلامة ، لا الشذوذ .. !

اننا لا نستطيع أن نقول ان الناس فى بلادنا عندهم
سيارات كاديلاك ، لمجرد أن هناك بضع مئات عندهم

سيارات كاديلاك ..! كذلك لا نستطيع أن نقول أن الناس في بلادنا يتمتعون بعاطفة الحب .. لمجرد أن هناك عددا محدودا نسبيا يتمتع بهذه العاطفة ! لا نستطيع أن نقول أن كل شاب وشابة في الثلاثين مليوناً الذين يسكنون بلادنا ، تسمح لهم ظروفهم المادية والاجتماعية والثقافية بالاستقلال والاختيار ، وتذوق العواطف الجميلة والأشياء الجميلة !

كما أن الثراء في بلادنا كان احتكاراً للقليلين .. كذلك كان الحب ، وكان تذوق الجمال ..! هناك ملايين تنهكهم الحاجة .. الحاجة إلى الغذاء وإلى الصحة وإلى الكساء وإلى الراحة .. وهذه الحاجة تحرمهم من ممارسة شتى ألوان الحب والاستمتاع بجمال الناس والفن والطبيعة .. بينما توجد قلة تحترف الحب احترافاً ، كما يحترف آخرون فلاحاً الأرض مثلاً ..! وعندما تحول الحب عند هذه القلة إلى حرفة لم يعد الحب بالنسبة لها حقيقة تعيشها بل أصبح أدواراً تمثيلية تؤديها وتبدلها .. وتعطى بها للناس صورة مشوهة عن الحب ..!

أنا نريد في مجتمعنا الجديد أن تتسع قاعدة الحب . الحب الذي ينبت كالزهرة في تربة من الشعور بالعدل وعدم الفبن ، والاطمئنان إلى التقدم ، والقدرة المادية والمعنوية على ممارسة الاختيار والانتقاء . أن الوردة إذا غرستها في تربة فقيرة وأغلقت عليها هواء فاسداً سرعان ما تذبل وتتعفن وتجف .. وكذلك كل عواطف الحب في المجتمع .. حب الرجل للمرأة ، والآباء للأبناء ، والأساتذة للطلبة .. وكل حب آخر يحرك الحياة ..!

الأمريكي الهادئ

قد يعجب قارئ اليوم اذا تذكر ان دولة كبرى ،
هى الولايات المتحدة الامريكية ، تلعب مثل هذا الدور
الحاسم فى حياة العالم ، اذ لم يكن لها دور يذكر على
مسرح الحياة الدولية منذ عشرين أو خمسة وعشرين
سنة . وهو زمن يمر كفضضة العين فى حساب التاريخ .
لقد زحفت انجلترا أو فرنسا - مثلاً - الى مركز
التأثير فى حياة العالم أجمع خلال مئات من السنين ،
تكونت لكل منهما فيها خبرات وتجارب وتقاليد . اما
امريكا فقد وجدت نفسها - فجأة - فى مركز الصدارة ،
تحمل مسئوليات كبرى فى القارات السبع ، بلا خبرة
ولا تجربة ولا تقاليد . بل انها تمتعت - لفترة خاطفة
من الزمن - بميزة ربما لم تتمتع بها دولة من قبل ،
هى : احتكارها لسلح خطير حاسم لا تملكه أي دولة
أخرى سواها ، هو القنبلة الذرية . . قبل أن تتمكن
روسيا ، ثم انجلترا ، من صنعها . .

والواقع انه الى وقت نشوب الحرب العالمية الثانية ،
كانت القوتان الكبريان اللتين تؤثران فى مصير العالم
اليوم - روسيا وأمريكا - غير موجودتين على مسرح
السياسة الدولية . كانت كل منهما عاكفة داخل حدودها ،
تنمى كيانها الهائل ، منصرفة الى حد بعيد عن التطفل

على مشاكل العالم المعقدة في القارات السبع : الاتحاد السوفيتي يركز جهوده على انجاز تجربته الاجتماعية الخطيرة الهائلة ، ويخوض بحار المشاكل الداخلية من أجل تحويل المجتمع البدائي المتخلف الاقطاعي الى مجتمع شيوعي وصناعي . وأمريكا ، مكتفية بنفسها ، أو بالأحرى مكتفية بنصف الكرة الغربي ، أي ببلادها وبدول أمريكا الجنوبية التي كانت تعاملها دائماً على أنها « حديقة خلفية » لبيتها الكبير .

ومع ذلك ، فإن الفرق شاسع حتى بين روسيا السوفيتية وأمريكا في هذا المجال ، مجال الاهتمام بالسياسة الدولية والمشاركة فيها .

فالإتحاد السوفيتي ، قبل الحرب العالمية الثانية ، كان عضواً في عصبة الأمم بينما كانت أمريكا غير مشتركة فيها . وكانت روسيا على صلة بتقلب الأحداث والنظم والتيارات في القارة الأوروبية مركز العالم العصبى في ذلك الوقت ، بينما كانت أمريكا تنظر عبر المحيط الى أولئك الأوروبيين المتنازعين ، نظرة استخفاف ، نظرة فيها مزيج من عدم الفهم وعدم الاهتمام .

يضاف الى ذلك — وهو الأهم — ان عقيدة النظام السياسي في الإتحاد السوفيتي أقدم في الايمان « بالعالمية » من النظام الأمريكي .

فالثورة الشيوعية التي انتصرت في روسيا سنة ١٩١٧ لم تر نفسها — منذ البداية — على انها ثورة روسية أبداً . ولا على انها ثورة أوروبية فحسب . إنما هي قد أعلنت نفسها منذ البداية « ثورة عالمية » ، سيرا على العقيدة التي أعلنها كارل ماركس وفردريك أنجلز صاحب « البيان الشيوعي » في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . وعلى هذا فمع مولد الدولة الشيوعية

الاولى ولد أيضا « الكومنترن الشيوعى » الذى يضم الاحزاب الشيوعية فى البلاد الاخرى ، والذى يحلم بأن يكون له فى كل قطر من أقطار القارات السبع حزب شيوعى ، تمهيدا لقيام نظام شيوعى عالمى . بل لقد عاشت الثورة الشيوعية بعد انتصارها فى روسيا سنوات طويلة وهى تنصت للعالم الخارجى ، متوقعة أن تسمع يوما نبأ انفجار الثورة فى أماكن أخرى ، مؤمنة بأنها لايمكن أن تعيش وحيدة فى وطن واحد . فهى لم تعتمد الى العزلة الا اضطرارا ، ولم تقبل فكرة بناء الشيوعية فى وطن واحد الا على مضض ، والى حين فالاتجاه العالمى جزء لا يتجزأ من العقيدة الشيوعية ، وبالتالي من السياسة السوفييتية ، والاتحاد السوفييتى اذا كان قد ظل منكمشا حتى أحداث الحرب العالمية الثانية فعن اضطرار ، لا عن رغبة واختيار . كما ان انكماشه كان نسبيا ، اذ بقيت صلته بالاحزاب الشيوعية الخارجية قائمة على أى حال . .

أما بالنسبة لأمريكا فالصورة مختلفة . فقبل « روزفلت » لم تعرف أمريكا هذا الاحساس بأنها جزء من العالم وانها مسئولة فيه . حتى ويلسون ، الذى قاد خطواتها فى الحرب العالمية الاولى ، ذهب الى العالم القديم وعاد ، كما يذهب الجار الذى يحاول أن يفض مشاكل جيرانه ، دون أن يتورط معهم بحيث يصبح طرفا دائما فى مشاكلهم . والى ما بعد روزفلت بكثير ، ظلت دعوة « العزلة » فى أمريكا دعوة قوية لها أنصار كثيرون . بل انه يمكن القول ان أمريكا لم تعتنق - أخيرا - فكرة العالمية اعتناقا نهائيا الا كرد فعل لخروج التحدى الشيوعى الى المرحلة العالمية .

ولاشك انه من الصحيح القول ان نمو النظام

الرأسمالى فى أمريكا ، كان من شأنه أن يخرج بها عن عزلتها ، دون حاجة الى وجود التحدى الشيوعى ، لأن النظام الرأسمالى من طبيعته بعد أن يتشبع به السوق المحلى ، أن يبحث لنفسه عن أسواق خارجية جديدة . وقد بدأت الرأسمالية الأمريكية بالفعل تتجه الى العالم الخارجى بشهية هائلة ، تمثلت بعدمضغ أمريكا الجنوبية وهضمها ، فى التهام أو مشاركة كثير من معاقل ثراء الرأسمالية الأوروبية . فوجدناها تضع يدها على بترول المملكة السعودية ، وتشارك انجلترا فى بترول ايران والعراق ، وتشارك بلجيكا فى مناجم الكونغو ، الى آخره كل هذا صحيح ولاشك . ولكن المؤكد ان التحدى الشيوعى هو الذى جعل أمريكا تندفع الى شتى أركان الارض بهذه اللهفة الهائلة التى لا مثيل لها ، كأنها تريد أن تصبح مسئولة عن أقدار كل شعب على الارض من كوريا الى لاوس الى الكونغو .. الى جزر هاواى .. وقد اندفعت أمريكا بالفعل ، اندفعت من أرضها الحافلة بالشراء ، المزدحمة بناطحات السحاب ، التى لم تنفجر فيها قنبلة منذ انتصار ابراهام لنكولن فى الحرب الأهلية الأمريكية . : اندفعت الى العالم القديم ، المرغ فى التراب .. أوروبا «الحاكمة» محطمة مخربة منهوكة القوى ، وسائر البلاد «المحكومة» فى آسيا وأفريقيا رازحة تحت ما هو أبشع من التخريب والتحطيم .. رازحة تحت الاستعمار ، تحت ظلام أرهق جسدها وكاد يزهد روحها بعد مئات طويلة من السنين ..

اندفعت أمريكا الى جميع أركان الارض .. بمزيج من الشراء الفاحش ، والسداجة ، وضيق الافق ، والشهية ، وعدم الدراية . فجأة أصبح ملوك الصابون

ساسة سفراء وخبراء . فجأة أصبح رجل الاعمال
الامريكى الذى نجح فى ادارة مصانعه وتسويق منتجاته ،
هو النبى الجديد الذى يستطيع ان يدير شئون أى بلد
فى العالم ، وان يصف له الدواء الصحيح .

ولم يكن هناك الا دواء واحد : بضعة ملايين من
الدولارات ، وأسلحة يحاربون بها الشيوعيين ، وطبقة
تعرف طعم الحياة الامريكية بشتى منتجاتها من أفلام
هوليوود الى السيارات الكاديلاك !

وفجأة وجدت أمريكا نفسها غائصة الى عنقها فى
مشاكل غريبة . وجدت أقدامها قد انفرزت فى طين من
تعقيدات لا علم لها بها . . فى افريقيا . . فى جنوب
شرق آسيا . . وفى الشرق الاوسط . . وربما فى كل مكان !
وأسوأ ما فى الأمر أن أمريكا لم تكن لها « سياسة
قومية » فى جميع الظروف بالمعنى المفهوم من كلمة
سياسة . فحتى السياسة الخارجية دخلت بشكل غريب
فى منطق « الاقتصاد الحر » هناك . وأصبحت بعض
القضايا الخارجية لها « توكيلات » ولها « قوى ضاغطة » ،
تلك التى يسمونها Pressure Groups . فشركات البترول
فى الشرق الاوسط مثلاً تدافع عن الملوك العرب ،
ومؤسسات أخرى تتبنى قضية الصين الوطنية ، التى
تقلصت وأصبحت فورموزا ، ومؤسسات يهودية تتبنى
قضية اسرائيل ، وهكذا . .

وعندما أطلق تشارلز ويلسون وزير حربية ايزنهاور
والمدير السابق لشركة «جنرال موتورز» كلمته الشهيرة
« أن مايفيد جنرال موتورز يفيد أمريكا » لم يكن يقرر
الا حقيقة واقعة . فشركات كذا تحدد سياسة أمريكا
فى أمريكا الجنوبية ، وشركات كيت مصلحتها فى الشرق
الاوسط تأيد هذا النظام أو ذاك . . الى آخره .

ومرت سياسة أمريكا الخارجية بفترة عصيبة . حتى البلاد التي تفرقها أمريكا بملايين الدولارات أصبح العداء فيها لأمريكا شيئاً عادياً . وحيث يختفى العداء السياسى يوجد نوع آخر أعجب من العداء العاطفى .

وتصاعد النقد حتى من داخل أمريكا نفسها . وكان من مظاهر هذا النقد ظهور عدد من الأعمال الأدبية التي أحدثت ضجة كبيرة ، ربما كان أبرزها الروايات الثلاث « النصيحة والموافقة » و « الأمريكى الكريه » و « الأمريكى الهادى » . .

والروايتان الأوليان هما فى رأى أقرب الى الأعمال الصحفية والسياسية لا الى الأعمال الفنية . ولكن الرواية التي تتوافر لها شروط العمل الفنى الرفيع ، هي الرواية الثالثة « الأمريكى الهادى » وهي من تأليف كاتب غير أمريكى ، هو الكاتب الانجليزى الشهير جراهام جرين . . وهي الرواية التي سأحاول أن أقدمها هنا فى اسهاب ، بعد أن أشير اشارة خاطفة الى روايتي « النصيحة والموافقة » ثم « الأمريكى الكريه » .

الرواية الاولى هي رواية « النصيحة والموافقة » ومؤلفها صحفى أمريكى اسمه «آلن درورى» وقد نالت جائزة بوليتزر .

وهذه الرواية الفائزة بالجائزة وموضوعها : الحياة السياسية الأمريكية من الداخل . حوادثها تدور فى واشنطن فى سنة ١٩٦٢ ، أبطالها هم رئيس جمهورية الولايات المتحدة ووزير خارجيتها ، وزعيم الاغلبية فى الكونجرس الأمريكى ، وأقطاب الحزب المعارض . . وسفراء الاتحاد السوفيتى وبريطانيا والهند وفرنسا فى أمريكا . . وبعض نساء المجتمع الأمريكى .

اننا نقرأ كل يوم فى الصحف عن مناقشات الكونجرس

الأمريكي .. وخلافات الكونجرس مع رئيس الجمهورية .
ولجان التحقيق التي يشكلها الكونجرس للبحث في نشاط
الحكومة .. وفي هذا الجو كله تدور هذه الرواية التي
تقع في ٦٠٠ صفحة من الحجم الكبير .. والتي ينتحر
فيها أحد أعضاء الكونجرس البارزين !

ان المشكلة التي تثير أحداث القصة هي : ان رئيس
جمهورية الولايات المتحدة قد أصدر قرارا بترشيح
مستر «لنجلويل» ليكون وزيرا للخارجية ، والدستور
الأمريكي يقضى بأن رئيس الجمهورية يرشح الوزراء ،
وان الكونجرس يجب أن يوافق على التعيين .. ولذلك
فقد أرسل رئيس الجمهورية اسم المرشح الى
الكونجرس لاقراءه ...

ولكن اختيار « لنجلويل » لمنصب وزير الخارجية
يثير ضجة هائلة ! انه شخصية من تلك الشخصيات
التي تثير الجدل العنيف ، والتي يختلف الناس في شأنها
.. فبعض الناس يرونه كفؤا وماكرا يستطيع أن يواجه
السوفييت في المباحثات الدولية القادمة وفي مؤتمرات
الاقطاب المتوقعة .. وبعض الناس يعتقدون انه انتهازي
عريق .. لا رأى له ولا ولاء لأي شيء ولا لأي مبدأ ..
ومن هنا تثار العواصف .. ويدور الصراع العنيف ،
في أفق واشنطن السياسي .. فالمعارضة في الكونجرس
عنيفة ضد اختيار « لنجلويل » .. ولكن رئيس
الجمهورية ، وقد أعلن اختياره ، أصبح من كرامته أن
يحصل على موافقة الكونجرس بأي شكل ... ومهما
كان السلاح !

وحوادث القصة تروى على لسان أربعة أشخاص من
أبطالها ...

الاول : هو « مونسون » زعيم الاغلبية في الكونجرس

فهو زعيم الحزب الموالي لرئيس الجمهورية والذي يتمتع
بالاغلبية في المجلس ، ومعنى ذلك ان مهمته هي العمل
على اقرار هذا الترشيح من الكونجرس بأى ثمن .. ان
«مونسون» رجل جذاب ، له تجربة طويلة في الكونجرس ،
وهو في نفس الوقت صديق حميم للسيدة «دوللى» ..
تلك الأرملة المليونيرة .. التى وجدت نفسها بعد وفاة
زوجها ، بملايينها الكثيرة ، تحيا حياة راكدة فى احدى
الولايات .. فقررت أن تنتقل الى واشنطن حيث
تستطيع أن تمارس حياة اجتماعية حافلة .. وقد نجحت
«دوللى» فى ذلك الى حد بعيد .. فأصبحت حفلاتها
تضم أبرز الشخصيات وأهمها .. ولما كانت «دوللى»
تحب «مونسون» زعيم الاغلبية ، وتريد أن تتزوجه ،
فهى تساعد فى حياته السياسية ، بأن تقيم فى بيتها
الحفلات التى تضم اكبر الشخصيات ، حيث يتباح
«لونسون» أن يلتقى بهم وينشئ علاقات صداقة معهم
ومع سفراء الدول الاجنبية ، وكبار الشخصيات التى
تزور العاصمة ..

البطل الثانى : هو «سيب كولى» وهو واحد من
أقوى أعضاء الكونجرس وأشدّهم مراسا وأكثرهم عنادا ،
وهو فى نفس الوقت يكره «لفنجويل» المرشح لوزارة
الخارجية ، كراهية شديدة .. لأن «لفنجويل» قال
له مرة ، فى وجهه ، انه كذاب .. وقد جاءت الفرصة
لكى ينتقم فيها «سيب» من «لفنجويل» .. ولذلك
فهو يتزعم الحملة لرفض هذا الترشيح ..

البطل الثالث : هو «اندرسون» رجل مثالى حقا !
شريف ونزيه الى أقصى حد .. وهو متزوج من سيدة
جذابة اسمها «مايل» .. تحبه كثيرا .. ولكنها تشعر
دائما ان هناك شيئا خفيا يفصل بينهما .. وكثيرا ما

توهمت انه لا يحبها !

والبطل الرابع : هو « نوكس » ، وقد كان مرشحا لرئاسة الجمهورية ضد رئيس الجمهورية ، ولكنه سقط في الانتخابات ... انه رجل كفاء وذكى ومثقف ولكنه ينطوى على مرارة نحو رئيس الجمهورية منذ تلك المعركة الانتخابية ..

وقد تفاقم الخلاف في الكونجرس حول هذا الترشيح .. فتقرر تكوين لجنة تحقيق لبحث الموضوع ، تقوم باختبار المرشح ، وتقدم تقريرها بناء على هذا الاساس . ولما كان موضوع دراسة اللجنة دقيقا ، فقد اختاروا لرئاستها « اندرسون » ، الرجل الشريف المثالى ، لأن سمعته ونزاهته وتجرده فوق مستوى الشبهات ... وهو الوحيد الذى لن يتهم بالتحيز .. أما أعضاء اللجنة فكلهم من الاعضاء البارزين في الكونجرس .. ومناقشات اللجنة وجلساتها سرية ..

ولكن اللجنة تفاجأ بظهور شاهد يقول أمامها : ان « لفنجويل » كان في شبابه شيوعيا .. وانه عندما كان أستاذا في الجامعة أسس مع اثنين آخرين خلية شيوعية المرشح لمنصب وزير خارجية أمريكا .. كانت له ميول شيوعية ؟ ان المسألة خطيرة جدا .. ولذلك يجب التريث والتدقيق فيها .. ومن هنا قالت اللجنة انها لا تستطيع ادانة المرشح بناء على شهادة شاهد واحد فقط ..

ولكن المتحمس لاثبات هذا الاتهام هو « سيب كولى » ، خصم « لفنجويل » القديم .. وهو لذلك مصمم على احضار الاثنين اللذين قيل انهما اشتركا معه في تأسيس هذه الخلية .. ان أحد الاثنين قد مات ، ولكن الثانى موجود . يعثر عليه « سيب » ، ويجعله يتصل برئيس

اللجنة ، « اندرسون » ، و يروى له كل شيء .
ويجد « اندرسون » ان الموقف قد أصبح خطيرا .
ان أحسن تصرف هو ألا يذيع هذه الانباء .. على أن
يذهب الى رئيس الجمهورية ليروى له كل شيء وينصح
له أن يسحب مرشحه في هدوء .

وكان رئيس الجمهورية في ذلك الوقت في أشد
حالات الغضب والثورة . أن تأخير الموافقة على مرشحه
كل هذا الوقت فيه اهانة له ! خصوصا أمام الدول
الاجنبية ، التي عبر له سفراؤها عن اغتباطهم بترشيح
« لفنجويل » .

و « لفنجويل » أيضا له أصدقاء كثيرون ، ولذلك
بدأت الصحف تهاجم اللجنة وتهاجم رئيسها اندرسون
هاجمته « واشنطن بوست » و « هيرالد تريبيون »
و « تايم » و « نيوزويك » ، ومحطتان من محطات الاذاعة
وذهب اندرسون ليقابل رئيس الجمهورية ، وروى
له كل شيء ! ..

وفي البداية ، حاول رئيس الجمهورية أن يشتري
اندرسون رئيس اللجنة ! لمح له بالمناصب ، ولمح له
برشوة غير مباشرة ، في صورة اعتمادات يستطيع الرئيس
أن ينفقها في الولاية التي ينوب عنها اندرسون فترتفع
أسهمه فيها . ولكن اندرسون لم يتزحزح عن موقفه في
مواجهة الحقيقة ، وقال أصدقاء رئيس الجمهورية له :
ان اندرسون لا يمكن شراؤه .. فرد رئيس الجمهورية
قائلا : اذن لابد من تحطيمه !

وتظاهر رئيس الجمهورية بأنه يوافق على سحب
ترشيح لفنجويل .. ولكنه طلب من اندرسون بأن
لا يذيع أى شيء عن الموضوع .. ويوافق اندرسون
وهو سعيد لأن الرئيس سيجنب الكونجرس أزمة كبيرة

والواقع ان رئيس الجمهورية لم يتراجع ، ولكنه تظاهر بذلك فقط حتى يكسب وقتا يجد خلاله طريقة لتحطيم اندرسون، وتقع سلسلة من المصادفات السيئة ، تنتهى بتزويد رئيس الجمهورية بالسلاح الذى كان يبحث عنه لتحطيم اندرسون .. وكان سلاحا رهيبا..

لقد عثروا على صورة لاندرسون فى شبابه .. عندما كان مجندا خلال الحرب العالمية الاخيرة.. كانت الصورة له فى هونولولو مع شاب آخر وخلف الصورة اهداء عاطفى غريب من اندرسون الى زميله فى الصورة .. اهداء يثير الشبهة فى ان الاثنين كانت بينهما علاقة شاذة .. ويسرع انصار رئيس الجمهورية الى البحث حتى يكملوا القصة ويتأكد لهم ان هذه العلاقة القديمة حقيقية ..

ان السلاح الذى وقع فى أيديهم رهيب ، وقد بدأوا يهددون به اندرسون .. فماذا يفعل الرجل ؟ انه رجل شريف ونزيه ، وهذه العلاقة القصيرة وقعت له فعلا فى ذلك التاريخ البعيد ، تحت تأثير ظروف الحرب وغيرها . وقد انتهت بسرعة كفلطة لم تتكرر . ومن وقتها واندرسون نموذج للسياسى النزيه الشريف المتجرد عن الهوى .. فماذا يصنع ؟

هل يخضع للتهديد ؟ .. ولكنه بذلك سيكذب على الأمة .. وسيوافق على ترشيح وزير خارجية يضر بمصالح أمريكا .. فى رأيه ! ..

هل يتركهم يذيعون القصة ؟ .. ان فى هذا تدميرا كاملا له .. ولزوجته .. ولأولاده ..

وفى تلك اللحظة الحرجة .. دس خصومه من اتصل بزوجته وروى لها القصة تليفونيا .. وانهارت الزوجة وفهمت خطأ أن زوجها ما زال يمارس الشذوذ ..

ووجدت في هذا تفسيراً لهذا الحاجز الفامض بينهما..
وعبثاً حاول اندرسون أن يشرح لها أن هذا شيء قديم
جداً.. ولكنها تركت البيت..

كان هذا التخلي من زوجته هو نقطة التحول الحاسمة
في نفسه.. فقد قرر أن ينتحر لكي يتخلص من هذا
المأزق.. وجلس يكتب رسالة لصديقه وزميله «نوكس»
يشرح له كل شيء بصراحة تامة.. ثم انتحر..

وقد تأثر «نوكس» تأثراً عميقاً بهذا الحادث ووجد
أن الخصوم السياسيين قد استخدموا سلاحاً خسيساً
وقرر أن يكرس نشاطه لرفض ترشيح لفنجويل..
وكانت العواطف قد اتجهت ضده بشدة.. حتى نجح
في ذلك، وقرر الكونجرس رفض ترشيح لفنجويل..

وفي أثناء هذا كله كان الاتحاد السوفييتي قد نجح في
إرسال أول رجال إلى القمر وكان الرأي العام العالمي
يضغط من أجل عقد مؤتمر عاجل للأقطاب.. ولكن
رئيس الجمهورية المريض، كان يقاسي من أثر رفض
الكونجرس لمرشحه.. فمات فجأة، ذات ليلة..

وتولى نائب رئيس الجمهورية المكان الذي خلا. وكان
نائب رئيس الجمهورية رجلاً ضعيفاً محدود المواهب،
فأثر أن يختار «نوكس» وزيراً للخارجية حتى يستطيع
أن يقف إلى جواره، في مؤتمر الأقطاب القادم..
والرواية الثانية هي رواية «الأمريكي الكريه»..

وقد اخترع فيها المؤلفان «وليم ليدرر» و«يوجين
بورديك» دولة اسيوية خيالية اسمها «ساركان» تدور
فيها حوادث الرواية.. ولكنها دولة ذات ملامح حقيقية.
فهي بورما أو لاوس أو كمبوديا أو أي دولة من دول
هذه المنطقة التي يدور فيها الصراع بين ثلاثة عوامل:

الشيوعية الشرقية ، والرأسمالية الغربية ، والتخلف
المحلى !

والفكرة الاساسية التى تريد الرواية أن تثبتها هى :
أن المعسكر الشيوعى أو الاتحاد السوفيتى بالذات
يبعث الى هذه البلاد دبلوماسيين مدربين ، خبراء بشئون
المنطقة ، ينفذون سياسة محسوبة مرسومة فى دقة
هائلة .. فى حين أن أمريكا تبعث ناسا تافهين لا يعرفون
عن هذه البلاد شيئا . وأن هذا هو سر فشل السياسة
الامريكية فى تلك البلاد .

ومن أمثلة ذلك ، شخصية السفير السوفيتى
وشخصية السفير الأمريكى ، كما يرسمها المؤلفان ..

السفير السوفيتى «كروبتزين» كما يرسمه المؤلفان ،
بدأ حياته الدبلوماسية سنة ١٩٣٥ كسائق سيارة الملحق
السوفيتى التجارى فى نيويورك .. فكل رجال السلك
السياسى السوفيتى كانوا يبدأون العمل كسائقين وخدم
فى السفارات والقنصليات السوفيتية ، يقضون نصف
وقتهم فى الخدمة والنصف الثانى فى تلقى دراسات
دبلوماسية معينة !.. وبذلك يتجنب السوفيت
استخدام أغراب فى سفارتهم من جهة ، ويمكنون شباب
السلك السياسى من التدريب الدقيق من جهة أخرى !
ثم نقل كروبتزين الى براغ كسائق أيضا .. ثم الى بكين
فى وظيفة كاتب صغير بالسفارة . ثم أعيد الى موسكو
ليدرس بضع لفات أجنبية ثم ذهب الى الصين مرة
أخرى كمراقب ليتعلم الاختلاط بالآسيويين . ثم عاد
الى موسكو ليتخصص فى دراسة منطقة جنوب شرق
آسيا بالذات ، وسافر الى هناك فى عدة رحلات . ثم
تقرر اختياره سفيرا لروسيا فى ساركان .. وبدأ هو
وزوجته يدرسان لغة ساركان قراءة وكتابة مدة عامين

قبل أن يذهب الى هناك وعلم ان الناس في ساركان قصار
ونحاف ، فقام بعمل رجيم قاس حتى تخلص من بدائنه
لكى لا يبدو غريبا عليهم مختلفا عنهم ، ودرس الديانة
البوذية السائدة هناك والموسيقى الساركانية وكل العادات
المحلية بما فيها الجلوس متربعا على الارض بسهولة . .
وبعد هذا ، ذهب ليتسلم منصبه كسفير للاتحاد
السوفييتى في ساركان ! »

أما السفير الأمريكى «سيزر» ، فقد رسم له المؤلفان
صورة أخرى . . فهو عضو في الحزب الديمقراطي
الأمريكى ، رشح نفسه في الانتخابات لعضوية الكونجرس ،
ولكنه سقط . . ولابد أن يعرض الحزب أنصاره ،
فعرضوا عليه منصب سفير . .

وقال سيزر لهم : ان منصب سفير يحتاج الى رجل
غنى ينفق على الوظيفة وأنا ضيعت أموالى على الحزب
وفهموا اشارته . . وقالوا له : هناك منصب سفير
في ساركان . . أن مرتب الوظيفة ١٧ ألف دولار في
السنة ، و ١٥ ألف دولار بدل تمثيل . . فضلا عن أنك
ستسكن في بيت فاخر مجانا ، وستشترى الخمر بدون
ضريبة . .

ويسألهم : أين الملعونة ساركان هذه ؟

- هناك . . عند بورما وتايلاند . .
- ولكننى لا أعرف التعامل مع السود . .
- ان شعوب هذه المنطقة ليست سوداء !
ويقبل المنصب ! !

وعندما تعلن الخارجية الأمريكية عن حاجتها الى ناس
يعملون في الخارج . . ويجتمع الراغبون في العمل . .
يتحدث اليهم مندوب الوزارة عن مزايا العمل في الخارج
. . فالسفر بالدرجة الاولى والمرتبات كبيرة . . والخمر

والستجاري بالسفير الدبلوماسي الزهيد .. والخدم
متوفرون بكثرة في بلاد آسيا .. والاطعمة الامريكية
موجودة في مقصف السفارة .. وهناك امريكيون كثيرون
فلن يضطر الموظف الى ان يعيش مع اهل البلاد ! !
ويصف المؤلفان حياة الدبلوماسي الامريكي .. انه
لا يعرف الا البيض من مواطنيه او من الاوربيين ، وهو
يهتم بأن تنشر اخبار نشاطه في صحف امريكا لا في البلد
الذي يعمل فيه ، وهو يعتقد انه ناجح اذا كان على علاقة
حسنة بالاقليّة الفنية في البلد .. ويقضى اغلب وقته في
الاندية الخاصة ، على الطراز الذي اعتاده في بلاده ..
ويتحدث المؤلفان عن الجو الذي يعمل فيه الدبلوماسيون
الامريكيون في مثل تلك البلد . فالترجمون وسائقو
سيارات السفارة وعمال التليفونات وغيرهم .. كلهم من
ابناء البلد الاصليين مما يجعل التجسس على أعمال
السفارة سهلا ! بعكس السوفييت الذين لا يستعينون
بواحد غريب ، بل يتعلمون لغة البلد قبل الذهاب اليها
ثم ان الدبلوماسيين الامريكان ما زالوا يركزون نشاطهم
في حفلات الكوكتيل . في حين انهم يجب ان يختلطوا
بالكتاب وممثلي العمال والطلبة وكل من يصنع الراى
العام ويؤثرون فيه ..

هذه هي المعانى العامة التى تدور حولها هذه الرواية .
والمؤلفان اكثر دراية - بالطبع - بالسلك السياسى
الامريكى .. ولكن نقطة الضعف الخطيرة في منطق المؤلفين
هى : انهما ركزا على الاشياء الصغيرة التى تصنع
السياسة ، لا على الاشياء الكبيرة ..

لقد اعتبر المؤلفان كل مشاكل السياسة الامريكية في
آسيا ترجع الى أسباب صغيرة مثل عدم معرفة اللغة
المحلية وما الى ذلك . ولاشك ان كفاءة الدبلوماسى أمر

هام جدا . ولكن الأهم من ذلك : السياسة العليا التي
ينفذها الدبلوماسي ..
فاذا كانت سياسة أمريكا تؤيد بريطانيا وفرنسا
وغيرها من الدول ذات التاريخ الاستعماري في تلك
البلاد .. واذا كانت تحاول أن تساند الطبقات الاقطاعية
القديمة ضد الفئات المطالبة بحقوقها في الحياة والمساواة
.. فماذا يمكن أن يصنع دبلوماسي كفاء أو غير كفاء ؟
ان الرواية ليست نقدا للسياسة الأمريكية . انها
نقد « للروتين » في السلك السياسي الأمريكي .. لا أكثر
ولا أقل !



اما الرواية التي تعد في الواقع أعظم عمل أدبي سجل
هذه الظاهرة ، فهي كما قلت منذ قليل ، رواية جراهام
جرين : الأمريكي الهادي .. التي سأحاول أن أخصها
هنا :

جلست بعد العشاء أنتظر « بيل » في غرفتي التي تطل
على شارع « كاتينات » . كان قد قال لي انه لن يتأخر
عن الساعة العاشرة ، فلما أصبحت الساعة الثانية عشرة
لم اطق الانتظار ، ونزلت الى الشارع . كان في الطريق
بعض النساء المعجائز يتمشين ، ورجل يجر عربة ركوب
في بطء ، وعلى البعد تبدو أنوار مصابيح تدل على المكان
الذي هبطت فيه الطائرات الأمريكية الجديدة ..

وبعد أن تمشيت قليلا لمحت فتاة تقف عند أحد
الابواب . لم أميز وجهها ، ولكنني عرفت من فستانها
الحريري الأبيض .. فكم من مرة وقفت هكذا تنتظر
عودتي ، ليلة بعد ليلة ..
وناديتها :
- فونج ؟ ..

والتفتت الى . كنت اعرف انها ايضا تنتظر بيل .
وقلت لها : انه لم يأت بعد ، خير لك ان تنتظريه معي
في حجرتي .. وسوف يأتى بعد قليل ..
وعندما أصبحنا في غرفتي قالت لى : انت قلق ؟ ..
- قليلا .. انه رجل دقيق جدا في مواعيده ، ومن
الغريب أن يتأخر هكذا .. !

وخلعت حذائى وكرافتى ، وبدأت فونج تغلى الماء
للشاي . هكذا كانت تصنع بالضبط قبل ستة شهور ..
قلت لنفسى وأنا اغمض عيني ، كأنما أريد أن أعود الى
تلك الايام ، هكذا كانت بالنسبة لى في ذلك الوقت كل
مساء : وشوشة البخار ، وطققة براد الشاي ، ووعد
بالراحة في هذه الساعة من الليل ..

وتساءلت : ترى في أى شيء يتكلم شخصان مثل بيل
وفونج اذا اختليا ؟ هو بمحاضراته عن الشرق الاقصى ،
وآرائه عن الديموقراطية .. وشرحه المستمر لما تقدمه
الولايات المتحدة الى العالم ، وهى بجهلها المطبق ، فلو
ذكرت أمامها اسم هتلر لسألتك من يكون ! وان كانت
تعرف عن الأميرة مرجريت وأخبارها أكثر مما أعرف أنا
وكانت قد انتهت من اعداد الشاي ، وانحنت على
المائدة تضع الفناجين ، فبدأ لونها في ضوء المصباح مثل
لون العنبر الداكن ، وسألتنى : هل أحشو لك البيبة ؟
وسألتها بدورى ، وهى تعد الافيون : هل ما زال
بيل لايدخن ؟

- نعم ..

- ولكن ، يجب أن تقنعيه بأن « يدخن » والا فقد
يذهب عنك مرة ولا يعود ..

كانت نساء المنطقة يعتقدن في خرافة تقول : ان من
يدخن لدى الواحدة منهن مرة ، فلا بد أن يعود اليها

حتى ولو كان في آخر الدنيا . وبدأت رائحة الافيون
تتصاعد ، لا شيء في الدنيا يعدل هذه الرائحة !
وبدأت أشرب الشاي ، وأشرب الافيون ، وأداعب
كتف « فونج » ..

وسألت نفسي : هل ترضي أن تنام معي الليلة إذا لم
يعد بيل ؟ .. ثم قلت لها : عندما هجرتني ، كان من
حسن حظي أن هناك افيون أغرق فيه .. ولكن كيف
تعيشين مع رجل لا يدخل يا فونج ؟ ..
- أنه سوف يتزوجني ..
- آه .. هذا شيء آخر ..

وعدت أفكر : هل تنام معي إذا لم يعد بيل ؟ سوف
يكون لذيذا حقا أن أشعر بوجودها الى جوارى في
الفراش . انها تنام دائما على ظهرها وفي الصباح أصحو
فأجدها قد أعدت لي الافيون مرة أخرى ..
ولكني ، بعد رابع غليون ، لم أعد في حاجة اليها ..
وارتفع طرق عنيف على الباب ..

وقفزت الى الباب ، وفتحته ، وسمعت صوتا يصيح :
مسيو فولر ؟
وأجبت : أنا فولر ..

كان الرجل من رجال الشرطة ، فبدأ يشرح بمزيج
من الفرنسية والفييتنامية انني مطلوب للذهاب الى
مكتب الامن ..
- لماذا ؟ ..

انه لايعرف ، فقد تلقى الأوامر ونفذها فحسب ..
« وأنت مطلوبة أيضا يا آنسة » ..
وحاولت أن أؤجل ذهابنا للبوليس الى الصباح ،
ولكنه رفض ..

ان الكلمة الاخيرة هنا للبوليس . انه يستطيع أن

يسحب منى اذن التجول ، ويستطيع منى من حضور
المؤتمرات الصحفية ، بل ويستطيع ان يلقى اقامتى فى
البلاد كلها. هذا عن الاجراءات القانونية ، اما الاجراءات
غير القانونية فهى أدهى ! ..

أعرف صديقا فقد الطباخ الذى كان يعمل عنده ،
كان البوليس قد استدعاه للاستجواب ثم اختفى بعد
ذلك .. ربما كان الآن يحارب مع الشيوعيين ، ربما كان
مع واحد من الجيوش الخاصة التى تعمل قريبا من
سايجون ، ربما كان نزيل سجن فرنسى ، ربما كان يتاجر
بالنساء فى الحى الصينى ، أو لعله قتل ..

وفى قسم البوليس كان الضابط الفرنسى يقرأ مجلة
« بانسيه » الثقافية الفرنسية ، كما لو كان مهتما حقا
بالمناقشات الحزبية التى تنشرها هذه المجلات ، وانهال
الضابط على فونج بالاسئلة عن بيل :

— متى عرفتيه ؟ ..

— كم يدفع لك ؟ ..

وصحت فى وجهه : ليس من حقت ان تسألها هذا
السؤال ، انها ليست للبيع .. وقال لى : ولكنها عاشت
معك سنتين تقريبا أليس كذلك ؟

ثم بدأ يسألنى عن معلوماتى عن بيل. وقلت له : اننى
لست مخبرا ، ولا أعرف عن بيل أكثر مما تعرف أنت :
عمره ٢٢ سنة ، يعمل فى هيئة المعونة الاقتصادية ،
وجنسيته أمريكية .

كان الافيون يساعدنى على احتمال الموقف ، ربما لأنه
يهدىء الاعصاب ، ويميت الانفعالات .

وعاد الضابط يسألنى : كيف عرفت بيل .. ؟

والواقع انه هو الذى عرفنى. كنت جالسا فى المقهى ،
والموائد كلها مزدحمة ، عندما أقبل بقامته الجديدة

ووجهه الطيب البريء ، وقال لى : هل تأذن لى فى الجلوس ؟ ولما جلس قال لى انه جاء الى هنا مؤخرا ، وطلب زجاجة بيرة ، وعرفت منه انه منذ عشرة أيام فقط كان يسير فى شوارع بوسطن بأمرىكا ، محملا بالكتب عن الشرق الاقصى . كان عامر الذهن بالكلام عن الديمقراطية ومسئولية الغرب ، وكان مصمما على أن يسدى خدمة جليلة لا لفرد ما ، ولكن لشعب ، لقارة ، بل للعالم كله ..

وعندما قال لى الضابط ان بيل قد قتل ، نظرت فورا الى فونج . انها لم تفهم بالطبع لأننا كنا نتحدث بالانجليزية . لا بد ان النبأ سيكون قاسيا عليها . انها تحبه . لقد تركتني من أجله ، لقد علقت أملها كله به وبشبابه ، وها هو يخذلها أكثر مما تخذل الشيخوخة أو اليأس . وقلت للضابط اننى كنت فى انتظاره الساعة العاشرة ، لأنه حدثنى فى التليفون ، وقال لى انه لا بد أن يرانى لسبب هام ، لم يقل لى عنه شيئا ، وسألت الضابط :

— أين وجدتم جثته ؟

— فى الماء .. تحت كوبرى « داکو » ..

ان كوبرى « داکو » منطقة محرمة ، واجتيازه أمر بالغ الخطورة فى الليل ، لأن الجانب الآخر من النهر يغدو اذا هبط الليل فى قبضة جنود فيتنام الشيوعيين .. انه يقع بجوار مطعم «الطاحونة القديمة» الذى تعيش فيه هذه الليلة ، لا بد اننى كنت أتعشى على بعد ثلاثين مترا فقط من جثته ..

وطلب منى الضابط أن أنزل الى المشرحة لأتعرف على الجثة . لعله أراد أن يواجهنى بجريمتى اذا كنت أنا المجرم ، طبقا لأصول التحقيق ! لعله طاف بباله

أنشى قتلته بسبب الغيرة !.. وأخرجوا جثته من باب
الثلاجة متجمدة تماما .. حتى جروحه كانت متجمدة.
وبدا لى أكثر من أى وقت آخر انه ليس فى مكانه
الطبيعى ! لقد أطلعنى يوما على مجموعة صورهِ العائلية
.. ورأيت صورهِ جالسا مع عائلته فى المزرعة ، وسابحا
فى لونج ايلاند ومع أصدقائه فى الطابق الثالث والعشرين
انه ينتمى الى عالم ناطحات السحاب والمصاعد السريعة ،
و « الايس كريم » ، واللبن المثلج وساندوتشات الدجاج
وأشار الضابط الى جرح فى صدرهِ وقال :
— انه لم يمت من هذا ، لقد اغرقوه فى الطين ،
وهذا ما قتله . كان صدرهِ مليئا بالطين ..

وعندما خرجت انا وفونج كانت تدوى فى رأسى
مشكلتان : كنت أبحث عن طريقة هادئة أنهى بها الخبر
الى فونج ، وكنت فى نفس الوقت أفكر كصحفى بأسلوب
العناوين المثيرة وكيف أرسل الخبر الى جريدتى ، وكيف
يكون له عنوان كبير مثل « مصرع موظف أمريكى فى
سايجون » . وطلبت من فونج أن تنتظرنى خارج مكتب
التلغراف حتى أبعث ببرقية ، لأبدا أن يصل النبأ الى
جريدتى قبل موعد الطبع ، لا لأهميته طبعا .. فلا
أهمية له الآن لى لن أنشر التفاصيل كما انى لن أنشر أى
شئ عن مهمته ، لن أقول مثلا انه مسئول عن مصرع
خمسين شخصا على الاقل . فلو انشى نشرت هذا الأسأت
الى العلاقات بين انجلترا وأمريكا ، ولفضب الوزير
المفوض جدا . فقد كان الوزير يحترم بيل الى حد كبير
اذ كان بيل حاصلا على شهادة فى علم من تلك العلوم
التى لا يأخذ أحد فيها شهادات الا الأمريكان فى «العلاقات
العامة » أو شئ من هذا القبيل ..

وعندما عدت انا وفونج الى غرفتى ، أدركت أن

حجرتي قد تعرضت لعملية تفتيش ، فقد كان كل شيء
في الحجرة منظما ومرتباً أكثر من المعتاد !
وخلعت حذائي وكرافتي ، وأضأت فونج المصباح
وهي تقول لي :

— هل أعد لك الافيون ؟

كان الحادث الذي قاطعني قد انتهى ، وعاد الليل
كما كان : المصباح ، ولون بشرتها العنبري ، وفرنسياتها
ذات اللكنة المحلية الغريبة .

— فونج .. انه مات ..

وانتصبت مرة واحدة ، ونظرت الى كطفل يحاول
أن يفهم شيئاً عويصاً ..
— مات .. قتل ..

لا شيء ، لا دموع ، بل مجرد تفكير .. تفكير عميق
جداً ، تفكير شخص فوجيء بأن عليه أن يغير مجرى
حياته كلها ..

وبدأت تعد لي الافيون ..

عندما استيقظنا في الصباح ، كان كلانا حريصاً على
الآ يذكر بيل ، وليسكنها طلبت مني أن أذهب وأحضر
صندوق ملابسها من بيته في شارع الجنرال دبراتون .
ما أكثر غرام الفرنسيين بأسماء جنرالاتهم ! قبل ذلك
كان اسم الشارع دي جول ، ثم ليكليرك ، وعن قريب
سيصبح دي لاتر ..

كان بيت بيل محاصراً بالبوليس والسيارات
والموتوسيكلات ، وفي الداخل وجدت ضابط البوليس
الذي استجوبني بالأمس ..

— هل ما زلت تبحث عن قاتل بيل ؟

— نعم .. ماذا تخمن ؟

قلت له :

— ربما قتله جنود فيتنام الشيوعيون لأنه أمريكي .
وربما قتله بوليس فيتنام ، لأنه لايرتاح الى نشاطه ..
وربما قتله « الكوديست » لأنه صديق للجنرال تى ،
وربما قتله جنود « الجنرال تى » لأنه كان يعرف
الكوديست .. وربما قتله الهاوهاو لأنه تسلل الى
حریم قائدھم ! !

وبعد أن جمعت ثياب فونج ، أخذت أنظر الى مكتبة
بيل : تقدم الحمر في الصين ، الخطر الذي يهدد
الديمقراطية ، دور الغرب في آسيا ، ثم كتاب عن
سيكولوجية الجنس والزواج .. لعل بيل لم يعرف
المسائل الجنسية أيضا إلا في الكتب !

وبيئنا أنا خارج من بيت بيل بعد أن أخذت ملابس
فونج ، قابلت الملحق الاقتصادي في السفارة الامريكية
داخلا ، فاستوقفنى .. واخذ يحدثنى عن حزنه ، وعن
البرقية التى أرسلها الى أهل بيل ، وسألته ماذا كتب
فيها ؟ فقال انه كتب : « يؤسفنى أن أبلغكم أن ولدكم
بيل قد مات ميتة جندى باسل في سبيل الديمقراطية » .

وسألته : هل يعتبر بعثة المعونة الاقتصادية جيشا
ورجالها جنودا بوأسل ؟ فهمس فى أذنى : « بيل كان
يقوم بمهام خاصة » ..

— أعرف ذلك ..

— هل قال لك شيئا ؟ ..

— كلا .. اطمئن .. انه لم يكن يتكلم كثيرا . لقد

كان بيل هادئا جدا ..

— واذن لماذا تظنه قتل ؟ ..

وفاض بى السخط فجأة على الأمريكان جميعا ..

لقد صقت ذرعا بهم .. بمخازن الكوكاكولا الخاصة بهم ،

بمستشفياتهم المتنقلة ، بسياراتهم العريضة الملونة ..
وانفجرت فيه : « لقد قتلوه لأنه كان أبرأ من أن يعيش
كان صغيرا وجاهلا وأحمق . وكان يحشر نفسه في كل
شيء ! لم تكن لديه أية فكرة عن الأمر كله ! مثلكم جميعا !
ولكنكم أعطيتموه دولارات وبعض كتب عن الشرق الأقصى
وقلتم له : « اذهب واكسب الشرق لحساب الديمقراطية ! »

ما زلت أذكر ذلك اليوم الذي عرفت فيه بيل الأول
مرة في فندق الكونتنتال . كنت قد شجعت من مصاحبة
الصحفيين الامريكان .. كلهم في ربيع العمر ، كالأطفال ،
جالسين في الفندق يملأون الدنيا ضجة وصخباً ،
ويسخرون باستمرار من الفرنسيين ، الذين كانوا على
أى حال يقومون بالقتال ، ومن حين لآخر ، اذا انتهت
معركة من المعارك ، ورفعت الجثث والأسلحة من الميدان ،
أخذوهم مع سائر الصحفيين في طائرة الى هانوى ، حيث
يعقد لهم القائد مؤتمرا صحفيا ، ثم يطرون بهم فوق
الميدان على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم ، ثم يعيدونهم سالمين
صاخبين ، كرحلات التلاميذ ، الى فندق الكونتنتال
في سايجون ! !

ومن الوهلة الاولى ، وجدت بيل هادئا ، بل ومتواضعا ،
يبدى من حين لآخر ضيقه بالضجة المنبعثة من الشرفة
العليا التي تطل على الشارع ، حيث يجلس الصحفيون
الامريكان عادة ، فالشرفة العليا أكثر بعدا عن مرمى
القنابل اليدوية من الشرفة السفلى التي كنا نجلس فيها .
وبدأت أشرح له الموقف العسكري .. أين يقف
الفرنسيون وكيف يسيطرون على الطرق حتى الساعة
السابعة مساء فقط وبعد ذلك لا يسيطرون الا على أبراج
المراقبة . كنت أكرر ذلك في ملل لكثرة ما كررته لكل
قادم جديد ..

وقد قابلت بيل بعد ذلك مرتين، وكانت معي فونج ، وعرفته بها ، وفي المرة الثانية دعاها الى الرقص ورقصا سويا . وبعد هذه المرة بقليل ، كان على أن أترك سايجون وأسافر مع الصحفيين الى الجبهة ..



من برج الكنيسة ، كان منظر المعركة يبدو كأنه لوحة تاريخية قديمة : جنود الباراشوت يتحركون في بطء ، ولكنهم لبعد المسافة يبدون وكأنهم لا يتحركون، والطائرات تلقى التموين لكتيبة محاصرة منذ الامس ، وصوت المدافع الرشاشة رتيب لا ينقطع والدخان منعقد على الدوام كأنه صخرة متجمدة ، والسنة اللهب المشتعلة في سوق البلدة تبدو باهتة في ضوء الشمس ، حتى القسيس الجالس جوارى يقرأ الأدعية دون أن يحرك وجهه ليرى شيئا مما حوله . ان الحرب من هذا البعد تبدو نظيفة منظمة ..

كنت قد وصلت الى الجبهة قبل الفجر ، وروى لى ضابط أعرفه كل ما حدث بالضبط ، لقد لحقت بالفرنسيين هزيمة أخرى على أبواب « نام دين » ولكن هذا غير مسموح بنشره .. المسموح بارساله فقط هو أخبار الانتصارات !

وتحتنا مباشرة كان يتكوم كل أهالى « نام دين » الكاثوليك والبوذيين وغيرهم ، كل واحد حمل ما يعتز به من متاع : وابور هاز ، لمبة ، مرآة ، دولاب أو صورة مقدسة .. وجاءوا جميعا الى رحاب الكنيسة ! حتى على السلم الصاعد الى برج الاجراس ، كان الناس يتكومون ، حاملين اطفالهم وأمتعتهم .. انهم يظنون ، على اختلاف أديانهم ، انهم هنا في أمان . وعندما دخل جندي فيتنامي ، انتزع منه القسيس مدفعه الرشاش.

وهمس رجل في أذني : « اننا هنا في أرض محايدة
لا يجب أن يدخلها سلاح .. اننا في أرض الله » .
وفكرت : أي شعب عجيب يسكن أرض الله هذه ..
خائفا متجمدا من البرد ، يكاد يموت جوعا ؟ ولكنني
عدت أقول لنفسي : « ليس هذا غريبا فليس شعب
الحاكم القوى دائما أسعد الشعوب » .

كنت أظن انني سأبقى في الجبهة أسبوعا واحدا -
ولكنني بقيت ثلاثة أسابيع . ان الخروج من الجبهة
أصعب من دخولها . وعندما وصلت الى «هانوي» كان
الصحفيون قد طاروا لكي يرسلوا أنباء الانتصار الأخير!

وذهبت لأشهد المؤتمر الصحفي ، كان الصحفيون
الفرنسيون بالذات قد جلسوا جميعا في جانب القاعة
كأنهم جمهور فريق منافس لكرة القدم ، وقال لنا
الضابط الفرنسي ان العدو قد هزم هزيمة ساحقة
وتحمل خسائر فادحة ! ثم أمسك المؤشر وأخذ يشرح
لنا على الخريطة . وسأله صحفي أمريكي اسمه جرينجر
عن خسائر الفرنسيين .. ان الضابط يعرف جيدا معنى
هذا السؤال وهو يتوقعه في كل مؤتمر ، وأدلى بالرد
التقليدي : ان خسائرنا طفيفة ، والرقم الحقيقي لم
يعرف بعد ..

وقال جرينجر : هل يقصد الكولونيل انه وجد وقتا
يعد فيه قتلى العدو ولم يجد وقتا يعد فيه قتلاه ؟

واحمر وجه الضابط الوسيم ، ثم قال : ان العدو
يهرب وراء النهر الأحمر ، فمن الممكن عد قتلاه ، ولكن
كيف نعد قتلى جيشنا وهو يتقدم الى الامام ؟ ..
ورد جرينجر : هل من المعقول ان قواد السكتائب
لا يبلغون عن عدد قتلاهم .. وبدا واضحا ان الضابط
الوسيم قد فقد أعصابه ، فقال فجأة :

- اذا وصلت الامدادات التى وعد بها الأمريكيون ،
فسوف نستطيع أن نفعل أكثر من ذلك ..
- هل معنى ذلك ان الامدادات التى كان يجب أن
تصل اليكم فى سبتمبر لم تصل بعد ؟
- نعم ..

وأسرع جرينجر يكتب هذا فرحا بالنبا الصحفى ،
وقال الضابط :

- هذا ليس للنشر ، هذا لمعلوماتك فقط ..
- لماذا ؟ .. هذه أخبار ربما يساعدكم نشرها ..
- لا اظن .. ان الصحف الأمريكية سوف تعلق
قائلة : «الفرنسيون لا يكفون عن الشكوى والتسول» !!
وفى باريس سيصيح الشيوعيون قائلين : « ان الفرنسيين
يريقون دماءهم فى سبيل أمريكا » وفى آخر الأمر لن
يصل إلينا شيء ..

وعدت الى حجرتى العارية التى سأبيت فيها ليلتى
فى هانوى . كنت أشعر بوحدة قاتلة ، تمنيت أن أبكى ،
ولكن دموعى كانت متحجرة . اننى أريد فقط أن أعود
الى حجرتى فى سايجون فى شارع كاتينات ..

على ان مفاجأتى الكبيرة كانت عندما دخل على بيل .
قال : انه جاء من سايجون الى الجبهة ليقول لى خبرا
هاما .. هو انه يحب فونج ! أحبها منذ عرفته بها
أول مرة ، ثم راقصها فى مرة تالية ! وسألته : هل قال
لها هذا بعد أن تركت سايجون الى الجبهة ؟ فقال لى :
لا .. وقال : انه يريد أن يتزوجها ..

ورفضت أن أناقش الموضوع معه ، واتفقنا على أن
نبحث الأمر عندما نعود الى سايجون !

وعندما عدت الى حجرتى فى شارع كاتينات جلست
أكتب الى رئيس تحرير الجريدة التى أعمل فيها ، طالبا

منه ألا ينقلنى من هنا فى هذه اللحظة . وكانت فونج
مضى فى الحجرة . وعندما قلت لها ان بيل آت بعد قليل
قررت أن تنصرف ، وسألتها عن السبب فقالت : أنه
طول مدة سفرى لم يسأل عنها ، ومع ان أختها دعتة
مرة فانه لم يحضر مما يعد اهانة كبيرة وقالت : لابد
انه يريد أن يختلى بك لكى تتحدثا فى العمل ..
— أى عمل ؟

— لا أعرف .. ولكن كل الناس تعرف انه يقوم بعمل
هام ، انه يتلقى حقائب كبيرة جدا .. حقائب لا تفتح
قط ، لأنها حقائب دبلوماسية ..
— لابد انها أدوية للهيئة الامريكية التى تكافح مرض
التراكوما ..

— هذا ما يقولون ، ولكن أحد موظفى الجمر كفتح
أحدى الحقائب التى تأتية خطأ فخرجت منها أشياء مثل
لعب الاطفال ، مصنوعة من البلاستيك .
— بلاستيك ؟ .. هذه بضاعة غريبة حقا ..

وانصرفت فونج كى تزور أختها ، وكنت فى آخر
صفحة من صفحات خطابى الى رئيس التحرير وأخذت
أقول له ان أسبابا خاصة قوية تجعلنى فى حاجة الى
البقاء حيث أنا ، وانه لو أصر على نقلى فقد أستقيل
لأبقى فى مكانى ، ثم عدت ومزقت هذه الصفحة
الاخيرة ، انها لن تكون سوى موضوع للفاكهة .. هناك
فى لندن كلهم يعرفون ان كل مراسل فى الخارج له فتاته
التي يقع فى حبها ولا يريد ترك المكان من أجلها ..

ودخل بيل وخلفه كلبه الاسود الكبير .. كان واضحا
ان عينيه تبحثان عن فونج ، ولما أثرت الموضوع قال لى :
— اسمع .. انه ليس من العدل أن نتناقش حول
فونج فى غيابها ..

— فى أى شىء نتناقش اذن ؟ .. فى البلاستيك ؟
ودهش بيل ، وقلت له ان فونج هى التى أخبرتنى
بقصة البلاستيك وان كل المدينة تعرفها . ولما وجد
اننى فى انتظار تفسير قال :
— انت تعرف .. نحن نريد ان نساعد بعض الصناعات
المحلية حتى تقف على قدميها ، وعلينا فى نفس الوقت
ان نكون حذرين من الفرنسيين فهم يريدون ان تشتري
فيتنام كل شىء من فرنسا ..
— لا الومهم على ذلك .. ان الحرب تحتاج الى نقود
ولمحت فى عينيه تلك النظرة من الألم وخيبة الأمل
التى تكسو عينيه كلما صدمت الحقيقة شيئا من الاشياء
التى يؤمن بها ..
وهنا سمعنا وقع اقدام ، كان واضحا لكينا انها
اقدام فونج ..
قالت انها لم تجد أختها ..
وقال بيل :
— الآن نستطيع ان نتناقش أمامها .. هل تترجم
بينى وبينها ؟ ان لفتى الفرنسية ضعيفة جدا ، ولهجتها
فى الفرنسية تستمعى على فهمى ..
وبدأت أترجم ما يقول :
— قل لها اننى أحبها بشدة .. منذ اللحظة الاولى
التى رأيتها فيها ورقصت معها ..
وترجمت لها ، أما هى فقد جلست تستمع وتتفرج
فى سكون ، كأنها تشهد فيلما سينمائيا ..
واستمر يقول لى وأنا أترجم : وقل لها اننى أريد ان
أتزوجها ..
وسكت برهة ثم قال : وقل لها اننى لست غنيا
الآن ، ولكن عندما يموت أبى سوف يترك لى خمسين

ألف دولار ، وأنا شاب .. صحتي جيدة جدا ، ولدي شهادة طبية بذلك .. وأستطيع أن أطلعها على فصيلة دمي ..

ولم أطق هذا الكلام ، وصحت فيه : هل تحبون هكذا في أمريكا ؟ بأرقام الدولارات وشهادة طبية وفصيلة الدم ؟ .. ما شأن فصيلة الدم بهذا ؟ ..

— لكي تعرف أننا نستطيع أنجاب أطفال ..
— معنى ذلك أنك ستطلب منها أيضا شهادة بصحتها وفصيلة دمها ..

ونظرت الى فونج وصحت : قولى له أن يخرج من هنا هو وكلبه ..

وصاح هو بدوره في فونج : تعالى .. اخرجي معي .. ماذا سيقدم لك ؟ .. انه لن يتزوجك . انه في الخمسين من عمره .. ماذا سيعطيك ؟ سيترك لك مائتي دولار عندما ينقل الى لندن ..

ورفضت فونج أن تخرج معه قائلة : لا !

وهذا الموقف دفعة واحدة ، واكتشفنا أى موقف سخيف وقفه كلانا ، لقد انتهى الموقف كله بكلمة صغيرة من حرفين : لا ..

وقال بيل :

— آسف يا فولر .. أظن اننى يجب أن أنصرف حالا .. فقط أرجو أن تنسى هذا .. صدقنى أنك ما تزال أعز صديق لدى ..

وعندما أنصرف ، وبدأت فونج تعد لى الافيون ، جلست أكتب خطابا ثانيا ..

كتبت الى زوجتي هيلين ، أطلب منها الطلاق .. استعرضت الخمس سنوات التى مضت علينا ونحن منفصلين ، واعترفت لها بكل أخطائى ، وبأننى لا أستحق

رحمتها وموافقتها على الطلاق . ولكننى مع ذلك رجوت
منها أن تلبى هذه الرغبة ، قلت لها ان ثمة فتاة عشت
معها سنتين ، وأصبحت عاجزا عن أن أعيش بدونها ،
رغم اننى لست مهما لديها الى هذا الحد ..
وعندما رقدنا فى الفراش قلت لفونج :

- انه صغير ..
- هذا لا يهم ..
- أتعرفين اننى أستطيع أن أتزوجك ؟ ..
- ولكن أختى لا تصدق ذلك ..
- لقد كتبت الى زوجتى أطلب الطلاق ..
- واذا لم توافق ..
- فونج .. لقد كذبت عليك ، أنا منقول الى لندن ،
لقد عينونى رئيسا للقسم الخارجى فى الجريدة ..
- وقالت لى بحماسة انها مستعدة للذهاب معى الى
لندن ، سواء أكانت زوجة لى أم لا ..
- ومضت تحلم بلندن ، « هل هناك ناطحات سحاب
فى لندن ؟ »
- « كلا .. هذه فى أمريكا فقط » .. اذن سنسكن فى
قلب لندن ؟ .. سنركب الاوتوبيس ذا الطابقين وسأرى
تمثال الحرية ؟ ..
- كلا .. هذا أيضا فى أمريكا يا عزيزتى ..

فى هذا الموعد من كل سنة ، كان « الكوديست »
يقيمون أعيادا دينية هائلة ، عند البحر المقدس فى
« تانيين » ..

وذهبنا - أنا وبيل - فى سيارتى نشهد هذه الاعياد ،
ونرى تماثيل بوذا فى صمتها ، وحولها طوابير من الفلاحين
بأعلامهم يؤدون طقوسهم العجيبة ..

وفي آخر النهار ركبنا السيارة لنعود .. كان لابد أن نعود الى سايجون قبل أن يهبط الليل والا فاننا نصبح في خطر حقيقى ، فبعد الليل لا سيطرة لأحد على هذه الحقول الشاسعة ، ومن حين لآخر كنا نمر ببرج من أبراج المراقبة الطويلة النحيفة ، كأنه علامة استفهام ضخمة مرتسمة في الهواء .

كنت أقود السيارة بأقصى سرعة ممكنة ، وقال لى بيل فجأة :

- كيف حال فونج ؟ ..

- بخير ..

- لقد قابلت أختها في الطريق منذ أيام ..

- ودعتك الى زيارتهم ؟ ..

- بصراحة .. نعم ..

- انها لم تيأس بعد ..

- من أى شىء ؟ ..

- من أن تتزوج أختها ..

واكتشفت فى تلك اللحظة ان البنزين فى السيارة على وشك أن ينفذ . وأسرعت كى أصل الى أقرب برج مراقبة موجود فى الطريق .. فنحن فى هذه الارض التى تسيطر عليها عصابات « الكوديست » و « الهاوهاو » سوف نذبح قطعاً لو بقينا بعد الليل فى الطريق ..

وتوقفنا عند أول برج مراقبة . كانت الارض الشاسعة حولنا خالية هادئة تماماً .. وبرج المراقبة بلونه الاسود كأنه رسم مطبوع على صفحة السماء الرمادية .. ونزلت من السيارة وأخذت أصيح لعل أحداً من جنود البرج يجيبنى ، ولكن صوتى تبدد ..

وكان الظلام قد سقط علينا فجأة كما يسقط حجر ثقيل . وأخذت أتحمس جدران البرج لعلى أجد سلماً

أصعد عليه الى الجنود ، هل تراهم رفعوا السلم أيضا
حتى لا يصعد اليهم أحد ؟ لا أظن .. فالسلم على أي
حال هو طريقهم الوحيد الى الهرب ..

كنت خائفا تماما .. والناس في لحظات الخوف
يفكرون في الله ، أو في عائلتهم ، أو في امرأة ما .. أما
أنا فلم أكن أفكر في شيء .. كأننى توقفت في تلك اللحظات
عن الحياة ..

وبدأت أصعد السلم في ببطء وحذر ، حتى وصلت
الى سطح البرج .. هذا مصباح غاز مشتعل على الأرض ،
ورجلان منكشيان في خوف ، وبينهما مدفع رشاش .
انهما جنديان من فيتنام ، يبدو على وجهيهما الرعب
والتوجس ..

واطمأن الجنديان عندما بدأت أشرح لهما القصة ثم
سألتهما :

— هل لديكم بترول اشتريه ؟

— كلا ..

— اذن هل اقضى الليلة أنا وزميلي معكما هنا في

البرج ؟ ..

— هذا ممنوع ..

— ولكننى لن أقضى الليلة في الطريق عرضة لأن

يدبحنى أحد في أي وقت ..

وفي هذه اللحظة كان بيل قد صعد بدوره ، وأصبح

معى ، وسألنى بيل :

— ألا يجب أن يقف أحد هذين الجنديين في الشرفة

ليراقب الطريق ؟ ..

وقلت له :

— انهما يفضلان ألا يتعرضا لاطلاق الرصاص ..

— واذا هاجمهم الشيوعيون .. ماذا يفعلون ؟ ..

— يطلقان طلقة واحدة ثم يهربان .. ألا تقرا في الصحف كل يوم ان « العدو احتل أحد أبراج المراقبة احتلالا مؤقتا » ..

وجلسنا أنا وبيل الذى قام وأشعل سيجارتيين للجنديين حتى يكسب صداقتهما .. وقلت له :

— أن لهما العذر في هذا الخوف والملل .. تصور أن يجلس جنديان غير مدربين هكذا ليلة بعد ليلة لا يعرفان متى يزحف الشيوعيون عبر الحقول ..

وقلت له ثانية :

— هل تظن انهما يعرفان انهما يحاربان من أجل الديمقراطية التى تتحدث عنها ؟ ..

— لابد أن لديهما دافعا من ايمان ما .. لا يوجد انسان يعيش بغير ايمان .. ألا تؤمن أنت بشيء ؟ ..

— أنا اؤمن بأننى أقف الآن وظهري الى الحائط .. وان فى الحجرة معنا مدفعا رشاشا ..

— ألا تثق فيهما ؟ ..

— حتى لو كنت ضابطا فرنسيا لما وثقت فيهما ، أنا لا ألوم الجنود ، انكم تحاولون أن تجعلوهم يحاربون لأسباب لا تعنيهم ..

— انهم لا يريدون الشيوعية ..

— انهم يريدون كفايتهم من الارز .. ولا يريدون أن يطلق أحد عليهم الرصاص .. ولا يريدون أن يظل هؤلاء البيض حولهم يشرحون لهم ماذا يريدون ..

— ولكن اذا ضاعت الهند الصينية ..

— أعرف باقى الاسطوانة : سوف تضيع سيام ، والملايو ، وأندونيسيا ، ولكن ما معنى « تضيع ؟ » .. اننى أراهنك على أنه بعد خمسمائة سنة ربما لا يكون هناك شيء اسمه لندن أو نيويورك .. ولكن ستكون هنا

حقول تنبت الارز! سيكون هنا فلاحون يلبسون القبعات
المدببة يحملون المحصول في صفوف طويلة الى السوق،
وسيكون هنا اولاد صفار يركبون ظهور البقر ..

— ولكننا سنرغمهم على أن يؤمنوا بما نقوله لهم ،
اننا لن نتركهم يفكرون لأنفسهم ..

— ان التفكير ياعزيزى ترف .. هل تظن ان الفلاح
عندما يعود آخر الليل الى كوخه المبنى من الطين ،
يجلس ويفكر في الله ، او في الديموقراطية ؟
— ولكن هل كل الناس فلاحون ؟ .. هناك ايضا
المعلمون ..

— المعلمون ؟ .. لقد صنعناهم في قوالبنا ! ومن
أجل ذلك نستحق الذبح لو بقينا في الطريق ولهذا نلوذ
بالبرج .. اننى أفكر في مؤلفك الامريكى العظيم يورك
هاردينج .. الذى وضع عشرات الكتب عن الشرق الاقصى
ماذا كان يصنع لو كان معنا الآن ؟

— ان يورك هاردينج رجل شجاع ، وفي حرب كوريا ..
— أعرف انه ذهب الى هناك ، ولكن كان في جيبه
دائما تذكرة عودة الى بلاده ، هذا وضع غير وضع
المجندين ، المجند لا يعرف متى سيبقى هكذا ، لا يستطيع
أن يلحق بأول طائرة عائدة الى بلاده ..

— بدلا من أن تحمل على يورك .. الا تحمل على
الفرنسيين اصحاب هذا الاستعمار ..

— على أى حال ، الفرنسيون هم الذين يموتون هنا
كل يوم ، أنتم تدفعون الناس الى العمل ، ثم تتركونهم
بعتاد قليل وبأنواع من لعب الاطفال المصنوعة من
البلاستيك !

— لعب اطفال ؟

— نعم .. البلاستيك الذى تحضره ..

— آه .. —

— لست أدري ، لماذا أتحدث في السياسة ؟ ! ربما لمجرد قضاء هذه الليلة الرهيبة ، من حسن الحظ اننى لست ملتزما باتجاه ..

— ألايهمك من يكسب ؟

— كلا .. سأظل فقط أكتب الاخبار وأرسلها سواء كسب هذا أو ذاك ..

— ولكن .. لو كسبوا هم فلن تتمكن من ارسال اخبار صحيحة ..

— ان صحفنا لا تهتم عادة بالحقائق !

كان انهماكنا في الحديث قد طمان الجنديين .. فعادا الى طعامهما .. وسألنى بيل : اذن .. فأنت تعتقد اننا خسرنا المعركة ؟

— لا أقصد ذلك ، ما أقصده هو اننى لا أهتم بأن أراكم تكسبون ، اننى أحب فقط ان أرى هذين التعيسين يتمتعان بالسعادة ، أحب ألا يجلسا خائفين هكذا في الظلام ..

— ولكن .. يجب أن تحارب في سبيل الحرية ..
— اننى لم أر أمريكيا واحدا يحارب هنا . أما عن الحرية ، فمن يستطيع أن يحدد معناها ؟ اسأل هؤلاء وصحت مناديا الجنديين بالفرنسية :

— الحرية ! ! هل تعرفان ما معنى الحرية ؟
ونظر الجنديان الى فى دهشة ، وواصلوا سكوتهما ..

وحاولت أنا وبيل ان ننام ، وحاولت ألا انظر الى الساعة من حين لآخر . وفى الخارج بدأت انفجارات بعيدة تتردد ، ولما سألنى بيل عن معنى هذه الانفجارات كروت له صيغة البلاغ الرسمى « احتلت عصابات الشيوعيين برج مراقبة لبعض الوقت » ومرت دبابة من

امام البرج .. تقوم بدور الدورية الليلية ، وبعد مرورها بدقائق سمعنا صوت انفجارها الهائل يهز البرج ، لابد انها داست لهما ..

لا فائدة من النوم ..

- هل انت مستيقظ ؟

- نعم ..

- فيم تفكر ؟

- بصراحة في فيونج ! ترى ماذا تفعل الان ؟

- لابد انها يئست من عودتى الليلة ، فهي مستلقية على السرير ، تتصفح عددا قديما من مجلة « بارى ماتش » ..

- اين عرفت فيونج اول مرة ؟

- كانت ترقص في « الجراند موند » ..

- ترقص ؟

قالها كأننى قلت شيئا اليما ..

- لا تجزع .. انها مهنة محترمة ..

- لابد ان لك تجارب كثيرة مع النساء ..

- ومع السنين ..

- اما انا فلم امتلك امرأة قط ، لم امتلكها تماما ،

اى اننى لم اعرف ما يمكن ان يسمى تجربة حقيقية ..

- ذلك انكم تضيعون طاقتكم في مضغ اللبان ..

- اننى لم اخبر احدا بذلك قط ..

- ان الانسان يبدأ حياته زير نساء ، ثم ينتهى مثل

جده تماما : مخلصا لامرأة واحدة ..

- لو سألك احد : ما هى تجربة جنسية مرت

بك ، ماذا تقول ؟ ..

وقلت :

- عندما كنت راقدا في السرير ، ذات صباح باكرا ،

اتأمل امرأة في قميص نوم أحمر ، تمشط شعرها !
- قرأت ان أعمق تجربة جنسية أن تكون في الفراش
مع امرأة زنجية وأخرى بيضاء .. في وقت واحد ..
- هذا ما كنت أعتقد عندما كنت في العشرين من
عمرى !

- هل كانت فيونج هى التى رايتها في قميص النوم
الأحمر ؟

كنت أتمنى الا يسألنى هذا السؤال ، ولكننى أجبت :
- كلا .. امرأة أخرى عرفتها بعد ان انفصلت عن
زوجتى مباشرة ..

- ثم ..
- ثم تركتها أيضا ..
- لماذا ؟

- كنت أشفق من فكرة فقدى لها ، ولم أعد أتحمل
هذا الشك ، فأسرعت الى النهاية ، كما يجرى جندي
جبان الى صفوف الأعداء ، ثم يأخذ نيشانا ..
- هل تخاف على فيونج أيضا ؟

- فى المرة السابقة كنت أخشى أن أفقد الحب .. أما
الآن فلا أخشى الا أن أفقد فيونج فقط ..

كنت ضيقا بهذا الحديث ، فحديث الجنس ليس
هو المشكلة الأهم لدى من عرف مشكلة السن والموت ..
- ان السؤال هو : اذا تركتنى فونج ، هل أجد
النشاط الذى أبحث به عن أخرى ؟
- أهذا كل ما تعنيه فونج عندك ..

- نعم ، أنتظر حتى تخاف من أن تعيش عشرين سنوات
وحيدا بدون رفيق ، وسوف تبدأ البحث لا عن ذات
قميص أحمر .. بل عن امرأة ، أيا كانت ، امرأة
تستمر معك حتى تنتهى !

وفجأة طرقت آذاننا أصوات تتحدث بلفة محلية
تحت البرج .. لابد انهم وجدوا سيارتنا ويبحثون الآن
عمن كان بها ، هل ينصرفون ؟ هل ننتظر حتى يهجمون
على البرج ؟
قال بيل :

— هذان الجنديان سيسلماننا لهم ..
— لهم الحق ! انها بلادهم على أى حال ! ..
وقررنا الهرب ..

وهبطنا الدرج ، وفي الظلام الداكن ، جريت فى اتجاه
حقول الارز ، وبيل يجرى خلفى . وانفجرت قنبلة
بازوكا أصابت البرج ، وانكفأت على وجهى .. وسمعت
صوت بيل الذى كان راقدا الى جانبى : هل أصبت ؟
— نعم ..

كان واضحا ان ساقى اليسرى قد أصيبت بكسر ما ،
كان الألم الذى تسرب منها حتى وصل الى رأسى هائلا ،
أشبه بألم الاسنان الحاد . وأنسانى الألم كل شىء .
أنسانى أن أثنى الى صوت قنبلة أخرى انفجرت فى البرج
والمهاجمون يريدون فيما يبدو التأكد من ان كل من
فيه قد قتلوا ، وأنسانى أن أثنى الى أنهم ربما يبحثون
الآن فى المنطقة التى نختفى فيها .
— هل أصابتك رصاصة ؟ ..

— كلا ، لقد سقطت على قطعة خشب مدببة .
— اسمع ، سأحاول أن أحملك على كتفى ، يجب أن
نبتعد من هنا فورا ..

كنا نتحدث همسا ، وكان صدرى قد ضاقت ، وبدأت
أصيح فيه صياحا مذبوحا من بين أسناني :
— اتركنى واذهب أنت ، لا تحاول أن تقوم بدور
بطولى !

ولسكن بيل أصر على أن يحملني ، وعندما أصبحت
مستندا تماما الى كتفيه ، بدأ يتحرك في ببطء شديد
جدا ، حتى لا يحدث أقل صوت من احتكاكنا بعيداً
الأرز ، وكنا نسمع دقات قلوبنا ، ووقع أقدامه ، وكأنها
تصيح في الليل الساكن وكأن كل مخلوق يسمعها في
حقول الارز الشاسعة ..

وبلفنا جدولاً صغيراً .. وكان لابد أن يعبر بيل هذا
الجدول ، وأن يفوص في الماء الى ركبتيه وأن يخطو في
بطء حتى لا تبعث الأمواج صوتاً ينم عن وجود أى جسم
يتحرك ، ومن حين لآخر كنا نسمع سلسلة من طلقات
مدفع رشاش تنطلق هنا أو هناك ، ربما للتأكد من خلو
المنطقة من أى مخلوق ، ورغم المي الشديد ، ورهبة
الموقف ، استطعت أن أهمس في أذن بيل وأنا أترجح
على كتفيه العريضتين :

— لابد أنك رأيت أفلام الحرب ، ومغامرات بحارة
الاسطول .. ولكنك يا صديقي لن تأخذ وساما على
انقاذى ! ..

وصاح بيل في فرح :
— لقد نجحنا ..

كنا قد عبرنا النهر الصغير ، فأصبحنا في أمان
نسبى ، واستطعنا لأول مرة أن ننظر الى الوداء في
شجاعة . كانت هناك على البعد نار صغيرة مشتعلة في
نشوة ..

— انها سيارتى ! ..

وكان الاحساس بالنجاة قد خفف المي ، وكان أعصابى
قد ظفرت بساعة هدنة ، وكدت أن أصفر واغنى ! ..

وعجبت كيف يستطيع صحفى مثلى أن يلخص كل
أهوال هذه الليلة في سطرين اثنين ، يظهران في ذيل أحد

أعمدة الجريدة ! ..

ان علينا أن ننتظر هنا حتى الصباح ، وتعر أول دورية
فرنسية ، لتعيدنا الى سايجون ..

بعد أن قضيت في المستشفى اسبوعين ، عدت الى
شقتي في شارع كاتينات . كانت فونج تنتظرنى على
السلم ، فاستندت الى جسدها الرقيق ، وأخذت أصعد
السلم في ببطء ..

قالت لى : افتقدتك كثيرا ..

وكنت فى حاجة حقيقية الى أن أسمع منها هذا .
انها دائما تقول لى ما أريد سماعه . وسألتها كيف كانت
تقضى وقتها فى غيابي ، فقالت لى انها كانت ترى أختها
كثيرا ، وان أختها حصلت على وظيفة مع الامريكان ..
- بمساعدة بيل ؟ ..

- كلا .. بمساعدة جو ..

- من هو جو ؟ ..

- الملحق الاقصادى .. ألا تعرفه ؟ ..

- نعم أعرفه ، ولكنى أنساه دائما . انه من ذلك
النوع من الناس الذى ينساه المرء دائما .. وعندما
وصلنا الى الشقة ، وتمددت بمساعدتها على الفراش ،
أعطتنى البريد الذى جاءنى اثناء غيابي . كان من بينه
خطاب من زوجتى ، خطاب طويل ، حافل بالتأنيب ،
أخذت أقفز فوق سطوره كي أصل الى الكلمة الحاسمة :
نعم .. أم لا ..

كان الرد : لا .. انها ترفض الموافقة على الطلاق ،
لأنها ما زالت تراه عملا ضد الدين ! ..

كانت فونج قد استنتجت أن الخطاب من زوجتى ،
هل أقول لها الحقيقة ؟ .. لا أظننى أستطيع .

- فونج ، ان الخطاب من زوجتى ، انها تفكر فى

الطلاق وتستشير محاميها . ومعنى ذلك ان هناك أملا
وردت على فونج قائلة :

— هذا لا يهم على أى حال ، اننا نستطيع تنظيم
أمرنا بدون زواج ..
— كيف ؟

— ببوليصة تأمين على الحياة مثلا ..
هذا صوت أختها وتفكيرها الواقعى ، وقد أعجبني
على أى حال مواجهتها للواقع العملى البسيط لضمان
مستقبلها ، وعدم لجوئها الى التعبيرات العاطفية العنيفة
ولكننى لم أسترخ تماما انما جلست أكتب خطابا
الى بيل ، خطابا أشكره فيه على أنه أنقذنى من نهاية
محزنة ، وأبلغه اننى عدت الى البيت ، واننى أسير الآن
متكئا على عصا . وفى الختام كتبت له أن زوجتى تفكر
فى الطلاق ، وان مستقبل فونج معى أصبح واضحا ..

عادت حياتى تمضى فى روتينها العادى ، لولا ان
مساعدى الهندى « دومنجز » مرض فجأة .

ان « دومنجز » هندى الأصل ، كان يذهب الى
المؤتمرات الصحفية بدلا منى ، ويأخذ منى الرسائل
الصحفية ليعرضها على الرقابة ، ثم الى مكتب التلغراف .
كما كان يساعدنى على معرفة معلومات كثيرة ، يستطيع
هو أن يعرفها بسهولة لأنه آسيوى الأصل ، ولأننا
تعودنا ألا نستفل معلوماتنا استقلالا صحفيا رخيصا ،
والأ ننقلها الى المخابرات الفرنسية ، فقد أصبح دومنجز
محل ثقة بعض رجال المقاومة الذين يعملون سرا فى
سايجون ..

وفى إحدى زيارتى له أثناء مرضه طلب منى أن أذهب
الى صديق صينى له ، لأن لديه معلومات تهمنى ..

وبعد أن أعطاني عنوان صديقه هذا سألتني :
- ماذا تعرف عن بيل ؟

- لأشياء أكثر من أنه يعمل في جهاز المعونة الاقتصادية
الأمريكي . ولكنه خلف هذا الستار يقوم بأعمال أخرى
فيما أظن . الظاهر أنه ينشئ علاقات مع بعض الصناعات
المحلية لحساب أمريكا . انني لا أحب أسلوب الأمريكيين ،
يدفعون فرنسا الى القتال ، بينما يستولون على أسواقها
من الخلف ..

- لقد سمعته منذ أسابيع يتحدث في حفلة مع بعض
رجال الكونجرس الأمريكي الزوار . كان يقول لهم ان
انجلترا وفرنسا قوى استعمارية مكروهة في آسيا ، أما
أمريكا فهي ما زالت نظيفة اليد .

- ولم يذكر طبعاً استعمار أمريكا في هاواي
وبورتوريكو ، ونيومكسيكو ؟ ..

- كان يقول ان على أمريكا أن تعثر على زعيم وطني
بعيد عن أي علاقات مع الاستعمار القديم ثم تتفاهم
معه .. وتوجد معه قوة ثالثة بين الاستعمار الفرنسي
والشيوعيين .. والظاهر أنه عثر على هذا الزعيم المنشود
وذهبت الى العنوان أبحث عن « مستر شو » . كان
على أن أسير طويلاً في الحي الوطني بلافاتة الصينية
وشوارع الضيقة .. حتى وصلت الى دكان يزدهم
بكل أنواع الخردة والمخلفات ، هذا هو دكان مستر شو ،
ولكن على أن أدخل من الباب الخلفي ، والظاهر أن
الباب الخلفي كان يؤدي الى مسكنه ..

كان مستر شو جالساً بين أسرته يسعل بشدة ..
رجل نحيف جداً ، له رثة واحدة ، يشرب الافيون
بكثرة هائلة ، ولم أستطع ان أفهم منه شيئاً ، حتى جاء
مساعدته الذي قدم نفسه الي باسم مستر «هنج» وقال

لى : ان ذاكرة مستر شو مفككة ، وانه سوف يروى
لى كل شىء ..

وعاد بى مستر هنج الى دكان الخردوات ، وبين ركام
الحديد الخردة كشف لى عن قالب يحمل اسم شركة
امريكية ، وعلمت منه ان بيل يحضر البلاستيك ، وانه
يساعد « الجنرال تى » الذى يقود احدى العصابات
المسلحة على صنع المتفجرات بهذا البلاستيك والقائها
فى سايجون ، بقصد احداث الفوضى والتشكيك فى
الحكومة الموالية للفرنسيين فبذلك يمكن اسقاط هذه
الحكومة ، واذا جاء « الجنرال تى » الى الحكم ، فهو
يستطيع ان يتفاهم مع الامريكيين !
اذن فهذه هى القوة الثالثة التى يفكر فيها !

ليس من السهل ان تقابل لأول مرة الشخص الذى
انقذ حياتك . وكثيرا ما فكرت ان ادعو بيل الى كاس
من الويسكى او الى العشاء ولكننى كنت اؤجل ذلك
دائما ، حتى استيقظت يوما على صوت بيل ينادينى
باسمى ويطلق بابى ..

استيقظت على صوته ، وكنت احلم به ! كنت احلم
باننى ملقى فى حقول الارز ، ودمى ينزف وانا اصيح
فيه : ابتعد عنى ! لا اريدك ان تنقذنى ..

وسمعت همسا وراء الباب ، فونج وهو ، يتكلمان ،
وعندما فتحت الباب فجأة ، كانا يقفان متقابلين وقد
وضع يده على كتفها .. كأنهما كانا يتعدان بعد قبلة
طويلة !

وسألت فونج أين قابلته ، فقالت انها سمعت صوته
وهو يطرق الباب فصعدت لتفتح له ..
وبعد ان جلس بيل ، قلت له : هل وصلت خطابى؟

- نعم .. ومكنت أحب ألا ألتقاه ، لماذا تلجأ الى الكذب على ؟ لقد كنت اثق فيك ..
- يا صاحبي .. عندما يكون في الموضوع امرأة .. لا تثق في أحد ، ولا تستبعد الكذب ..
- ولكن .. ألم يكن في استطاعتك ان تنتصر بدون كذب ؟

- كلا .. هذا موقف أوربا كلها ، وهو موقف ذو وجهين !.. ان علينا أن نعوض فقرنا في الموارد ! ولكن كيف اكتشفت اننى اكذب ؟ ..

- اختها .. انها تعمل الآن مع جو ، وقد قال لها انهم استدعوك الى لندن ، وقد جاءت الى هنا بالامس فوجدت خطاب زوجتك وقرأته ، انها تعرف اللغة الانجليزية ..

واتجهت الى فونج أسألتها بالفرنسية :
- هل كنت تعرفين كل شيء منذ الامس ؟

- نعم ..
- ولكنك لم تشورى .. كنت هادئة كالعادة ..
- كنت أفكر فقط ..

وسألنى بيل :
- هل تستطيع ان تفسر لماذا فعلت هذا ؟
- لأحتفظ بها ..

- مهما كان الثمن بالنسبة لها ؟

- طبعاً ..
- ليس هذا حبا على طريقتك ..
- انا أريد ان أحميها ..

- انا لا أرى انها تحتاج الى حماية .. اننى أريدها ان تبقى معى ، وفي فراشى ..
ب ولو ضد ارادتها ؟

- انها لا تبقى ضد ارادتها ..
كانت فونج قد انصرفت عنا ، واستلقت على السرير ،
تتصفح بعض المجلات المصورة ، كأن حديثنا لا يعنيتها ،
وقال لى بيل :

- انها لن تحبك بعد ذلك ..
- الحب كلمة غريبة .. نستعملها لأسباب عاطفية ،
أو لكى نغطى بها اضطهادنا لامرأة واحدة ..
- لولا رجلك المكسورة .. لضربتك !

- اننى أدعو الله أن تعلم ماذا أنت صانع هنا . نعم ،
انا أعرف أن دوافعك دائما طيبة ، ولكننى أتمنى أحيانا
أن تعرف بعض الدوافع الشريرة فربما ساعدك هذا
على أن تفهم البشر ..

- اننى أريد أن أعطيها بيتا محترما ..
- وثلاجة وسيارة وتليفزيون من أحدث طراز ..
- واطفالا ..

- نعم .. مواطنين أمريكيين صفارا ..
- وماذا سوف تعطيها أنت ؟ انك لم تكن راغبا فى
أخذها معك الى لندن ..

- نعم .. فأنا لست قاسيا الى هذا الحد ، اننى
لن أخذها الا اذا ضمنت لها تذكرة عودة ، انها مخلوق
إنسانى يا بيل .. وتستطيع أن تقرر ..
وصاح بيل : فونج ..

ورفعت رأسها اليه ، بينما استطرد يقول : انه
يخدعك !

قالها بالانجليزية التى لا تفهمها ، فردت عليه
بالفرنسية :

- لست أفهم ..
وصححت فيه : بيل ، انت تعرف الآن كل ما تريد

أن تعرفه ، فاخرج من هنا ! اذهب الى قوتك الثالثة ،
الى مؤلفات يورك هاردنج ، اذهب بعيدا عني والعب
بالبلاستيك الذى تحضره ..
- لست أفهم ! ..

اعتقد اننى قد تلقيت جزائى ، فان بيل ، عندما ترك
شقتى ، قد حكم على بالقلق لأسابيع كثيرة ، كل مرة
أعود فيها الى البيت ، أتوقع الا أجدها ، وكل مرة
تخرج هى فيها أتوقع الا تعود ، وعندما تعود أسألها :
« محاولا أن أخفى قلقى » أين كانت ؟ فتقول : « فى
السوق » وتظهر لى ما اشترته ، أو فى السييما ،
وتطلعنى على التذاكر ، أو عند اختها - حيث اعتقد
انها تقابل بيل ..

أما هى فلم تتغير ، ظلت تطبخ لى ، وتملا لى الفليون ،
وتمنحنى جسدها فى رقة من أجل متعتى ، ولقد أقبلت
فى تلك الايام على جسدها بشراهة ، ولكن متعتى ذهبت !
كنت أقبل عليها بشراهة كأننى أكرهها ، ولكننى فى
الواقع كنت أكره المستقبل ، كانت الوحدة تتمدد الى
جوارى فى الفراش ، وفى الليل لم أكن أضم بين ذراعى
سوى الوحدة ! ..

وبدأت - دون أن أشعر - أكره كل ما هو أمريكى .
أصبحت أحادىثى مع الناس مليئة بالاحكام .. برداءة
الادب الأمريكى ، وفضائح السياسة الأمريكية ، وحيوانية
الاطفال الأمريكين ، كأن من يريد أن يأخذ فونج منى دولة
.. لا رجل ! ..

وفى احدى المرات ، خرجت فونج ولم تعد . وعندما
فتحت دولابها وجدت انها قد أخذت كل ملابسها ..
اننا لا نشعر بالألم عادة فى لحظة الصدمة ، ولكن المي

بدأ عندما شرعت أرسم خطة لحياتي التي على أن أعيشها
تركزت العمل في يد مساعدى دومانجز وسافرت الى
الشمال. كان لى أصدقاء في قاعدة الطيران في «هايبونج»
وكنتم محتاجا الى هذا السفر لأنسى ..

وهناك كان ممكنا أن أركب الطائرات في غاراتها
الجوية . أن الغارات في هذه الحرب مأمونة جدا ، تماما
مثل ركوب أى سيارة عامة ، فالطائرة تطير على ارتفاع
لا تبلغه المدافع الأرضية .. والعدو لا يملك سلاح طيران
.. انها رحلة تلقى فيها الطائرة قنابلها وتعود ببساطة ،
تقوم في موعد محدد وتلقى قنابلها في موعد محدد وتعود
في موعد محدد ..

ولكن صديقى الطيار «تروين» دعانى مرة الى مصاحبته
في غارة من نوع آخر . الغارة هذه المرة تحتاج الى
الانقضاض بالطائرة على قرية انسحب منها الفرنسيون ،
واطلاق المدافع الرشاشة على الارض ..
وفي الطائرة الصغيرة جلست خلف الطيار مباشرة ،
في مقعد صغير يكاد يشبه مقعد الدراجة ..

وعبرنا النهر الاحمر . كان في تلك اللحظة من الغروب
احمر حقا ، من انعكاس الشمس ، فلا شك انه كان
هكذا عندما رآه أول من سماه بالنهر الاحمر ، وكان
النهر الاسود أسود حقا بالظلال الكثيفة التى تغطيها ،
ثم سهول شاسعة من حقول الارز .. فلو هبطت هنا فرقة
كاملة لما ظهرت أكثر مما تظهر قطعة من العملة في حقل
من القمح ..

ونظر الى الكابتن تروين وغمز بعينه ، فقد وصلنا
الى القرية ، ورأينا قمة القلعة ، والآن سوف ننقض .
وهبطت الطائرة بأنفها هبوطا ساحقا ، وبسرعة هائلة
لدرجة اننى لم أعد أرى شيئا ، انما أصبحت أحس

فقط كأن أمعائي مضطربة لأول تجربة ، وكأن شيئا ثقيلا
يضغط على صدرى فى عنف .. فلم أشعر باللمحة التى
سقطت فيها القنابل ، إنما سمعت صوت المدافع الرشاشة
تنطلق ، ثم انزاح الشيء الثقيل عن صدرى فجأة ، ونحن
نصعد الى السماء الآمنة .

كل هذا تم فى أربعين ثانية .. أربعين ثانية اختفى فيها
« بيل » من مخيلتى . وعندما نظرت الى الأرض كان
الدخان يصعد الى السماء بسرعة كأنه يشير إلينا ..
وتكررت العملية مرة أخرى .. وأربع عشرة مرة ..
وفى عودتنا ، قال لى الكابتن : اننا سنرى مناطق
جميلة جدا فى طبيعتها ، ساعة الغروب .

وفى تلك الليلة صمم تروين أن يستضيفنى فى «بيت
الافيون » رغم انه لايدخن .. بيت فيه الكئوس ،
والجنود ، ودخان الأفيون ، والمومسات ..

كأن تروين كان يريد أن يقول لى شيئا ، أو يبرر
لى ما رأيت ، وأخيرا قال لى :

— مهمة الليلة لا بأس بها . كان الخطر موجودا
بالنسبة لنا وبالنسبة للعدو على السواء . أما ما احتقره ،
فهو القاء قنابل النابالم الحارقة وأنا على ارتفاع ثلاثة
آلاف قدم فى أمان مطلق ! .. انك لم تر منظر غابة
تحترق بهذه القنابل ! .. والله وحده يعلم كيف يكون
منظرها على الأرض .. ان هؤلاء المساكين الملاحين يحترقون
أحياء ، النار تتدفق عليهم كما تتدفق الماء فتفرق كل
شيء ..

وتفريت سحنته اذ كسته مسحة من الكراهية للعالم
كله .. وقال لى :

— اننى أحسدك على انك تعرف كيف تتخلص من
هذا كله . ولا تتورط مثلنا .. ولكنك سوف تتورط

يوما ، لن تستطيع أن تظل هكذا بعيدا دون أن تأخذ
أى جانب .. لن تستطيع أن تبقى هكذا زمنا طويلا! ..
ثم استطرد قائلا :

— عندما ألقيت قنابل النابالم لأول مرة ، ألقيتها
على قرية نشأت فيها ، وأخذت أفكر : هذه القرية التى
تحترق هى التى ولدت فيها ومسيو ديبوا صديق والدى
ما زال يعيش فيها ، الخباز — الذى كنت أحبه وأنا
طفل — يجرى الآن هنا وهناك واللهب يطارده ..
— ولكنك ما زلت تقذف القنابل ..

— نعم .. هذه مجرد حالات كثيفة تستولى على بعد
كل غارة بالنابالم . اننا محترفون ، علينا أن نواصل
الحرب بالنابالم حتى يقول لنا الساسة كفى ..
كان وجه تروين قد أصبح غريبا عنه ، كأنه قناع
ممسوخ كالذى يلبسه الاطفال ويحدقون من خلال
فتحاته ..



كانت عودتى الى سايجون ، والى شقتى فى شارع
كاتينات ، أليمة للغاية . هذه أول مرة أعود ولا أجدها
فى انتظارى ، ولكم وددت أن أقول لسائق التاكسى أن
يدور مرة أخرى حتى أوّجل عودتى الى البيت . وما
أبطأ ما صعدت السلم! .. وعندما اقتربت من الباب
سمعت صوت مقعد فى الداخل .. انه المقعد الكبير الذى
كانت تجلس فيه ..

وفتحت الباب ، كان فى انتظارى هذه المرة بيل ..
قال : انه علم اننى ذهبت اليه مرة أخرى فى السفارة
فجاء يتحدث معى ..

وسألته مباشرة عن فونج وكيف حالها ؟ كنت أستمع
اليه وأنا أفتح البريد الذى ينتظرني .. وعلى رأسه

رسالة من جريدتي : انهم بمناسبة تخرج الاحوال في الهند الصينية وتراجع الفرنسيين يوافقون على أن أبقى هنا سنة أخرى !

وسألت بيل :

- هل تزوجت أنت وفونج ؟ ..

- كلا .. سنتزوج عندما آخذ اجازة في امريكا وسألني : هل سنبقى أصدقاء ؟ ..

فقلت له : انه لا مانع عندي ، بشرط ألا أرى فونج ، فان في هذه الشقة ما يكفي من الأشياء التي تذكرني بها ، الأمر الذي يجعلني أبحث عن شقة أخرى أنتقل إليها ..

وعندما هم بالانصراف لم أتمالك من أن أقول له : - خذ نصيحة منا نحن الاستعماريين القدماء ، ان هذه القوة الثالثة التي تبحث عنها لعب بالنار ! .. ان « الجنرال تي » ليس زعيما وطنيا ، انه زعيم عصابة تتكون من بضعة آلاف فحسب ..

وتظاهر بيل بأنه لا يفهم ماذا أعني . فقلت له بصراحة أكثر :

- البلاستيك الذي تحضره ، والقنابل الموضوعة في الدراجات . « تي » ليس النوع الذي يحول دون الشيوعية في آسيا ! ..

- ظننت انك لا تأخذ جانبا في أي معركة ..

- نعم .. ولكنني عندما أجد انسانا يحول كل شيء حوله الى فوضى ، فائني أنصح به . اترك هذه الاعمال للملحق الاقتصادي جو . انها نكتة سخيفة وان كانت قد تسببت في قطع ساق أحد الناس . أما أنت فخذ فونج وعد الى بلادك ، وانس هذه القوة الثالثة .. ورد علي في تحفظ :

- شكرا على آرائك ..
ثم مضى ! ..

كنت راغبا بالفعل فى ان انتقل من شقتى . كنت لا أكف عن رؤية الشقق الجديدة . فاذا تعبت ذهبت الى مقهى أوربى قريب أستريح فيه . كنت أفضل هذا المقهى ، فهو مكان لايمكن أن أقابل فيه فونج . اننى أعرف تماما أماكنها المفضلة والمواعيد التى توجد فيها ، وهى انسانية لا تحب أن تغير عاداتها ..

فى ذلك اليوم لم يكن فى المقهى سوى فتاتين كل ما فيهما ينطق بأتهما أمريكيتان : الحقيبة المعلقة على الكتف ، السيقان الطويلة النحيفة ، الاهتمام الذى يأكلان به الآيس كريم . كانتا جميلتين ، وكنت أريد لهما أن تعودا الى وطنهما أيضا ..

وفجأة نظرت احدهما الى ساعتها وقالت : يجب أن ننصرف الآن .. « وارين » قال لنا أن ننصرف قبل الحادية عشرة .

- صحيح .. ولو اننى كنت أفضل أن أبقى لأتفرج ، ترى ماذا سيحدث ؟ .. مظاهرات ؟
- لا أظن .. لقد رأينا مظاهرات كثيرة ..

وانصرفت الفتاتان ، وهما تنظران الى نفسيهما فى المرأة الكبيرة التى تملأ حائط المقهى ، وبعد أن انصرفتا بقليل كانت هذه المرأة تنفجر وتتناثر والمقاعد تطير .. والدخان يتصاعد من الطريق مع الصرخات وصوت الانفجارات ..

وخرجت مسرعا لأرى أكواما من القتل والجرحى والدماء ، والبوليس قد حاصر المكان ، وعند خروجى الى الشارع وقع بصرى على محل اللبن الواقع فى نهاية

الشارع . ان الدخان يتصاعد منه أيضا ، ان فونج تذهب اليه في هذه الساعة دائما ..

وقررت ان اقتحم حصار البوليس لأذهب اليها ، ولكن عبثا ، البوليس يرفض ، وبطاقتى الصحفية ليست معى ..

وعدت الى المقهى المحطمة ، وفجأة وجدت نفسى وجها لوجه أمام بيل ، وصحت فيه :

— هل معك بطاقة نمر بها ؟.. ان فونج فى محل اللبن ، يجب أن نبحث عنها ..
— كلا .. ليست هناك ..

— بل انها هناك .. انا أعرف مواعيدها ..
وهز بيل كتفيه : كلا .. لقد نبهت عليها أن تترك المكان وتعود الى البيت قبل الحادية عشرة ..
— نبهت عليها ؟..

اخترقت هذه الكلمة رأسى ، كأنها طلقة رصاص ..
والفتاتان الأمريكيتان قالتا ان من يدعى « وارين » أخبرهما بأن يتركا المكان قبل الحادية عشرة !.. فلا يجب أن تقع ضحايا أمريكية ! ولكن هؤلاء القتلى والجرحى .. هؤلاء النساء والاطفال لم ينبههم أحد !..
ليسوا من الأهمية بحيث ينبه عليهم أحد ..

وقبضت على كتف بيل فى عنف وغيظ وصحت فيه :
— هل رأيت ماذا يصنع البلاستيك فى الأيدى الخطأ ؟.. ألا تعرفون ان هذه الساعة هى ساعة الشراء وازدحام المكان بالنساء والاطفال ؟.. هل كنت تظن ان « الجنرال تى » سيختار ساعة غير هذه لكى يحدث أكبر ضجة ممكنة ؟.. ها أنت قد جعلت الجنرال تى شهيرا !
هذه هى القوة الثالثة الوطنية التى تصنعها !..

وابيض وجه بيل تماما .. وبدأ كأنه على وشك أن

يفهمى عليه ..
وتركت كتفه .. كنت افكر : ما الفائدة ؟ انه دائما
ساذج برىء ! .. انك لا تستطيع أن تلوم البرىء على
ذنوب يقتطفه ! .. ان البراءة هنا نوع من الجنون ! ..

مر أسبوعان على مقتل « بيل » قبل أن التقى مرة
أخرى بضابط البوليس الفرنسى فيجوت .. كنت مارا
بالنادى الواقع فى شارع شارنيه عندما رأيته جالسا ،
فدعانى الى كأس من الشراب ..
وبعد أن تحدثنا قليلا ، قال لى :
- لقد عثرنا على كلب بيل ..
- حقا ؟

- نعم .. كان مقتولا أيضا على بعد خمسين ياردة
تقريبا من المكان الذى وجدنا فيه جثة بيل ..
- أما زلت مهتما بالموضوع ؟ ..
- الوزير الأمريكى المفوض لايف عن السـؤال
والإلحاح .. من حسن الحظ اننا لا نتعب بهذا التعب
عندما يقتل رجل فرنسى ! ..
وقال لى فيـجوت انه يحب أن يزورنى فى البيت
لنتحدث بصراحة ، واتفقنا على أن انتظره فى العاشرة
مساء ..

وسألته وأنا أنهض :

- أما زلت تشك فى اننى مشترك فى مصرعه ؟
- أنا أريد أن أتحدث معك .. هذا كل شىء ..
من يدري ؟ ربما كان فيجوت يظن اننى قتلته بسبب
الفيرة ! .. انه يسألنى عما اذا كانت فونج قد عادت الى
مرة أخرى بعد مصرع بيل ؟
وفى الليل ، أعطيت فونج نقودا لتذهب مع أختها الى

السيثما حتى لا تكون موجودة ، وفي العاشرة تماما جاء فيجوت .

كان أول سؤال ألقاه على هو :
— لقد قلت لى انك لم تر بيل يوم مقتله . . ولكننى اكتشفت انك قابلته ! . .

وأخذ يسرد لى الأدلة على ذلك ، من المواعيد التى ذكرتها له ، الى تحليل أظافر الكلب ، وكان بها أسمنت مبلى ، وفي مدخل بيتى أعمال بناء تملأ الارض بالاسمنت المبلى ، الى اعتقاده بأننى رغم عدم اهتمامى بشيء ، فأننى فى لحظة عاطفية ، يمكن أن اتخذ جانبا . .

ولكننى أخذت أسخر من أدلته ، وكان هو نفسه يشعر بأنها أقل من ان تدين احدا ، فانصرف راجيا منى أن أعتبر المسألة منتهية ، مؤكدا أنه لن يزعجنى بهذا الشأن مرة أخرى . .

ولما أصبحت وحيدا فى غرفتى ، وقد تأكدت ان ملف حادث القتل قد أغلق الى الأبد ، وجدت فى نفسى الشجاعة أن أعترف لنفسى بأننى كذبت على الضابط ، وأننى قد رأيت بيل ليلة مصرعه ! . .

فبعد أن شاهدت حادث الانفجار الرهيب ، ودماء القتلى والجرحى . . بعد أن رأيت هذه الدماء تلوث حذاء بيل ، ورأيتة يقول فى بساطة : يجب أن أمسح حذائى قبل أن أذهب لمقابلة وزيرنا المفوض . .

بعد هذه اللحظات التى رأيت فيها ماذا يصنع بيل . . ذهبت فورا الى الحى الوطنى ، ثم الى دكان «الخردة» بالذات ، أبحث عن مستر هنج .

كان قد علم بحادث الانفجار الرهيب ، ورويت له ماذا رأيت بالضبط . وقلت له : انه «بيل» المسئول عن هذا الحادث أيضا . . وانه لايجب ترك ولد من بوسطن

يلعب بالمتفجرات على هذا النحو . .
وسألني هنج : لماذا لا تبلغ معلوماتك الى البوليس ؟
فقلت له : ان البوليس لن يتعرض للجندرال تى
وعصابته . . ولن يتعرض بالطبع لمواطن أمريكى . .
وأطرق مستر هنج طويلا ، ثم رفع رأسه وقال لى
فى خطورة : هل تستطيع أن تدعو مستر بيل ليتعشى
معك الليلة ، فى مطعم الطاحونة القديمة ، بين التاسعة
والعاشرة ؟ . .

- وما الفائدة ؟ . .
- سوف نقابله فى طريقه الى المطعم ، ونتكلم معه . .
- ولماذا مطعم الطاحونة القديمة بالذات ؟
- انه بجوار كوبرى داکو . . وفى هذه المنطقة
نستطيع ان نلتقى به ليلا دون أن يزعجنا احد . .
وسكتنا فترة . . وسمعت أصواتا تتهاמש خلف احد
الأبواب . . فلا شك ان مستر هنج كان يعقد اجتماعا
مع رفاقه . .

وقطع مستر هنج السكوت قائلا :
- هل تصنع هذا من أجلنا . . يامستر فولر ؟ . .
وواصلت سكوتى ، كنت أفكر فيما انا مقدم عليه .
وذكرت كلمة الطيار تروين لى : « ان الانسان لا بد فى
النهاية ان ينضم الى جانب ، اذا اراد ان يكون مخلصا
لأدميته » .

وانصرفت من عند هنج . .
ومررت بالسفارة الأمريكية حيث تركت ورقة لبيل
أطلب منه أن يمر على فى البيت . .
وجاءنى بيل فى البيت فرحا . كان مبعث ضرورة ان
دعوتى له معناها اننى لست غاضبا عليه بعد الكلام
العنيف الذى وجهته اليه بعد الانفجار . .

قال لى انه قابل الجنرال تى ..
 - وهل قطعت صلتك به ؟ ..
 - كلا .. اكتفيت بتأنيبه لأنه لم يحسن اختيار
 موعد الانفجار .. اننى لا أستطيع أن أقطع علاقتى به ،
 فلو انه وصل الى الحكم الأمكننا الاعتماد عليه ..
 - وكم من الناس يجب أن يقتلوا هكذا .. حتى
 يصل جنرالك هذا الى الحكم ؟ ..
 ولم تكن هناك فائدة من المناقشة ، فقلت له :
 - اننى مشغول الان .. فهل تأتى لتعشى معى الليلة
 فى مطعم الطاحونة القديمة ، بين التاسعة والعاشره مساء ؟
 ووافق بيل على الموعد ، وفجأة بدأت أتردد . لقد
 قال لى هنج انهم سيقابلونه عند الكوبرى ويتفاهمون
 معه . انه لم يقل لى شيئاً عن طريقة التفاهم . ولكن
 التفاهم فى الحرب ليس له الا طريقة واحدة : كل واحد
 يستعمل السلاح الذى فى يده . الفرنسى يستعمل قنبلة
 « نابالم » ومستر هنج يستعمل مسدسا أو سكيناً ..
 وفكرت أن أعود فأحذر بيل ، ووجدت نفسى أسأله :
 - هل تحمل سلاحاً ؟ ..
 - كلا ..
 - ولا فى الليل ؟ ..
 - انه لن ينفعنى .. فلو شاء أحد قتلى فسوف
 يستطيع ذلك بأى شكل ..
 واقترحت عليه أن نلغى موعد العشاء ، ولكنه تمسك
 به . قال انه يريد أن تعود صداقتنا التى فسدت منذ ..
 واكملت له : منذ أنقذت حياتى ! ..
 - كلا .. لا اقصد هذا . ولكننى آخذ عليك اسرافك
 فى الحياد . لقد كسرت رجلك ومع ذلك تريد أن تظل
 غير منحاز الى أى جانب ..

قلت له هامسا : من يدري ؟ ، ربما انحاز في لحظة
انفعال .. !

وتنهيا بيل للانصراف ، وقال انه يرجو الا يعطله السفير
عن الحضور ، وكأني أردت ان أمنحه فرصة للنجاة ،
فقلت له :

- لا يهم .. اذا تعطلت فلا تأت الى المطعم ، على ان
تزورني بعد ذلك في البيت .

وبمجرد انصرافه ، أسرع الى أقرب دار سينما ،
كنت محتاجا الى أى شيء يشغلنى عن نفسى ويمنعنى
من التفكير ، وكان الفيلم حول شاب قتل عدوا وأنقذ
فتاة وعاش في التبات والنبات ..

وخرجت من السينما وقد جاء الليل ، فذهبت الى
مطعم الطاحونة القديمة ، وأخذت مائدة بعيدة بجوار
النافذة ..

وبغير قصد منى كانت اذنى تتسمع الى الخارج في
اضطراب متوقعا في أى لحظة أن أسمع صرخة ، أو
طلقة ، أو صوت سيارة بوليس ..

ولأول مرة في ذلك اليوم فكرت في فونج .. لماذا ..
فهى لن تذهب الى أمريكا ولن ترى ناطحات السحاب !
وعندما أصبحت الساعة العاشرة ولم يأت بيل ..
أدركت ان كل شيء قد انتهى ، وعدت الى البيت ، لأجد
فونج رائحة غادية في الطريق في انتظاره فصحبته الى
شقتى ..

عادت فونج من السينما في ساعة متأخرة ، بعد أن
انصرف فيجوت بزمن ..

وتمددت في فراشى ، بينما جلست هى على مقعد
واخذت تروى قصة الفيلم كالعادة بانفعال ..

وقالت لى فونج فجأة : انك لم تفتح بريدك الليلة ؟
قلت لها : نعم .. أنا لا أستطيع أن أفكر فى عملى
هذه الليلة .. استمرى فى حكاية الفيلم ..
واستمرت تروى .. ومللت الحكاية ، فقامت الى
البريد أفتحه ، ما دام النوم ما زال هاربا منى ..
كان فيه خطاب من زوجتى تقول انها غيرت رأيها ،
وانها توافق على الطلاق ..
وصاحت فونج تطلب منى أن أستمع اليها وهى تروى
لى نهاية الفيلم السعيدة .. فجذبتها من ذراعها ،
وقلت لها : هذا الخطاب ، فيه نهاية سعيدة لقصتك !

فن الكذب السياسى

العلاقات بين الدول : حرب أو سلام . . . فى ساحة الحرب يقاتل الجنود ، وفى ساحة السلم يقاتل الدبلوماسيون .

ونحن نعرف عن الدبلوماسية الآن انها سفارات وموائد مستديرة ومؤتمرات .

وعن الدبلوماسيين انهم قوم مدللون يمتازون بشتى أنواع الحصانات . . ويقترون فى أذهاننا عادة باللباقة والرشاقة وثياب السهرة وحفلات الكوكتيل والياقات المنشأة !

ولكن الدبلوماسية لم تكن كذلك على الدوام . كان الدبلوماسى فى الزمان القديم فدائيا ، اذا ذهب فى مهمة فقد يعود وقد لايعود ! . . كان السفير الاجنبى يعامل على انه جاسوس . . وقد يتعرض فى أية لحظة لطعنة خنجر أو لكمين فى الطريق !

كانت التقاليد فى روما القديمة تقضى بأن يبقى السفير الاجنبى عند أبواب المدينة حتى يقرر مجلس الشيوخ قبوله كسفير . . أو معاملته كجاسوس ! . .

وكانت جمهورية البندقية تحتم على من تبعث به سفيرا ألا يأخذ معه زوجته ، حتى لا تثرثر فى البلاد الاجنبية بالأسرار ، وأن يأخذ معه طباحا خاصا حتى

لا يدس له أحد السم في الطعام ..!

وفي إنجلترا ، على عهد كرومويل سنة ١٦٢٣ ، كان عضو البرلمان اذا «ضبط» وهو يتحدث مع أى سفير أجنبى ، فقد مقعده في الحال ..!

وفي موسكو ، سنة ١٦٢٣ ، كان القياصرة يخصصون قلعة ينزل فيها السفراء الاجانب .. كأسرى حرب ..! وفي اليونان القديمة كانت توجد جريمة اسمها «جريمة السفارة الفاشلة» تشبه الخيانة العظمى .. السفير الذى يفشل في المهمة التى أرسل من أجلها يحاكم ويحكم عليه بأحكام مختلفة تصل الى الاعدام ..!

ولاشك ان ذلك كله كان مرجعه الى الروح القبلية المتعصبة التى كانت سائدة بين الدول .. كل دولة تنظر الى الأخرى نظرة احتقار وكراهية وعداء . وفي هذا الجو الرهيب كان على الدبلوماسيين أن يعملوا .. حتى تتغير الظروف ، وتبدل النظرة ، ويصبح الاصل في العلاقات بين الشعوب الأخاء والمساواة ..

وكتاب « تطور الاسلوب الدبلوماسى » يعرض علينا قصة هذا التطور في سلسلة خلافة من النوادر والحكايات والتعليقات .

أما مؤلفه ، هارولد نيكولسون ، فهو كاتب صحفى انجليزى ودبلوماسى قديم .. ويقول نيكولسون : أن الدبلوماسية ترجع الى فجر التاريخ .. وان أول مهمة دبلوماسية كانت ولاشك عندما بدأ سكان الغابات البدائيون يتفاهمون على أن تكون لكل جماعة منهم منطقة معينة يصطاد فيها ويبحث عن الطعام .

ولكن المؤلف لا يشير ولو بكلمة واحدة الى تاريخ الدبلوماسية في الحضارات الاولى .. المصرية والصينية

وغيرهما .. بل يذهب مباشرة الى اليونان ، سنة ٨٠٠ فقط قبل الميلاد .. فينقل عن «هوميروس» قصة خطف هيلانة من زوجها الملك وأسرها في طروادة ، وكيف ان «منلاوس» و «أوديسيوس» ذهبا في «سفارة» سلمية الى طروادة يطلبان اعادة هيلانة الى زوجها.. ودخل السفيران في القاعة التي يجتمع فيها المجلس النيابي.. وألقى كل منهما خطبة طويلة.. ولكن العضو «انتيماخوس» كان قد جمع حوله أغلبية من الاعضاء رفضت تسليم هيلانة ، فقامت الحروب الدامية المعروفة ..

ويستنتج المؤلف من ذلك : ان البعثات الدبلوماسية كانت في ذلك الوقت تقابل المجالس النيابية لا الحكام . وان أسلوب المباحثات كان علنيا يتم بواسطة القاء خطب عامة .

وفي مكان آخر من ملحمة هوميروس ، نقرأ ان « ايلوس» طلب من اوديسيوس سما ليغمس فيه سهامه قبل المعركة ، فثار اوديسيوس عليه .. الأمر الذي يجعلنا نعتقد ان اتفاقيات جنيف الحديثة التي تحرم استعمال أسلحة معينة كالرصاصة السام والغازات السامة ، كان لها نظير في ذلك الوقت ، وان الدعوة الى تحريم استخدام الاسلحة الذرية تنبع من ضمير انساني عمره ٢٧٠٠ سنة على الاقل !..

كانت اليونان في ذلك الوقت تتكون من اكثر من دولة .. ولم يكن التمثيل الدبلوماسي الدائم معروفا بين تلك الدول بل كانت الدولة لا ترسل بعثة الى دولة أخرى الا في مهمة معينة فحسب ..

أما « اثينا » فقد كانت جمهورية ديمقراطية ، يحكمها مجلس نيابي تتركز فيه جميع السلطات ، وتمثل فيه مختلف التيارات والاحزاب ، فاذا جاء اليها سفير أجنبي

كان عليه أن يتقدم الى المجلس ، وان يخطب امامه . .
ومعنى ذلك ان أية مباحثات مع دولة أجنبية كانت تجرى
علنا ، على مرأى ومسمع من الشعب الأثيني كله . وان
الاتفاق الذى يبرم كانت توافق عليه الاحزاب كلها ، أو
أغليبتها على الأقل . . فاذا أرسلت اثينا بعثة دبلوماسية
الى بلد آخر ، كان لابد أن تتكون البعثة من أكثر من
عضو بحيث تمثل مختلف الاحزاب ، وربما ضمت البعثة
الواحدة أعضاء متنازعين متنافرين . . ففي البعثة التى
أرسلتها اثينا الى فيليب ملك مقدونيا كان «ديموستين»
لا يأكل مع زملائه فى السفارة ولا يصافحهم ولا يبيت
معه فى مكان واحد . .

وفى الناحية الأخرى كانت توجد دولة مقدونيا ،
يحكمها الملك فيليب حكما فرديا . . فهو الذى يختار
السفراء ، وهو الذى يعقد المعاهدات ، ولذلك كان أغلب
معاهداته سرية . .

وقد وقع الصدام بين الدولتين ، وبينما كان نواب
اثينا يتتابعون على المنبر ولا ينتهون من الجدل ، كانت
جيوش فيليب تزحف عليهم ، وتدمر بلادهم ، وتطلب
رأس أكثر خطبائهم فصاحة وهو : ديموستين . .

ويقف نيكولسون مقارنا بين الدبلوماسية : الدبلوماسية
فى بلد دكتاتورى والتى تتميز بالسرعة والكتمان والحسم ،
والدبلوماسية فى بلد ديمقراطى وتتميز بالبطء والعلانية
والجدل .

على أن انتصار مقدونيا على اثينا لا يجب أن يكون
دليلا على صلاحية الدبلوماسية الأولى . .

فانتصار مقدونيا كان انتصارا عسكريا لا سياسيا ،
وليست القوة دائما فى جانب الفضيلة أو الحق . .

ثم ان لدينا تجربة أخرى حديثة أصح للقياس ،

أشار اليها نيكولسون أيضا إشارة عابرة : يوم وقفت
المانيا النازية في وجه دول غرب أوروبا الديمقراطية وعلى
رأسها إنجلترا ..

كانت أمور ألمانيا كلها في يد رجل واحد هو هتلر ،
هو الذى يختار الحرب أو السلم ، يعقد المعاهدات أو
يمزقها ، ينفق الميزانية على التعمير أو على التسليح .
وكان من حقه أن يبقى المعاهدات سرية أو أن يفاجئ
العالم بعقدها ، لأن طبيعة النظام كانت تعفيه من رقابة
الناس عليه .. وعلى هذا كان هتلر يفاجئ العالم
بمعاهدات معقودة فعلا ، أو بإلغاء معاهدات أخرى ،
وكان يفاجئ الدول بإعلان الحرب وبالغزو الفعلى ، في
الساعة الثانية بعد منتصف الليل مثلا كما فعل في بولندا
وعلى العكس من ذلك كانت بلد كإنجلترا ..

لا تستطيع الحكومة أن تزيد ميزانية التسليح إلا بعد
أن تعرض الأمر على البرلمان ، وتنشر الأرقام في الصحف ،
ويتحدث المؤيدون والمعارضون ..

ومعنى ذلك أن كل شيء لابد أن يتم علنا وفي تئودة ،
بحيث يعرفه العالم كله - بما فيهم الأعداء - قبل أن يتم
تماما كما نرى الآن في مسألة مثل تسليح ألمانيا : عرض
الأمر على كل حزب من الأحزاب ، واحتدم الخلاف في
داخل كل حزب ، قبل أن تقرر إنجلترا نهائيا قبول
مبدأ تسليح ألمانيا ..

ولكن هذا الأسلوب لم يمنع إنجلترا من أن تكون في
مستوى الموقف إزاء هتلر ، ولم يمنعها من احتسـمال
بعض الهزائم قبل أن تحرز النصر الأخير .

لم تتكرر في لندن مأساة أثينا الديمقراطية ، ولم
ينتصر هتلر كما انتصر فيليب ، لأن الديمقراطية قد
نضجت خلال عشرات القرون حتى وصلت إلى تحقيق

مبدأ هام لم يكن موجودا في أثينا هو : الفصل بين السلطات ..

كانت السلطات كلها في اثينا مركزة في المجلس النيابي، وهو الذي يستقبل السفراء !..

أما الآن فالديمقراطية تقوم أساسا على ثلاث سلطات مستقلة : السلطة التشريعية فقط يملكها المجلس النيابي، والسلطة التنفيذية تملكها الحكومة ، والسلطة القضائية يملكها القضاء .

هذا الفصل بين السلطات يخلق نوعا من التوازن بين ضرورة الاستناد الى رأى الناس في إبرام كل أمر خطير وبين ضرورة الحسم والبت والسرية خلال مرحلة التنفيذ ..

وكما كانت اثينا ترسل بعثاتها السياسية من أكثر من حزب .. ذهب تشرشل الى مؤتمر بوتسدام بعد الحرب ومعه أتلى ، زعيم الحزب المعارض لأن انجلترا كانت على وشك معركة انتخابية قد تأتي بهذا الحزب المعارض الى الحكم .

وقد كانت اليونان تعرف الكثير من اصطلاحات و « مراکز » القانون الدولي المعروفة الآن ..

كانت تعرف الحياد ، والتحكيم بين الدول ، وكانوا يختارون للتحكيم بين الدولتين المتنازعتين رجلا مشهورا في دولة ثالثة ، كأستاذ في الفلسفة أو بطل فائز في الألعاب الاولمبية مثلا !.. ثم جاء الشرق ! !..

والى الشرق يعزو المؤلف كل ما تعرفه الدبلوماسية الآن من مظاهر وشكليات ونفاق ومجاملات .. لأنه يعتقد ان هذه الصفات كلها شرقية أصيلة !..

ويعزز كلامه هذا بأن أباطرة القسطنطينية هم الدين

أقاموا لأول مرة قصورا فاخرة لاستضافة السفراء ..
ووضعوا تقاليد تقضى باقامة الحفلات الباذخة لاستقبال
السفراء بقصد التأثير فيهم واقتناعهم بعظمة الدولة التي
جاءوا اليها ! .. وانهم أنشأوا ما يمكن أن يوصف بأنه
أول ادارة مستقلة للبروتوكول .. بل ان الامبراطور كان
يصل في مبالغته في التأثير على السفراء الى حد انه كان
يضع أسودا حية على درجيات عرشه ، تزار من حين الى
آخر حتى تبث الرعب في قلب السفير .. وهو جالس
مطمئن لأنه يعرف انها مربوطة بسلاسل خفية من حديد!
ولاشك ان هذا كلام فارغ ! ..

ولا أقول انه كلام فارغ دفاعا عن الشرق او تبرئة له
من المداهنة والنفاق ! ولكن الواقع ان هذه الشكليات
ترعرعت خلال تاريخ طويل في غرب أوربا بالذات ، وكتب
التاريخ ملأى بقصص الميسارزات التي كانت تقع بين
سفيرين لاختلافهما حول أيهما يتقدم الآخر في الطريق ..
فقد كان كل مؤتمر دولي يسبقه خلاف عنيف حول
أي المندوبين يدخل باب قاعة الاجتماع قبل الآخر ..
حتى تقرر مرة أن يعقد الاجتماع في قاعة لها ثلاثة أبواب
ليدخل كل مندوب من باب في وقت واحد ! ..

وخلاف آخر حول من يجلس على رأس المائدة ومن
يجلس على الجانبين .. فلم ينته الخلاف الا بأن أصبحت
كل موائد المؤتمرات مسستديرة ، ليس لها رأس ولا
جوانب ! ..

بل لقد حدث سنة ١٧٦٨ ، في مؤتمر عقد في لندن ،
ان غضب السفير الفرنسي عندما وجد سفيرى النمسا
وروسيا يجلسان متجاورين فقسام ، وتسلسلق ظهر
مقعديهما ، وحشر نفسه بينهما ، حتى يصبح متقدما في
الترتيب على سفير النمسا .. واشتبك الاثنان في معركة

انتهت باصابتها بجروح بالغة ! ..
والدبلوماسية خلال القرون الوسطى كلها كانت تجرى
على هذا المنوال .. ولكننا نلمح خلالها عقلا جبارا هو :
مكيافيللى ، الذى كانت له فى فن السياسة فلسفة ..
وفلسفة مكيافيللى تتلخص فى جملة واحدة هى ان
« لا أخلاق فى السياسة ! » وان السياسى يجب ألا
يرعى فى سبيل تحقيق غايته أى اعتبار آخر .. وان
مصلحة الدولة العليا تعفى من كل قيد أو التزام ..
أى ان العلاقات بين الدول لا يجب ان يحكمها قانون
أيا كان ..

وقد آمن بهذه الفلسفة فى الزمان القديم : سيزار
بورجيا وشارل الخامس وفيليب الثانى وغيرهم ..
وفى الزمان الحديث ظهر فى أوروبا فلاسفة يدينون بها
مثل تريتشكه ، وساسة يطبقونها ، مثل هتلر وموسوليني .
وهى فى الواقع فلسفة كل عدوان .
وبعد مكيافيللى نجد عقلا آخر من نوع فريد ، تحمل
صاحبه آلاما لا تطاق لأنه وجد - اسوء الحظ - قبل
العصر الملائم له بثلاثة قرون ..
هذا العقل هو : جروتىوس ..

وهو رجل هولندى ، عاش سنة ١٦٢٥ ، وكان يعمل
قاضيا .. تأمل العلاقات الدولية التى كانت سائدة فى
ذلك العصر ثم وضع مؤلفا خطيرا قال فيه : « انه لن
يكون فى هذه الارض أمن أو سلام ما دامت هناك قوى
متصارعة لا تهتم الا بكبريائها الوطنى ، وان هناك قانونا
طبيعيا ينبع من الضمير البشرى يجب أن يخضع له
الجميع ، ولن يخضع الجميع لهذا القانون الطبيعى ما لم
تشكل هيئة دولية تتكون من محكمين دوليين لا مصلحة
لهم وتختص بالفصل فى المنازعات الدولية .

أى انه اقترح انشاء منظمة كعصبة الأمم أو هيئة الأمم المتحدة .

وكان طبيعيا أن تعتبر الحكومات مثل هذا الرجل خطرا على الأمن ، مضللا للعقول ، فعوقب على هذه الأفكار بالسجن في قلعة رهيبة . . وبالرغم من انه كان شيخا في الواحد والستين من عمره ، فقد اضطر الى الفرار من القلعة ولاذ بسفينة مهاجرة ، حطمتها عواصف بحر البلطيق فمات غرقا !

وقد مرت بعد جروتويس ثلاثمائة سنة . . قتل فيها الملايين وهلكت المدن وتشربت الارض بالدماء قبل أن تنفذ فكرته وتقام لأول مرة بعد الحرب العالمية الاولى عصبة الأمم ومحكمة العدل الدولية !

ظلت الدبلوماسية حتى انفجار الحرب العالمية الاولى تسير على « الاسلوب الفرنسى » .

وكان الاسلوب الفرنسى يتميز بالرشاقة والنعومة والتزام قواعد الاتيكيت المعقدة . وكانت العلاقات الدولية تقوم على أربعة أسس رئيسية :

أولا - أن أوروبا هى أهم قارة فى العالم كله ، وهى مصدر السلطات فى ميادين السياسة والحرب والاقتصاد . أما آسيا وأفريقيا فهما خاملتان مظلمتان ، وأمريكا مشغولة بنفسها ، يفصلها عن العالم القديم بحر عريض .

ثانيا - أن الدول الكبرى فى أوروبا هى التى تتحكم فى مصير الدول الصغرى وهذه الدول الصغرى قد تكون لها قيمة استراتيجية أو مالية ولكنها لا تمثل أى وزن سياسى .

ثالثا - أن العلاقات بين الدول الكبرى تسير على أساس من «التوازن الدولى» المحكم الدقيق ، فلا تنفرد دولة واحدة بقوة غير عادية ، وعندما كان يظهر رجال

مغامرون ، يعتمدون الى الاخلال بهذا التوازن وحصر
السيادة في بلادهم . . كما فعل فردريك الاكبر في المانيا
ونابليون في فرنسا . . كانت سائر القوى تتكتل ضده ،
حتى تقضى عليه ، وتعيد « التوازن الدولى » الى نصابه
رابعا - ان المباحثات بين الدول كانت تجرى كلها في
جو من السرية والكتمان ، لا ينشر عنها شيء ولا يطلع
عليها الا رؤساء الدول ورؤساء الوزارات والسفراء ،
ولا يتعرض المفاوضون فيها الى ضغط من الراى العام
حتى في سنة ١٩١٤ ، قبل الحرب كان مجلس النواب
الفرنسى لا يعرف شيئا عن النصوص السرية بين فرنسا
وروسيا . وكان السير ادوارد جراى وزير خارجية
انجلترا يخفى عن أعضاء مجلس الوزراء الاتفاق الموقود
بين هيئتى أركان الحرب الفرنسية والانجليزية . .

فلما انتهت الحرب العالمية الاولى ، تغير كل شيء ،
وتعرضت الاساليب الدبلوماسية لثورة يمكن ان يطلق
عليها اسم : ثورة ١٩١٩ . .

أما أوربا فقد ضاعت هيبتها القديمة ، وتوزعت
القوة بين أمريكا وبين القوى الجديدة الهائلة التى تنبعت
في آسيا .

أما التوازن الدولى التقليدى فقد اختل اختلالا
شديدا . . ولم تعد المباحثات تجرى في أروقة سرية ،
بل أنتشر أسلوب المؤتمرات العلنية ، التى يشهدها
الجميع . . حتى أصبحت جلسات مجلس الأمن هذه
الايام تذاع في التليفزيون . . واختفى الدبلوماسيون
المحترفون ، وأصبح يتحكم في الدبلوماسية الساسة
والزعماء والنواب والقادة .

ويقول نيكولسون ان هذه الثورة في الاساليب
الدبلوماسية ترجع الى عدة عوامل :

أولها : التوسع الاستعماري الذي زود معركة المنافسة بوقود جديد . اذ فتحت الفنائم الجديدة شهية الدول الكبرى الى الامعان في المنافسة والصراع ، حتى شمل العالم كله . . وكادت الدبلوماسية أن تنقلب الى عمل تجارى بحت .

وثانيهما : تقدم المواصلات ووسائل الاتصال السريع تقدما كبيرا . فقديمًا كانت الرسالة تستغرق شهورًا قبل أن تصل من عاصمة الدولة الى سفيرها في عاصمة أخرى . . الأمر الذي أدى الى جعل كل سفير مسئولًا عن توجيه سياسة بلده مسئولية مستقلة الى حد كبير . وكثير من السفراء احتملوا مسئولية تصرفات كبيرة لم يستأذنوا فيها حكوماتهم ، كالسيرستراوفورد راتكليف الذي احتمل مسئولية اشعال معركة نافارين التي أغرق فيها الأسطول المصري أيام محمد علي دون أن يرجع الى حكومته .

أما الآن . . فان وزير خارجية أى بلد يستطيع أن يتحدث وهو في مكتبه ، عن طريق التليفون ، مع جميع سفرائه في مختلف أنحاء العالم . كما يستطيعون هم أن يرجعوا اليه في كل صغيرة وكبيرة ، أولا بأول . . أى أن تقدم المواصلات قضى على استقلال السفراء القديم ، وجعل المسئولية كلها مركزة بصورة مباشرة في يد وزير الخارجية . .

على ان نيكولسون يعتقد ان أكبر ما تعرض له الاسلوب الدبلوماسى من تغير ، كان سببه : انتشار الديمقراطية فبانتشار الديمقراطية أصبحت كل حكومة مسئولة امام شعبها عن كل تصرف من تصرفاتها ، واختفت — أو بدأت تختفى — الطريقة القديمة لحل المشاكل الدولية ، وهى المباحثات التى تجرى فى الأروقة المغلقة بين سياسة

محترفين ، وحل محلها أسلوب العلنية المفتوحة . . مثل
جلسات مجلس الأمن والأمم المتحدة ومؤتمر جنيف وغيره .
ففى مؤتمر جنيف مثلاً . . كان مندوب فرنسا
لا يذهب الى المؤتمر الا فى حدود شروط معينة وافق
عليها البرلمان ، وكان لا يبرم أمراً الا بعلم البرلمان .
وبعد استشارة الكتل المختلفة .

ويقول نيكولسون فى حزن : ان هذا التطور قضى على
« الدبلوماسية » بالمعنى المعروف . . وان المفاوضات
العلنية معناها الا مفاوضات ! !

وهو فى هذا التعليق يخطئ خطأ فاحشاً ، فان هذا
التطور لم يقض على الأسلوب السلمى كوسيلة لحل
المنازعات . . بل زاد فرصته المتاحة له .

فالاتفاق العلنى له من القوة الادبية أضعاف ما
للاتفاقات الشخصية أو السرية .

ورقابة الراى العام انما تؤدى الى وضع مصالح
الشعوب فى الدرجة الاولى من الاهتمام ، وتعالى من قيمة
المبادئ الاخلاقية والانسانية فى ساحة المنازعات وتضع
نهاية للفن الدبلوماسى بالمعنى القديم : فن الكذب
السياسى !!

السلام والعلم والحرية

من فينا لا يجلس أحيانا ، و « يسرح » بأفكاره .. يتأمل هذا الكون الغريب المضطرب ، ويضع الخطط لتنظيمه ؟ ..

هكذا يفعل « الدوس هكسلى » كثيرا وهو كاتب انجليزى الجنسية ، عالمى التفكير ، يفيش منذ أمد بعيد فى أمريكا ، وفى كاليفورنيا بالذات ، محققا فى أمواج المحيط الهادى ، متأملا مصائب البشر ، قلقا من أجلهم وهذا الكتاب هو احدى «سرحاته» لكى يضع للعالم نظاما يعفيه من الاستبداد ، والفقر ، والحرب ، وكل ما تآرق له الجفون وتهلع القلوب !

والدوس هكسلى كاتب متشائم ، فهو ثاقب العقل ولكنه ضعيف الروح ، يتأمل الكون فىرى سحب التشاؤم القائمة ، وينسى ان وراء هذه السحب سماء التفاؤل الزرقاء الصافية .. ومع ذلك فان تشاؤمه من النوع اللماح ، المفيد ، الذى يضع أيدينا على حقائق خطيرة ..

وقد دفع «هكسلى» الى تأليف هذا الكتاب الذى أقدمه له .. كلمة خطيرة قالها تولستوى منذ أكثر من نصف قرن هى : « اذا كان النظام الاجتماعى ظالما ، والقوة فى يد عدد قليل من الناس يستغلون الآخرين ويستبدون بهم .. فان كل تقدم علمى لن تكون له نتيجة

الا تعزيز هذا الاستغلال والاستبداد ! »

فالقسم الاول من هذا الكتاب ، يحاول فيه «هكسلى» أن يثبت صحة هذه الكلمة .. أن يثبت أن كل تقدم يحرزه العالم هو ضد الحرية والرخاء والسلام !

والحجج التى يسوقها «هكسلى» - وإن كنت سأخالفها بعد قليل - وحيهة جدا .. بل وأخاذا أيضا فقد زود العلم - فى الاجيال الثلاثة الماضية - الحكام السياسيين بأدوات هائلة للضغط لم تيسر لأى حاكم من قبل .. يكفى أن نذكر منها القنابل الذرية والدبابات وقاذفات القنابل وقاذفات اللهب .. لنعلم أن أية ثورة شعبية ضد الطغيان أو الاستعمار تكاد تكون شيئا مستحيلا ! ويضرب «هكسلى» مثلا بالثورات الشعبية التى اكتسحت أوروبا سنة ١٨٤٨ : لقد كان يكفى المواطنين أن يتحصنوا وراء العربات المقلوبة ويتسلحوا بالخيول والبنادق القديمة لكى يقاوموا ويثبتوا ، إذ لم تكن الجيوش تملك أكثر من ذلك سلاحا .. أما الآن ، فأى شعب يصمد بالخيول والبنادق أمام الدبابات والمدفعية الثقيلة والطائرات ؟ ! ..

وأضيف الى ذلك مثلا معاصرا : فان «ماو ماو» مثلا كانت تستطيع بغير شك أن تطرد الانجليز من كينيا لو كان العالم لايعرف غير البنادق سلاحا .. ولكن انجلترا تملك فوق البنادق الدبابات وقاذفات القنابل .. فماذا تفعل ماو ماو ؟ ..

ويستنتج «هكسلى» من ذلك ، أن تقدم العلم كان اذن ضد الحرية ! .. فالحرية السياسية والشخصية قديما كانت تستند الى حد بعيد الى ضعف وسائل السلطة الحاكمة .. فالكثرة ولو كانت عزلاء كانت تستطيع أن تهزم القلة ذات السلاح البسيط .. كما

فهر أهل باريس خرس لويس السادس عشر.. أما الآن وبعد أن كرس حضرات العلماء والمهندسين والرياضيين علمهم لاختراع الاسلحة ، فاذا حرمت الكثرة في أى مكان من وسائل التعبير الديمقراطية ، كالخطابة والكتابة والاجتماع ، أصبح مستحيلا عليها أن تملأ ارادتها ، أو تتخلص من الطفيان أيا كان !!

ثم يسأل هكسلى نفسه : أتياأس الشعوب اذن ؟ ..
انتصرف تماما عن محاولاتها المتصلة الدامية للتخلص من الاستبداد والاستعمار ؟ ..

كلا !! فقد توصل رجل عظيم الى اختراع هائل يستطيع أن يجابه هذه الاختراعات الحربية .. ذلك الرجل هو : غاندى .. وذلك الاختراع هو : المقاومة السلبية والعصيان المدني !!

نعم .. كانت المقاومة السلبية اختراعا عظيما ، مر بكل المراحل التى تمر بها الاختراعات العلمية الكبرى . بدأ غاندى بتجربة اختراعه في جنوب افريقيا ، حين كان يعصى القوانين بمفرده .. ثم يحرض المئات ثم الآلاف .. فلما اكتملت تجاربه ، ذهب الى الهند ليعلم مئات الملايين هذا الاختراع العجيب .. وليقوده بنجاح هائل ، وبعد زمن قصير ، لم يكن يتوقعه أحد ..

فالعصيان المدني - الساتياجراها كما يسميه الهنود - لم يكن شيئا ارتجاليا بل انه عمل علمى دقيق جدا ، كما أن غاندى الذى اخترعه لم يكن رجلا مثاليا فقط بل وسياسيا واقعيا أيضا. وقد ألقت فيه الكتب ونشرت الابحاث والتعليقات ، تماما كأي اكتشاف علمى هام .. وان ظلت اعظم ميزاته انه برهان عظيم على انتصار الروح على المادة .. فهو يحتاج الى صفات عظيمة من الصبر وضبط النفس وقوة الاحتمال ..

ونجاح هذا الاختراع في الهند أمر معروف للجميع :
ولكن الذى لا يعرفه الكثيرون أن الشعب فى ألمانيا قد
استعمله سنة ١٩٢٣ ضد الاحتلال الفرنسى لمنطقة
الروهر !.. وإذا كان لم ينجح حينئذ لعدم تعود الشعب
عليه ، فإن هكسلى يؤكد أن الشعب الألمانى لو قرر
اليوم أن يطرد الاحتلال الأجنبى فلن يجد طريقة أنجع
من العصيان المدنى !.. ويقول هكسلى : حينئذ سيبدو
غريباً أن يكون البلد الذى أخرج أشهر الشخصيات
العدوانية مثل كلازفتز ، وهتلر ، هو أول بلد أوروبى
يأخذ بالمقاومة السلبية !.. وأن هذا الشعب الذى يعبد
قوة المادة ، يجد خلاصه فى قوة الروح !!..

ثم يعود هكسلى الى قضيته الأولى ، فيسوق حجة
وجيهة أخرى على أن التقدم العلمى كان ضد حرية
الإنسان : لقد كان المفكرون القدامى يحسبون أن مجرد
انتشار التعليم بين الناس كفىل بالقضاء على الطغيان .
ولكن التقدم أثبت عكس ذلك تماماً ! فالسلطة السياسية
الآن - سواء كانت ممثلة فى حكومة مستبدة ، أو دولة
استعمارية أو طبقة صغيرة تملك الثروة القومية - هذه
السلطة السياسية أصبحت لا تملك وسائل القهر
وحدها ، بل ووسائل الإقناع أيضاً !!..

فقدماً ، لم تكن هناك صحافة ولا إذاعة .. أما الآن
فقد أصبح للصحافة والإذاعة تأثيرهما الهائل على عقول
الناس .. لما فيهما من جاذبية واستمرار يرغب الفرد
العادى على ادبانهما كما يذمن السجائر مثلاً !..
و«الصحف والإذاعة فى البلاد الحرة خاضعة للمعلنين وفى
البلاد غير الحرة خاضعة للحكومة» فهما فى الحالة الأولى
تعبيران عن مصالح أصحاب القوة الاقتصادية ، وهم
الأقلية دائماً ، وفى الحالة الثانية تعبران عن رأى الحاكم ،

و«من يدفع أجر العازف يختار اللحن الذى يعزف!» . .
ويضرب مثلا طريفا « . . كان صوت مارك انطونى فى
روما القديمة لايتجاوز آلاف المحتشدين فى الميدان، أما
الآن فصوت أى داعية يصل مذاعا ومطبوعا الى شتى
أنحاء الأرض ! » .

فالفرد مهما فعل لايمكن أن يتخلص من الدعاية التى
ترددتها اعلانات أصحاب الشركات دائما فى الصحف
والاذاعة والتى تخدم مصالحهم فى البلاد الحرة ، ولايمكن
أن يتخلص من تأثير الافكار التى ينشرها الدكاتور فى
الصحف والاذاعة فى البلاد غير الحرة . . ولو كانت ضد
معتقدات هذا المواطن . . . ذلك ان الامتناع عن قراءة
الصحف أو الاستماع الى الاذاعة أمر صعب جدا يعرف
صعوبته كل من حاول الامتناع عن التدخين مثلا . .

وقد أجرى فى أمريكا استفتاء بين قراء الصحف ثبت
منه ان الاغلبية الساحقة تعتقد ان جريدة معينة هى
أكذب الجرائد ، وانها على ذلك أوسع الجرائد انتشارا
.. فقد أصبح فى « جاذبية » الصحيفة أحيانا ما يفنى
عن مبدئها !!

وهكذا أدى تقدم العلم ، الى فقدان الفرد لاستقلاله
العقلى . . !

وكما فقد الفرد حريته السياسية نتيجة للتقدم
العلمى فى صنع الاسلحة وفقد استقلاله العقلى نتيجة
للتقدم العلمى فى وسائل الدعاية . . كذلك أدى التقدم
العلمى الى تركز الصناعة ، مما أدى الى فقدان الفرد
حريته الاخيرة : حريته الاقتصادية . . !

لقد أدى التقدم العلمى الى ظهور الآلات الكبيرة
والصناعات الثقيلة ، ولم يكن ممكنا أن يظل الانتاج فى
الدكاكين الصغيرة بعد هذا التطور ، بل أصبح انتاجا

مركزاً تمتلكه أيد قليلة .. وقضى هذا الانتاج المركز على طبقة الصناع اليدويين والتجار الصغار .. حتى في أبسط الاشياء .. ففي أمريكا مثلاً لا تجد دكاكين البقالة التى نعرفها في مصر مملوكة لصغار التجار .. بل هى فروع تابعة لشركات ضخمة ، والذين يعملون فيها مجرد اجراء ..

فالأغلبية الساحقة من البشر الآن يعملون في مصانع يمتلكها غيرهم . فهم غير مستقلين ، بل هم يعتمدون في رزقهم على أصحاب المصانع ، مهددون بالاستغناء عنهم في أى وقت .. فالحرية الاقتصادية بالنسبة لهم الآن مجرد ذكرى قديمة ، أو شيء لا يعرفونه قط !

كذلك فان هذا التركيز الانتاجي ، والنظام الرأسمالى الذى جعل القوة الاقتصادية في أيدى قلة من الافراد .. أدى الى تفاقم ذلك الداء القديم .. الحرب ! ..

ويفسر « هكسلى » ذلك بقوله : « ان الرأسماليين القابضين على ناصية الانتاج يقصدون بانتاجهم الربح وليس اشباع حاجات المستهلكين . والربح يدفعهم الى البحث عن مزيد من الاسواق خارج بلادهم ، والتنافس على أسواق التوزيع بين الدول يجر الى الحرب ..

ومن أجل الحصول على هذه الارباح ، نشر النظام الرأسمالى نوعاً من الثقافة والدعاية صورت للناس ان الوطنية تقتضى الاعتداء على اوطان الآخرين ! .. حتى تجد حجة تسوغ بها للناس دفعهم الى اتون الحرب .

وهذه هى الوطنية العدوانية التى بثها هتلر في المانيا .. والتى تؤمن بها كل دول الاستعمار الاخرى ، وتصور الأبنائها ان الوطنية هى استغلال سائر الاوطان .. وهذا النوع من الوطنية العدوانية يسوق بدوره الى الحرب .. واغراء السلاح لأصحاب هذه الوطنية كاغراء الخمر

والنساء للمراهقين قوى ، مدمر !..

ويبدى هكسلى أسفه البالغ ، لأن العلماء أيضا تأثروا بهذه العقلية واعتنقوا هذا النوع من « الوطنية » فأصبحوا يتسابقون فى اختراع الاسلحة القادرة على تدمير الجيران وسائر الشعوب .. خصوصا وان هذا النوع من الوطنية يدر عليهم أرباحا هائلة .. فالاسلحة هى السلعة الوحيدة التى لا تكسب أبدا ، مهما ارتفعت أسعارها !..

ولما كان مستحيلا على الاقليات صاحبة القوة الاقتصادية أو القوة السياسية ، أن تبقى العالم فى حالة حرب دائمة من أجل رواج سوقها ودوام سطوتها ، فقد خلقت فى فترات السلم حالة أخرى هى : الاستعداد للحرب !..

وحالة « الاستعداد للحرب » أو « خطر الحرب » لها فوائد كثيرة من وجهة نظر أصحاب القوة الاقتصادية أو السياسية ، مجلية أو استعمارية .. « فحين يسوء الموقف فى الداخل ، ويصبح السخط العام شيئا لا يمكن تجاهله أو اهماله ، فانه من الممكن دائما - فى عالم يعتبر الاستعداد للحرب واجبا مقدسا - أن تحول أنظار الناس عن مشاكلهم الداخلية الى مسألة عسكرية خارجية .. فتطلق الحكومة حملة من دعايتها الاستعمارية عن طريق أجهزة الاقناع التى تملكها ، تطالب بانتهاج « سياسة حازمة » ضد عدو خارجى ما.. وندعو الى « ضم الصفوف » - أى الطاعة المطلقة للأقلية المسيطرة - وهنا يصبح خائنا كل صوت يرتفع بأى شكوى أو نقد ، من فساد أو اضطهاد ، مهما كانت الشكوى عادلة !! » .

وأقرب مثل لذلك ماحدث فى العالم سنة ١٩٣٠ ، لقد أصابت العالم فى تلك السنة أزمة اقتصادية توقفت

لها المصانع ، وهبطة الانتاج ، وتعطل الملايين من العمال (وتلك كما يقول هكسلى الحلقة التى تلاحق عالما يتقدم دون أن يخرج من سيطرة القليلين) . . واتخذت انجلترا وأمريكا وغيرهما من الدول اجراءات مختلفة قللت عدد العمال المتعطلين ، وخففت من حدة الأزمة دون أن تقضى عليها نهائيا . . وفجأة ظهر هتلر ليشفى العالم من وباء هذه الأزمة ! . . لقد اتجه الى التسليح ، وأعلن عن نواياه العدوانية . . وشعر العالم بالخطر على نفسه فاقتدى به فى التسليح . . وبقدرة قادر اختفت البطالة نهائيا ، وعادت المصانع تعمل أكثر من ذى قبل ! . . واستمر العالم يتعاطى دواء هتلر العجيب حتى وصل الى النتيجة الحتمية له وهى الحرب ، ودفع العالم ثمنا رهيبا لشفائه الوقتى ، وخرجت الدول من الحرب أسوأ حالا مما كانت ، قبل أن تتعاطى هذا الدواء !! » .

فخطر الحرب حل أزمة الانتاج فى ظل النظام الرأسمالى قبل الحرب العالمية الثانية ! . . وأضيف الى ما قاله هكسلى ان القلة التى تتحكم فى الانتاج فطنت الى هذه الحقيقة ، فلم يكدر يمضى على انتهاء هذه الحرب زمن قليل حتى خلقت - وبسرعة - حالة جديدة من خطر الحرب . . لتواجه الأزمة قبل أن تقع . . بل لقد احتفظوا بعدة حروب صغيرة متفرقة . . فى كوريا والهند الصينية وغيرهما ، يستعينون بها على احتمال مصائب السلام التى تنزل بآنتاجهم ، وبأرباحهم ! . .

وعلى ضوء هذه الحقائق نستطيع نحن المصريين - بل نحن الشرقيين - أن ندرك لماذا يهددنا الغرب دائما بخطر الحرب . . انه فى ظل خطر الحرب تجد انجلترا حجة لبقائها فى مصر ، وتجد أمريكا حجة لشرائها القواعد فى المغرب ، وتجد الدولتان التبرير لكل ما ترتكبانه فى

البلاد المستضعفة من استغلال واستبداد ... !
الى هنا .. تنتهى الأدلة التى ساقها هكسلى ليثبت
بها ان التقدم العلمى ضد حرية الانسان ، واستقلاله
الفكرى والاقتصادى ، وأمنه الاجتماعى .. هو ضد
حرية .. لأنه زود الحكومة فى البلاد الدكتاتورية -
كما زود الأقلية صاحبة القوة الاقتصادية فى البلاد
الديمقراطية - بالسلاح الذى يخدم أى ثورة شعبية ،
وأجهزة الدعاية التى تملأ أية دعوة مرسومة ، والانتاج
المركز الذى يجعل الأغلبية أجيرة ..

على ان هكسلى قد أشار - وبدقة - الى بعض جوانب
الموقف وجهل جوانب هامة أخرى ! فجاءت الصورة
التى رسمها لعالم اليوم ناقصة الى حد كبير ..

فالحقيقة الساطعة التى يؤكدتها التاريخ ان هذه
الظروف كلها لم تقض على الحرية ، ولم توقف تقدمها .
ان الحكومات الديمقراطية الآن - برغم كل هذا التقدم
العلمى - أكثر منها فى أى وقت مضى ..
وان الشعوب الحرة والثورات الناجحة الآن - برغم
اختراع القنبلة الذرية - تزداد يوما بعد يوم ، بشكل
لا محل لانكاره ..

والأمثلة لا تعد ولا تحصى ، فان مركز انجلترا الآن
فى كينيا مثلا رغم ما بيدها من سلاح حديث أضعف مائة
مرة من مركزها هناك منذ خمسين سنة ، وقبضتها على
مصر الآن وهى تملك الطائرات والدبابات أضعف من
قبضتها عليها منذ خمسين سنة وهى لا تملك الا الخيالة
ومدافع البارود ... !

وليس هذا كلاما حماسيا ولكنه حقيقة راسخة ،
وكل ذى عينين يستطيع أن يلاحظ أن القيود تتكسر
الآن فى كل يوم وفى كل مكان ، كلما انتشر الوعى

والتهب .. والوعي هنا هو الثقافة التي تكسب الشعوب
الاحساس بالكرامة ، وهو التجربة التي تعلمها مكاييد
الاستعمار القديمة ، وهو العدوى التي تنقل جراثيم
الحرية من قطر الى قطر ، ومن رأس الى رأس .. كما
تنقل الريح بذور اللقاح ..

على ان تشاؤم هكسلى لم يصل به الى حد اليأس ..
او لم يقعد به عن التماس الحل .. وقد جرى منطقه
على هذا النحو :

ان الداء الأكبر هو في تركيز الانتاج في أيدي قلة من
الناس ، مما أدى الى العواقب التي أسلفناها .. فالعلاج
بناء على ذلك هو الاتجاه نحو الاشتراكية الاقتصادية ..
أي بجعل وسائل الانتاج ملكا للجميع ..

ولكنه يرى في اجتماع السلطة السياسية والسلطة
الاقتصادية في يد واحدة هي يد الحكومة المركزية ،
خطرا كبيرا ، يفرض الحكومات بالطغيان مؤكدا ان التاريخ
لا يعرف سلطة مطلقة واحدة لم تفسد صاحبها ، فلا
مفر بناء على ذلك من العودة الى الديمقراطية بمعناها
القديم ، بمعنى حكم الشعب نفسه بنفسه ، بمعنى
اللامركزية السياسية ..

ولكنه يشترط لتحقيق اللامركزية السياسية شرطا
رئيسيا : هو زوال خطر الحرب ، بل والعدول عنها
كوسيلة لفض المنازعات .. ذلك ان الحرب تحتاج دائما
الى تركيز السلطة في جهاز واحد ، والنصر فيها لا بد
له من السلطة المطلقة في العمل والانتاج والتوجيه ..
فبقاء خطر الحرب معناه بقاء الحكومات المركزية . أما
إذا زال الخطر ، فلن يجد الناس بأسا من الأخذ بنظام
اللامركزية السياسية ..

أما طريقة القضاء على الحرب .. فانه يلقي أكبر

العبء فيها على عاتق العلماء .. فيدعوهم الى الامتناع
عن أى عمل أو ابتكار أو إنتاج فيه اعتداء على حياة
البشر بأية صورة من الصور . ويقول : ان الديانة
البوذية تقرر انه لا يعد بوذيا من يكسب رزقه من صنع
السموم أو السلاح !.. وما أحرانا أن نأخذ بهذا المبدأ
البوذي .. فلا نعتبره انسانا شريفا ، العالم الذى يساهم
فى صنع سلاح فتاك يقوى الطغيان ، ويتعدى على حق
الحياة ، ويسلب الآخرين حرياتهم .

وعلى العلماء بدلا من ذلك أن يتجهوا الى انتاج
الطعام : « .. فان مشكلة العالم الاولى هى الطعام ،
وهو ليس مشكلة بالنسبة للأقليات التى تحكم العالم فى
كل مكان .. فهذه الأقليات تحصل على الطعام بغير جهد
فلا تحس بأنه مشكلة قط . لذلك نراها تبحث عن شيء
آخر كالقوة أو النفوذ أو السيطرة .. على عكس الملايين
الذين تنحصر مشكلتهم الكبرى دائما .. فى الوجبة
القادمة ! » ..

ثم هو لا ينسى أثر التجارة فى اشعال الحروب ،
ويضرب مثلا بالشرق الاوسط : كل دولة من الدول
الكبيرة تطمع فى بترول وخيراته ، وتتطاحن من أجلها
فهى تحتل الشرق الاوسط ، وربما اشتبكت فى الحرب
من أجله . ويقترح بدلا من ذلك أن تكون كل البلاد حرة ،
قوية ، مالكة لثروات أرضها . فيبيع الشرق الاوسط
— بعد تحريره — هذا البترول لجميع المشترين ، من
الشرق والغرب على السواء .. فى تجارة حرة متبادلة ،
على قدم المساواة ! ..

وأظننى أستطيع أن أقول لهكسلى بالنسبة لهذه
الفقرة بالذات ، ونياحة عن جميع سكان الشرق الاوسط :
موافقون ! !

رباعية الاسكندرية

العالم يتحدث عن هذه الرواية التي أصبحت مشهورة باسم « رباعية الاسكندرية » .. لأنها تتكون من أربعة أجزاء كبيرة .. ولأن حوادثها كلها تدور في مدينة الاسكندرية .. وهي رواية تقدم صورة غريبة عن بلادنا !

والاجزاء الاربعة لهذه الرواية يقع كل منها في حوالي ٣٠٠ صفحة .. أى ان عدد صفحات الرواية يصل الى حوالي ١٢٠٠ صفحة ! وكل جزء من الاجزاء الاربعة يحمل اسما مستقلا هو اسم أحد أبطال الرواية .. وأسماء هذه الاجزاء بالترتيب هي : « جوستين » و « بلتازار » و « مونتوليف » و « كليا » .. أسماء غريبة على الأذن !

وسيقول القارئ : انها ليست أسماء شائعة في مدينة الاسكندرية ! ولهذا تفسير سوف يرد بعد قليل .. فقبل ذلك لابد ان اقول كلمة سريعة عن المؤلف نفسه

ان الصحف والمجلات الأدبية في العالم تقول عنه الآن انه أعظم كاتب قصة ظهر في السنوات الأخيرة ، وتقول عن هذه الرواية الضخمة انها عمل شامخ خطير .

ومع ذلك فالمؤلف كان قبل ظهور هذا العمل مجهول الاسم تماما ..

انه انجليزى يعيش فى ريف فرنسا منذ سنوات
واسمه « لورنس دوريل » ، وهو عندما أخرج هذه
الرواية لم يكن شابا . أما شبابه فقد قضاه فى السلك
السياسى البريطانى وفى المخابرات البريطانية .. وبحكم
وظيفته فى السلك السياسى جاء الى مصر قبل الحرب
الماضية وفى خلالها. اشتغل فترة فى السفارة البريطانية
هنا ، بين القاهرة والاسكندرية ، ولذلك فان من بين
أبطال هذه الرواية الحسية ، الجنسية : السفير
البريطانى فى القاهرة ، وعدد كبير من موظفى السفارة !
وكثير من حوادثها يجرى فى مبنى السفارة البريطانية
فى جاردن سيتى ، ومبناها الصيفى على كورنيش
الاسكندرية !



ولكن المؤلف لم يلبث أن اعتزل السلك السياسى
والمخابرات الانجليزية بعد الحرب ببضع سنوات ...
وعكف على تأليف الكتب ، وأصدر بالفعل عدة كتب لم
تنجح فى أن تصنع له أى اسم مذكور .. حتى أخرج
هذه الرواية الطويلة الغريبة ، وإذا به يجد نفسه فجأة
فوق قمة تلاحقه بالصور والاحاديث ، وسيكوراس ملك
السينما يشترى منه القصة ليحولها الى فيلم على
الشاشة ! ..

ولا أذكر اننى وجدت صعوبة فى تقديم أحد الكتب أو
الروايات كالصعوبة التى أجدها فى تقديم هذه الرواية .
وليس السبب فقط هو طولها البالغ ١٢٠٠ صفحة !
وبالتالى كثرة الحوادث وتشابكها الشديد .. ولكن
الأسباب التى تجعل تقديمها صعبا تكمن فى موضوع
القصة نفسها .. وفى أسلوب كتابتها .

أسلوب الكاتب - أولا - محير جدا ! فأحيانا تصادفك

صفحات ركيكة ضعيفة .. عشرات من الصفحات المملة
الجرداء تتوالى كالصحراء التى ليس فيها الا كثبان من
الرمل تجعل خطواتك ثقيلة مرهقة ، و صفحات أخرى
جذابة باهرة .. فيها كل مقومات الكاتب الماهر فى
صنعتة .. من حبكة واثارة وتشويق وتأمل عميق ..
الى صور خلابة يرسمها للاسكندرية حتى لتشعر انك
تتنفس فى المدينة حقاً .. وان الكاتب قد أدخلك فعلاً
فى الجو والرائحة واللون والحالة النفسية التى يعيش
فيها أبطال القصة .

وطريقة الكاتب فى السرد صعبة جداً .. فهو لا يروى
لك خيطاً واحداً من الاحداث .. أو لا يروى لك الاحداث
فى سلسلة متتابعة الحلقات .. ولكنه فى كل جزء يروى
القصة كلها تقريباً ، من جانب معين .. وفى الجزء التالى
يروى لك نفس الاحداث ولكن من جانب آخر .. وفى
كل مرة تتكشف لك حقائق جديدة .. ويبدو لك نفس
الأفراد فى ضوء جديد يختلف عن الضوء الذى رأيتهم
فيه أول مرة .. ولا أذكر الآن أين قرأت لأحد النقاد
قوله : انها كالورقة المطبقة حين تفتحها . انك ترى
دائماً نفس الورقة ، ولكنها كلما انفتحت أمامك ، رأيت
مساحات جديدة منها !



فالمؤلف لا يقف فى أول أحداث القصة ثم يسير بها
الى نهايتها .. كلا .. ولكنه واقف فى وسطها ، أحياناً
يسير الى الامام ، وأحياناً يعود الى الوراء ليروى ما حدث
من سنوات .. وأحياناً يخطو الى اليمين .. أو يخطو
الى اليسار ، ليتطلع الى زوايا وجوانب أخرى لا يراها
من مكانه الأول ..

شخصية « بيرسواردن » مثلاً ، موظف السفارة

البريطانية بالقاهرة ، الفنان ، الحساس .. وأخته العمياء التي يرأسها في لندن .. ثم اختلافه مع قسم المخابرات السرية في السفارة ، قسم المخابرات يقول ان الشاب المصري « نسيم » مشترك مع عصابة يهودية تعمل على تهريب الاسلحة من أوروبا الى فلسطين (وكان هذا قبل الحرب العالمية أيام كانت عصابات اليهود تقوم بحركة سرية ضد البريطانيين) ومعنى هذا انه أيضا يخون قضية العرب في فلسطين .. أما بيرسواردن ، فهو يعارض هذا الرأي .. انه يعرف نسيم وهو صديقه الحميم ومستحيل أن يصنع هذا ، ولكنه بعد أن ينتصر على المخابرات البريطانية يكتشف بالصدفة ان هذه الواقعة صحيحة ، وينتحر بيرسواردن ، وينزعج السفير البريطاني الذي كان معجبا به ، وتأتي أخته العمياء الباهرة الجمال الى القاهرة والاسكندرية لتصفى أوراقه ولكننا في جزء آخر نرى واقعة انتحاره خلال ضوء جديد .. لقد كانت بين بيرسواردن وأخته العمياء علاقة شاذة ، وقد أنجب منها طفلة ميتة . وبرغم نقله الى مصر فقد ظل بينهما حب غريب عميق لا علاج له . وفجأة ظهر في حياة هذه الأخت « ليزا » رجل آخر .. وكانت هذه هي النهاية بالنسبة لبيرسواردن .. فانتحر وفي مكان ثالث .. نعرف ان هذا الرجل الآخر الذي ظهر في حياة « ليزا » في لندن هو « مونتوليف » السفير البريطاني في مصر ، وذلك حين تعرف عليها في لندن قبل نقله الى القاهرة وقد عرف بيرسواردن ذلك بعد قدوم « مونتوليف » بمدة .. فانتحر .. أما حضور « ليزا » بعد موت أخيها الى القاهرة فلم يكن لتصفية أوراق أخيها كما فهمنا من قبل .. ولكن لكي تعيش مع عشيقها السفير ! ..

نموذج آخر

في الاجزاء الاولى نرى شخصية « نسيم الشاب »
المصرى الواسع الثراء ، وزوجته «جوستين» اليهودية
الفامضة الحسناء ، ذات المفامرات التى تتهامس بها
المدينة ، والشهوات التى تلهث حولها ، ونستمع الى
قصة « دارلى » ، وهو الراوى الذى يروى جزءا كبيرا
من الرواية ، ودوره فى الرواية دور رجل انجليزى يقوم
بتدريس اللغة الانجليزية فى إحدى مدارس الاسكندرية
وهو الذى يبدو أن المؤلف يتقمصه كثيرا فى الرواية ،
خصوصا اذا لاحظنا ان اسم البطل «دارلى» ، واسم
المؤلف « دوريل » . . أقول نستمع الى قصة غرام
دارلى هذا بجوستين زوجة نسيم ، وهواه العميق
لها ، وهجره صاحبه الراقصة اليونانية « ميليسا »
من أجلها .

ولكننا حين نصل الى الجزء الثالث نكتشف عن
نسيم وعن زوجته جوستين أشياء غريبة . فنسيم ،
كما ذكرت من قبل ، كان مشتركا فى عمليات تهريب
سرية لصالح العصابات الصهيونية فى فلسطين ، وقد
حار كيف يظفر بقلب اليهودية الفامضة جوستين . .
فلم يجد بدا آخر الأمر من أن يعترف لها بحياته السرية
ونشاطه الخطير ، وتعجب به جوستين وتزوجته ،
زواجا فيه من وحدة الهدف أكثر مما فيه من الفرام .
وقد كان فى المدينة يهودى آخر عجوز اسمه كوهين ،
كان مشتركا مع نسيم فى عمليات التهريب ، ثم مات .
وكان كوهين هذا عشيقا لميليسا ، الراقصة التى هى
عشيقة دارلى الآن . وقد خاف نسيم ان يعرف دارلى
شيئا عنه من ميليسا فاتفق مع زوجته جوستين أن
تقنع دارلى بأنها تحبه ولو أعطته كل شيء . . لكى

تعرف منه هل عرف شيئا من « ميليسا » أم لا . . .
ان الهوى كان حقيقيا من ناحية دارلى ومصطنعا من
ناحية جوستين .

ولكن ميليسا كانت قد فقدت حبها لدارلى من زمن
وأصبحت صديقة بيرسواردن ، وتحدث زلة اللسان
المنتظرة أمام بيرسواردن لا أمام دارلى ، فيعرف
بيرسواردن أن نسيم جاسوس ومهرب .

وعندما ينتحر بيرسواردن - سواء بسبب حادث
الجاسوسية أو بسبب حادث أخته - ويكتب الى السفير
مونتوليف خطابا يحيطه فيه بأن اتهام نسيم - صديقه
وصديق السفير - بالتجسس صحيح ، يقع السفير
مونتوليف فى مأزق حرج ، لأن السفير أيضا له قصة
قديمة غريبة .

لقد جاء «مونتوليف» الى مصر مرة كشاب مبتدىء
فى السلك السياسى البريطانى ، قبل أن يجيئها كسفير .
وفى المرة الاولى كان موظفا تحت التمرين وكان قد تعلم
اللغة العربية جيدا . فأرسلته السفارة الى بيت أسرة
مصرية ليتقن اللغة العامية ، وكانت الأسرة قبطية
وهى أسرة نسيم : أب مقعد مريض ، وأم شابة جميلة
اسمها لىلى . . متعلمة سافرت الى أوروبا كثيرا وتثقت
ثقافة واسعة ولكنهم زوجها لهذا الرجل الذى اختارته
الأسرة طبقا للطريقة القديمة ، وولداها وهما : نسيم
ونيروز .

وفى تلك الايام وقعت الأم الشابة لىلى فى غرام الشاب
الانجليزى مونتوليف . . جذبها اليه شبابه ، وجذبها
اليه أكثر « العالم الذى ينتمى اليه » . أنها منذ عادت
من أوروبا حبيسة هذا البيت الريفى فى « أبو جرج »
حيث توجد عزبة زوجها ، نافذتها الوحيدة على العالم

الذى تحبه هو الصحف والمجلات الاوربية التى تشترك فيها بكثرة ، والاوراق التى تكتب فيها خواطرها من حين لآخر ، والزوج المقعد العاجز يحس بهذا وان كان لا يظهر علمه الا على شكل انفجارات سياسية أمام مونتوليف يقول فيها ان الانجليز يسيئون الى الاقباط فى مصر ، فقد كان الاقباط دائما يعيشون فى سلام ويتولون أبرز المناصب ولكن الانجليز هم الذين يحاولون اظهار الفرة على الاقباط لا لشيء الا لمجرد التفريق بين الطوائف .

وينقل مونتوليف من مصر فلا يعود اليها الا سفيرا . ولكنه طوال هذه السنين كان يربطه بالأسرة شيان : الاول ، هو صداقة نمت بينه وبين نسيم ، الذى كان يلقاه خلال رحلاته الى أوربا . والثانى ، هو الخطابات التى كان يتبادلها مع ليلى بلا انقطاع طوال هذه السنوات فقد أصبح هو روحها المتجولة خارج حدود «أبى جرج» يرى لها المتاحف ويشاهد لها المسرحيات ويكتب لها عن كل شيء . . ويرسل لها الكتب التى تحب أن تطلع عليها وها هو يعود الى مصر سفيرا وقد توثقت صداقته بنسيم . . ليجد انه يقوم بعملية تهريب أسلحة ضد سياسة بريطانيا فى ذلك الوقت !

ويواجه مونتوليف الأمر الواقع ويبلغ الأمر الى وزارة الداخلية المصرية ، وعندما تقوم الحرب تصدر الحكومة أموال نسيم ، وتحدد إقامة زوجته جوستين فى «أبو جرج» بعد أن مات أبوه وأرغم أمه على أن تهاجر الى الخارج خشية أن يصيبها شيء بعد أن انكشف تأمره . .

هذه الاحداث - وغيرها - ليست هى القصة ، والقصة على أى حال فيها أكثر من ألف صفحة من مثل هذه الاحداث ، ومع ذلك فالشخصيات الهامة فى القصة

تعتبر قليلة نسبيا ، اذا قيسيت بطول الرواية وكثرة
زواياها. فالمؤلف قد اختار طريقة خاصة هي : انتخاب
عدد قليل من الشخصيات ، ثم « تقليب » هذه
الشخصيات على مختلف الجوانب ، ووضعها في شتى
المواقف والامضاع ، وكل وضع أو موقف يعطيها جانبا
آخر أو ينزع عنها فكرة سابقة .. وكان المؤلف يمسك
بكل شخصية ويتناول لك : هذه الشخصية يمكن أن
تكون هكذا .. ويمكن أن تكون هكذا .. يمكن أن تكون
عادية .. ويمكن أن تكون شاذة .. يمكن أن تكون طيبة
ويمكن أن تكون خسيصة .. وهكذا ! فهي لعبة من قطع
قليلة يمكن أن تبتكر منها آلاف الاشكال كلما غرت في
طريقة ترتيبها وتكوينها !

ولكن ...

أين « الاسكندرية » في هذه القصة ؟ وأين « مصر »
التي تقع فيها هذه الاسكندرية ؟

هذا السؤال قد لا يخطر على بال قارئ يقرأ القصة
في أى مكان من العالم .. أما اذا كان من « مصر » فالسؤال
يبدو ملحا وقويا ، وأساسيا .

ولقد اختار المؤلف شخصياته كلها من جو الأقليات
المهاجرة الى الاسكندرية . اليهود واليونان والانجليز
والارمن والايطاليين والفرنسيين وغيرهم . ومع ذلك ،
فهو لم يختار ذلك الفريق من المهاجرين الذين يندمجون
في البلد الذي يعيشون فيه ، أو الذين يهرقون ويتعبون
سواء ظلوا بعد ذلك فقراء أو أصبحوا أغنياء .. ولكنه
اختار فئة مغلقة على نفسها تماما ، تعيش في الاسكندرية
« كمكان » دون أن تتفاعل معها كشعب أو كمدينة . وهذا
صحيح في بعض الحالات وليس في كلها ، فلا شك ان
بعض الاجانب المهاجرين تكون مأساتهم في انهم يظلون

إجانب مهاجرين الى الأبد ؛ منعزلين دائما عن العالم
الذى جاءوا اليه ، يدورون حول أنفسهم .
وقد ملأ المؤلف هذه البيئة التى اختارها بأنواع من
الشذوذ لا أول لها ولا آخر ، ولا أدرى بأية نفسية
جعل المؤلف هذه الحالة من الشذوذ الجنسى تفر
الجميع . . ولكننى أجد أنها تعبير عن السوس الذى
ينخر فى كيان هذه الفئة ، وعن الانهيار الداخلى فيها .
وعجزها التام عن أن تخرج من حلقة ضيقة صنعتها
لنفسها ، حتى لتشعر أحيانا أنهم ليسوا غرباء فقط عن
المدينة التى يعيشون فيها ، بل وغرباء حتى عن مدنهم
الأصلية التى قذفتهم الى الاسكندرية . فهم بدون
جذور ، فى أى مكان من الأرض و « المصريين » الذين
يحتكون بأبطال القصة لا يظهرون الا فى صورة خادم أو
سائق أو بواب . تماما كما يذهب السائح الى بلد فينزل
فى فندق لا يبرحه ، فلا يرى من أهل البلد الا خدم
الفندق وموظفيه !

الشخصيتان المصريتان الوحيدتان اللتان لهما بعض
الدلالة هما : ليلى ونسيم . .
أما ليلى ، فقد رسم بها صورة للمصرية التى تعلمت
فى وقت لم ينتشر فيه التعليم ، وشقاء من تعيش بثقافتها
المصرية فى جو غير مثقف .

على أن « نسيم » هو الشخصية المصرية الهامة فى
الرواية ، وعندما نتأمل الأسباب التى نسجها المؤلف
لكى تتوذى الى انحراف نسيم ودخوله فى حركة سرية
لحساب العصابات الصهيونية . . نجد أنه كان موقفا
فى بعضها ، وكان غير موفق فى بعضها الآخر . .

فقد اختار المؤلف أن يكون نسيم من الاقباط ، فى
محاولة لادراج الاقباط بين سائر الفئات الأخرى المهاجرة

.. وهذه فكرة خبيثة وغير صحيحة ، فالوطنيون الذين سقطوا برصاص الاستعمار كانوا من جميع الطوائف ، والذين قبض عليهم في قضايا خيانة أو جاسوسية كانوا أيضا من جميع الطوائف . وانه لمن الطريف ان نلاحظ جملة سجلها المؤلف على انها من الخطط التقليدية للسياسة البريطانية في أى بلد وهى «التركيز على الاقليات التى تكون مستعدة لأن تناضل» . فمحاولة استثارة الاقليات أسلوب سياسى بريطانى فى كل بلد . ومع ان المؤلف يسجلها متhekma ، فهو كموظف سابق فى السنك السياسى البريطانى لم يستطع الا أن يتأثر بهذا الاسلوب على اننا يجب أن نسجل ان محاولته هذه ليست كاملة . فان نيروز شقيق نسيم فى القصة كان خطرا على نسيم . وقد اغتيل نيروز فى ظروف توحى بأن شقيقه نسيم وزوجته جوستين هما اللذان حرضا على قتله خشية أن يفتضح أمرهما . وهذا يجعل الخيانة محصورة فى نسيم كفرد .

فاذا نظرنا الى نسيم كفرد ، نجد أن المؤلف كان ناجحا فى وضع الملامح التى تجعله فى النهاية قابلا للخيانة . البيئة النازحة التى عاش فيها ، هجرته من عالم بلاده الى عالم « المهاجرين » الى بلاده ، ضعف شخصيته وخستها فى الاصل وهو ما نلاحظه فى كونه كان يعلم من البداية بعلاقة أمه بمونتوليف ، وتسهيله لهذه العلاقة بعكس أخيه نيروز الذى كان يقف الى جانب أبيه المخذوع .. هذه البذور الضعيفة فى تكوينه هى التى جعلته كما قال المؤلف منتميا الى هؤلاء الغزباء ، فأصبح معاديا لبيئته من باطنه . وهذا هو السبب الحقيقى لخيانته ، وليس السبب هو التبريرات النظرية السخيفة التى قالها لجوستين وهو يعترف لها بدورها فى المؤامرة .

وخارج هذه الشخصيات الرئيسية التي تتخبط داخل هذه الدائرة المغلقة ، كانت الاسكندرية تبدو أحيانا - على دقة الوصف التفصيلي - وكأنها ليست الاسكندرية بالذات .. انما هي مكان «مجرد» يمكن أن يكون أى ميناء آخر فى العالم .. يمكن أن يكون هونج كونج أو نابولى أو طنجه : وفى كثير من الاحيان كنت أشعر أن المؤلف يتحدث عن اسكندرية عصر كليوباترا . اسكندرية البطالسة .. أو الاسكندرية التى نجدها فى رواية « تاييس » لاناتول فرانس مثلا .

ومن أجل ذلك كان المؤلف يحاول أن يفصل الاسكندرية عن مصر .. انها اسكندرية يونانية رومانية تنتمى للبحر الابيض لا للقطر المصرى فحين انكشف نسيم يقول المؤلف مثلا : « حين ضيق المصريون عليه الخناق خف اهل الاسكندرية لنجدته .. فاشترى أصحابه ممتلكاته لكيلا تصادر ، على أن يعيدوها له فيما بعد » . فالمصريون عنده شىء ، وأهل الاسكندرية شىء آخر ، وأهل الاسكندرية الذين يقصدهم طبعاً هم تلك الدائرة الاجنبية التى « هاجر » اليها نسيم .

أما مصر ، وعالم « المصريين » ، فكان يبدو كأنه عالم سحيق متخلف ، ومختلف تماما ! أية خطوة يخطوها أحد أبطال القصة الى بيئة محلية أو شخصيات محلية ، كانت تبدو كأنها رحلة الى عالم غامض غريب . وقد كان المؤلف يرسم هذا العالم دائما رسما بشعا كريها .

صحيح انه اختار فترة ضعف وانهايار فى تاريخ مصر .. وهى فترة قبل الحرب العالمية الثانية وخلالها حين ملأت جنود الحلفاء البلاد .. ولكن صورته البشعة كانت أبعد من ذلك أيضا .

إذا ذهب الى الريف : فهناك يروى اشياء غريبة ..

كمشهد الاعراب يأكلون جملاً .. اذ يقول انهم يجعلون
الجمال «يبرك» وهو حي ، ثم يهجمون عليه بالسواطير
والسكاكين ، كل واحد يقطع جزءاً منه ، والجمال رافع
رقبته الطويلة والدم يتدفق من فتحات جسده كالنوافير ،
وكل ألم الدنيا في عينيه !

أو يصف كيف ان نيروز نادى مرتين على خادم من
أبناء الفلاحين في عربته فلم يحضر .. فأمسكه وقطع له
أذنه بسكين عقاباً له .. وأمسك الطفل بالأذن المقطوعة
في يده وجرى الى أبيه باكياً والدم يسيل منه !

أشياء وحشية لا ظل لها من حقيقة .. كأنها تحدث
في أعماق الغابات !

واذا ذهب الى الاحياء البلدية في الاسكندرية .. فهو
يصف بيوت دعارة للطفلات الصغيرات .. ويرسم لها
صورة بشعة تثير الفثيان .. ويكرر الرحلة الى هذه
البيوت كثيراً ، كأنها من الملامح الاساسية .. فالسفير
ذهب .. وجوستين ذهب .. ودارلى ذهب !

واذا ذهب الى « الجهاز الحكومي » المحلي .. فهو
يصف لنا صورة الدولة المتعفنة التي كانت موجودة في
مصر قبيل الحرب . الوزراء الذين يرتعدون من الملك
أو من السفير البريطاني .. والوزراء المرتشسون ..
والركود ، والخمود ، والفوضى ، والخوف ، والاهمال .
رمز هذا رجل اسمه « مملوك باشا » جعله المؤلف
وزيراً للداخلية ..

فحين أحس نسيم أن السفارة البريطانية ستبلغ
وزارة الداخلية عنه ، بدأ يبحث كيف يتلافى القبض عليه
.. فأرشده الى « المفتاح » الى قلب «مملوك باشا»
وهو الرشوة !

ثم يصف لنا طريقة الرشوة :

كان مملوك باشا يجلس في غرفة الضالون يستقبل الزوار ، فيقول له الراغب في رشوته انه قد عثر على مصحف نادر رأى انه جدير بأن ينضم الى مجموعة المصاحف النادرة التي اشتهر مملوك باشا باقتنائها . ويقول مملوك باشا انه سيعود بالمصحف الى الطابق الثاني ليرى هل لديه مثله أم لا . وهناك يفتح المصحف ويعد النقود ، فاذا كانت الرشوة كافية ، احتفظ بالمصحف وعاد يقول : « انه فعلا نادر » واذا كانت غير كافية أعاد المصحف الى صاحبه قائلا : « انه وجد أن لديه مثله ! »

وبهذه الطريقة استطاع نسيم أن ينجو !

وفي نهاية الجزء الرابع من الرواية ، وقد انتهت الحرب ، نجد أن جوستين قد أطلق سراحها ، ونجدها تسير في شارع سعد زغلول هي ومملوك باشا ونسيم . لقد رفع الحجر عن نسيم أيضا ، وسياسا هو وجوستين الى سويسرا حيث يقومان بنشاط أوسع في التآمر . . . أما كيف استولت جوستين على مملوك باشا ؟ انه جوعان للاختلاط بالمجتمع الراقى ، جوعان الى التعرف بنساء بيض . . . وهذا ما تحققه له جوستين !!

وقد أحسست عندما انتهيت من قراءة الرواية ان المؤلف يشبه الرجل الذي افتتح محلا وأزاد أن يجلب له أكبر عدد من الزبائن ، فقرر أن يعرض فيه كل أنواع السلع الممكن بيعها للناس !

كذلك فان لورنس دوريل جمع في قصته كل أنواع المفارقات وكل أنواع القصص وكل أنواع المدارس الفنية والقصصية المعروفة . . .

ماذا تريد مثلا ؟

مغامرات ؟ هناك مغامرات جاسوسية وتهريب أسلحة

واغتيال في الظلام ومسيدييات .
غرام عذرى ؟ هناك قصص حسب بالمراسلات التي
تستمر عشر سنوات لا يلتقى فيها العاشقان .
شدوذ وجنس ؟ انه موجود في أكثر من نصف صفحات
الرواية !

هناك أيضا حفلات تنكرية تحدث فيها مفارقات
غريبة كالقصص الخيالية القديمة ..
هناك أيضا فتاة يقع في غرامها رجل وتختفى سنة
ثم يجدها الرجل فيجد انها بدون أنف ، فينفق عمره
في البحث عن أنف لها .. والبحث عن أطباء يركبونه لها
هناك أيضا جو الموالد والمجاذيب والسحرة والمشعوذين
هناك كذلك قصة ضابط بوليس انجليزى شاذ ،
مات .. وتحول قبره بمجموعة مصادفات الى أسطورة
تقول انه من الاولياء .. له مولد وله مقام يزار !
كل حيل كتاب القصة وكل مفاجآتهم التي عرفت في
آلاف القصص .. جمعها لورنس دوريل في روايته بدون
استثناء تقريبا !

وبعد ..
ان المؤلف لورنس دوريل يرسم للاسكندرية صورة
بنفسجية بديعة ، بكل ما فيها من تفاصيل وضواح
وأسماء . محطة الرمل وشوارع سعد زغلول والنبي
دانيال والسبع بنات وفندق سيسيل ومطاعم المكس
المطلة على البحر ورمال العجمي البيضاء . ولكنه يرسم
للمجتمع صورة جارحة هابطة تنزف بالصدید ، ويرسم
« للمهاجرين » صورة تنزف بالصدید ، لا يكاد المرء يعثر
في روايته على شخصية فيها ولو قليل من مقومات
القوة ، أو حتى على شخصية فيها صراع بين القوة
والضعف . كل البشر عنده تقريبا مشوهون من الداخل ،

مستسلمون تماما للضعف والنقائص بدون أية مقاومة
أو صراع . واستكمالا لهذا الاحساس حشد في قصته
عددا لا مثيل له من ذوى العاهات .. ليزا الجميلة
الفاتنة عمياء ، سميرة عذراء الاسكندرية بدون أنف ،
نيروز شقيق نسيم مشقوق الشفتين ، نسيم نفسه يفقد
أحدى عينيه خلال الفارات ، وتنتهى القصة ، وهو
بعين واحدة ، و « كليا » الرسامة ، تنتهى القصة
ويدها التى ترسم بها مصابة !

وبعد ...

هل هو كاتب « عظيم » ؟

أعتقد ان التاريخ الادبى لن يضعه في مصاف الادباء
العظماء ، لأن كاتب القصة العظيم لابد ان تكون فيه
صفة هامة جدا ، وهى : احساسك بأنه يتعاطف مع
الانسانية المثلة في أبطال قصصه كلهم .. أو بعضهم .

وهذا ما يفتقده « لورنس دوريل » . انه لا يروى
قصة الحياة ولكنه يروى « فضيحتها » . وهو يحاول
أن يدس في نفسك احساسا بالشماتة لا بالعطف .

روسيا والصين

- ١ -

منذ بضعة أيام قال « كارلو باجيتا » عضو الحزب الشيوعي الإيطالي ، في المؤتمر المنعقد حاليا في روما : ان حزبنا لديه الشجاعة لكن يقول « الصين » ولا يقول « البانيا » ، ما دام يقصد الصين !

وهكذا أعلن رسميا لأول مرة ومن فوق منبر مؤتمر شيوعي يشهده الروس والصينيون على السواء ، ان كل الحملات الموجهة الى البانيا انما تستهدف الصين . والواقع ان نبأ الخلاف بين روسيا والصين قد تأكد في العالم الخارجي منذ اللحظة التي عرف فيها ان روسيا سحبت كل خبرائها من الصين ، وكانوا يعدون بالآلاف . فمثل هذه الخطوة الخطيرة ، لا يمكن الا أن تخفى وراءها خلافا خطيرا .

واليوم يوشك الطرفان أن يعلنوا الخلاف على العالم كله كاملا ، بعد أن جاهدوا جهادا عنيفا طوال السنوات الماضية من أجل اخفاء هذا السر الهائل .

وسواء انفجر الخلاف في المستقبل انفجاره النهائي ، أو أمكن التوصل الى حل للقضاء عليه ، فالمهم اليوم أن نفهم أسباب هذا الخلاف الذي يعد من أكبر وأخطر الأحداث التي وقعت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية . وقبل محاولة العثور على الأسباب الجدية ، الأساسية ،

(*) كتب هذا المقال عام ١٩٦٢

لهذا الخلاف ، - يجب أن نضع أمامنا ثلاثة اعتبارات :
الاعتبار الأول - هو أن الخلاف العقائدى أو
الاستراتيجى الحاد ليس غريبا على الحركة الشيوعية
بوجه عام . ففى جميع مراحل الحركة الشيوعية كان
يوجد داخلها دائما «يسار» و«يمين» . وفى كل مرحلة
كان لابد دائما من «تصفية» الاتجاه الذى يرونه خاطئا ،
خصوصا بعد أن تأثرت الحركة الشيوعية بالمبدأ
« اللينينى » الذى يضع وحدة الحركة فوق كل اعتبار .

والحركة الشيوعية فيها ما فى بعض الحركات الدينية
من عنصر الايمان الصارم العنيف ، والاعتقاد فى نظرة
أو قضية يجب أن تغنى صاحبها عن أى نظرة أخرى
مهما كان مصدرها ، والتصديق فى حقيقة تعلو كل
الحقائق الأخرى ، لا يمكن أن يأتيها الباطل من بين يديها
ولا من خلفها .

الاعتبار الثانى - هو أن الخلاف بين روسيا والصين
بالذات ليس حدثا طارئا ،
ولأضرب مثلا قديما ..

ففى سنة ١٩٢٧ ، كانت روسيا تؤيد حزب الكومنتانج
الذى يقوده شيانج كاي شيك فى الصين ، لأنه كان القوة
الكبرى التى تقاوم الاستعمار فى الصين . أما الحزب
الشيوعى فلم يكن يمثل يومها الا قلة ضئيلة . وكان
رأى ستالين فيما يبدو أن تأييد حركة تحريرية مضمونة
النتيجة خير من تأييد حركة شيوعية ليس مستقبلها
مؤكد . وكان الحزب الشيوعى الصينى يرى غير هذا
الرأى ولكن الحزب الشيوعى الصينى نقد رأى ستالين
وانضم الى صفوف شيانج كاي شيك . وبدأ شيانج
كاي شيك زحفه للاستيلاء على بقية الصين ، حتى
وصل الى شنگهاى التى كان الاستيلاء عليها قمة النصر .

ولكن كاي شيك لم يكذب يستولى على شنغهاي ، بمساعدة الشيوعيين ، حتى انقض علىهم ، ونفذ فيهم مذبحه رهينة قضت على الحزب لسنوات طويلة ..

ويومها ، كان ماوتسى تونج بالذات ، هو الذى استطاع ان ينقذ ما تبقى من فلول الحزب ، ويلجأ بها الى الجبال ، لبدأ من هناك حركته التى انتهت باستيلائه على الصين ..

من ذلك اليوم ، ولد لدى الشيوعيين الصينيين احساس عميق بأن موسكو بعيدة عن فهم « واقع الصين » . وان الحركات الشيوعية الاوروبية لها منابت غير الشيوعية الآسيوية . من ذلك اليوم ولد فى الصين الاحساس بالاستقلال الفكرى عن روسيا فى تفسير النظرية الشيوعية ، وان كان هذا لا يودى الى الانفصال ، أو عدم التعاون مع روسيا ..

ويقول المؤلف الأمريكى «جورج كينان» ، وهو أحد خبراء الغرب فى القضايا الشيوعية ، وقد كان سفيرا فى موسكو وهو الآن سفير فى بلغراد ، يقول فى كتاب هام له اسمه « روسيا والغرب فى عهد لينين وستالين » .. يقول ان موقفا من هذا القبيل تكرر بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ، ويوم كانت الصين تكاد تكون مقسمة بنسبة متعادلة بين شيانج كاي شيك وماوتسى تونج ..

يومها - مرة أخرى - لم يكن من رأى روسيا ان يحاول ماوتسى تونج إنهاء حكم شيانج كاي شيك بحرب شاملة . أولا ، لأنها لم تكن واثقة من النتيجة . وثانيا لأن أمريكا فى ذاك الوقت كانت تتوسط بين كاي شيك وماو . وكان احتمال تدخلها المسلح فى هذه الحالة كبيرا . ولكن ماو لم يأخذ بهذا الرأى وقال : « ان العدو ليس نمرًا حقيقيا ولكنه نمر من الورق » واستطاع

بالفعل أن يلقي كاي شيك وقواته الى البحر ، دون أن
تحرك أمريكا ساكنا ...

منذ ما يقرب من أربعين سنة اذن ، والشيوعية
الصينية « حليفة » الشيوعية الروسية ولكنها ليست
تابعة لها . وقد كان لها دائما هذا الوزن الخاص داخل
المعسكر الشرقي ..

والآن ...

بعد تسجيل هذين الاعتبارين ، فيم الخلاف الآن ،
بين روسيا والصين ؟ ..

ان بعض المعلقين يميلون الى تبسيط الأمور تبسيطا
يبعد بنا عن الحقيقة ..

يقولون - مثلا - ان ماو وخروشوف يتنافسان على
زعامة المعسكر الشيوعي . وان ماو يعتبر خروشوف
وجها جديدا بالنسبة اليه . ويعتبر نفسه الوحيد الباقي
من أصحاب « الاضافات » الهامة الى الماركسية .

او يقولون ان ماوتسي تونج « ستاليني » في حين ان
خروشوف يهاجم ستالين ، او يقولون ان خروشوف
يؤمن بالتعايش السلمي في حين ان ماو يؤمن بحتمية
الحرب .

وهذه كلها تبسيطات تضيع معها معالم الحقيقة ..

ان أبرز اسباب هذا الخلاف هي :

* الحملة على ستالين .

* الكوميونات الصينية .

* الاستراتيجية الدولية .

* الدول المتحررة غير المنحازة .

والصورة الواضحة لهذا الخلاف ، هي اننا بينما نجد
الصين ما زالت ترفع صورة ستالين جنبا الى جنب مع
صور ماركس وانجلز ولينين ، في حفلاتها الشعبية

وأعيادها السياسية .. نجد ان خروشوف في الطرف الآخر ما زال يواصل الحملة على ستالين والستالينية ، وما زالت الاحزاب الشيوعية في شرق أوروبا تظهر صفوفها من الزعماء والحكام الذين تسميهم ستالينيين ، بل ان الاتحاد السوفييتي لم يرضه ان يبقى ستالين في قبره الى جوار لينين ، فأخرجوه بليل ، ودفنوه في سور الكرملين مع سواء من الراحلين ..

وقد قيل ان الصين اعترضت - منذ البداية - على ان يشير خروشوف هذه الحملة المفاجئة ذات الآثار البعيدة على المعسكر كله ، دون أن يستشير مقدما الاحزاب الشيوعية الاخرى . وقيل ان الصين رأت ان الحملة كانت أوسع مما ينبغي ، بحيث انها أصبحت في رأيهم تهدد وحدة المعسكر الشيوعي . وان الطريقة التي تناول بها خروشوف الحملة جعلت بعض الاحزاب الشيوعية تتجه الى المطالبة لا بمراجعة أخطاء ستالين وحدها ، ولكن بمراجعة النظم الشيوعية ذاتها .. خصوصا الحزب الشيوعي الايطالي الذي يبشر الآن مثلاً بنظرية « تعدد المراكز » في الحركة الشيوعية ، بدلا من الوضع القائم الآن على « المركز الأوحده » وهو موسكو .

واذا كان الرجوع الى بعض النصوص المنشورة « ضمن » من هذه التخمينات ، فأننا نجد ان الحزب الشيوعي الصيني نشر عقب الحملة على ستالين بحثا شرح فيه رأيه في الموضوع كان أهم ما فيه :

« أولا » : الاعتراف بأن ستالين ارتكب أخطاء خصوصا في سنواته الاخيرة . ولكن مع تسجيل انه كان مناضلا ماركسيا لينينيا عظيما ، حارب خصوم الشيوعية بلا هوادة ، ومع تسجيل انه لايمكن الغاء دور الأفراد في تحريك عجلة التاريخ الغاء تاما ..

«ثانيا» : الاشارة بالدور البارز الذى قام به ستالين فى الاسراع بعملية التصنيع وعملية تحويل الزراعة الفردية الى زراعة جماعية . ذلك ان هذه المرحلة التى تحملها ستالين هى المرحلة التى تمر بها الصين الآن ، وهى مرحلة تحتاج الى الضغط والتضييق الى حد كبير . . وقد خشيت الصين أن يمتد نقد ستالين الى نقد كل ما يتعلق به ، خصوصا هذه المرحلة بالذات .

« ثالثا » : تسجيل ان ماوتسى تونج غير ستالين . وتسجيل فكرة ان المركزية الشديدة فى القيادة يجب أن تقتزن بديموقراطية واسعة تتغلغل فى القاعدة الشعبية ، وان التركيز على مركزية القيادة دون الديموقراطية يؤدي الى ارتكاب الأخطاء التى ارتكبها ستالين . .

« رابعا » : أوضحت الصين نظرية ماوتسى تونج فى المتناقضات . وهى القائلة بأن المتناقضات ستوجد حتى فى المجتمع الشيوعى ، وحتى فى داخل المعسكر الشيوعى . سواء بين الفرد والمجتمع أو بين الدول الشيوعية وبعضها البعض . ولكنها تناقضات غير عدائية كالتناقضات بين الشيوعية والرأسمالية مثلا أو بين العمل ورأس المال فى المجتمع الرأسمالى .

وبهذه النظرية أرادت الصين أن ترد على الذين دهشوا من المتناقضات التى كشف عنها الهجوم على الستالينية . أى انه بينما بدت الحملة الروسية على ستالين حملة على شخص ، برزت الصين بمحاولة تقديم تفسير نظرى ماركسى لها . .

الخلاف الأهم من ذلك كان على : الكوميونات !

يعرف العالم - وتعرف الكتب والنظريات - أنواعا كثيرة من الاشتراكية ولكن العالم ، والكتب والنظريات ، لا تعرف حتى الآن الا شيوعية واحدة . .

وذلك أن الاشتراكية لها الآن تطبيقات كثيرة ، في حين أن الشيوعية لم تطبق قط ، في أى مكان من العالم . . . هناك اشتراكية تؤمن بوجود ملكية خاصة ، بكميات مختلفة ، إلى جانب الملكية العامة ، وبوجود الحافز الفردى إلى جانب الحافز الاجتماعى . . .

وهناك اشتراكية لا تؤمن بوجود الملكية الخاصة بتاتا . ولكنها مع ذلك تؤمن بوجود الحافز الفردى الطبيعى . ولذلك فإن أقصى ما تطلبه هو أن ينال كل فرد من خيرات المجتمع حسب مجهوده وكفاءته وامتيازه .

أما الشيوعية فهي تختلف عن هذا كله اختلافا في «النوع» لا في «الدرجة» فهي تؤمن أن الإنسان نفسه بعد مرحلة تطور معينة سوف يتغير بحيث يصبح الحافز الفردى أمرا لا قيمة له وبالتالي يصبح ممكنا تطبيق شعار « من كل فرد حسب قدرته ، ولكل فرد حسب حاجته » .

أى أن ينال الناس نفس القدر من خيرات المجتمع ، مهما اختلفت جهودهم وقدراتهم .

والاشتراكية يؤمن بهذه الصورة أو تلك من صور الاشتراكية بوصفها شكلا مثاليا للحياة . أما الشيوعى فهو يعتبرها مجرد مرحلة . أما هدفه الأمثل فهو : المجتمع الشيوعى ، بالصورة التى سبق تلخيصها . . .

ومن الطبيعى - بناء على ذلك - أن تكون عملية الانتقال إلى تطبيق الشيوعية حسدا بالخطورة بالنسبة للشيوعى . . . حدثا يتعرض للمناقشة والجدل والخلاف الحار ، بوصفه أخطر نقطة تحول تاريخية في نظره ، والفاية التى كافحت وناضلت الشيوعية الدولية من أجلها أكثر من مائة سنة . . .

وروسيا ، بعد أربعين سنة من ثورتها ، ظلت تقول

إنها ما زالت في مرحلة الاشتراكية وأن مرحلة الشيوعية ما زالت بعيدة ..

ولكن الصين فاجأت المعسكر الشيوعي منذ سنوات بأنها قد اكتشفت « الخلية الأولى » في بناء الشيوعية .
وانها بدأت بالفعل في بناء هذه الخلية الشيوعية الأولى .. وهي : الكوميون ..

فقد قال القرار الذي أعلن بدء انشاء الكوميونات في ٢٩ أغسطس سنة ١٩٥٨ : « أن الهدف الأول من اقامة الكوميونات الشعبية هو الاسراع في عملية البناء الاشتراكي والتمهيد النشيط للانتقال الى الشيوعية . ان اقامة الشيوعية في الصين لا تبدو الآن هدفا بعيد المنال ، وعلينا أن نستخدم عملية اقامة الكوميونات لاكتشاف الطريق العملي الى الشيوعية » .

وليس هذا هو مجال الحديث المفصل عن نظام « الكوميون » وهي الوحدة الشيوعية للمجتمع .. ولكن يكفي القول هنا ان الكوميون يختلف عن المزرعة الجماعية في عدة نواح أساسية . أولها ، انه أكبر حجما من المزرعة الجماعية بكثير . وثانيها - بالتالي - انه يجمع أنواعا مختلفة من النشاط من الزراعة الى تربية المواشي الى مصانع صهر الحديد الصغيرة البدائية . وثالث هذه الفروق ان الملكية الفردية فيه معدومة تماما . على ان أخطر الفروق هو أن جانبا من « الأجر » الذي يأخذه الفلاح في الكوميون يأخذه « عينا » لا نقدا . فالكوميون يصرف له حاجته من الطعام الذي يقدم في قاعات كبيرة للجميع على السواء كما يصرف له حاجته من الثياب .. الى آخره ..

وهنا الفارق الخطير . فالصين في الكوميونات خطت مرحلة نحو نظام : « لكل فرد حسب حاجته » بصرف

النظر عن عمله . لم تخط إليه مائة في المائة ولكن طبقته بمقدار خمسين في المائة تقريبا اذ جمعت بين الأجر النقدي الذي قد يختلف والأجر العيني المتساوى . وكانت هذه الخطوة بالذات محل فخر «نظري» كبير في الصين ، نسبتها الكتابات هناك الى ماوتسى تونج شخصا فهل يمكن - حقا - أن تقفز الصين الى مرحلة الشيوعية ، هكذا بعد أقل من عشر سنوات من وصول الشيوعيين الى الحكم ، والشيوعيون في روسيا ، بعد أربعين سنة من وصولهم الى الحكم ، وبعد التطور الاقتصادي الكبير ما زالوا يرون أنهم لم يصلوا الى المرحلة التي تسمح لهم بهذا الانتقال ؟

ان الجذور الفكرية لهذه المحاولة الصينية البالغة العنف والجرأة .. مصدرها رأى الشيوعيين في ان الثورة يجب الا تتوقف عند مرحلة من المراحل ، تلتقط أنفاسها وتدعم نفسها وتؤجل أهدافها النهائية ، لأن هذا قد يؤدي الى اضعاف الطاقة الثورية للجماهير ، والى استرخاء القيادات واكتفائها بالانتصارات التي حققتها ..

ومن الجذور الفكرية لهذه المحاولة أيضا ، ان الصين تعتقد أنها اكتشفت الأسلوب الأمثل لتطبيق الماركسية في ظروف البلاد الآسيوية بالذات . فهي في الواقع قد رفضت التقيد بالنموذج الروسي في التخطيط والتنمية الاقتصادية . وانتهجت أسلوبا خاصته استغلال كثافة السكان وتحويل وفرة الأيدي العاملة الى سلاح أساسي في البناء . فكانت إقامة السدود مثلا لا تنتظر الآلات الحديثة الغالية ولكنها تقام بملايين العمال ، بالمضاول والأيدي والمقاطف البدائية ، أي تعويض الآلات بوفرة الأيدي العاملة . كذلك عمدت الى استخدام الوسائل

البداية جنباً الى جنب مع الوسائل الحديثة واطلقت على هذه السياسة سياسة المشى على قدمين « القديم والجديد معا » ومن مجموع هذه الجهود الهائلة ، اعتقدت الصين انها تستطيع ان تختصر مسافات كبيرة من الزمن اللازم لعملية التقدم ، وانها تستطيع ان تطبق سياسة الثورة التي لا تتوقف ، لانها اذا توقفت عند مرحلة ، فهذه المرحلة ستوجد بنفسها اجهزتها الملائمة لها والتي قد تصبح في حد ذاتها عقبة في طريق السير الى مرحلة أخرى تالية ..

ووراء هذه الملامح التي ارويها هنا في سرعة خاطفة توجد تفسيرات وتفصيلات وتبريرات نظرية ومذهبية طويلة ومن البديهي ، بعد هذا ، أن تتوقع الصين أن تكون تجربتها هي النموذج الذي يجذب الاحزاب الشيوعية الآسيوية والافريقية على الأقل .

ولكن الحزب الشيوعي الروسي ، بوصفه القائد الوحيد المعترف به في الحركة الشيوعية ، كان له في تجربة الكوميونات رأى آخر ..

لم تعلن روسيا رأيها بصراحة في هذا الموضوع ولم تتخذ منه موقف الهجوم العلني .

ولكن كثيراً من التصريحات التي قالها خروشوف وغيره من الزعماء الروس كانت تشير من طرف خفى الى هذه النقطة ..

والذي يمكن تصويره من رأى الاتحاد السوفيتي هو انه يرى في تجربة الكوميونات الصينية انحرافا يساريا خطيرا . وان سياسة « احراق المراحل » أي عدم الاعتراف بأنه لابد من المرور بمراحل معينة من التطور نحو الشيوعية ، هي سياسة خطيرة قد تترد على النظام بأكمله ..

ويركز الاتحاد السوفييتى نقده على ما تحاوله الصين من تجاهل « الحافز الفردى » ودوره فى الانتاج ، فى هذه المرحلة المبكرة من تطورها . ويستشهد على ذلك بقول لينين : « انه من العبث أن نظن أن مجرد اسقاط الرأسمالية معناه أن كل فرد سيعمل كما يجب أن يعمل من أجل المجتمع فقط حتى ولو لم تكن له مصلحة شخصية فى العمل . وانه من غير الحافز الفردى لا يمكن تحريك الملايين الى مزيد من العمل » .

وقد سبق للاتحاد السوفييتى أن مر بمرحلة من الصراع حول فكرة « المساواة التامة » فى الأجور . واستمر هذا الصراع من سنة ١٩٢٥ تقريبا الى حوالى سنة ١٩٣٤ ، وكان «تروتسكى» والاقليّة التى يتزعمها يميلون الى هذه المساواة . . فى حين كانت الاغلبية التى يمثلها ستالين ترى أن هذه « المساواة المبتذلة » فكرة غريبة على الاشتراكية ، وانه فى مرحلة البناء والتصنيع بالذات لا يمكن أن تنجح بغير تشجيع الخبراء والفنيين والعمال المهرة والمديرين الأكفاء ، وأن هذا التشجيع لابد أن يكون ماديا ، فى صورة أجور أعلى وأحسن ، وفى خطاب ستالين الذى ألقاه فى مؤتمر الحزب الشيوعى الروسى سنة ١٩٣٤ قال : « ان اللعب بكلمة المساواة على هذا النحو الساذج ليس الا لعبا بالنار » ووصف هذه التسوية المطلقة بين الأجور بأنها «رجعية ، وسخافة من سخافات البورجوازية الصغيرة لاتلىق بالماركسيين» ويومها ، كان هذا الاتجاه قد انهزم فى روسيا بالفعل ، وكان تروتسكى قد نفى الى الخارج ، وأصبحت « التروتسكية » أقسى تهمة توجه الى شيوعى روسى . وأول أمس فقط ، فى اجتماع مجلس السوفييت الأعلى فى موسكو ، وقف « فاسيلى تولستيكوف » السكرتير

الأول للحزب الشيوعي في ليننجراد وهاجم قادة البانيا « ومن يؤيدونهم » أي الصينيين ، واتهمهم بأنهم « تروتسكيون ومنحرفون يساريون ، ومتجسسون مذهبيون ، يخفون أنفسهم وراء تعبيرات ثورية متطرفة » وعندما تراجع الآن الكثير من القرارات التي اتخذها خروشوف بالنسبة للريف ، نجد أنها تتجه الى تشجيع الحافز الذي يدعو الفلاح الى العمل . وفي مقدمة ذلك رفع أسعار المواد الغذائية التي ينتجها الريف ، والقضاء المحطات الحكومية التي كانت تـُؤجر الجرارات والآلات الزراعية للمزارع بحيث تصبح مملوكة لها .

وفي إحدى خطب خروشوف روى انه كان يزور عمته في الريف فوجد لديها أشجار تفاح بديعة في حديقتهما الخاصة ، ولكن عمته قالت انها ستقطعها لأنها لا تدر عليها أي ربح واستخلص خروشوف من ذلك أن أشجار التفاح البديعة يمكن أن تقطع وتفقد البلاء لأنها لا تدر على الفلاحين أي فائدة .

ويومها وصف خروشوف الذين يعارضونه في هذه الاجراءات بأنهم « حرفيون ، لا يشمون رائحة الحياة » . وفي المؤتمر الواحد والعشرين ، نجد أن خروشوف قد شن هجوما مضادا ضد هذا الاتجاه الصيني . فمن جهة شرح رأيه نظريا في مسألة الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية فقال :

أولا - انه لابد من التدرج في الانتقال الى الشيوعية . . أي لابد من السير خطوة خطوة . .

ثانيا - انه ليس معنى ذلك انه يوجد حائط عال بين المرحلتين . ذلك ان المرحلة الثانية تنمو من الاولى « وليس معنى الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية ان تغلق بابا ونفتح بابا آخر فنكون قد انتقلنا » .

ثالثا - انه يجب عدم اجهـاض التطور واجراق المراحل : فلها سرعة ولها بطء ..

ثم ركز خروشوف حديثه في التقرير على نقطة أخرى هي : ان كل نظام وكل تقدم لابد ان يتوافر له الاساس المادى اللازم من وفرة الانتاج . فلكى تصبح المساواة فى التوزيع ممكنة لابد ان يصل الانتاج الى درجة عالية تكفى الجميع . وهذا هدف لن تبلغه روسيا - كما قال التقرير - الا بالتصنيع الكامل للبلاد ، مدنها ، وريفها ، و برفع الطاقة الانتاجية للعامل الى اقصى حد ، باستخدام الطاقة الذرية فى الاغراض السلمية ، وبتحقيق درجة عالية جدا من التنظيم الادارى والعلمى ، وبتوزيع الصناعات توزيعا عادلا على جميع أنحاء البلاد .

وقد أطلق خروشوف على هذا المؤتمر : مؤتمر بناء الشيوعية . ولكن التقرير أعلن ان هذه المهمات التى لابد ان تسبق الشيوعية ستستغرق عشرين سنة كاملة ! وبشرط أن يزيد الدخل القومى ٤٠ ٪ فى هذه السنوات العشرين ! ..

وقال خروشوف عن « المتسرعين » : اذا أصبح الزعماء مفرورين ، وارتكبوا الأخطاء ، وشوهوا التعاليم الماركسية اللينينية فيما يتعلق ببناء الاشتراكية والشيوعية فسوف يستغل أعداء الشيوعية هذه الأخطاء كما استغلوها سنة ١٩٥٦ . وكان يشير بذلك الى ثورة المجر .

وبعد هذين السببين الكبيرين المتعلقين بالسياسة « الداخلية » تصل الى الاسباب الخطيرة ، التى لعبت الدور الأكبر فى الخلاف بين روسيا والصين والتى تطفو على سطح الاحداث بشدة هذه الايام ..

وهى الخلاف بين الدولتين على السياسة التى يجب أن تتبع نحو الدول المحايدة ..

والسياسة التى يجب أن تتبع نحو المعسكر الغربى .

روسيا والصين

- ٢ -

قال ماوتسى تونج لأول مرة كلمته المشهورة : « ان العدو ليس الا نمرا من الورق » . . . وذلك فى سنة ١٩٤٦ ، حين شن هجومه الاخير على قوات شيانج كاي شيك التى كانت تفوق قواته عددا وعدة ، وكيف انه ظهر ان قوات شيانج كاي شيك كانت بالفعل «نمرا من الورق » ، اذ لم تلبث ان انهارت انهيارا سريعا . وفى هذا الاسبوع قال خروشوف : « ان هذا النمر الذى يقولون انه نمر من الورق ، له هذه المرة أسنان ذرية » .

وردت صحيفة صينية بقولها : « ان هذ الاسنان الذرية لا تدخل الرعب فى قلوبنا » . . .

وفى هذا الاسبوع أيضا ، اتخذ الحزب الشيوعى الفرنسى أول قرار علنى يتخذه حزب شيوعى كبير ، ضد الصين بصراحة . وقد قال القرار : « ان الرفاق الصينيين ما زالوا يصرون على التشكيك علنا فى سياسة التعايش السلمى ، وضرورة البحث عن حلول للمشاكل الدولية عن طريق المفاوضات كما يشكون فى امكانية الانتقال الى الاشتراكية بالوسائل السلمية ، وفى ضرورة القضاء على سياسة عبادة الفرد المتخلفة عن الستالينية » كما ان جريده « برافدا » انتقلت من التلميح الى

التصريح ، ومن استخدام اسم البانيا الى توجيه النقد المباشر للصين ...

وبرغم تعدد أسباب الخلاف ، وتشعب جذوره ، الا ان الخلاف حول السياسة الدولية بالذات ، هو الذى وصل بالأزمة الى هذا الحد العنيف ...
فيم الخلاف ؟ ..

ان روسيا والصين كليهما دولتان شيوعيتان ، ومعنى ذلك ان كلا منهما تؤمن بأن العالم كله سوف يتحول يوما ما الى الشيوعية ، وان كلا منهما - وكل حزب شيوعى على وجه الارض - يجب أن يناضل من أجل تقريب هذا اليوم .

ولكن الشيوعى يؤمن بنظرية يعتقد انها علمية تماما .
هى الماركسية اللينينية ، بمعنى انه اذا أحكم أى حزب شيوعى فهم هذه النظرية وتمكن من تطبيقها التطبيق السليم ، فهى حتما وبالتأكيد تؤدي الى النتيجة التى يرجوها .

ولهذا ، ففى كل مرحلة يجب أن يتوقف الشيوعيون لتقدير عدة أشياء والاتفاق عليها : ما هى طبيعة المرحلة التاريخية التى يواجهونها - ما هى القوى الموجودة التى تؤثر فى هذه المرحلة .. وبالتالى ينتقلون الى تحديد موقفهم : هل يتجهون الى أهدافهم رأسا .. أو يؤجلونها؟ هل يحاولون الوصول اليها بالعنف .. أو بالسلم ؟

وفى سنة ١٩٥٧ ، طرح الشيوعيون على أنفسهم هذه الاسئلة .. فاختلفت اجابة الشيوعيين الصينيين عن الشيوعيين الروس .. ومن يومها والخلاف يتفاقم ..
ولكن لماذا طرح الشيوعيون هذه الاسئلة من جديد ، واختلفوا عليها سنة ١٩٥٧ ؟

ان العلم الحديث يغير الحياة وفى تلك السنة ، حقق

العلم معجزة أخرى ..

هذه المعجزة هي الصواريخ عابرة القارات ...
لقد أصبح معروفا ان كلا من روسيا وأمريكا تملك
صواريخ يمكن اطلاقها فتصيب قلب العدو ، بعد دقائق
قليلة ، دون ان يكون هناك أى دفاع يستطيع ان يصدها
معنى ذلك ان القنابل الذرية - لو قامت الحرب -
لن تحملها طائرات ، يجب ان تطير الى أهدافها ، وبالتالي
يمكن اسقاطها فى الطريق .. بل ان هذه القنابل الذرية
سوف تحملها صواريخ ، تعد بالمئات ، تستطيع ان
تدمر فى غمضة عين كل المدن الكبرى ، والمراكز الصناعية ،
والقواعد العسكرية ، والمرافق العامة . وقد يكون حساب
القتلى فى يوم واحد بمئات الملايين ..

هكذا اكتمل التطور المخيف المنتظر فى فن الحروب .
ذلك التطور الذى بدأ بتفجير أول قنبلة ذرية وانتهى
باكتشاف الوسيلة التى تنقل القنابل الذرية الى أقصى
أنحاء الارض ، فى دقائق ودون وجود أى دفاع نافع
ضدها ...

وبهذا التطور العلمى ، اكتمل التطور الفكرى الجديد
داخل الحزب الشيوعى الروسى فى الاتحاد السوفيتى
بوجه عام ، ذلك التطور الذى تبناه وتزعمه خروشوف ،
خصوصا منذ خطابه الشهير ضد ستالين سنة ١٩٥٦ ..

لقد أعلن المؤتمر العشرون للحزب الشيوعى الروسى ،
مع نقده لستالين ، انه يؤمن بثلاثة مبادئ جديدة هى :
أولا - ان الحرب لم تعد حتمية الوقوع ...

ثانيا - انه لابد من انتهاج سياسة التعايش السلمى
بين الدول ذات النظم الاجتماعية المختلفة .

ثالثا - ان الاشتراكية وبالتالي الشيوعية لايلزم أن
تتحقق بالثورة اللينينية ولكن يمكن أن تتحقق بوسائل

شتى ، بما فيها الوسائل السلمية ، والوسائل البرلمانية
ما هو الجديد في هذه المبادئ بالنسبة للأحزاب
الشيوعية ؟

الجديد هو ان الفكر الشيوعى كان يعتقد بصفة قاطعة :

أولا - انه طالما كان هناك استعمار وهناك دول
رأسمالية ، فان الحروب سوف تقع وتتوالى بالتأكيد .
فالحرب اذن حتمية الوقوع . ان الاستعمار والرأسمالية
لا يمكن ان يقبلا الهزيمة بشكل سلمى . ولن تختفى
الحروب نهائيا الا باختفاء الرأسمالية واختفاء الاستعمار

ثانيا - ان الرأسمالية لا يمكن ان تسلم فى المجال
الداخلى بسهولة . ولذلك لابد من سلسلة اصطدامات
عنيفة ، وربما حرب أهلية ، قبل ان تنهزم الرأسمالية
وينفتح الطريق الى الشيوعية . .

ولكن الروس وجدوا ان ثمة عوامل كثيرة طرات على
الموقف . . . أكبرها عاملان :

العامل الاول ، هو هذا التطور الحربى المخيف ،
الذى يهدد البشرية فى حالة الحرب بالفناء . فلا يمكن
أن يقال ببساطة والحالة هذه ان الحرب هى القطار الذى
يحمل الشيوعية الى اهدأفها ، بما تحمله الحرب من
دمار للرأسمالية وكشف لمتناقضاتها . الحرب هذه
المرّة مختلفة تماما . انها قد تدمر الرأسمالية
والشيوعية معا .

العامل الثانى ، هو التقدم الاقتصادى للاتحاد
السوفيتى ، وفى رأى الروس ان التقدم الاقتصادى فى
بلادهم سوف يعطى للمعسكر الشرقى جاذبية أكبر ،
وسوف يضاعف نفوذه ويضاعف قدرته على التأثير فى
مجرىات الأمور فى العالم . وبالتالي تصبح الشيوعية
قادرة على اجتذاب ملايين جديدة من الناس .

وفي المؤتمر الواحد والعشرين للحزب الشيوعي في موسكو ، أكد خروشوف هذه النقطة بل وربطها بفكرة ان الحرب لن تصبح حتمية حتى في وجود النظام الرأسمالي ، فقال : « وحين يصبح المعسكر الشرقي منتجا لأكثر من نصف الانتاج الصناعي في العالم كله ، سوف توجد بالفعل الفرصة لاستبعاد احتمال الحرب نهائيا ، حتى لدى أشد الرأسماليين تطرفا . وهكذا تنتهي الحروب نهائيا ، رغم استمرار وجود الرأسمالية في بعض البلاد » .

هكذا وصلت روسيا الى فكرتها في التعايش السلمي . وفي التركيز على النضال ذي الطابع السلمي والاقتصادي . وفي العمل على منع الحروب . وقد لخص «كوزلوف» نائب خروشوف هذا الموقف حين قال منذ أسبوعين في روما : « ان الذين يثقون في مستقبلهم ، ليسوا في حاجة الى اللعب بالقنابل الذرية » .

ولكن الصين لها رأى آخر تماما . انها ترى في هذه التجديدات والتطورات انحرافا عن النظرية الماركسية اللينينية . انها ترى ان العالم لم يتغير تغيرا «نوعيا» عما كان عليه منذ أربعين سنة . فالاستعمار ما زال قائما ، والرأسمالية ما زالت قائمة . وبالتالي فالحروب ما زالت حتمية الوقوع ، ولا يجب الخوف منها . واذا كان هناك تغير طرا فهو ان المعسكر الشيوعي قد أصبح قويا ، الأمر الذي يجب أن يجعل الشيوعيين أكثر شجاعة واقداما على تحدى الغرب ، وليس العكس . . . في سنة ١٩٥٧ ، طار ماوتسي تونج الى موسكو ، ليبشر بهذه الآراء ، أمام الاحزاب الشيوعية المجتمعة هناك ، بمناسبة مرور ٤٠ سنة على ذكرى الثورة الشيوعية . .

قال ماوتسى تونج فى ذلك الوقت : ان المعسكر الشرقى أصبح بالفعل أقوى من المعسكر الغربى . . « ان أبرز سمة فى الموقف العالمى اليوم هى ان هناك نوعين من الرياح يسودان العالم : رياح شرقية ، ورياح غربية . وانى أعتقد ان الرياح الشرقية تعلو اليوم على الرياح الغربية . بمعنى ان القوى الشيوعية أعظم بكثير من القوى الاستعمارية » .

واسترجع ماو أمام مستمعيه قصة سنة ١٩٤٦ ، والتعبير الذى أطلقه حينذاك عن « النمر الورق » . ثم قال ماو : « لقد خرجنا من تجارب صراعنا ضد العدو بصياغة نظرية لنا تتلخص فى الآتى : يجب أن نستهيى بالعدو ككل ، وفى المدى الطويل . ولكن يجب أن نحسب حسابه كاملا ولا نستهيى به أبدا فى المدى القصير ، وبصدد كل حالة قائمة بذاتها . تماما كتناول وجبة من الطعام . فى البدء يقرر المرء انه يستطيع أن يأكل كل الوجبة الموضوعة أمامه . ولكنه لا يأكلها فى « قطعة » واحدة ، بل يأكلها قطعة . . قطعة ! وهذا ما يسمى فى الادب العسكرى بتحطيم الأعداء واحدا بعد واحد » .

واذا تركنا هذا الخطاب جانبا ، فانه يمكن تصوير موقف الصين من قضية الحرب والسلام كالاتى :
أولا - ان الحرب ما زالت حتمية . ذلك انه طالما هناك استعمار فسوف تنشأ ولاشك حروب تحريرية ووطنية . سوف تضطر الحركات الوطنية حتما الى استخدام السلاح . ومعنى ذلك قيام حرب محلية . وهنا سوف يضطر الغرب بالتأكد الى أن يخوض هذه الحرب المحلية . وفى هذه اللحظة لابد أن يتقدم المعسكر الشرقى ليخوض هذه الحرب المحلية فى مواجهة الغرب .

والحروب المحلية تنتهى فى هذه الحالة بهزيمة الغرب .

ويستطرد منطق الصين قائلا : ان الخوف من أن يودى هذا الى قيام حرب عالمية ذرية ، خوف لا مبرر له . ذلك ان الغرب لن يخاطر بتحويل الحرب المحلية الى حرب ذرية عالمية ، ازاء التطور الجديد الذى طرأ على قوة الاتحاد السوفيتى . والغرب يمكن أن يقبل الهزيمة فى حرب محلية ويجد هذا خيرا من نشوب حرب عالمية ذرية ، كما حدث حين تراجع الغرب فى حرب السويس .

فما يقوله الروس من ان العالم ليس امامه الا أحد طريقين : اما حرب عالمية ، واما تعايش سلمى ، ليس صحيحا فى رأى الصين ، فالصينيون يرون أن ثمة طريقا ثالثا ، هو طريق الصراع العنيف ، والضغط المستمر على كل مواقع الغرب ، ودفع الازمات المحلية الى اقصى حد ، والمخاطرة بدخول حروب محلية هنا وهناك ..

وترى الصين أيضا ان المبالغة فى الخوف من حرب ذرية ، ورفع شعارات التعايش السلمى بأى ثمن ، والبحث عن حلول وسط مع الغرب ، انما يودى الى اطفاء حدة الصراع ، واخماد جذوة الحركات الشيوعية ، والقضاء فى المدى الطويل على أمل قيام شيوعية تسود العالم ..

وقد وصلت روسيا فى بيان المؤتمر الواحد والعشرين للحزب الشيوعى الى حد القول بأن « سياسة التعايش السلمى يؤيدها أيضا جناح هام من البورجوازية فى البلاد الرأسمالية ، وهى البورجوازية التى تنظر نظرة متزنة الى توازن القوى الراهن والى اخطار أى حرب عالمية حديثة » وهذا ما ترفضه الصين بتاتا ، فالبورجوازية هى البورجوازية ، لا يوجد فيها فريق

منطرف وفريق متزن .

وقد ردت روسيا على هذا المنطق الصيني فيما يتعلق بالحروب المحلية ، بمنطق آخر . . فقالت : أنه يجب التفرقة بين « الحروب المحلية » و « الحروب التحريرية » .

فالحرب المحلية هي التي تقوم بين دولتين ، والتي يمكن أن تتدخل فيها دول العسكريين تدخلا مسلحا . وهذا النوع من الحروب يجب منعه والحيطة دون وقوعه ، لأنه يحمل في طياته خطر قيام حرب عالمية . . أما الحرب التحريرية ، فهي التي يجب أن يهرع المعسكر الشرقي الى مساعدتها . مع العمل دائما على حصرها بحيث لا تتحول الى حرب من نوع آخر . . وفي مجال هذا الجدل ، كان لابد أن يضرب كل فريق بعض الأمثلة . . فحرب السويس مثلا . . تتخذها الصين دليلا على ان الغرب يمكن أن يقبل الهزيمة في حرب محلية تورطت بالعدوان فيها دول كبرى مثل انجلترا وفرنسا مع دولة صغيرة هي اسرائيل ، في حين تتخذها روسيا دليلا على امكان انتصار الحركات التحريرية ضد الاستعمار دون الحاجة الى تدخل عسكري مادي من المعسكر الشرقي . .

وثورة العراق . . تقول الصين ان عدم اسراع روسيا الى التدخل أو اعلان عزمها على التدخل ، جعل أمريكا وانجلترا ترسلان قواتهما الى لبنان والاردن دون خشية ولكن روسيا تستخرج من أحداث العراق عبرة أخرى . فقد اندفع الشيوعيون العراقيون تحت تأثير الصين الى المطالبة بالاشتراك في وزارة عبد الكريم قاسم استعدادا للاستيلاء على الحكم بأكمله ، فكانت النتيجة رد فعل هائل ضدهم في داخل العراق نفسها وفي البلاد العربية

يؤجبه بعام ، أدى الى تأخير موقفهم هناك سنوات طويلة
واليوم يصف الصينيون موقف روسيا خلال أزمة
كوبا بأنه موقف انهزامى . بينما يرى الروس انه موقف
مستول أدى الى انقاذ العالم من شبح الحرب ،
ويسألون الصين : لماذا اذن تترددون في طرد الانجليز
مثلا من هونج كونج ؟

والملاحظ ان تحليلات الصين كلها لا ترى في الموقف
الا الشرق والغرب . الشيوعية والاستعمار . فهي تهمل
تماما وجود القوى الوطنية الثورية الاخرى في البلاد
المتحررة ، وهذا يقودنا الى نقطة اخرى في خلاف روسيا
والصين : الخلاف حول البلاد المتحررة ، غير المنضمة
الى الشرق او الغرب .

هنا أيضا ، نجد الخلاف حول قضية علاقات الشرق
بالغرب ، ينعكس على قضية علاقات الشرق بالبلاد
المتحررة .

فالاتحاد السوفيتى ، وقد قبل مبدأ الوصول الى
حلول وسط مع المعسكر المعادى له وهو المعسكر الغربى ،
وقال ان هناك « بورجوازيين متزنين » فى المعسكر الغربى
ذاته ، كان من الطبيعى أن تكون لهم نفس النظرة الهادئة
الى قوى اخرى ليست فى المعسكر الغربى ، بل متمردة
على المعسكر الغربى ، هى البلاد المتحررة ، الخارجة
من نير الاستعمار ، والتي ترفض الانحياز الى هذا
المعسكر او ذاك ..

لقد اعترف الاتحاد السوفيتى بهذه البلاد على
مستويات كثيرة ...

اعترف بها فى المجال الواقعى ، سواء بتأييد حركاتها
التحررية دون اشتراط أن تكون شيوعية .. او بتقديم
المساعدات الاقتصادية غير المشروطة لها ..

ثم اعترف بها على مستوى السياسة الدولية كقوة ذات كيان وذات أثر مادي ومعنوي .. وظهر الاعتراف هذا حين اقترح الروس - مثلا - أن يكون للأمم المتحدة ثلاثة سكرتيرين بدلا من سكرتير واحد : سكرتير شرقي وسكرتير غربي وسكرتير من الدول غير المنحازة ، وحين اقترحوا - في مؤتمر نزع السلاح - تمثيل الدول غير المنحازة لأول مرة جنبا الى جنب مع دول الشرق والغرب وفي النهاية ، اعترف الروس بهذه الدول اعترافا « عقائديا » نظريا ، وذلك في برنامج المؤتمر الثاني والعشرين للحزب .

ففي هذا البيان ، ترك الروس جانبا تعبير « البورجوازية الوطنية » التي يعتبرها الشيوعيون « قصيرة العمر نسبيا في الكفاح السياسي والوطني » وابتكروا تعبيراً آخر هو « الديمقراطية الوطنية » . ووصفوا البلاد ذات النظم « الديمقراطية الوطنية » بأنها تلك التي « تدافع بشدة عن استقلالها الوطني السياسي والاقتصادي ، وتكافح ضد التكتلات العسكرية وضد اقامة أى قواعد عسكرية فى أراضيها ، وتكافح تسلل الاستعمار الجديد ، وترفض الاساليب الرجعية فى الحكم ، وتبيع لمواطنيها فرصة العمل من أجل الإصلاح الزراعى والتغيير الاجتماعى » .

هذه النظم التى ليست اشتراكية ولا شيوعية ولا رأسمالية ، فى رأى روسيا ، لا بأس أن يساعدوا الاتحاد السوفيتى الى أقصى حد مستطاع ، لأنها فى رأيه تجتث نفوذ المعسكر الرأسمالى ، وتتجه الى عدم الانحياز . ثم ان الاحزاب الشيوعية فيها ضعيفة جدا ، الامر الذى يجعل أى وثبة شيوعية فيها الى الحكم مستحيلة وفى رأى الاتحاد السوفيتى ان هذه البلاد سوف تزداد

تأثرا بالاتحاد السوفيتي ، كلما زادت قوة الاتحاد السوفيتي الاقتصادية ، تطبيقا لنفس الفكرة التي سبق سردها بالنسبة للمعسكر الغربي ذاته .

أما الصين ، فهي لاتوافق على هذا الرأي ، فهي تعتقد أن النظم غير الشيوعية غير قادرة على أحداث أي تغيير اجتماعي في بلادها ، وأن مساعدات الاتحاد السوفيتي لهذه النظم ، كمساعدات الغرب تماما ، سوف تؤدي الى تقوية نظم غير شيوعية ، بل وقد تؤدي نهائيا الى تفويت فرصة قيام حكم شيوعي ، ولذلك فالاسلوب السليم في رأيها هو رفع درجة الضغط على هذه البلاد لوضعها في الموضع الذي تضطر فئاتها الاجتماعية الى الاختيار فيه بين الشيوعية وبين الرأسمالية . . بين الانحياز للشرق أو الانحياز للغرب . ونفس الخلاف نجده - للمرة الثالثة - بصدد موقف الاحزاب الشيوعية الكبيرة في أوروبا . . .

فالصين تنتقد هذه الاحزاب وتتهمها بأنها تناضل من أجل أهداف « ديموقراطية » لا من أجل أهداف شيوعية . هذا في الوقت الذي نجد فيه الحزب الشيوعي الفرنسي - مثلا - يذهب في محاولة التفاهم مع الحزب الاشتراكي الفرنسي الى حد أنه أعلن هذا الاسبوع أنه يعتبر أن تمسك الحزب الاشتراكي بحلف الاطلنطي وبالسوق الأوروبية المشتركة لا يقف عقبة دون تفاهمه مع الحزب الشيوعي . . .

هكذا ، نرى أن الصين بوجه عام ترى أن الوقت مناسب للهجوم الشيوعي الشامل في شتى الجبهات ، في حين أن روسيا ترى أن الوقت ليس مناسباً لمثل هذا الهجوم . . .

ومرجع ذلك أن الصين ترى أن العالم لم يتغير كثيرا ،

في حين أن روسيا ترى أن العالم قد تغير كثيرا .
ولهذا تتهم روسيا الصين « بالحرافية » أي التمسك
بحرفية المبادئ ، في حين أن الصين تتهم روسيا
« بالتحرافية » . أي تحريف المبادئ الأساسية بما
يناسب أهدافها السياسية . .

روسيا متفائلة ، ترى أن التعايش السلمي ممكن ،
وانها تستطيع أن تصل إلى اتفاقات مع الغرب تمنع
الحرب ، وتترك النظم الاجتماعية لامتحان التنافس
السلمي . .

والصين متشائمة ، ترى أن الوصول إلى اتفاقات
مع الغرب أمر مستحيل وأن الشيوعيين سيعودون يوما
إلى موقفها وهو : مواصلة القتال في سبيل نشر
الشيوعية . . .

الصين تتهم روسيا بانتهاج سياسة « استسلامية »
كما قالت جريدة الشعب الصينية منذ أيام . . في حين
أن روسيا تتهم الصين باللعب بالنار . . نار الحرب
الذرية !

بين الصين والهند

هل ينهار الحياد بعد هذه الحرب الصغيرة بين الهند والصين ؟

هل تتحول هذه الحرب المحدودة ، الى حرب غير محدودة بين شعبين تعدادهما ألف مليون ، كل منهما في حاجة الى كل ساعة سلام !

هل تصل الأمور الى أن يصبح شمال الهند « كوريا جديدة » ، مجرد أرض تتحارب فيها العدوتان النهائيتان : أمريكا والصين ؟

أو هل تكون هذه الأزمة هي « القشة » التي تقصم ظهر البعير ، فتجعل روسيا والصين ثقان - علنا - في معسكرين متصارعين ؟

أو ان الأمر لن يكون أكثر من « دمل » جديد من الدمايل الصغيرة في تلك المنطقة التي تثور آلامها حيناً وتهداً حيناً ، مثل لاوس ، وفيتنام ، وكشمير ؟ !

ان هذه المساحات الشاسعة من الاراضى الجبلية ، الثلجية ، والتي يبدو كأنه ليس لها من مغزى سوى ان تكون فاصلاً هائلاً بين شعبين هائلين : شعب الهند وشعب الصين .. هذه المساحات المتنازع عليها أصبحت تشبه حاجز الموج الذي يفصل بين محيطين ، ويوشك أن ينكسر ، ولو انكسر فليس بعده سوى الطوفان ..

ولعل أول سؤال يجب أن نثير على إجابة له ، قبل أن نحاول تلمس طريقنا الى القضايا الأخرى الأساسية ، هو :

هل هذا الصراع - بالفعل - صراع على الحدود .. لا يستهدف أكثر من هذه المناطق الجبلية وحدها ؟ أو أنه صراع يستهدف غايات أخرى ، سياسية قبل أن تكون جغرافية ؟ ..

وهنا لابد أن نفرق بين « العمل » السياسي وبين « الفكر » السياسي ..

ففي ميدان « العمل » السياسي ، لابد لنا - كدولة - أن نؤمن بالحياد الإيجابي - أن « نفترض » وأن « نصدق » أنها مشكلة حدود فحسب ، وأن نعمل بالتالي على حصرها في هذا النطاق تمهيدا للوصول الى حل حاسم لها ..

أما في ميدان « الفكر » السياسي - الذي يخدم بدوره العمل السياسي في مداه الطويل - فلا بد أن نطوف بفكرنا ودراستنا كل أرض ، ونحسب حساب كل عنصر من العناصر المؤثرة في الموقف أو التي سوف تتأثر به .. هناك إذن احتمالان :

الاحتمال الأول : أن تكون المسألة مسألة نزاع على الحدود لا غير .

والاحتمال الثاني : أن تكون صراعا يستهدف غايات أخرى سياسية قبل أن تكون جغرافية ، وعالمية قبل أن تكون محلية .

الاحتمال الأول ، وهو أن تكون المسألة مسألة حدود فقط ، لا أحب أن نستبعده من حسابنا ببساطة .

فليس من الشاذ ولا من النادر في تاريخ الدول أن نجد مساحات صغيرة نسبيا من الأرض تكون محل صراع

دموي. جيلا بعد جيل . . وهناك مثلا مقاطعة الازاس
واللورين التي ظلت المانيا وفرنسا تتحاربان عليها
وتتبادلان ضمها جيلا بعد جيل ، حتى كاد عدد الذين
سقطوا قتلى من جرائها يصل الى عدد سكانها . .

وقد كانت المشاكل التي أشعلت كل الحروب في
أوروبا تقريبا مشاكل حدود ، أو كانت تتخذ مشاكل
الحدود حجة وذريعة لاشعال الحروب . .

كذلك فإن هناك وهما شائعا هو أن مشكلة الحدود
بين الهند والصين مشكلة جديدة طارئة . والواقع انها
مشكلة بدأت منذ أكثر من عشر سنوات ، أي منذ
اكتمل استقلال كل من الهند والصين . ففي وثائق
الحكومة الهندية نفسها نجد أنها أعربت لحكومة الصين
عن قلقها بسبب الحالة على الحدود لأول مرة في أغسطس
سنة ١٩٥٠ ، ومن يومها تقريبا والمشكلة قائمة ، تسخن
حيناً وتبرد حيناً آخر ، ولكنها قائمة باستمرار . .

وقد ارتكبت - وأنا أستعد لكتابة هذا المقال - غلطة
كبيرة ، حين حاولت أن أغوص في وثائق الطرفين ،
ونصوص المذكرات المتبادلة بين نهرو وشواين لاي محاولا
أن أصل الى تبسيط حقيقة النزاع حول هذه الحدود . .
اذ كان جهدي هذا كله عبثا لا طائل وراءه .

فالطرفان يرجعان الى مجموعة كبيرة من الوثائق
تتراوح بين معاهدات جدية عقدتها سلطة الحكم
الانجليزية في الهند وسلطة الحكم الامبراطورية البائدة في
الصين ، وبين اتفاقات بين حكام أصغر من حكام ولايات
الحدود ، الى خرائط مختلفة طبعتها دور النشر
الاوروبية في عصور شتى ، الى تفاصيل وردت في دائرة
المعارف البريطانية عن هذه المناطق . . الى كتب ومذكرات
الرحالة القدماء وأحيانا كنت أصادف أبحاثا عن أصل

أسماء بعض المدن والقرى هناك .. وهل لها أصل في اللغة الصينية أو في اللغة الهندية .. الى آخره ؟ ..

ولو شئنا تلخيص موقف كل من الطرفين - وهو تلخيص لا يستبعد كل استثناء - لقلنا ان الهند بوجه عام ترى ابقاء الحال على ما هو عليه ، على أساس ان الحدود القديمة رسمتها الطبيعة والتقاليد والعرف والمعاهدات سواء كانت رسمية أو شبه رسمية .. والصين ترى ان هذه الحدود لم تخطط رسميا قط بين الهند والصين كدولتين مستقلتين .. وان الحدود الحالية مجموعة تلفيقات انجليزية تجمدت في ظل ظروف شتى يجب ألا تستفيد الهند منها الآن ..

وبينما تقول الهند : انها هي التي تحمست لقبول الصين الشيوعية المستقلة في المجتمع الدولي . وتحمست لتنفي صفة العدوان عنها ، يقول الصينيون : ان الهند استغلت مقاطعة أغلب العالم للصين ، ورغبة الصين في كسر الثلج حولها ، لكي تحصل من الصين على اعتراف بهذه الحدود .. الأمر الذي لا تقره الصين ..

أقول : كانت عبثا هذه المحاولة للخوض في الوثائق والمساجلات ، لأنه لو كان الأمر أمر وثائق وبيانات فلا بد ان المسألة ستنتهي الى مائدة مفاوضات تستمر سنة أو سنوات ، تنتهي الى قبول تخطيط للحدود بشكل أو بآخر ..

ولكن قضايا الحدود في عالم اليوم كثيرة جدا ، وهي اما مجمدة في انتظار الوقت المناسب للتسوية ، واما أن تتم تسويتها بالوسائل السلمية ، وفي بعض الاحيان تقع حوادث مسلحة ولكنها محدودة وفردية ..

أما في حالة الخلاف بين الهند والصين فالأمر قد تعدى هذا النطاق . الأمر هنا وصل الى حد تحرك

عسكري ضخم من جانب دولة كبيرة هي الصين ، الحق هزيمة عسكرية واضحة بدولة أخرى كبيرة هي الهند . . والآثار العميقة لمثل هذا الحدث لا يمكن أن تغيب عن بال قادة دهاء ، توافرت لهم خبرة سياسية طويلة وعميقة كقادة الصين . .

فهل ياترى كانت حكاية الحدود هذه من الأهمية عندهم بحيث لم يحفلوا بما يترتب عليها من آثار ؟ . . أو أنهم قصدوا بحكاية الحدود هذه أن يحققوا هذه الآثار بالذات ، التي لم تكن حكاية الحدود إلا وسيلة إليها . .

لنفحص أولا هذه الآثار التي ترتبت على العمل الصيني العسكري . . لقد لعبت الصين اللعبة التي تريد أن تحققها ببراعة هائلة . .

استفادت - أولا وقبل كل شيء - من ان الصين بوجه عام مجتمع مستعد للحرب ، والهند مجتمع غير مستعد للحرب . . فقامت بعملية عسكرية بدت أول الأمر خطيرة وهائلة الى درجة هزت أعصاب الهند والعالم ، ثم أوقفتها فجأة - بالتأكيد طبقا لخطة مرسومة من قبل - وأعلنت وقف إطلاق النار بحيث تظل يدها موضوعة على الجزء الذي أرادت أن تضع يدها عليه . .

وتركت بذلك عبء بدء الهجوم وتجديد القتال على عاتق الهند . . وهي عالمة تماما ان الهند لن تستطيع بالتأكيد أن تبدأ هجوما في الأجل القريب . أما في الأجل البعيد ، فلو تحركت الهند للقتال فستبدو كأنها هي البادئة بالقتال . .

وحساب الصين - على الاغلب - مرسوم على أساس أن الهند لن تتقدم الى القتال حتى في الأجل البعيد . .

واذا بدأت مفاوضات جادة ، فهى أى الصين ستفاوض
من مركز قوة ..

وحتى اذا نجحت المفاوضات السلمية فالآثار البعيدة
للعمل العسكرى تحققت على أى حال ..

تحقق أن الصين أثبتت لدول آسيا انها القوة العسكرية
الاولى فى المنطقة ، وانها هى التى يجب أن تكون مرهوبة
الجانب على الدوام ..

وتحقق أنها نفذت ارادتها فيما يتعلق بالحدود الى
وقت غير محدود ..

وتحقق أنها « أهانت » دولة كبرى هى الهند ،
وجرحت كبرياءها على مرأى ومسمع من العالم أجمع .

وسوف تترك هذه الاهانة أثرا عميقا فى الهند ، بل
سوف تغير حياة الهند من الداخل أكثر مما يستطيع
أن يغيرها أى انقلاب ..

لقد عاشت الهند حتى الآن حياة دولة لا تؤرق حياتها
مشاكل خارجية حادة . الأمر الذى جعلها قادرة على

أن تسلك نوعا من الحياد الهادئ نسبيا . مشكلتها
الخارجية الحادة الوحيدة كانت مع باكستان . وهى -

أى الهند - على أى حال أكثر عددا وأكبر قوة من
باكستان مما يعتبر نوعا من الوقاية الطبيعية لها .

وفيما عدا هذا لم يكن هناك أى تحد خارجى حقيقى
يسد طريقها . الأمر الذى يعد استثناء فى عالم اليوم .

وقد ترك هذا أثره على الحياة الداخلية للهند . فهى لم
تضطر الى أحداث أى تغيير اجتماعى عنيف . ولم تضطر

الى صرف الأموال على اقامة جيش وطنى قوى .. ولم
تضطر الى الكثير مما تضطر اليه الدولة الناشئة فى هذا

العصر من احساس بالرغبة فى الإسراع الى تصفية
المشاكل القديمة بما يصاحب هذا من ضغوط سياسية

واجتماعية عنيفة . . .
ولكن صدمة الصين لها جعلت هذا كله يتغير . . . الآن
شعرت القيادة الهندية بحاجتها القصوى الى تصفية
كثير من المشاكل الداخلية المعلقة ، والى الوصول الى
درجة من الوحدة الوطنية المعقولة . الآن لابد للهند من
اقامة مصانع السلاح ومن شراء السلاح ومن بناء كل
الاجهزة التى تضطر دول هذا العصر المضطرب الى
بنائها . والآن لابد ان تتأثر برامج التنمية الهندية بهذا
كله .

وهذا سوف يجعل حاجة الهند الى الاختيار بين
اليمن واليسار ماسة . .

ولكن الغريب فى الأمر - وهذا هو الأثر الآخر الخطير
- هو أن العمل العسكرى الصينى يعطى اليمن فى
الهند فرصة لم يكن يحلم بها . فالمعسكر الغربى هو
الذى خف الى نجدة الهند ودعاة الاحلاف القدامى
يرددون باستمرار أن الصين لم تهاجم أى أرض داخلية
فى المعسكر الغربى أو حاصلة على نوع من الضمان الصريح
منه مثل هونج كونج أو فورموزا أو باكستان أو حتى
ماتسو وكيموى ، ولكنها هاجمت الهند غير المنحازة . .

فاليمن يلوح اليوم للهند بما يبدو انه الحل السهل .
ولكنه فى الواقع الحل القصير الأمد ، والقصير النظر . .
لأن الرجوع الى اليمن لابد أن ينعكس مع الزمن على
كل شىء فى الداخل ومعنى ذلك أن تتجمد الاشكال
الاجتماعية القديمة فى الهند وتقوى ، بدلا من أن يزيلها
الجديد شيئا فشيئا . وهذا معناه سلب مجتمع الهند
من سلاح التقدم السريع ، الأمر الذى يجعله أكثر ضعفا
فى مواجهة التحدى الاجتماعى الخطير الكامن فى دولة
الصين . .

لقد اختارت الهند أن تتجه الى الاشتراكية ، واختارت اشتراكية متدرجة تدرجا هادئا بحكم التركيب المعقد للمجتمع الهندي . الأمر الذى جعل اليمين الهندي ما زال قويا عاتيا الى الآن ، ينتهز كل فرصة لرفع شعار تصفية الاشتراكية والعودة الى الرأسمالية الاقطاعية القديمة . ولهذا فالهند اليوم - فى الداخل - تواجه أصعب اختيار صادفها منذ عهد الاستقلال الى الآن . .

اما أن يستولى اليمين على موجة الوطنية الهندية التى حركتها صدمة الصين ، ويستخدماها فى تدعيم مركزه . واما أن يتمكن الاشتراكيون من استخدام هذه الموجة الوطنية استخداما تقديميا فى حل جانب من المتناقضات الداخلية حلا اشتراكيا ، فى نفس الوقت الذى يقف فيه - فيما يتعلق بكيان الهند - موقفا سليما

ولن يتم هذا الا اذا احتفظت الهند بموقف الحياد الايجابى الذى يضمن نقاء التجربة الاجتماعية الداخلية من المؤثرات التى تدفعها الى الانحراف . وكما استطاعت مصر أن تشتري سلاحها من روسيا وتبقى محايدة ، ففى استطاعة الهند أن تشتري سلاحها من الغرب وتبقى محايدة . .

بل انه فى تاريخ مصر ، انها مرت بأزمة عنيفة مع المعسكر الشرقى أيام أحداث العراق ، ومرت بأزمات أوسع نطاقا وأشد عنفا مع المعسكر الغربى ، ولكنها استطاعت أن تواصل اتجاهها الاشتراكى المستقل فى الداخل ، وموقفها الحيادى الايجابى فى الخارج .

هذه هى المهمة الصعبة التى تواجه نهرو اليوم . وهى بالتأكيد أخطر مهمات حياته السياسية كلها . . على انه من المستبعد أن تكون الصين قد وضعت فى اعتبارها الاول ، وهى تقدم على عملها العسكرى ، ما

سيحدث من آثار في سياسة الهند الداخلية . .
أغلب الظن أنها فكرت - أولاً - في وضع الهند الدولي ،
وفي آثار هذا العمل العسكري من الناحية الدولية .
وهنا يرد ذكر خروشوف . .
فلو أننا سألنا أنفسنا : من هي الدولة التي وضعها
تصرف الصين في أكثر المواقف حرجاً . . لكانت الإجابة
حتماً : الاتحاد السوفييتي ! . .

فالإتحاد السوفييتي - من جهة - هو قائد المعسكر
الشيوعي ، الذي ما زال يضم الصين . ومبدأ وحدة
الحركة الشيوعية ووحدة الأحزاب الشيوعية مبدأ
أساسي من مبادئه منذ قيامه . والاتحاد السوفييتي
يعرف أيضاً أن اتساع المعسكر الشيوعي وشموله لروسيا
والصين هو سلاح قوى جداً في مجال الحرب الباردة
والصراع الدولي ، ولو حدث أن انقسم المعسكر - مرة
أخرى - بخروج الصين هذه المرة ، فسوف يؤدي هذا
إلى إضعاف الحركة الشيوعية الدولية إلى حد خطير .

ولكن الاتحاد السوفييتي - من جهة أخرى - جعل
من أسس سياسته : الاعتراف بوجود كتلة كبيرة من
دول الحياد ، والدول ذات القوميات التقدمية النامية .
وسجل الحزب الشيوعي الروسي هذا الواقع في التقرير
النهائي للمؤتمر الثاني والعشرين للحزب . فضلاً عن أنه
يمارس هذه السياسة ممارسة عملية في صورة تعاون
ومساعدات غير مشروطة يقدمها لهذه البلاد التي
لا تدخل في المعسكر الشرقي .

والهند تأتي في مقدمة البلاد التي لها بالاتحاد
السوفييتي هذه العلاقات العميقة . . .

ولكن العمل العسكري الصيني جاء ليضع الاتحاد
السوفييتي في مأزق الاختيار بين وحدة المعسكر الشيوعي

وبين سياسته تجاه الدول المحايدة والمستقلة عن المعسكرات .

ولعل حساب الصين كان يقول : انه اذا اختار خروشوف جانب الصين ، تكون الصين قد نجحت في ارغام خروشوف على تعديل سياسته وادارة ظهره للعالم غير الشيوعى ، واذا اختار جانب الهند ، فمعنى ذلك انه سيخسر كثيرا داخل الحركة الشيوعية ، خصوصا الحركة الشيوعية فى آسيا وافريقيا ، وبذلك تكون الصين اقدر على تسلم قيادة هذه الحركات .

لاشك ان هذا كان من الآثار المحسوبة المتوقعة لدى قادة الصين ، حين قاموا بهذا العمل العسكرى ...

بل ان المؤكد - بالمنطق الشيوعى - ان الصين قد حسبت حساب الأثر المباشر لعملها هذا داخل المعسكر الشيوعى ، وداخل الحركة الشيوعية ، قبل أن تحسب حساب الأثر الذى قد يتركه عملها فى الهند ذاتها ، أو فى الموقف الدولى بصفة عامة ..

خصوصا اذا عرفنا ان أزمة الخلاف داخل المعسكر الشيوعى قد وصلت فى الشهور الاخيرة الى ذروة لم تصل اليها قط من قبل ..

ففى خلال الاسابيع الاخيرين ، انعقدت ثلاثة مؤتمرات للأحزاب الشيوعية .

مؤتمر للحزب الشيوعى المجرى .

ومؤتمر للحزب الشيوعى التشيكوسلوفاكى ، ومؤتمر للحزب الشيوعى الايطالى ...

وقد اهتمت روسيا بهذه المؤتمرات الثلاثة اهتماما كبيرا ، فأرسلت بريزنيف الى المؤتمر الاول ، وكوزينين الى المؤتمر الثانى ، وكوزلوف الى المؤتمر الثالث وكلهم من الذين يقفون فى الصف الثانى بعد خروشوف مباشرة

فى الاتحاد السوفىيىتى ..

وفى المؤتمرات الثلاثة تكررت نفس القصة :

مندوب الصين يشن حملة هائلة على تيتو وعلى
يوغوسلافيا ، وصل فيها الى اتهام تيتو فى مؤتمر
الحزب الشيوعى الايطالى بالخيانة فى الوقت الذى يزور
فيه تيتو روسيا ويتباحث مع خروشوف ..

ثم يقف مندوب الاتحاد السوفىيىتى ومندوبو سائر
الاحزاب الشيوعية - خصوصا الاوروبية - يهاجمون
البانيا هجوما قاسيا .

والهجوم على يوغوسلافيا - كما هو معروف - معناه
الهجوم على خروشوف . والهجوم على البانيا معناه
الهجوم على الصين ..

بل ان المسألة وصلت فى مؤتمر الحزب الشيوعى
الايطالى الى درجة اصرح حيث هاجم تولىاى الصين
صراحة وتوالى بعده الهجوم من مثلى سائر الاحزاب
الشيوعية ..

وقد انصب هجومهم على ما سموه « موقف بعض
الشيوعيين من سياسة الاتحاد السوفىيىتى ازاء
مشكلة كوبا » و « استخفاف بعض الشيوعيين بخطر
الحرب الذرية والهيدروجينية » ..

بل ان التهديد بفصل الصين من المعسكر الشيوعى
وقطع العلاقات معها ظهر واضحا لأول مرة ، حين تحدث
المنسحبون قائلين : « ان الحركة الشيوعية حركة
« لينينية » ، لا تقبل وجود المنشقين بين جدرانها .. »

هكذا يمكن القول بأن الخلاف الكبير داخل المعسكر
الشيوعى أصبح قضية من أكبر قضايا هذه المرحلة من
حياة العالم . وعلى هذا الخلاف وطريقة حسمه يتوقف
الكثير جداً من قضايا العالم .. عالمنا المعاصر .

مذكرات مدرسة في خدمة سبيلين

في سنة ١٩٣٠ ، تزوجت كاترين ليهمان ، طالبة الآداب الباريسية ، من المهندس السويسري بيرفيجور . وبعد سنوات قليلة سافرت مع زوجها الى روسيا ، حيث تعاقد مع الحكومة السوفيتية للعمل في أحد مصانعها في ليننجراد لمدة عشر سنوات ..

وقد استطاعت ، بجمالها ودمائة خلقها ، أن تجمع حولها دائرة كبيرة من الأصدقاء ، حتى قتل زوجها سنة ١٩٣٧ في حادث بالمصنع وأسرع أصدقاؤها لمساعدتها ، فحصلوا لها على وظيفة مدرسة في مدرسة خاصة لأطفال كبار الموظفين وزعماء الحزب ..

ونجحت في عملها الجديد نجاحا باهرا . وكانوا يسمونها الفرنسية الحسنة . حتى كان ذات يوم إذ استدعيت للذهاب الى موسكو ، دون أن تعلم السبب .. وهي تقص بعد ذلك ، قصتها الشائقة :

من خلف النوافذ المزدوجة للسيارة المصفحة ، بدأت أتبين مدينة كأنها في عالم آخر . ولم أكن قد عرفت من روسيا غير ليننجراد وضواحيها . ولم يسمح عقدي استخدام زوجي في خلال الثلاث سنوات التي قضيناها بأكثر من شهرين اجازة ، أمضيناها في باريس . وكثيرا ما كنا نحلم ، قبل وفاته ، برحلات طويلة . وكم قال لي :

- سأجعلك تزورين موسكو ، وسواحل القرم ،
وجبال القوقاز !

ولكن الإقدار جرت بغير ما نحب . وقد عادت الى
خاطري تلك الهواجس المؤلمة ، حين قال لى السائق ،
اننا نغادر موسكو .

وبدأت السيارة تسير فى طريق مستقيم متسع ..
وعلى جانبيه تتابع « فيلات » منخفضة ، لونها أخضر
وأبيض ، وأحيانا أحمر ، وابتسمت لهذه « الاكواخ »
كأنها أصدقاء قدامى اذ شعرت بالتححرر من تلك العمارات
الضخمة ، بمنظرها الصارم ، فى ليننجراد ، التى ظلت
تحدد أفقى أربع سنوات متتاليات . وكانت الشرفات
المصنوعة من الخشب المزخرف ، الفارفة فى زهور
«البانسية» ، و«الجرانيوم» وأسوار البيوت المصنوعة
من فروع الشجر . كانت كلها تبعث فى شعورا بالحياة .
وحين اندفعت السيارة بعد ذلك فى طريقها الى
«مواجيسك» حيث كنت سأسكن بدأت أغنى من حيث
لا أشعر « كلمنى عن الحب ! » .

وبعد دقائق عدت الى واقعى حين وقفت السيارة .
وامام الباب ، كان الرفيق بوسكروبيشيف ، السكرتير
الخاص لستالين ، الذى صحبنى فيما قبل الى موسكو .

وقال لى : هذه هى فيلا « جورينكا » . اذن فهذا
السقف الخشبي ، وهذا الاسم هو اسم القرية التى
ولد فيها ستالين كما تعلمين . أرجو لك طيب الإقامة .
وآمل أن تكونى سعيدة ..

وفى نهاية الحديقة ، وقعت عيناي على فيلا من ثلاثة
أدوار ، خضراء اللون ، تتسلق الزهور جدرانها من
هنا وهناك . وشعرت بأن هذا البيت سيكون له دور
فى حياتى . فقد أفهمونى اننى لن أستطيع مبارحته

كثيرا . اذن فهذا السقف الخشبي ، وهذه الحديقة المهمة تقريبا ، سيكونان على لمدة طويلة . ولحظ بوسكروبيشف - وكان يسير بجوارى - خيبة الامل التى ارتسمت على وجهى ، فقال لى بابتسامة :

- ان الحياة فى جورينكا ستعجبك جدا . كانت هذه الحديقة فيما مضى أكبر من ذلك بكثير ، ومنظمة على الطريقة الفرنسية . ولكن ستالين اقتطع منها جزءا كبيرا وقدمه هدايا الى بعض أصدقائه . وبيتى أنا موجود فى هذا الاتجاه فى خلف الاشجار . وبجوارى بيت رئيس بوليس موسكو السابق وأولاده السبعة عشر !..

و « بوسكروبيشف » يبتسم دائما ، وهو يرد الى الخلف خصلة شعره الشقراء المتهدلة على جبينه . ولم أسمعه أكثر من ذلك ، فقد وصلنا الى باب الفيلا . وبدأت أتفحص ما حولى ، وأنا أتوقع أن أرى فى أى لحظة الطفلين اللذين سأقوم على تعليمهما . وفتحت لنا الباب سيدة عجوز جدا ، تلبس ثوبا طويلا ، وتضع على كتفها شالا من القطن الاسود . .

وقال لى بوسكروبيشف :

- أقدم اليك رافاييلوفنا . . مديرة جورينكا . اننا نسميها كاجوشى .

ثم أضاف بالفرنسية ، وبلكنة جورجية ، وهو يبتسم :
- انها أقوى شخصية فى روسيا كلها ، فستالين نفسه يخضع لأوامرها !..

وقالت رافاييلوفنا انها ستقودنى الى حجرتى ، وصعدت خلفها السلم . كانت الساعة التاسعة صباحا ، وكان فى نفسى شعور بأن الجميع ما زالوا نائمين . فقد كانت الابواب كلها مغلقة . وفى الطابق الثانى ، فتحت رافاييلوفنا بابا ، وقالت لى :

- حجرتك ... سأبعث اليك بحقائبك . أيمكنك أن تكونى مستعدة فى الظهر ؟

وكان سؤالاها كأنه الأمر . ولم تنتظر اجابتي وانصرفت ، وهى تسير بلا أى صوت على البساط الكثيف الذى يغطى الممر . وأغلقت على حجرتى وكانت الشمس تتسرب من خلال النافذة . كانت الارض مغطاة بأبسطة سميقة جدا . وكذلك الحائط ، والسريـر أيضا . وألقيت نفسى على السريـر مؤجلة اختبار الفرقة الى ما بعد . وكانت تزدهم فى ذهنى حوادث ثلاثة أيام متتالية . ولكننى نمت .

وكانت هذه المفامرة قد بدأت ، بزيارة مفاجئة قام بها ضابط كبير يرتدى معطفا رماديا . جاءنى فى شقتى التى كنت أسكنها فى لينينجراد بعد وفاة زوجى ، فى الطابق الثامن من عمارة سكرتيرية الحزب . وقد ساورنى الرعب حين رأيته . فقبل ذلك منذ ثلاثة شهور طرد مهندس فرنسى من البلاد فى خلال ثلاث ساعات ، مع زوجته وولديه ، ولم يحملوا معهم غير حقيبتين فقط . ولم يعرف أحد قط السبب فى طرد هذه العائلة . وكنت فى ذلك الوقت أسكن مع زوجى فيلا جميلة فى الضواحي ، ثم أمرنا بتركها . ليحل محلنا مهندس بلجيكى جاء مع أسرة مكونة من احد عشر شخصا ! ..

توقعت اذن أن يكون هذا الضابط قد جاءنى لشيء من ذلك . سألتنى أولا : هل أتكلم الروسية ؟ ثم استأذنى فى القاء بعض الاسئلة ، وأخرج من جيبه قائمة غريبة .. لماذا حضرت الى روسيا ؟ هل خطك حسن ؟ ما وزنك ؟ هل أنت صبورة على العمل ؟ هل قرأت « رأس المال ؟ » ..

وبدا لى الأمر مضحكا ولكن عجبى تضاعف حين طلب

منى الضابط ان أغنى أغنية « فى ضوء القمر »
au clair de la lune فبدأت أغنيها وأنا أضحك .

ودامت المقابلة ساعة . ولم أسأل الضابط عن سبب
الاسئلة الغريبة . واستأذن فى الانصراف وهو يقول لى :
- ان الرقة التى أجبت بها على أسئلتى جديرة بالثقة

وبقيت أفكر فى الأمر حتى الفجر . وفى اليوم التالى
لم أحدث أحدا قط بنسباً تلك الزيارة . وكنت أعطى
تلاميذ فصلى فى ذلك اليوم قصة لموباسان عن الحرب
السبعينية ، تدور حول طفلين باريسيين ، فى أثناء حصار
باريس ، يحاولان عبثا اختراق خطوط الالمان . وكانت
الصحف فى ذلك الوقت طافحة بأنباء الخلاف مع المانيا .
فلما انتهيت من الحصة ، فوجئت بالاطفال ينشدون
« المارسلييز » بدلا من نشيد « الانترناسيونال » ،
مجاملة لى . واقتربت منى صديقتى ماريا ابرانوفتشى ،
مدرسة التاريخ بالمدرسة ، وقالت لى :

- يا عزيزتى كاتى ، انك ستخلقين لنفسك المتاعب !
وكانت ماريا فى الخامسة والثلاثين من عمرها ، أجمل
امراة لقيتها فى حياتى ، وكانت تدرس التاريخ وتشرف
على التوجيه السياسى والفكرى فى المدرسة عامة بناء
على تعليمات الحزب . كذلك كانت تقوم أيضا بمهمة
الرقابة . فكل الكتب التى كانت تصلنى من الخارج
لا بد أن تمر بها وتفتحها . وقد عرفت فيما بعد أن بعض
أصدقائى أرسلوا لى كتبا لأندريه جيد ، ومؤلفات فى
التاريخ المعاصر لبانفيل ، ولكنها لم تصلنى قط ! وكذلك
كانت تراقب بريد كل المدرسين رجالا ونساء . ولما كان
كل أطفالنا من أبناء كبار رجال الدولة فقد كانت الرقابة
علينا تباشر بعناية أكثر .

وفى اليوم التالى استدعيت الى مكتب المدير الذى

قال لى ان هناك امرا يسفرى الى موسكو وقال لى ان
ماريا ستصحبني .

وركبنا فى الصباح اكسبريس موسكو ، الذى قطع
المسافة فى ثمان وعشرين ساعة . وفى خلال الرحلة
تعرضت لتجربة مؤثرة . سألت ماريا :

— ماريا.. أنت تعلمين سبب استدعائى الى موسكو؟

— نعم ..

— ألا تقولين لى ؟ .. اننى اعز صديقاتك .. الا تثقين

فى ؟ ..

— كلا ! ..

وطيلة الرحلة رفضت أن تعطينى أية معلومات . وفى
ذلك الوقت لم تكن هناك عربات نوم فى ذلك القطار ،
فنمت طوال الليل مستندة الى كتفها . وفى الصباح ،
على رصيف محطة موسكو ، قابلنا فتى أشقر طويل ،
انه سكرتير ستالين ، وقدمتنى اليه ماريا قائلة :

— هذه كاتى .. المدرسة الجديدة !

وقال لى بوسكروبيشيف :

— لقد طلب منى الرفيق ستالين أن أبحث عن أحسن
مدرسة فرنسية فى روسيا . وبمساعدة قومسيارية
التعليم ، عثرت عليك ..

وركبنا عربته الطويلة السوداء . وجلست بينه وبين
ماريا ..

كان الوقت ليلا ، ولكن الجو ما زال جميلا . وعبرت
العربة الميدان الأحمر وقال لى بوسكروبيشيف :

— ان لستالين ابنا اسمه فاسيل فى السادسة عشرة ،
وبنتا اسمها سفيتلانا فى الثانية عشرة . هما تلميذان
مجتهدان . وأنت معينة لتعليمهما بأجر قدره ٤٠٠٠
روبل شهريا . وستقيمين فى موجايسك ، حيث تسكن

الأسرة . وهناك معلمة أخرى روسية . ولكن لا شأن لك بها . وفي استطاعتك الاعتذار عن هذه الوظيفة . وفي هذه الحالة عليك مفادرة روسيا مباشرة دون المرور على ليننجراد . والعقد لمدة سنة تتجدد بالاتفاق ..

ثم أضاف باسم ، في فرنسية ركيكة :
— ولكن يا «مدموازيل» اننى أسكن أيضا في موجايسك . وسأكون في خدمتك .

وبعد ساعة ، وقعت العقد في مكتب القوميسارية . وعانقت ماريا ، ثم ركبت السيارة المصفحة التى كانت في انتظارى . ووضع أحد الجنود حقائبى في السيارة . وبعد ساعة ، كنت أنام ، تحت سقف سيد روسيا !

وفي الساعة الحادية عشرة والنصف سمعت طرقا على باب حجرتى . ونهضت قفسلت وجهى وفتحت النافذة المظلة على الحديقة . ولبست « بلوزة » بيضاء من باريس ، بلا نقوش ، وجونلة زرقاء . ووضعت خاتما . وترددت في وضع « الروح » على شفتى . وسمعت طرقا على بابى مرة ثانية . ودقت الساعة الثانية عشرة . وفتحت الباب ، واستأذنى رجل في ان أتبعه .

كان البيت مازال هادئا ساكنا كما كان في الصباح . ولاحظت ان الاثاث قليل . وفي الصالون رأيت امرأة سمراء برونزية اللون . وجذبتنى عيناها .. كانتا سوداوين ، تظللهم أهداب لامعة طويلة ، ذكرتنى بعينى ماريا . وكان شعرها يتهدل على كتفها . وقد قدرت لها ٣٥ عاما ، ولكنها كانت في الواقع في الرابعة والاربعين وابتسمت لى وقالت بالفرنسية :

— اجلسي ياسيدتى . اننى سعيدة بمعرفتك ، وآمل ان يحبك فاسيلى وسفتلانا . اننى لست أمهما ، ولكننى

أحبهما كما لو كنت .

وقدنت لى سيجارة . واستطردت تقول :

— ان الاولاد فى « ترشى » وهى مزرعة نموذجية على بعد ١٢٠ كيلومترا من موسكو . سيكونان هنا بعد غد . فهناك وقت لكى تتعودى على المكان .

وفى المساء ، أرسلت الى حجرتى باقة كبيرة من الزهور . وهكذا لقيت لأول مرة « روزا كاجانوفتش » ولم تحدثنى قط عن ستالين ، زوجها ، ولا عن لازار كاجانوفتش ، نائب رئيس قوميسارية الشعب سابقا ، أخيها . وقد رآها ستالين أول مرة سنة ١٩٣١ ، وكان متزوجا من ناديا الليفنا . وبعد سنة ماتت زوجته . فتزوج روزا

وقضيت اليوم التالى بين الحديقة والمكتبة الصغيرة ، وقد اكتشفت فيها نسخة من قصة « الحرب والسلام » ، لتولستوى وعلى هوامشها ملاحظات بخط ستالين . . . خط كبير ولكنه منظم واضح . وكانت الملاحظات تحمل معنى التحامل على تمجيد الأبطال . ولاحظت تكرار جملة « خطأ اشتراكيا » وقد عرفت فيما بعد أن ستالين يملك فى الكرملين مكتبة هائلة وأنه اذا حضر الى جورنكا لبضعة أيام أحضر معه كتابين أو ثلاثة .

وفى صباح اليوم التالى ، حوالى الساعة الثامنة ، قمت وخلعت قميصى واذا بى أفاجاً بالباب يفتح وأنا على هذه الحال . ورأيت — وأنا ذاهلة من المفاجأة — فتى أسمر الشعر ، أزرق العينين ، يتأملنى ضاحكا ! كان يلبس قميصا أخضر ، وينطلونا من الفانلة الرمادية . وأسرعت أسترن نفسى بالروب . والفتى يتأملنى ضاحكا كأنه لا يجد غرابة فى ذلك . وخلف كتفه ، لمحت فتاة صغيرة تتطلع الى ، مهوشة الشعر .

وقلت فى لهجة حاولت أن تكون مؤدبة : ماذا تريدان؟

فقال الفتى وهو يشد قامته : أنا فاسيلي ستالين .
معدرة أيتها الرفيقة على ازعاجك .

وسمعت الفتاة تقول فى صوت نحيف :

— وأنا سفتلانا ستالين ، أيتها الرفيقة المعدرة ..

وفى ضحك برىء ، دخل الطفلان حجرتى وبدءا يعبثان
فى حقائبى ، وثيرابى ، وهما يطرحان على شتى الاسئلة :
ما عمري ؟ هل أعرف مدموازيل ديجيلات ؟ ومسيو
ديجيلات ؟ ومدموازيل لابرانش ؟ ..

كانا يسألاننى عن كل الفرنسيين الذين رأوهما ..
وبدأت بدورى ألقى الاسئلة . كانا يحملان أطيب الذكرى
لكل مدرسيهم السابقين . ثم صحبتهما الى حجرتهما .
وهما يشغلان حجرة عظيمة الاتساع ، يقسمها حاجز
خشبي كبير الى قسمين . وعلى الحائط صورتان
كبيرتان : صورة لستالين ، وصورة لسيدة رائعة الجمال
— انها أمى !

قالتها لى سفتلانا وهى تنظر الى بعينيهما الصغيرتين
البندقيتين .

وقد لمست أن سفتلانا على جانب نادر من الذكاء .
فبينما كان أخوها يتلعثم فى كلمات فرنسية ، كانت هى
تنطق جملا كاملة بديعة التركيب ، قالت لى انها تعلمتها
من العم تشيتشرين . وهو دبلوماسى روسى كان يزور
الفيلا كثيرا .

وبدأنا الدرس الاول فى نفس اليوم . وكان على فاسيلي
أن ينسحب ليحضر درسا عسكريا ، فنزلت أنا وسفتلانا
الحديقة . وأخذت تعرض على كلابها الصغيرة . وفى
المساء عرفتني بأهل الفيلا جميعا . وبالرغم من أنها
تكون من ١٣ حجرة ، فان التى تقوم عليها سيده
عجيبة . رأيت طباحة من جورجيا عمرها ٧٠ سنة .

ورأيت أيضا خادمين من جورجيا . والطابق الثانى
من الفيلا يفلق طوال الشتاء . فاذا جاء ستالين الى
الفيلا ، حضرت خادماتان أخريان من الكرملين . وفى خلال
الصيف الذى قضيته فى جورينكا ، كان ستالين يقيم
استقبالا لضيوفه مرة كل أسبوع . وفى صباح يوم
الجمعة قالت لى سفتلانا :
— ان بابا آت غدا !

ولم أستطع أن أسأل الفتاة الصغيرة عن ستالين ،
الرئيس الأعلى لاتحاد الجمهوريات السوفييتية الروسية .
كنت أشعر شعورا غريبا نحو « بابا » هذه التى تنطقها
سفتلانا ببساطة وهى تضحك . وفى الحقيقة اننى لم
أعد أخشى من مقابلة والد هذين الطفلين . وقالت لى :
— انه سيحضر معه بيتر ..

وهو الكلب الذى يقتنيه ستالين فى الكرملين ..
وقد جاءوا فى اليوم التالى بعد الظهر . وجرى الاطفال
لاستقبال القادمين . وكنت فى حجرتى ، ولأول مرة
سمعت الموسيقى تصدح فى الطابق الاسفل . ثم صعد
فاسيلى وقال لى :

— لقد جاء الضيوف . ان روزا تسألك أن تنزلى .
وعند باب الصالون ، قابلتنى روزا وأخذتنى من
ذراعى . وتحت الثريا المضيئة ، كان رجال ونساء
يرقصون ، والى يمين القاعة ، كان جراموفون كبير يطلق
أنغام الفالس . ووضف من زجاجات الخمر — كلها من
تفليس — كانت مصفوفة على مائدة . وكان فاسيلى فى
ثياب عسكرية ، يراقص فتاة صغيرة شقراء . ولما رآنى
أشار الى بيده . ولكن الضجة ودخان السجائر جعلانى
أكاد أشعر بصداع . ثم انتهت الفالس . وصاحت
الفتيات الصغيرات يطلبن عزفها ثانية . فتقدم رجل

من الجراموفون، وأدار اسطوانة وقال : هذه «ماريسكيا»
كان هذا الرجل .. ستالين ! وقد أذهلتني المفاجأة .
وسقطت عنى كل الصور التى كنت أرسمها فى مخيلتى
لستالين . كان ستالين يبدو أصغر منى سنا . وهو
يلبس بذلة عسكرية لجندى ، بلا وشى ولا زخرفة .
وكانت رأسه غير عادية ، كبيرة ، كأنها وضعت خطأ
على جسم صغير . وذكرتنى عيناه بعينى سفتلانا .
وكان شاربه ضخما كثيفا جدا . وضع الاسطوانات
بحرص على القرص وأدار المفتاح . وألقى أذنه فترة
يستمع ، كأنه موسيقى مدرب ، ثم أمسك كأسا من
الخمير وشربها فى جرعة واحدة .

اننى ما زلت أذكر هذا اليوم بدقائه . وقد رآنى
ستالين واقفة عند الباب ، فبدت عليه دهشة .
واضطربت قليلا وأنا لا أدري ماذا أصنع أو أقول .
وقالت له روزا من أنا ، فكف عن التحديق فى ، ولكنه
فى نهاية السهرة قال لى وهو يمر بجانبى :
- مدموازيل ..

وقد قالت لى زوجته بعد ذلك ان هذه هى الكلمة
الفرنسية الوحيدة التى يعرفها . وهو يعرف أيضا بضع
كلمات ألمانية .. ولا يتقن بعد ذلك غير الروسية ..

وقد تحدثت معه بعد ذلك ، بالروسية ، مرات كثيرة .
وكان حديثى الاول معه عن ابنه فاسيلى ، وكان يسبب
له متاعب كثيرة . نادانى يوما لمقابلته فى الصالون المهجور
وقال لى :

- ان زوجتى ، ياكاترينا ، وضعت ابنى الاول فى
سنة ١٩٠٣ ، وأنا فى وسط روسيا ، اسمه ياشا ،
وهو ولد شرير ..

وقد استعمل فى وصفه تعبيرا قاسيا جدا . وفى خلال

السنة التي قضيتها في الفيلا ، لم يأت هذا الابن غير مرة واحدة . وقد أتم دراسته في مدرسة الفنون والصنائع . وقد رحل بعد ذلك الى القوقاز ليمارس رياضة الجبال وهذه هي القصة الرسمية عنه ، ولكن اشاعات كثيرة تدور حوله . . !

وقال لى سستالين انه لا يحب الدراسة النظرية المجردة كثيرا :

— ان ابنى فاسيلى يحب المزرعة « النموذجية » وهذا حسن .

وقدم لى سيجارة من ماركة خاصة لها فم من الكرتون ، منقوش عليه نجمة حمراء . وهو يدخن اربعين سيجارة يوميا . وقد قال لى طبيبه الخاص ، انه ، وهو مريض ينتحر بهذه الكمية الضخمة التى يدخنها . « وقبل ان أغادر الفيلا كان قد قللها الى عشرين سيجارة فقط » . قال لى يوما :

— منذ ان كنت فى الخامسة عشرة اى منذ ان تركت الدير ، لم أتلق درسا واحدا على اى استاذ . انما قرأت الكتب فقط . فما أطلبه منك هو تخفيف منهج الدراسة . لا أريد الاسراف فى الكلاسيكيات . لا كورنيل ولا شكسبير . انك تقولين ان سفتلانا خارقة الذكاء . . حسنا علميها كيف تطهى الطعام !

وكان يضحك مسرورا وهو يتكلم وينظر الى فى ود ، ويؤكد لى انه مسرور منى كثيرا ، وحين هم بالانصراف ، تأخر وجعلنى أتقدمه فى الخروج من الباب . كانت هذه المرة الاولى التى رأيته فيها يتأخر خلف امرأة . وقد بقيت أعتقد انه يرى ان دور المرأة الرئيسى هو قيامها على البيت . وأعلم ان زوجته الاولى ، ناديا ، أم الطفلين رفضت ذلك . وقد كانت تعمل فى أحد المراكز

الزراعية ، ولكن ستالين لم يكن راضيا أبدا ، في أعماقه
عن هذا الاستقلال . وكان هذا سبب عدم توافقهما .
وكانت سفتلانا ، على صغر سنها لها آمال واسعة .
كانت تريد أن تكون عالمة في الكيمياء . واستطاعت أن
تجعل روزا تنشيء لها معملا صغيرا حيث كانت تقوم
بتجارب عجيبة .

و ذات يوم ، سمعنا صوت انفجار هائل في البيت ،
فقد انفجر المعمل ، وخرجت الفتاة مصفرة الوجه .
ومن يومها لم نسمعها تتحدث عن الكيمياء أبدا .

ومن طموحها ، انها قدمت ذات يوم طلبا لمقابلة
ستالين في مكتبه في الكرملين بصفتها رئيسة للفتيات
الشيوعيات في موجايسك وأخذ الطلب طريقه الرسمي .
وبعد سبعة شهور ، حدد موعد للمقابلة ، وصحبتهما
حتى باب مكتب ستالين ، الذي رأيته واقفا خلف مكتب
طويل . وعند نهايته من طرفيه ، مدفأة من الخزف
الابيض ، والبساط المفروش رمادي والأثاث فاتح
اللون ، ورأيت على الحائط صورتين للينين .

وكان الزمن المحدد لمقابلة سفتلانا عشر دقائق « بدلا
من خمسة » . ووقفت تقرا على أبيها تقريرا أنصت
ستالين اليه ، ساكنا لا يتحرك ، وعيناه مثبتتان عليها
في انتباه عظيم . ثم سألها في بعض النقاط والتفاصيل،
وأكد لها ان كل شيء سيجاب . وقال لى الحارس الذى
كان يقف بجانبى ان هذه كانت المقابلة التاسعة عشرة في
ذلك اليوم .

وفى الفيلا ، لم تتحدث سفتلانا أبدا عن هذه
المقابلة الرسمية . وحين تكلم فاسيلى في الموضوع على
المائدة تلقى تحذيرا قاسيا ، وبعد ثلاثة أشهر ، أنبهه
والده على ذلك مرة ثانية .

ولاشك ان سفتلانا ورثت عن أبيها ذاكرة قوية .
فقد ذكرت لى يوما تاريخ قدومى الى الفيلا بالضبط ،
وكنت أنا قد نسيت . كذلك ورثت عنه مقاومة عصبية
قوية . فلم أر ستالين فى الفيلا ينام قبل الساعة الثانية
صباحا ويستيقظ حوالى العاشرة صباحا ، ثم يحلق
ذقنه فى بطة .

وقد سألنى يوما أن أترجم له من جريدة « الطان »
الفرنسية بينما كان يحلق ذقنه ، ولاحظت يوما ان له
ذراعا أقصر من الثانية قليلا .

وقد أصبح طبيبه الخاص أعز أصدقائى فى الفيلا .
فقد تلقى دراسته فى باريس ، وكان طبيب له أن يشرب
معى قهوة فرنسية كالتى كان يشربها فى الحى اللاتينى .
وشكا لى يوما من عدم استماع ستالين الى نصائحه :
- انه مريض ، ولن يتعدى الستين اذا ظل يشرب
ويدخن هكذا .

وكان فاسيلى يسميه العفريت ، ويضحك ستالين
كثيرا حين يسمع هذه التسمية . وذات يوم سقط
الطبيب مفشيا عليه من ثوبة قلبية ، ولم يفق الا بعد
جهد . وقد تأثر ستالين جدا . وكان هذا تحذيرا له .
ففى اليوم التالى قلل من الشراب والسجائر .

ولما بارحت الفيلا بعد ذلك بشهرين مسافرة الى
فرنسا لرؤية أمى التى مرضت ، اصطحبنى فاسيلى
وسفتلانا حتى موسكو . وعند الحدود تلقيت برقية
من روزا ، ولما وصلت الى باريس كانت أمى بدأت تخطو
الى الشفاء .

فجأة في الصيف الماضي

هذه الرواية .. رأيتها .. وقرأتها .. ثم حاولت ان أنساها ، أن أتخلص منها ، ولكننى لم أستطع !
انها رواية « فجأة ، في الصيف الماضي » للكاتب الأمريكى المسرحى تينيس ويليامز .. الذى رأيت له ولا شك « عربة اللذة » و « قطعة فوق سقف من صفيح ساخن » وغيرهما .

رأيتها رواية على شاشة السينما فى باريس منذ شهور .. وكان أبطالها اليزابيث تايلور وكاترين هيبورن ومونتجمرى كليفت .. كانت الصحف تتحدث عنها ، وكانت تعرض فى ثلاث دور للسينما فى نفس الوقت .. كان الجميع يدخلونها ولكنهم يخرجون منها بآراء متباينة .. بعض الناس تركوها بعد دقائق .. وبعض الناس ظلوا يحدقون فيها وقد أمسكوا بمقاعدهم .. كأنهم قد تجمدوا من الرعب ! وبعض الناس تقلصت أعضاؤهم .. أما أنا .. فقد أفسدت على بقية أيامى فى باريس .. اذ ظلت طيورها السوداء تطاردنى .. وتنقض على .. حتى وأنا أسير فى زحام الشاترليزيه .. أو سان ميشيل وعندما عدت الى القاهرة ، بحثت عن النص الاصلى للمسرحية حتى وجدته .. وأخذت أقرأه ..
ومرة أخرى عاد الحاحها على .. ومطاردتها لى ..

وعندما قررت أن اتخلص من الحاحها هذا ..
بتقديمها الى القراء .. ترددت أمامها طويلا ..
هل أراد المؤلف حقاً ما فهمته منها ، ان المؤلف شديد
التعقيد .. بالغ الغرابة .. وكل شخصياته غريبة !
ثم ما هو المهم في الواقع : ما يريد المؤلف فعلاً .. أم
ما يفهمه القارئ ؟ .. لاشك ان ما يفهمه القارئ هو
الأهم !

ولكن القراء كثيرون .. وكل واحد يفهم شيئاً لأننا
عادة نرى في الاشياء ما نحب ان نراه أو ما يجعلنا
بتفكيرنا الخاص نراه ، دون سواه ! ..

وأنا شخصياً أرى في كل شيء مغزى اجتماعياً ..

ولكن .. لعله من الاحسن الا افسد عليكم المسرحية
.. وان أؤجل التعليق الى أن ينزل الستار !

ان الذى نراه على المسرح هو غرفة صالون ، لها
شرفة تطل على حديقة غريبة .. فيها نباتات وطيور
مستحضرة من مختلف أنحاء الارض ..

وأول من يدخل المسرح « مسز فينابل » سيدة فى
الستين من عمرها تقريبا .. تدخل من الشرفة الى
الحديقة .. ومعها شاب وسيم جداً .. أنيق جداً ..
هو الدكتور كوكروفيتز ..

مسز فينابل : هذه هى حديقة « سباستيان » ان
كل زهرة قد كتب عليها اسماً باللاتينى .. بعضها
زهور نادرة .. من مناطق بعيدة ، تحتاج الى عناية
فائقة .. آه لا أستطيع ان أثابر على هذا المجهود فى
العناية بها .. والآن ، مارأيك فى حديقة ابنى سباستيان ؟

الدكتور : انها اشبه بغابة مرسومة بعناية .
مسز فينابل : تماماً .. هذا هو ماقصده ابنى
بالضبط .. انه لم يكن يترك شيئاً للصدفة أبداً .. كل

شيء كان مرسوما بعناية .. في حياته أو في عمله ..
الدكتور : وبالمناسبة .. ماذا كان ابنك يعمل فضلا
عن هذه الحديقة طبعاً ؟ ..

مسز فينابل : ما أكثر ما أسمع هذا السؤال ! هل
تصدق أنه مازال يضايقني كلما سمعته ؟ .. أليس مزعجاً
أن يظل الشاعر سياستيان مجهولاً حتى الآن .. إلا من
أمه وعدد قليل من أصدقائه ؟ ..

الدكتور : أوه !

مسز فينابل : كانت مهمته الأساسية هي حياته !
لقد كان سياستيان شاعراً .. ومن رأيي أن حياة الشاعر
هي عمله كما أن عمل الشاعر هو حياته .. لا ينفصلان
أبداً . أن عمل التاجر مثلاً ، أو المحامي أو الطبيب يمكن
أن يكون منفصلاً عن حياته .. أما الشاعر ، فإن حياته
وعمله لا ينفصلان .. وتلهث السيدة .. ويبدو كأنها
مصابة بالدوار .. فيمد الطبيب يده إليها لتستند إليه
ويسألها : مسز فينابل ، هل وافقك طبيبك الخاص
على هذا الذي تنوين عمله ؟

مسز فينابل : لقد انتظرت هذا اللقاء منذ شهر ،
لم أكن قادرة على أن أذهب وأقابلها في مصحة سانت
ماري .. فبذلت مجهوداً كبيراً كي أجعلهم يحضرون إلى
هنا ! اننى لن أنهار .. هي التى ستنهار .. ستنهار
أكاذيبها .. أمام حقائقى !

وتسير السيدة ، مستندة إلى ذراع الطبيب ، صاعدة
إلى الشرفة المطلّة على الحديقة ، ثم تتهاوى على أحد
المقاعد .. وتستمر قائلة :

— لقد كرست ما تبقى من حياتى للدفاع عن سمعة
ابنى الذى مات ! أن سياستيان ليس مشهوراً كشاعر ،
أنه لم يكن يريد الشهرة .. كان يرفضها ، كان يفرع

من القيم الزائفة التي تجلبها الشهرة واستغلال الاسماء الشهرة ..

كان يقول لى دائما : « أمى فيوليت .. انك ستعيشين بعدى ! »

الدكتور : ولكن ... ما الذى جعله يظن ذلك ؟
مسز فينابل : الشعراء عادة « مكشوفاعنهم الحجاب »
وقد كان ابنى مريضا بالقلب منذ صغره .. كان لا يستطيع أن يركب الخيل أو يسبح مثلا .. كان يقول لى : « بعد أن أموت .. سيكون عملى كله بين يديك .. فاصنعى به ماتشائين » كان يريد أن تجيئه الشهرة بعد وفاته حين لا يزعه مجيئها .. هل فهمت منى ؟ والآن .. اليك أشعار ابنى ..

وتقدم له دفترا صغيرا مجلدا تجليدا فاخرا .. عليه عنوان « قصيدة الصيف » .. وتقدم له الدفتر وهى تنظر اليه .. كأنها تحمل كتابا مقدسا ..
الدكتور : قصيدة الصيف ؟

الأم : نعم .. وعليها تاريخ هذا الصيف .. ان عندى ٢٥ قصيدة من هذا النوع .. كان يكتب قصيدة واحدة كل سنة .. ثم يطبع منها نسخة واحدة .. على مطبعة يد قديمة من القرن الثامن عشر ..
الدكتور : قصيدة واحدة فى السنة ؟ !

الأم : نعم .. فى الصيف .. حين يسافر سويا ..
أما التسعة شهور الباقية من السنة فهى مجرد تحضير للقصيدة .. تسعة شهور مدة الحمل .

الدكتور : أكانت كتابتها صعبة الى هذا الحد ؟ ..
الأم : نعم .. رغم انه كان معى .. أما بدونى فكان مستحيلا عليه أن يكتب .. كما حدث له فى العام الماضى
الدكتور : الصيف الماضى ... الذى مات فيه ؟

الأم : نعم . . . بدوئى مات فى الصيف الماضى .
ومرة أخرى تبدو كأنها تعاني من دوار عنيف . . فان
الذكريات تمزقها . . ثم تستطرد :

الأم : فى ذات صيف بعيد . . طلب ابنى سباستيان
أن نذهب الى جزر « انكاتاداس » . . التى قرأ عنها فى
بعض الكتب . . واستأجرنا يختا صغيرا وذهبنا الى هذه
الجزر . . جزر بركانية قاحلة ولكننا رأينا هناك شيئا
لم نقرأ عنه . . رأينا سلاحف البحر الترسية تخرج من
الماء . . وتزحف على الشاطئ البركانى كى تضع بيضها
عليه . . ففى كل سنة تخرج أنثى الترسية من مياه البحر
الاستوائى وتحت الشمس الملهبة تحفر بأقدامها حفرا
صغيرة فى الرمل ، تضع فيها بيضها . . ان عملية وضع
البيض عملية طويلة مرعبة . . وعندما تنتهى منها تزحف
اناث الترسية المرهقات عائدات الى البحر . . شبه ميتة
. . انها لا ترى بيضها يققس قط . . أما نحن فقد رأيناها
سأل ابنى سباستيان عن موعد الفقس . . وعدنا
لنشاهده . .

الدكتور : عدتم الى الجزر ؟
الأم : نعم ، لنشهد فقس الترسية الصغيرة ،
وفرارها الرهيب الى البحر ، كان الشاطئ البركانى فى
لون الكافيار ، يموج بالحركة . . وكانت السماء أيضا
تموج بالحركة .
الدكتور : السماء ؟

الأم : نعم . . كانت غاصة بالطيور السوداء الجارحة
تعوى وتصرخ فى الفضاء صرخات مزعجة وبينما تخرج
الترسية الصغيرة من بيضها . . وتشب من حفر الرمل ،
وتبدأ سباقها الى الماء تنقض عليها الطيور الجارحة . .
بمناقيرها الحادة ، تحاول أن تقلبها على ظهرها ،

لينكشف بطنها الطرى .. وتنهشها الطيور ، كان
سباستيان يؤكد ان واحدا في المائة لا أكثر ينجح في
الوصول الى الماء .

الدكتور : اى شىء في هذا المشهد كان يجذب ابنك ؟
الأم : بعد أيام سقط مريضا بالحمى .. وتعذب
عذابا هائلا .. وعدت مسرعة باليخت الى مناطق أقل
حرارة .. الى الهند .. وهناك انطلقنا الى جبال هيمالايا !
الدكتور : هيمالايا ؟

الأم : نعم ... وهناك كاد ابنى سباستيان يترهب
في دير للبوذيين .. حلق شعر رأسه مثل الرهبان
البوذيين وبدأ يأكل الارز فقط في أطباق من الخشب ..
ووعد الرهبان بأن يتبرع لهم بكل ما يملك .. فأرسلت
برقية على الفور لوالده أطلب منه تجميد كل حسابات
سباستيان في البنوك فورا .. ولكنى تلقيت برقية من
محامى زوجى يقول فيها ان زوجى مريض جدا وانه
يريدنى .. ويطلب منى الرجوع فورا ...
الدكتور : وهل عدت الى زوجك ؟

الأم : لقد اتخذت اقصى قرار في حياتى .. قررت
البقاء مع ابنى .. بقيت معه لكى اجتاز به هذه الازمة
وفي أقل من شهر هجر سباستيان اكواخ الرهبان وألقى
أطباق الارز الخشبية وذهبنا الى فندق شبرد في
القاهرة .. ثم الى فندق ريتز في باريس ! ..
وتدخل الخادمة ، وتعطى السيدة حبوبا وأدوية
تتعاطاها في مواعيد محددة ثم تقول للدكتور :
- لو عرفت ابنى سباستيان الأعجبك كثيرا ..
ولأعجبه ايضا .. ان ابنى لم يكن متحذلقا فيما يتعلق
بشرائه أو بأسرته ، ولكنه كان يتشدد في اختيار الدين
يحيطون به .. كان يصر على ان يكونوا جنذايين في

شخصيتهم وفي شكلهم ايضا .. في كل مكان يذهب اليه .. هنا في أمريكا أو في الريفيرا أو باريس أو فينيسيا .. كانت تحيط به دائما «حاشية» من الناس ذوى الشباب والموهبة والجمال .

الدكتور : هل كان ابنك شابا ؟
الأم : كلانا كان شابا وبقينا شبابا .. انظر ، سوف أريك صورتين له .. ان بين هاتين الصورتين عشرين سنة من الزمن .. فهل تستطيع أن تميز أيهما أكبر ، وأيهما أصغر ؟ ان الاحتفاظ بالشباب ليس أمرا سهلا .. انه يحتاج الى مجهود ونظام عنيفين .. كأس واحدة فقط قبل العشاء .. وطعام مسلووق .. وسلطة خضراء .. حتى لو كان يأكل في أفخر المطاعم ذات الاغراء .

ثم يوجه لها الدكتور كوكرفيتز سؤالا دقيقا :
- كيف كانت الحياة الخاصة «الشخصية» لابنك ؟
وترد الأم في اضطراب :
- كان طاهرا تماما .. وقد كان صعبا أن نحفظ له بطهارته .. بسبب جماله وجاذبيته . كان من الصعب إبعاد الذين يطاردوناه ...

الدكتور : وقد ظل طاهرا حتى الصيف الماضي ؟
كم كان عمره في الصيف الماضي ؟
الأم : حوالي أربعين سنة ..
وتستمر الأم مؤكدة :

- صدقنى .. لقد كان طاهرا تماما .. كنت أنا الوحيدة في حياته التى أحقق له ما يريده من الناس .. وكثيرا ما قطع صداقته بالناس لأنهم لم يكونوا طاهرين ، مثله .. لقد عشنا معا حياة باهرة لم يكن الناس يقولون سباستيان وأمه .. أو مسز فينابل وابنها .. ولكنهم كانوا يقولون : « سباستيان وفيوليت » هكذا كانوا

يذكروننا في مدريد .. في باريس في كل مكان ..
لقد عشنا حياة عظيمة .. عظيمة لم يعرفها العالم
منذ قام أصحاب الدكاكين الناجحين بطرد أمراء عصر
النهضة من قصورهم .. كانت هذه حياتنا .. الى ان
جاء الصيف الماضي ...

وتسكت لحظة تلتقط فيها أنفاسها ثم تقول بحرارة :
— اننى لن أغفر له ما فعله في الصيف الماضي ..
رغم انه دفع حياته ثمنا له .. لن أغفر له انه سمح
لها ...

الدكتور : تقصدين الفتاة ؟

الأم : نعم .. الفتاة التي سترأها هنا اليوم .. انها
منذ ذلك الوقت تريد ان تدمر سمعته في المصلحة التي
حجزناها فيها في باريس .. في الطائرة التي نقلناها عليها
الى هنا .. حتى في المطار قبل ان تركب سيارة المصلحة
.. حاولت ان تتكلم .. حاولت ان تطلق لسانها .. انها
دائما تطلق لسانها .. تريد ان تدمر سمعة ابني
سياستيان ..

وقبل ان نمضي في تلخيص الحوار .. نتساءل : من
هو الدكتور كوكرفيتز ؟ وما الذي جاء به الى بيت
هذه السيدة ؟

اننا نفهم من الحوار بعد ذلك ان الدكتور طبيب
متخصص في نوع جديد من العمليات الجراحية الخطيرة
.. غير مضمونة النتائج بعد .. هي جراحة المخ .. وذلك
بالنسبة لدوى الامراض العصبية العقلية .. وهي عملية
تجلب لهم الراحة وتجعلهم ينسون أنواع الهوس التي
تسيطر عليهم .

ولكن المعهد الذي يعمل فيه الطبيب في حاجة الى اعتمادات
وتبرعات ضخمة للاتفاق على هذه التجارب .. ومسز

فينابل قد أحضرت الطبيب لتساومه : أنها مستعدة
لدفع تبرع ضخيم توقفه على المعهد وعلى هذه التجارب ،
بشرط أن يجرى هذه العملية الدقيقة للفتاة التى تتكلم
عنها كاترين « حتى تكف عن هذه القصص التى ترويها
عن ابنى لتدمر سمعته » .
ويقول لها الدكتور :

— انه يجب أن يفحص الفتاة أولاً . . فقد يكتفى بأن
يعالجها بصدمات كهربائية مثلاً .
فتقول له :

— انهم جربوا فيها كل هذا فى المصحة التى وضعوها
فيها . .
ويقول لها الدكتور :

— هذه رشوة تدفعينها لى كى أجرى العملية للفتاة
فتقول له العجوز : سمها ما تشاء . . فأنا لن أدفع
الا بهذا الشرط . . .

ولكن من هى كاترين بالضبط ؟ ما هى علاقتها بهذه
السيدة وابنها ؟ وما الذى جعل هذه السيدة تعتقلها
فى مصحة سانت مارى ؟

هذا ما سنعرفه الآن . . فقد عادت الخادمة تقول :
ان الانسة كاترين ومعها راهبة ممرضة من مصحة سانت
مارى قد وصلت الى البيت .

وترتجف « مسز فينابل » وتقول انها ستصعد الى
غرفتها لتشرب مقويا قبل أن تراها . انها لا تستطيع
أن تراها هكذا مباشرة . .

وتنصرف مسز فينابل فى اضطراب شديد . . ويبقى
الطبيب فى الشرفة المطلة على الحديقة بينما تدخل كاترين
ومعها الراهبة التى تحرسها الى الفرفة المؤدية الى
الشرفة . . وتدور مشاكسات بينها وبين الراهبة نعرف

منها ان كاترين تعيش تحت رقابة وحجر شديدين . .
ثم تصل أم كاترين وأخوها جورج ونفهم من الحديث انها
زوجة خال كاترين وان سباستيان بناء على ذلك هو ابن
خالها . . ان جورج . . - أخا كاترين - يلبس بذلة
فاخرة - تعرف كاترين انها بذلة سباستيان . . فتقول
لها أمها ان أم سباستيان أعطت جورج كل الملابس التي
تركها ابنها .

ثم نعرف ان سباستيان قد ترك وصية أوصى فيها بـ ٥
ألف دولار لكل من كاترين وأخيها جورج وأمها ، انهم
أقارب فقراء لسباستيان وأمه اللذين يتمتعان بشراء
واسع ، ولكن كل أموال سباستيان ما زالت تحت
الحجر ، وأمه لن تنفذ الوصية مادامت كاترين تروى
هذه القصة عن ابنها .

ان أم كاترين وأخاها جاءا لاقناعها بأن تعدل عن رواية
هذه القصة . . ليتمكننا من أخذ الفلوس . .

وتقول كاترين : معنى ذلك ألا أروى لما حدث لنا في
«كابيزا دي لوبو» لقد كان في امكاني انقاذه . . لو انه
تركنى أمسك يده - لأمكننى انقاذه - ولكنه ترك يدي . .
تركنى . . وجرى في الاتجاه الخطأ . . .

ويتشاجر معها أخوها وأمها : انها ما زالت مصرة على
أن تروى هذه القصة غير المعقولة التي نبتت في خيالها . .

ان الجميع اذن يطلبون من كاترين أن تعترف بكذب
حكاية تقولها عن سباستيان ، مسز فينابل تريد ذلك
لأنها بهذه القصة تدمر سمعة ابنها . وهى من أجل منعها
من روايتها تضعها في مصحة الامراض العصبية . . وتريد
اجراء عملية جراحية لها في مخها . . وأم كاترين وأخوها
يريدان منها ذلك حتى يحصلوا على المبالغ التي أوصى بها
سباستيان لهما .

ولكن كاترين تصيح : اننى عاجزة عن نسيان ذلك
المشهد الرهيب .. وانا اجرى معه على سفح كابيزا
دى لوبو - اننى اعرف انها قصة بشعة .. ولكنها قصة
حقيقية .. حدثت فى هذا العالم المتحضر الذى نعيش
فيه ..

ويقطع الشجار .. نزول مسز فينابل .. ودخولها
الى الغرفة ..

ان كاترين منزعة من وجود دكتور كوكروفيتز ..
لقد عرفت انه قادم من المعهد الذى يقوم بجراحات فى
المخ .. « تريدون ان تفتحوا فجوة فى جمجمتى وتحركوا
سكاكينكم فى مخى » وتقول انه لابد من استئذان أمها
قبل اجراء أي عملية لها .. لأن مسز فينابل ليست
وصية عليها .. ولكن الأم تسكت .. أما مسز فينابل
فتقول انها هى التى تصرف على كاترين وعلى أم كاترين ،
وانهم جميعا عالة عليها .. وترد كاترين قائلة : انك
تحقدين على .. تظنين انى انا التى جعلت ابنك سياستيان
يشركك ويسافر معى فى الصيف الماضى .. فى حين انك
كنت مريضة بأزمة قلبية وعاجزة عن السفر ..

وتنفجر مسز فينابل :

- لم اكن مصابة بأزمة قلبية .. كنت مريضة مرضا
بسيطا فقط .. ولكن هذه البنت السليطة اللسان
ضحكت على عقل ابنى .. ان هؤلاء الناس لا يجمعنى بهم
دم القربى .. انهم اقارب زوجى الميت فقط .. لقد
كنت دائما أحتقرهم .. أخت زوجى وابنها وابنتها ..
لقد صرفت على هذه البنت دون نتيجة .. كان لها دائما
لسان سليط .. يحسبه بعض الناس ذكاء .. وكانت
دائما وقحة فى معاملة الناس المهذبين ، ولكن بينما كنت
أنا اتقزز منها ، كان ابنى سياستيان يجد فيها شيئا

مسلياً .. فأخذها معه في الصيف الماضي .. بدلاً مني ..
وتصرخ كاترين : كفى ، لا أريد البقاء .. أعيديني
إلى المصححة .. هذه المرأة تظن أنني مسئولة عن موت
ابنها ، أنها تريدني أن أكذب ، وأنا لا أستطيع أن أكذب
.. لا أستطيع أن أغير الحقيقة .. لا أستطيع أن أغير
قصة ما حدث لابنها في « كابينزا دي لوبو » ...

ويتدخل الدكتور لتهذئة الموقف .. ويطلب منهم
جميعاً أن يخرجوا ويتركوه هو وكاترين بمفردها ..
وعندما يخلو بها يعطيها حقنة مهدئة .. ويتحدث معها
حتى تظمن إليه بالتدريج ...

ويسألها الدكتور :

— ماذا كانت علاقتك بابن خالك سباستيان ؟

— كنت أعجبه .. ولذلك أحببته .

— أي نوع من الحب ؟

— النوع الوحيد الذي كان يمكن أن يقبله .. نوع

من حب الأمومة — لقد حاولت كثيراً أن أنقذه ..

— من ماذا ؟

— من صورة رهيبة ، كان يرسمها لنفسه كضحية ..

لقدور قاس ..

— كاترين أريد منك شيئاً ..

— اطلبيه .. أعطه لك على الفور .

— اعطني مقاومتك ..

— مقاومتي لأي شيء ...

— مقاومتك للحقيقة .. للحقيقة التي سوف تروينها

أمام الجميع ...

— أن الحقيقة هي الشيء الوحيد الذي لم أقاومه

أبداً ..

— الناس أحياناً يظنون أنهم لا يقاومون الحقيقة ،

بينما هم يقاومونها ..

ثم أردف قائلا :

- يقولون ان الحقيقة توجد عادة في قاع بئر ..
لا قاع لها ...

ويفاجأ الدكتور بكاترين تهجم عليه ، وتحتويه بين
ذراعيها ، وتضمه الى صدرها بشدة . ويحاول هو أن
يتخلص منها ، ولكنها تتشبث به متوترة ، وهي تقول له :

- أرجوك ، امسكني .. اننى وحيدة جدا .. وحيدة
حتى الموت ..

وتعود كاترين الى الهدوء .. ويعود الجميع الى
الغرفة بناء على استدعاء الطبيب .. تعود مسز فينابل
والمرضة الراهبة وأم كاترين وشقيقها .

الدكتور : والآن ستروى لنا كاترين القصة كلها ..

كاترين : ان القصة بدأت منذ أن ولد سباستيان ..
في هذا البيت ..

الدكتور : لا داعى لهذا .. لنبدأ من الصيف الماضى
فقط ...

كاترين : في الايام الستة التى قضيناها في البحر ..
في طريقنا الى أوروبا .. كان رقيقا معى للغاية .. لدرجة
ان بعض الناس كانوا يحسبون اننا عروسان في شهر
العسل الى أن اكتشفوا اننا نسكن غرفتين منفصلتين
تماما .. وفي باريس غمرنى بمشترياته .. بأفخر
الفساتين وأغلى العطور .. وبعد ذلك ، ارتكبت غلطة
كبيرة ، لقد بدأت أتجاوب مع رفته وحنانه أكثر مما
يجب .. أمسك بيده مثلا .. أو أستند الى كتفه . أو
أتعلق بذراعه .. لقد فسرت حنانه معى أكثر مما أراد
هو .. وفجأة أصبح قلقا مضطربا .. كأن شيئا فيه
كان يتحطم .. وعجز عن أن يكتب سطرًا واحدًا في

قصيدته .. وفجأة قرر أن نترك المكان الذي كنا فيه ..
المكان الذي عجز فيه عن كتابة قصيدته .. وأن نذهب
الى «كابيزا دى لوبو» .. لأن هذا الخيط اللؤلؤى الذى
تربط به الأم ابنها قد انقطع .

مسز فينابل : انها تعترف بأننى كنت أحميه من
الدمار .. .

كاترين : كل ما أعرفه .. انه فجأة بدا وكأنه لم يعد
صغيرا بعد .. وعندما وصلنا الى كابيزا دى لوبو انتقل
فجأة من سهرات الليل الى الخروج عصرا . انتقل من
ارتياح الأماكن الفاخرة الارستقراطية الى تفضيل
الشواطىء العامة المفتوحة للجمهور ...

مسز فينابل : انظر كيف تكذب .. هل معقول أن
يذهب سياستيان الى شاطئ شعبي عام ، قدره مفتوح
للجمهور .. وهو الذى كان يسير بقاربه اميالا فى الماء
ليجد ماء نظيفا يستحم فيه ..

الدكتور : مسز فينابل .. أرجوك الا تقاطعيها ..
مهما كان رأيك فيما تقول .

مسز فينابل : حاضر .. لن أتكلم ..
الدكتور : ثم ماذا ؟ تقولين انكما كنتما تذهبان عصر
كل يوم الى الشاطئ العمومى ...

كاترين : هناك شاطئ عمومى يدخله الناس مجانا ،
وبجواره شاطئ عمومى أيضا يدخله الناس لقاء دفع
رسم زهيد ، كان هذا الشاطئ الأخير هو الذى نذهب
اليه .. كانت مشكلة سياستيان هى كيف يلفت نظر
الناس اليه ، كان عاجزا عن أن يتصل بالناس مباشرة
.. وهذا ما كانت تصنعه له أمه .. ولكن هذا كان
سهلا فى الأماكن الراقية التى كانا يذهبان اليها اما فى
شاطئ عمومى فقد كانت المشكلة أصعب .. كان

سباستييان وحيدا ، كان الفراغ في الكراسي الزرقاء
التي تنتظر قصيده يتضخم ويتضخم حتى أصبح
كالسما الفارغة ..

الدكتور : ثم ماذا ؟

كاترين : ولكنه بعد قليل لم يعد محتاجا لي في هذا
الغرض .. لقد ارتفعت حرارة الطقس وامتأ البلاج
العمومي الملاصق للبلاج الذي كنا نتردد عليه بالناس ..
جماعات من الشبان الفقراء .. الجائعين .. كنت أتركه
أحيانا .. ثم أعود اليه .. ساعة خروجنا من الشاطئ
فأراه قادمًا ، وهم يتبعونه ...

الدكتور : يتبعونه ؟ من ؟

كاترين : الاولاد والشبان .. الجائعون .. الذين
لا مأوى لهم .. كانوا يتزاحمون أمامه على الاسلاك التي
تفصل بين شاطئنا وشاطئهم .. يوزع عليهم النقود ..
البقشيش .. كأنهم جميعا قد مسحوا له حذاءه ..
وكل يوم كان عددهم يزيد وبدأ سباستييان يخاف ..
ثم قرر أن تمتنع عن الذهاب الى هذا الشاطئ ...
الدكتور : ثم ماذا ؟

كاترين : وذات يوم قرر سباستييان اننا ضيقنا
بكابيزا دي لوبو ويجب أن نتركها .. وقرر أن نذهب
للغداء ساعة العصر آخر يوم لنا في أحد مطاعم السمك .
على الشاطئ تماما في منطقة مهجورة .. بين المدينة
والميناء .. كانت الشمس لافحة ولونها أبيض .. وكان
سباستييان يومها في بياض النهار .. كان يلبس بذلة
حريرية بيضاء ناصعة ليس عليها ذرة تراب واحدة ..
وحذاء أبيض .. وكرافته بيضاء .. وكان يلمس فمه
ورقبته من حين لآخر بمنديل حريري أبيض .. وابتلع
أقراصا بيضاء .. اذ كان يحس ببوارد نوبته القلبية .

وعلى مقربة من المطعم .. يخرج سور من الاسلاك
الشائكة .. كان هناك عدد كبير من الاولاد السمر العراة
يسبحون في البحر .. كانوا شحاذين ومتشردين ..
واقتربوا منا بأجسامهم النحيفة السمراء كأنهم طيور
سوداء كثيفة .. وملأوا السور ، يمدون أيديهم اليينا
ويصيحون : « بان .. بان »

الدكتور : ما معنى .. « بان » .. ؟

كاترين : أى .. خبز .. كانوا يصرخون طالبين الخبز
بأصوات كريهة بشعة مقرزة .. وبدأ سباستيان يدوخ
.. فوق أنه كان كما قلت لك يحس ببوار النسوبة
القلبية .. وقال لى : « لاتنظرى اليهم .. ان المتسولين
مرض اجتماعى فى هذا البلد .. انك اذا نظرت اليهم
فسد كل شىء فى نظرك .. »

وقد تعودت أن أطيع سباستيان .. فلم اعد أنظر
الى هؤلاء الاولاد المتسولين حتى عندما جاء الجرسونات
وأخذوا يطردونهم بالعصى بعيدا عن السور .. ثم ..
الدكتور : ثم ماذا ؟

كاترين : بدأت فرقة المتسولين تغنى وتنشد علينا ،
اختلفت النظر اليهم عندما كان سباستيان لا ينظر الى
فوجدتهم يدقون على علب صفيح فارغة .. وفى أيديهم
عصى صغيرة وقطع حديد .. وأى شىء يحدث صوتا ..
كانوا يدقون ويعزفون ويصيحون علينا .. من بعيد ..
طوال تناولنا الغداء

الدكتور : ألم يعترض لدى المدير ؟

كاترين : أى مدير ؟ الله ؟ .. طبعا لا .. مدير المطعم ؟
لا أيضا .. انك لا تعرف ابن خالى سباستيان .. لقد
كان يقبل الاشياء .. كما هى .. ويظن أنه ليس من
حق أحد أن يعترض .. أو يتدخل .. بأى صورة من

التدخل .. كان لا يؤمن بأن من حق أحد أن يصنع
إلا الشيء الذى يجد نفسه يصنعه .
الدكتور : وماذا وجد نفسه يصنع ؟

كاترين : قفز فجأة من مقعده .. وصاح فى الجرسون :
يجب أن توقفهم .. لا يمكن أن يستمر هذا .. اننى رجل
مريض .. كانت هذه أول مرة يحاول فيها سياستيان
أن يصحح موقفا انسانيا .. ولعل هذه كانت غلطته
القاتلة .. وفى هذه المرة خرج ما يقرب من ثمانية
جرسونات وانهالوا على الاولاد ضربا بالعصى .. بينما
ألقي سياستيان حفنة من النقود على المائدة وقام لينصرف
وقمت خلفه .. وعند باب المطعم وقف سياستيان ..
مرتبكا .. كان أمام المطعم طريق طويل صاعد شديد
الارتفاع .. وقلت لسياستيان انه ليس من الصواب
أن نمضى فيه فلاحسن أن ندخل المطعم ثانية حتى
يحضروا لنا تاكسيا نركبه .. ولكنه نهرنى وانطلق يسير
فى الطريق الصاعد .. بسرعة .. ويده على قلبه ..
وقد بدأ عليه الخوف .. والألم .. والفرع .. ولكنه
كان كلما أسرع .. زادوا اقترابا منه ..
الدكتور : من هم ؟

كاترين : الاولاد .. المتسولون .. وآلاتهم الموسيقية
المرعبة فى أيديهم .. ثم بدأ سياستيان يجرى .. وما كاد
الاولاد يرونه يجرى حتى صرخوا صراخا مرعبا وجروا
وراءه .. وأدركوه بسرعة .. وأحاطوا به .. وسمعت
سياستيان يصرخ .. صرخة واحدة قبل أن يطبق عليه
الاولاد كالطيور السوداء الجارحة ..
الدكتور : وانت ماذا فعلت ؟

كاترين : أخذت أجرى فى الاتجاه المضاد وصرخ
واطلب النجدة .. حتى خرج الجرسونات .. وبغض

الناس .. وعندما وصلنا الى حيث أطبقت الطيسور
السوداء الجارحة على سباستيان ، وجدناه .. راقدا
.. عاريا .. وقد - انك لن تصدق ولا أحد يصدق ..
ولكننا وجدناه عاريا وقد نهشوا لحمه .
وتصرخ مسز فينابل .

وتمضى كاترين قائلة : نهشوا لحمه .. مزقوا أجزاء
منه بأيديهم أو أسلحتهم أو الحديد والصفائح الذى كان
معهم .. لم يكن هناك شيء سوى جثة سباستيان ..
كأنه باقة ورد قد تمزقت .. وألقيت .. وديست
بالأقدام ..

وتهتز وتقفز مسز فينابل صارخة :
- خلاص .. خلاص .. أرسلوها الى المعهد .. لابد
من اجراء العملية اقطعوا هذا الجزء من مخها .. اقطعوا
هذه القصة من مخها ..

وتبكي ام كاترين .. ويأس أخوها من كل شيء ..
وتلقت الأم الى الطبيب قائلة : ألا تقول شيئا ؟
ويقول الدكتور : اظن ان رواية كاترين .. معقولة ..

هذه هي خلاصة المسرحية .. المزعجة ..
ان مسز فينابل .. كما انها أم تحتكر ابنها ..
وتسيطر عليه .. حتى لقد حرمته من أن تكون له علاقة
طبيعية بالحياة .. هي الطبقة الارستقراطية باعتزالها
الحياة .. وترفعها .. وعقمها .. وظنها ان الآخرين
يعيشون عالة عليها ..

ان ابنها سباستيان .. هو هذه الطبقة حين تشعر
بمأساتها .. ولكنها تعجز عن صنع أى شيء بناء على
هذا الشعور .. انه يشعر بموتها .. بنهاية رسالتها
انه يحاول أن يتصل بالحياة ولكنه يعجز .. لأنه عاش

في نطاقها القديم الأسر... لقد تحطم أول مرة حين حاولت
كاثرين أن تحبه حبا حقيقيا... وتحطم مرة ثانية حين
حاول أن يتصل بالناس في «كابيزا دي لوبو» فلم يجد
وسيلة إلا أن يتصدق...

ان المؤلف يرسم صورة قاسية للحياة... ولصراع
البقاء فيها... كذلك المشهد المرعب... مشهد الطيور
السوداء التي تنهش ترسة البحر... ترسة البحر التي
أرهقت الأمهات في وضعها... ثم يترجم هذا المشهد
ترجمة أخرى حين يصور لنا الأولاد الجائعين... الفقراء
... يستفزهم منظر الشاب الفنى الأبيض الناصع ،
البراق ، الذى ينشر المال... ويهرب...

التفسير السياسي للموسيقى

لماذا تستمع الى الموسيقى والغناء ؟ ..
ستقول للمتعة ، ولا بأس بذلك ، فان الموسيقى اذا
لم تقدم لنا المتعة لا تكون موسيقى ..

ولكن .. ان المتعة في الموسيقى ليست ضد «المعنى»
وفهم الموسيقى لا يسلبها المتعة ، بل يضاعفها . وفي الفن
بوجه عام يوجد نوعان من المتعة : الاولى متعة الدقيقة
العابرة ، والاسترخاء والراحة من مشاكل اليوم . والثانية
متعة انعاش الدهن والحواس ، وتنبيهها الى آفاق جديدة
من الحياة والمشاعر والافكار .. والفرق بين المتعتين هو
الفرق بين الفن التافه والفن الرفيع ..

ثم ..

ماذا تصنع بنا الموسيقى ؟ ..

تصور انك تستمع الى خطبة مثلاً .. ان جوهرها
ولاشك هو الافكار التي يقولها الخطيب .. ولكنك لن
« تنفعل » بهذه الخطبة اذا كان الخطيب يدحرج كلماتها
بلا وقفات ، ولا تغيير في طبقات الصوت ، ولا أى نغم
على الاطلاق .. فموسيقى اللقاء تزيد انسانية الخطبة
وتضاعف درجة الانفعال بها ..

والانفعال الذى ينتاب الواحد منا عندما يستمع الى
الموسيقى هو علامة الاحساس بالجمال المركز فى اللحن ،

وهو الفرحة التى تصاحب كل قفزة نقفزها الى معرفة جديدة

والموسيقى ليست أصواتا جوفاء .. ولكنها تصوير بالصوت والايقاع لعديد من الصور والعلاقات الانسانية وما دامت الموسيقى تصويرا للحياة الانسانية ، فاننا لايمكن أن نفهمها الا اذا وضعناها فى سياق العصر الذى أنتجها .. بكل ظروفه السياسية والاجتماعية .

اذن .. فكما نقرأ تاريخ المجتمع الانسانى فى السياسة والادب والاقتصاد فاننا نستطيع أن نقرأه أيضا فى الموسيقى .. وهذا هو ما يقدمه لنا «سيدنى فينكلستين» فى هذا الكتاب ..

والكتاب — بناء على هذه الخطة — يعتبر جديدا على القارئ المصرى .. الذى خلقت له الصحف وهما كبيرا ، ظن معه ان الفنان انسان لايلهمه الا وجه جميل ، أو خصر نحيل .. وان الموسيقيين بالذات لم تكن لديهم مشكلة .. الا المشكلة الجنسية !! وانهم مشغولون بمطاردة النساء عن ملاحظة الواقع ، ودراسة المجتمع والكفاح من أجله ..

فى العصور الوسطى كان النظام السائد فى المجتمع هو الاقطاع .. كان الاباطرة والنبلاء يملكون الارض ، وكان الفلاحون أرقاء تابعين لهذه الارض ، ومن التجار والصناع اليدويين — كالنجارين والحدادين والاسكافيين — نشأت المدن . واستطاعت مع الزمن أن تختارحكامها ، وأن تصبح أقرب الى الجمهوريات ، مثل البندقية وفلورنسا فى ايطاليا ..

أما الموسيقى ، فكانت توجد منها أيضا ثلاثة أنواع .. كانت هناك موسيقى الكنيسة التى تعزف فى المناسبات الدينية وموسيقى البلاط التى تعزف فى سهرات القصر ،

وموسيقى الشعب وهى أغاني الحصاد والزفاف والاعياد
كانت موسيقى الكنيسة تصور الحياة الاخرى ..
وكانت موسيقى البلاط تهدف الى ترقية الفراغ فحسب
أما موسيقى الشعب فقد تقدمت موكب التطور ..
امتزجت بالشعر ، واتخذت شكلا كفاحيا ، وانطلقت
تتغنى بقصص وأناشيد يرددوها الفلاحون الارقاء وتدور
عادة حول شخصية «الخارج على القانون» الذى يسخر
من الملك والنبلاء ويحقق العدالة ويساعد الفقراء ، مثل
قصة «رويين هود» فى انجلترا ..

وقد حدث فى سنة ١٤٠٢ ، أن أصدر مجلس العموم
البريطانى قانونا يمنع دخول المنشدين مقاطعة ويلز لأنهم
تسببوا فى أحداث شغب هناك ! !

أما وراء أسوار المدن القليلة ، فقد حدث شيء هام :
هو طبع الألحان الموسيقية مما اتاح فرصة انتشارها
ودراستها ، وقد ظهرت أول موسيقى مطبوعة فى
البندقية سنة ١٥٠٠ .

واستمر الوضع على هذا النحو دون تغير يذكر حتى
القرن السابع عشر والثامن عشر .. ظل الرق ، والاقطاع
وسلطة الكنيسة .. وكان كل نبيل «يقتنى» فى قصره :
طباخا لمطبخه وسائسا لجياده ومعلما لأولاده وموسيقارا
لحفلاته ! .. وربما كان هذا الموسيقار فنانا عبقريا من
الذين وضعوا ألحانا خالدة ، ولكن مركزه الاجتماعى فى
القصر كان لا يختلف عن مركز الطباخ والسائس .. ولم
يكن عمله هاما .. مجرد أن يعطى الصفار دروسا فى
الموسيقى . وفى الحفلات التى يقيمها النبيل ، يقف فى
ركن القاعة يعزف الموسيقى ، بينما المدعوون يأكلون
ويشرثرون ويضحكون .

وكان معنى ذلك ان القطع الموسيقية يجب ان تكون

مما يستطيع أن يعزفه فرد أو فرقة قليلة العدد ثلاثم
الخاصة ، وأن تكون رشيقة رقيقة خافتة حتى لا يضيق
بها جو الصالون ، وأن تكون خالية من تعقيد الأفكار
الآن الحاضرين لا يتفرغون لسماعها ، إنما هي تطرق
آذانهم فحسب بينما هم مشغولون بالحديث أو الطعام
.. أو الغزل !

ثم ظهرت - في فلورنسا والبندقية أيضا - الاوبرا ..
وكان من اثر ظهور الاوبرا أن ظهرت الفرقة الموسيقية
الكبيرة والآلات المعقدة ، التي تطورت الى الفرقة
السيمفونية ..

وبعد الاوبرا ظهر « الكونشرتو » ، وهو لون من
الموسيقى التي يعزفها عدد كبير من الآلات ..
وكان ظهور الاوبرا والكونشرتو في الواقع ثورة على
الكنيسة والاقطاع . لقد تحول الموسيقى من عازف
« يخدم » في بيت النبيل الى فنان يعزف في مكان هام
يؤمه عدد كبير من الناس ..

ولم يكن هذا التحول سهلا .. أخذ « هاندل » في
انجلترا يعزف في الاماكن العامة و « فيفالدي » في ايطاليا
يلحن الاوبرات وأعظمهم « باخ » في المانيا يعزف في الكنيسة
فاتحا أبوابها للجميع .. فوضعوا بذلك أول حجر في
بناء صالة العزف ..

فالموسيقى الجديدة التي يضمها هؤلاء العساكرة لم
تعد ثلاثم تماما صالونات النبلاء .. الاوبرات مثل « أوبرا
الشحاذين » التي اكتسحت في انجلترا - وهي تتحدث
عن ثورة عامة الناس على مظالم النبلاء - وموسيقى
« باخ » في المانيا يهاجمها النقاد « لأنها معقدة » فيرد عليهم
صديق له قائلا : « انه لا يضع الحانا لحفلات الشراب
وما اليها من المناسبات الانيقة .. فان عليه - كفنان

حقيقى - أن يحاكي الطبيعة ، وأن يساعدها اذا أمكن !»
ولم يكن هذا التحرر تاما بالطبع . . فالموسيقار بعد
ذلك يجب أن يعيش . . والرزق في يد الكنيسة والنبلاء .
و«باخ» نفسه كان «يخدم» كموسيقار عند دوق فيمار
ثم عمل مدرسا للموسيقى في الكنيسة . . وكان نظام
الاقطاع يقضى عليه بأن لا يتنقل من وظيفة الى وظيفة أو
من بلدة الى بلدة إلا بأذن من الأمير . . ومما يعطينا فكرة
من جو ذلك العصر أن نقرا في قرار تعيينه عند الأمير :
«عليك أن تكون مخلصا مواليا مطيعا لسعادة الكونت ،
وأن تكون مهذبا متعاوننا مع الادارة ، والا تزج بنفسك
في غير عملك من الأمور !»

ثم جاء «موزار» فدفع الثورة على الاقطاع مرحلة
أخرى . . والنقاد يطلقون على «موزار» اسم «فولتير
الموسيقى» لأنه هاجم الموسيقى الاقطاعية بالعنف الذي
هاجم به «فولتير» تفكير الاقطاع . . بل انه اشترك في
عدد من الجمعيات السرية لمناوأة النظام الذي كان سائدا
وكانت استقالة «موزار» من خدمة اسقف سالزبرج ،
اعلانا تاريخيا لاستقلال الفنان ! وتأكيذا لصفته كإنسان
مفكر مبدع وليس مجرد خادم للكنيسة والنبلاء . . وكان
اسقف سالزبرج صاحب نفوذ واسع ، مما جعل موزار
يتعرض لحرمان هائل هو الذي أدى الى موته المبكر . .

وعاش موزار يقاسى العذاب الذي يقاسى منه كل
المجاهدين . . كأن عليه لكي يرتزق ويعيش أن يجارى
الاشكال الموسيقية التى يرضى عنها النبلاء ، وكان عليه
لكي يحقق رسالته أن يضع أفكاره وعواطفه الجياشة
في هذه الاشكال القديمة . . ونجحت موسيقاه في الشوارع
أكثر مما نجحت في الصالونات ! أصبحت ألحانه تتردد
في الشوارع والحدائق وحانات البيرة ، حتى أن الشحاذ

عازف الجيتار كان لا يأمل في جمع نقود إلا إذا عزف شيئاً لموزار.. أما في الصالونات ، فكان تعليق النقاد « انه لايعطى المستمعين فرصة للراحة.. فما أن تنتهى فكرة جميلة حتى يلحقها بأخرى تنزع الأولى من الرأس فلا يبقى في النهاية شيء ! » .. فأهل الصالونات لا يريدون الموسيقى التى يحتاج سماعها الى مجهود .

كان موزار يضع ألحانه المضطربة في القوالب التى ترضى مالكي الرزق وكان هذا التأثير مضطرا الى مجازاة النبلاء ، حتى لقد انتحل أحدهم إحدى القطع التى وضعها موزار ، وكان عليه أن يسكت ، ما دام قد قبض الثمن !..

أما في الاوبرا ، فقد خطا موزار خطوة كبيرة أخرى.. كانت الاوبرات كلها مطبوعة بطابع الاقطاع ، تدور حول شخصيات من النبلاء في عالم ثابت غير متغير .. فجاء موزار وأخرج أوبرات كوميدية ، تدور مثلاً حول انقاذ خادمة من حريم أمير تركى .. وتمتلىء بالكلام عن حرية المرأة واستقلالها .. أو أوبرا « زواج فيجارو » التى جعل الكونت فيها يبدو أحق خبيثاً .. ولم يجعل الخادم « فيجارو » كالعادة ، أبلاً دنيئاً بل جعله بطل القصة .. جعله مخلوقاً انسانياً عميق الانسانية ، يدافع عن حقه في الحب والفوز ! وقد تعرضت « زواج فيجارو » بالذات لاضطهاد شديد من رقابة الاقطاع .

ثم جاءت الثورة الفرنسية فهزت العالم وأفسحت الطريق أمام بتهوفن وشوبيرت .

كان بتهوفن في التاسعة عشرة من عمره عندما انفجرت الثورة الفرنسية . وقد ولد في مقاطعة الراين ، أقرب المقاطعات الألمانية لفرنسا ، من أب كان يعمل عازفاً في القصر نظير أجر تافه وأم كانت أرملة طباح ..

وقضى بتهوفن شبابه متطلعا الى الاحداث التى تدور
عبر الراين .. حيث أعلنت مبادئ : الحرية والاخاء
والمساواة .. وأعلن ميثاق حقوق الانسان ، وهزم
الفلاحون وهم ينشدون المارسيليز جيوش الابطاطرة
والنبلاء .. واستولت الطبقة المتوسطة على الحكم .
وعندما ذهب بتهوفن الى عاصمة الموسيقى ، فيينا ،
سنة ١٧٨٢ ، ليعيش فيها وجدها تحلم بالديمقراطية
الجديدة .. ورأى أحلامها هذه تنفس فى صورة شغف
هائل بكل فن يرمى الى الحرية الآتية أو الى انهيار
النظام القديم .. وكان صعبا على بتهوفن أن يعلن عن
ميوله الجمهورية فى عاصمة الرجعية ، وأن يؤيد جيوش
فرنسا .. ومع ذلك فقد وضع لحن البطولة «ايرويكا»
وأهداه الى نابليون ! وما كاد ينتهى من اللحن حتى سمع
أن نابليون قد ألغى الجمهورية وأعلن نفسه امبراطورا
فمزق اللحن ، وأسفر بذلك عن ميوله الجمهورية ..
ونستطيع ان نقسم موسيقى بتهوفن وحياته الى
ثلاث مراحل :

المرحلة الاولى : عندما كان فقيرا مجهولا يشق طريقه
بصعوبة ، ويعيش من اعطاء دروس الموسيقى للأغنياء
أو العزف فى حفلات خاصة .. فى هذه المرحلة وضع
بتهوفن قطع « السوناتا » الرقيقة الملائمة للعزف فى
الصالونات حيث يستمع اليها الهواة والأغنياء ..
والمرحلة الثانية : من سنة ١٨٠٢ الى سنة ١٨١٤ ،
وكان قد ذاع صيته ولمع اسمه فى جميع العواصم
الاوروبية .. وازدادت قوة الطبقة المتوسطة وظهر منها
جمهور يستطيع أن يعيش الفنان عليه . وأصبح بتهوفن
يكسب من حفلات مفتوحة للجمهور .. وأصبح يبيع
القطع الموسيقية فى السوق الحرة ، طليقا من احتكار
النبلاء .

وفي هذه الفترة أنتج بتهوفن أكثر أعماله .. وضع
سيمفونياته الثمانية ، وأوبرا « فيدليو » وافتتاحياته
« أجمنت » و « كاريولان » .

وكان انتصار « السيمفونية » على هذا النحو الرائع
على يد بتهوفن ثورة حقيقية في الموسيقى .. فالسيمفونية
لا تصلح للمزف في الصالون الخاص ، بل لابد لها من
قاعة ضخمة تؤمها الجماهير .. ولابد لمؤلفها من دراية
بامكانيات الفرقة الكبيرة والقاعة الواسعة ..

ان الفرق بينهما وبين القطع القديمة الرقيقة
كالفرق بين الخطب العامة في الجماهير وبين الهمس في
الصالونات !

ودهش الناس من نفمة البطولة السائدة في سيمفونيات
هذا العملاق ودهشوا من اقبال جماهير الطبقة المتوسطة
في المدن عليها اقبالا لم يسبق له مثيل ! ودهشوا قبل
كل شيء من قوتها الخارقة حتى وصفوها بأنها « وحشية » !

وانهالت عليه الحملات .. قال عنه النقاد : انه
لا يتوقف عن معارضة كل القوى السياسية الموجودة !
وان عواطفه جمهورية ! ويدعوى ان موسيقاه « تدل على
الجهل والابتذال » وتنطوي على خطر ثقافي « منعوا
التلاميذ في المدارس من دراسة موسيقاه » فكانوا
يحفظونها سرا .

وكان سر نجاحها انها تعبر أقوى تعبير عن روح
العصر .. لم تكن رقيقة واهنة تلائم حفلات الرقص في
القصور .. ولم تكن حزينة أليمة خائرة ، تعبر عن
الأسف على انقراض العهد القديم .. بل كانت قوية
بطولية جارفة .. مليئة بالمعارضات السريعة العنيفة ،
في جو باهر يؤكد ان التغيير ضروري ومفيد !

أما الفترة الثالثة : فكانت من سنة ١٨١٤ حتى

وقال . . هنا سكت بتهوفن عن انتاج السيمفونيات ١١
سنة كاملة ، ثم أخرج واحدة أخيرة ، هي السيمفونية
التاسعة . .

ما سبب هذا الصمت الطويل ؟ لقد هزم نابليون . .
وعادت الملكية الى فرنسا ، وتعرضت أوروبا لموجة رهيبة
من الرجعية ، وامتألت العواصم - وعلى رأسها فيينا -
بالجاسوسية والارهاب . . وانصب الاضطهاد على
رؤوس الزعماء المتحررين . . وفي هذا الجو يستحيل
القاء تلك الخطب الموسيقية العامة ، فتحول بتهوفن مرة
أخرى الى « السوناتا » ومع ذلك ، فاننا لا نجد فيها
روح اليأس والتسليم . . بل تملأنا موسيقاها برغبة
المقاومة والعناد الذي هو مفتاح شخصية بتهوفن ،
وبالايمان بالحياة وهو نفثته التقليدية .

ان مشاعر الحب في قطعة « ضوء القمر » ليس فيها
اثر للحزن والاستعطاف وهو صورة الحب القديم ، بل
هي مزيج من الحنان والفرح ، والنفمة البطيئة التي
صور بها مشهد القبر في « روميو وجولييت » لا يصف
فيها قبول الموت ، بل الصراع من أجل الحياة . . لا يضع
فيها نواحا ، بل استشهادا بطوليا عظيما

ولما لم تعد الروح الديمقراطية الملهبة تملأ صالات
الموسيقى ، وضع هذه السيمفونية التاسعة ، التي ختمها
بنشيد جماعى . . عن الأخوة الانسانية والسلام . .
ولما مات ، سارت فيينا كلها في جنازته ، وكانت
الجنازة ذات مفزى سياسى ، الى جانب المفزى الفنى . .
وفي الموسيقى التي جاءت بعد بتهوفن نرى طابع
الاستبداد والاختناق ، نرى أوروبا التي يحكمها
« مترنيخ » والمخالفة المقدسة التي عقدها بين الأباطرة
ورقابة الاقطاع التي عادت الى المسرح والى كل انتاج

فنى . . ونرى فى موسيقى «شوبيرت» نفس القلق العميق الذى كاد يسود أهل فيينا . . والانهيال العاطفى اليأس يقتحم أعذب ألحانه كأنه الدهول المفاجيء ! وفقدت «قاعة الموسيقى» صفتها الثورية ، وأصبحت مكانا يظهر فيه الأغنياء الجدد . انهم ليسوا أقل تحضرا من السادة القدامى ! وأصبحت الموسيقى المطلوبة بناء على ذلك سطحية ، فيها من المظهر أكثر مما فيها من الموضوع . . فيها الضخامة وارتفاع الصوت والضجة أما الموضوع فتائه غامض ، وأصبح الفنان أقرب الى البهلوان : يقف «باجانينى» عازف الكمان الشهير على المسرح فيقطع ثلاثة أوتار أمام الناس ليريهم كيف يستطيع العزف على وتر واحد ! أما قصص الاوبرا فقد عادت تدور حول : العاشق المنتحر . . وقاطع الطريق ! كان لابد أن تتأثر الموسيقى أيضا ، بظهور المذاهب الاشتراكية .

أما كيف تأثرت ، فالأمر بسيط :

ان الحديث عن الفن الواقعى قديم . ولكن ههنا الواقعية كانت فى تغير مستمر . والواقعية فى هذا العصر ، تستمد مادتها من حياة الطبقات العاملة من فلاحين وعمال وموظفين وأصحاب الدكاكين الى آخره .

وكما كانت هذه الفئات محرومة من التعليم مثلا ، ومن القراءة ، كذلك فقد كانت محرومة من الاستمتاع بفن الموسيقى ، المتطور الرفيع . .

كانت هذه الفئات تنتج فنا الموسيقى الخاص بها ، فى صورة الاغانى الشعبية ، والموسيقى الشعبية الخاصة بها . وهذه الموسيقى والالحان الشعبية تكون ثروة ضخمة . ولكنها ظلت كالمادة الخام ، ثروة مهملة ، لم تتناولها يد الفن الموسيقى المتطور بتحسيناته وعلومه

والآلة الفنية . فقد كانت كل هذه التحسينات حكرا للطبقات القيادية ، تستمتع بها بمفردها في قاعات الموسيقى الفاخرة ذات الأجر المرتفع .

ثم ان فنون الموسيقى الرفيعة ، من أوبرا وسيمفوني وغيرها ، أصبحت في ظل النظام الرأسمالي صناعة كاية صناعة أخرى ، وأصبحت الموسيقى والموسيقيون يخضعون لسلطان شباك التذاكر . . أى للفئة التى تستطيع أن تقف أمام شباك التذاكر . . وأصبح عامة الناس يشترون السلع الموسيقية التى تعرض عليهم ، سواء أكانت تعبر عنهم ، ومستمدة منهم ، أم لا . . .

ولكننا الآن أمام تطور عالمى كبير . . الفروق بين الناس تتحطم وتحل محلها المساواة ، والموسيقى تصبح فى بعض الدول الاشتراكية مرفقا عاما كسائر المرافق الأخرى التى ترعاها الدول كالتعليم والصحة وغيرها . ورعاية الدولة للموسيقى كأنها مرفق عام ، معناها ان تقدم الى جميع المواطنين ، مهما كانت قدراتهم ومستوياتهم . . فهى لا تشجع الموسيقى وتقدمها للربح ، ولكن تشجعها ليستمتع بها أكبر عدد ممكن من أفراد الشعب .

وتحرر الموسيقى من سلطان شباك التذاكر ، وتحررها بالتالى من سلطان فئة معينة ، واتجاهها الى الناس كلهم . . معناها انها تجد نفسها محتاجة الى أن تستمد مادتها من حياة الناس كلهم ، من كفاحهم ومن أحلامهم ومشاعرهم . . كلهم .

وعلى هذا الأساس ، مضى رواد الموسيقى الذين أدركوا مغزى التطور يضعون آذانهم الحساسة على قلب الشعب ، ويدرسون أغانيه وألحانه وأساطيره . . ويعبرون عنها فى أوبراتهم وسيمفونياتهم . . ولأول مرة

بدأت خامات الفن الشعبى تعرف طريقها الى الاساليب الفنية الحديثة .. لتخرج منها موسيقى تجمع بين سلامة الاستعمال اليومي للانسان العادى ، وبين خصوبة التجربة الانسانية والاجتماعية وعمقها .. موسيقى تحمل رغبة الصراع والتقدم والفرح الصحيح العميق بالحياة !

وقد تحدث شوستاكوفيتش ، صاحب أروع سيمفونيات معاصرة ، فى المؤتمر الثقافى العالمى ، الذى عقد فى أمريكا سنة ١٩٤٩ ، تحدث عن رسالة الموسيقى فى هذا العصر ، فقال :

« ان مهمة الموسيقى المعقدة لمواجهة مطالب الواقعية الحديثة ، تتطلب منه ان يعتمد عن الافكار العظيمة والمشاعر العظيمة ، وأن تحمل أنغامه احساسا عميقا بالتفاؤل ، وتأكيذا قويا للجمال والكبرياء فى البشر .. ولن يستطيع الفنان أن يصنع ذلك فى عالم مضطرب ممزق محطم الأعصاب .. فالسؤال الذى يجب أن يوجهه كل موسيقار الى نفسه اليوم هو : كيف أخدم ببنى ، قضايا السلام ، والديمقراطية والتقدم ؟ .. »

خطاب إلى قارئة مجهولة

الى القارئة الذكية ، التى طلبت فى ختام رسالتها أن
أروى لها قصة امرأة عظيمة ، كانت فى نفس الوقت
زوجة عظيمة ..
لقد قرأت رسالتك - الطويلة ! - يا آنستى الى
آخرها ..

وفى آخرها وجدت توقيعا ، أغلب الظن أنه مستعار ،
ولم يكن صبرى على قراءة رسالتك لمجرد أنها كتبت
بأسلوب أعلى بكثير مما تكتب فتاة لم تزل فى الجامعة
بعد . ولكن لأنى - أيضا وجدت فيها ذكاء كثيرا ،
وصدقا كثيرا ..

ولست أظننى مستطيعا أن أشرك القراء فى كل أسئلتك
دفعه واحدة ، فأنت تسألين وتناقشين فى الحب والزواج
وفى حرية المرأة فى جسدها ، وفى الاشتراكية ، وفى
الموسيقى .. وفى وجود الله ! ..
الحب والجسد .. يكفى فى شأنهما هنا بضع كلمات .

لقد روى « أفلاطون » فى إحدى محاوراته أسطورة
تقول : أن الانسان كان فى مبدأ الأمر جنسا واحدا .
ولكن الاله الأكبر « زيوس » غضب على البشر ، فشطر
كل مخلوق الى شطرين ، وجعلهم ذكرا وأنثى ..
فالانسان حين يحب ، إنما يستعيد مسعاده بالتقائه

بنصفه الآخر المكمل له .. اى ان الحب : رغبة فى
الاكتمال ! ..

انها اسطورة طبعاً .. ولكنى أحبها .. فهى تلخيص
بسيط لفكرة الحب .. وهى أساس منطقى بسيط أيضا
للاختيار فى الزواج .
اننا نحب ما يكملنا ..

والحب الناجح أو الزواج الناجح هو الذى يتحقق
به هذا التكامل ..

أما ما أعجبني فى رسالتك بنوع خاص فهو : قلقك
اللذيد !

انك على وشك الانتهاء من دراستك فى الجامعة ،
فأنت فى أكثر فترات العمر اضطراباً بالاحلام الباهرة ..
وأنت تريد أن تكونى امرأة عظيمة . ربما أدبية
عظيمة أو مكتشفة عظيمة ، أو سياسية عظيمة ...
لا أدري ... فانك لم توضحى لى أى فرع تدرسين ..
ولكنك تريد فى الوقت نفسه أن تكونى زوجة ناجحة
ومن أسباب قلقك انك تلاحظين - فى اشفاق - ان
النساء العظيمات ، قلما كن زوجات عظيمات ، وان
المرأة العظيمة اذا وفقت الى الزواج ، قلما ترى بجوارها
زوجاً الا أن يكون حاملاً مغموراً .. وهو أيضاً ما
لا ترضين به ! ..

وقبل أن أجيب على هذا السؤال ، أريد بدورى أن
أسألك : ما هى العظمة فى رأيك ؟ .. وما معيارها ؟ ..
انها - فى رأى - ليست الشهرة ! فالمشهورون خليط
من السياسة وأبطال الملائمة ، واللصوص والوارثين
والنساء غير الشريفات !

وهى ليست السلطة ، لأن السلطة سلاح ، والسلاح
قد يستخدم فى الدفاع عن حق ، وقد يستخدم فى

اغتناب حقوق الآخرين !
وهي ليست الذكاء ، لأن النصاب في العادة اذكى من
فريسته !
وهي ليست في حوارة الايمان .. فهذا يتوقف أيضا
على نوع المعبود !
وهي ليست الثروة ، لأن الثراء قد يكون غير شريف .
والوصول غير الشريف قد يوصف بأى شيء .. الا بأنه
عظيم !

فما هي « العظمة » اذن ؟ ..
فكرى في هذا السؤال جيدا . فان اجابتك الخاصة
عليه ، سوف تحدد لك نوع المستقبل الذى تطلبين ..
اما الاجابة التى اقترحها - اقترحها فقط - عليك ،
فهى : ان العظمة هى الشعور بالمسئولية ، والنهوض بها
والمسئولية - يا آنستى العزيزة - لها درجات ..
هناك انسان يعتقد انه مسئول عن نفسه فقط ! وهو
ينهض بهذه المسئولية كاملة ! فلا يقصر فى أن يوفر
لنفسه الراحة والامن ، واللذة ، والبعد عن مشاكل
الآخرين ! لا يعنيه من التقدم الصناعى مثلا الا انه يزوده
بآلة يحلق بها ذقنه لتصبح فى نعومة الحرير ! ..
وأظن ان هذا المسئول عن نفسه ليس فى حاجة الى
اهتمامنا به ! ..

وهناك انسان يعتقد أنه مسئول عن أسرته . دنياه
لا تعدو ثلاث حجرات تسكنها زوجته وأولاده . الحياة
خارج دنياه هذه كأنها تدور فى كواكب أخرى ، قد
تحترق وتتساقط فى الفضاء دون أن يصيبه شيء ..
وفى هذا الفريق قد تجد نوعا من العظمة ! .. كثيرا
ما نرى رجلا - أو امرأة - يكافح ثلاثين أو أربعين عاما
متوالية بغير كلل ، لكى يظل الموقد فى مطبخه مشتعلا ،

والإناء مليئا . وينفق سببعا كاملة يساوم مساومة
مضنية لكي يهبط بثمن أقة الخضر مليمين يحفظهما الأسرته ،
فهذا نوع من العظمة ، وهو نوع منتشر في مجتمعنا ،
ولاشك أنك تعرفين من أمثله الكثير . .

وهناك آخر لا يقف احساسه بالمسئولية عند حدود
بيته . بل يتعداه الى الفئة التي ينتمى اليها ، أو الى
وطنه بأكمله ، هذا النوع الذي يتكون منه وقود الثورات ،
أو سكان السجون ، أو الباحثون عن المعرفة ! . .

وهناك أخيرا ، الذين يشمل احساسهم بالمسئولية
هذا العالم بأسره ، والجنس البشرى كله . وهذا النوع
عادة من وأسعى الثقافة ، الذين يرون بين أنحاء هذا
العالم الواسع روابط ووشائج لا يراها الآخرون ، فثريتهم
يحزنون لقبيلة تلقى في آسيا ، أو لمشنقة تقام في كينيا .
ويشعرون بأنهم مسئولون ويحاولون القيام بدور يتلاءم
مع قدراتهم ومدى احساسهم بهذه المسئولية . .

على هذا الأساس يا آنستى : على أساس الاحساس
بالمسئولية ومدى القدرة على النهوض بها ، نستطيع أن
نقيس العظمة ، وأن نعرف درجاتها . .

وحذار أن تخطى بين العظمة والنجاح . فانهما
لايتلازمان بالضرورة ، بل كثيرا ما يفترقان . .

إذا كنت تسألين عن النجاح . . فائنى أنصحك بقراءة
كتب أمريكية كثيرة تملأ الأسواق ، تشرح للقارىء كيف
يرفع مرتبه ، وكيف يكسب ثقة رئيسه ، وكيف يصادق
الناس الذين ينفعونه ، وكيف يقتنص الحظ ، ويشم
اتجاه الريح أى باختصار : كيف يسير في الزفة . . دون
أن يفكر في نوع هذه الزفة ! . .

أما العظماء ، فربما كانوا أقل الناس استمتاعا بشمار
عظمتهم . ومن المحقق أن صاحب أى دكان أدوات كهربائية

يكسب - من أجهزة الراديو - أكثر مما كسب ماركوني نفسه !

فكرى اذن جيدا .. وأنت ما زلت واقفة على السفح .
جربى قوتك ، وقدرى المشقة ، وتأكدى بالضبط ممسا
تريدين ! ..

فاذا ارتضيت - يا آنستى - هذا التفسير الذى
أقترحه عليك .. فسوف توافقينى بسهولة على أن
النساء العظيمات والزوجات العظيمات على السواء
كثيرات ، وأكثر جدا مما كنت تحسبين ..
انظرى الى الناس من حولك على هذا الضوء ،
وستجدين نماذج كثيرة .

فاذا كان الاحتكاك بالواقع ينقصك ، أو لايسعفك ،
فاقرئى عن هذه النماذج فى كتب الادب ..

اقرئى قصة « الأم » التى كتبها جوركى .. واقرئى
قصص شتاينبك الأمريكى أو مالرو الفرنسى .

تأملى فيلما سينمائيا مثل فيلم « أمل بليمين »
الذى يدور حول فتى وفتاة لا يملكان مليما ، ولا مستقبلا ،
ويريدان الزواج .. وستجدين ان هؤلاء البسطاء من
الناس لهم - فى حياتهم - لحظات باهرة ومواقف عظيمة
ولكن ...

كأنى بك لا تقنعين بهذه البطولات المجهولة ، والعظمة
المطمورة فى طين المجتمع .. وتلحين فى البحث عن أمثلة
شهيرة ..

أمثلة شهيرة لزيجات لا تقوم على أساس من فلسفة
أرسطو ، الذى كان يعتقد أن المرأة « رجل لم يتم !! » ،
فهى أقل منه فى القدرة والكفاية ، وكان يقول : ان
عبقرية المرأة فى اطاعتها ! .. بل زيجات تطبق نظام
« جمهورية أفلاطون » فى المساواة التامة بين الرجل
والمرأة ..

وأنت ما زلت تخافين أن يحرملك نبوغك من فرصة
الزواج المتكافئ الناجح ..
ان الاسماء الشهيرة كثيرة أيضا .. يا آنستى ..
فى ميدان العلم ؟ ..

ان الزوجين ، بل العاشقين ، كورى وجهادهما
المشترك فى اختراع الراديو يقدمان لنا نموذجا رائعا ..
فى ميدان الادب ؟ .. انك لا شك تعرفين أن جان بول
سارتر وزوجته سيمون دى بوفوار ، كلاهما اديب لامع
الاسم ، خصب الانتاج ..
والامثلة كثيرة ..

ولكننى أريد أن ألبى طلبك ، وأن اروى لك -
بالتفصيل - قصة مشاركة زوجية فريدة ، يحفظها لنا
التاريخ السياسى وترويها كاتبة انجليزية اسمها
« مرجريت كولم » ..

أما هى ، فقد كان اسمها « بياتريس » ، وكانت فى
شبابها الباكر جميلة حقا ، ولكنها ضعيفة البدن ،
ضعيفة البصر ، لا تبشر بشئ على الاطلاق ، حتى كتبت
أمها تقول : « ان بياتريس هى الوحيدة بين أولادى التى
تقل عن المستوى العادى للذكاء ! » .. وكانت أمها
محنة فى ذلك .. فكل بناتها « الذكيات » منصرفات الى
شراء الفساتين الانيقة ، والبحث عن أزواج ناجحين ..
ما عدا هذه الفتاة الخائبة ، التائهة بين الكتب ، التى
تحب الاستماع الى مناقشات الكبار من أصدقاء أبيها .

وليس من المهم فى شئ أن أقول لك ان بياتريس
ولدت سنة ١٨٥٨ ، فالأهم من ذلك أن أحدثك عن
العصر الذى ولدت فيه . فنحن أبناء الايام التى نولد
فيها وأنت مثلا ، لو أنك ولدت - بنفس ذكائك - قبل
مولدك بعشرين سنة ، لما دخلت الجامعة ، ولما ثارت فى

نفسك هذه الاسئلة . .

وقد كان من حظ بياتريس أن تولد فى فترة من أخطر الفترات فى تاريخ المجتمع الانسانى !

لقد ولدت بياتريس بعد أن ظهرت الثورة الصناعية وتم وجودها . ووصلت الى دور الصبا وقد انتزع أصحاب الصناعات الجديدة القوة من أمراء الاقطاع والملاك والمزارعين ومن بعض الملوك . واقترن هذا الكشف العظيم بتعاسات تناسب عظمتة . . فقد هجر الفلاحون أرضهم ، وأغلق أصحاب الصناعات الصغيرة دكاكينهم ، وانخرطوا جميعا ضمن جيش جرار من العمال الصناعيين ، يعملون رجالا ونساء وأطفالا طول النهار وأغلب الليل فى ظروف بشيعة ، ويسكنون كهوفا مميتة ، فقد أصبحت الآلة تصنع فى ساعة ما كان يصنعه عشرات الرجال فى شهر . ولم تكن الحكومات قد تعودت من قبل أن تهتم بمشاكل رعاياها « الخاصة » . . كالسكن والبطالة والطعام والأجر !

وهنا . . لم يجد المفكرون والفلاسفة مفرا من أن يتركوا ما كانوا غارقين فيه من مناقشات حول أصل الكون ، وما وراء المادة . . ويفكروا فى هذه المشكلة الخطيرة الداهية . .

ان اكتشاف الصناعة لايمكن أن يكون سيئا . . ولا يمكن أن تكون الآلات الحديثة بذاتها مؤدية الى هـمسنا الشقاء . .

اذن فلا بد أن العيب كان فى طريقة استعمالها . . والمجتمع بناء على ذلك يجب أن يعاد تنظيمه . . ولكن كيف ؟ . .

وازدهمت أوروبا بعدد من الآراء والنظريات والمحاولات يكفى لمئات اخرى من السنين . .

قال الفوضويون : نريد مجتمعنا بلا حكومة ! .. فاذا كانت الحكومات لم تصنع لشعوبها الا العبودية والاضطهاد والاستغلال فلتذهب الى الجحيم !
وأطلق الفرنسي روبرت أوين لأول مرة كلمة «الاشتراكية» .. ثم لم يلبث أن ظهر من هذه الاشتراكية ألف صنف وصنف ! ..

كان هناك كارل ماركس وفريدريك انجلز من ناحية يقولان انه لا بد من أن يقوم العمال بسلسلة من الثورات تنتهي بالانفجار الكبير الذي يستولون به على السلطة ويلفون سائر الطبقات الفاء ..
وكانت هناك «الجمعية الفابية» في لندن ، تدعو الى التدرج والتطور البطيء والى تحقيق الاشتراكية من طريق الحياة البرلمانية العادية ..

واسم الجمعية الفابية مأخوذ من اسم قائد روماني هو «فابيوس» كان تكتيكة الحربى يتلخص فى أن لا يشتبك مع العدو فى معركة حاسمة أبدا ، لأن العدو أقوى منه ويستطيع أن يقهره فى هذه المعركة الحاسمة الواحدة ، فهو يفضل أن يحاربه فى سلسلة من المناوشات الصغيرة المتوالية ، حتى يصل الى النصر ، وهذا الاسم وحسنه كاف لشرح فلسفة الجمعية ..

ثم كان هناك - بالطبع - ملوك الصناعات الجدد ، الذين يدافعون عن النظام القديم الذى استطاعوا فيه أن يحققوا كل الثراء ولو ذهب الآخرون الى الجحيم !

ولدت بياتريس اذن فى هذا العصر الرهيب .. والارض مكتظة بالمفكرين ، يملؤها فى وقت واحد ضجيج الفرنسيين برودون وروبرت أوين والالمانيين كارل ماركس وفريدريك انجلز والروسى باكوين والانجليزيين هربرت سبنسر ، وجون ستيوارت ميل ! ..

وكان هذا كافيا لأن يجعل التفرقة بين الهدى والضلال
أمرا عسيرا ، وكان مما يزيد البحث عسرا أن تكون كل
هذه الآراء فى بدء تكوينها ، النظرى والعملى على السواء .
لم يمض عليها الزمن والتجربة الكافيان لاختبارها بعد .
وكان البيت الذى ولدت فيه بياتريس ينتمى الى فئة
التجار الذين يكسبون وتتضاعف أرباحهم . وعلى صالونه
يتردد الزعماء والساسة والفلاسفة والنساء المثقلات
بالمجوهرات . .

ولكن بياتريس لم تمض فى موكب أمها وإخواتها وهن
يبحثن عن المتعة والتسلية وحفلات الشاى . . ولم تتعلق
أحلامها بزواج « ناجح » يوفر لها الفراغ والثياب الفاخرة
والعربة التى تجرها الجياد . .

لقد كانت تقرأ وتثقف نفسها ، وتهتم بمشاكل الجانب
الآخر من المجتمع . . الجانب الذى يعيش فيه التعساء . .
حتى استحقت أن تصفها أمها بالغباء ! . .

وكانت تنتظر فى حياتها رجلا ، يحمل فى رأسه فكرة ،
ولو كان خاوى الوفاض ! . .

ودخل حياتها من هذا النوع ثلاثة رجال !!

كان الأول هو « أوستن تشمبرلن » النجم اللامع فى
سماء السياسة الانجليزية فى ذلك الوقت ، رجل باهر
الشخصية خلاب الحديث ، من الزعماء الراديكاليين ،
لا يكف عن الحديث عن الامم الفقراء وضرورة تحسين
أحوالهم ، كان من طبقتها ولكنه أكبر منها بعشرين سنة .
أحبته من جانبها حبا صامتا ، أما هو فقد اهتز فقط
لذكائها وثقافتها المبكرة وشخصيتها . وكان ممكنا أن
يجعل منها زوجته الثالثة ، لولا أن صعود نجمه السياسى
كان سريعا ، فلم يتمكن من الوقوف عندها كثيرا . ولولا
أنها جزعت منه عندما عرفت معرفته دقيقة فكتبت عنه

في مذكراتها الخاصة : « لا يستريح إلا إذا سحق ما يعترض ارادته !! » . يحب أن يشعر بقدمة موضوعه على أعناق الآخرين ، كأنه هو الحق المطلق والآخرين خطأ محض ! « . وكأنها كانت تتنبأ بمستقبله . فقد تحول - مع النجاح ! - من مصلح حر الى استعمارى عريق !

أما الرجل الثانى ، فلم يكن عاشقا ، بل كان معلما . ذلك هو الفيلسوف هربرت سبنسر .

كان هربرت يسهر فى صالون خارج البيت ، فلا يجد من يفهم منه غير هذه الفتاة ، فأحبها واتخذها تلميذة وصديقة ومساعدة له . وكانت فلسفته تكاد تغطى كل مشكلة من مشاكل التفكير فى ذلك الوقت ، ويعنينا منها هنا جانبها الاجتماعى . وفى هذا الجانب كان سبنسر يعتقد ان أكثر ما يسيء الى الشعوب هو الحكومات ، نظرا لتركز السلطة والقوة كلها فى يدها . وان ظهور الصناعة قد أدى الى توزيع القوة بين عدد أكبر من الأفراد ، الأمر الذى أضعف سلطة الحكومة وجعل قدرتها على الطغيان محدودة . وعلى هذا الأساس كان يدعو الى الحرية الاقتصادية المطلقة ، لأن الصناعة فى رأيه لا يمكن أن تتقدم الا فى ظلها . أما الاشتراكية ، فهي اذ تجعل الدولة مالكة لوسائل الانتاج ، إنما تعيد السلطة القديمة الى الحكومة ، وتتيح لها مرة أخرى فرصة الطغيان ، هذا الى أن الدولة لا يمكن أن تتنبأ وتتحكم فى كل العوامل الاقتصادية ، ولو كان وزراؤها من المنجمين ! فمن الخير أن تترك كل شيء لقانون العرض والطلب !

وكان سبنسر أيضا يكره اشتراك الجميع فى التفكير السياسى . وكان لا يفتأ يردد أن الانسان لكى يصبح خبيرا فى الطبيعة مثلا أو الهندسة يحتاج الى سنوات طويلة من التعليم والدراسة ، أما السياسة ، فان أى

صبي يقال يعتبر نفسه خيرا فيها ، ويعتقد انه يعرف
الحل ، ويطلب بسماع رايه !!

ولا شك أن هذه الافكار قد أثرت فى بياتريس فترة
من الزمن ، ولكنها لم تستول عليها استيلاء كاملا فى
أى وقت .

أما الرجل الثالث ، فقد كان عليها أن تمضى فى طريقها
فترة أخرى قبل أن تلتقى به . . .
كانت منذ حبها الخائب الأوستن تشمبرلن جريحة
القلب ، سبيئة الظن ، حتى لقد عقدت العزم على أن
تقضى بقية حياتها امرأة وحيدة !

وتركت بياتريس العالم المضى فى بيتها ، وذهبت
تبحث عن أقارب فقراء قيل لها انهم يسكنون فى بعض
أزقة لانكشير ، يعملون بالاجر ويقتاتون من الفتات .
ذهبت الى هناك لكى تعيش معهم فترة تدرس فيها
أحوال العمال ، تمهيدا لوضع كتاب عنهم !

وعاشت بياتريس فى لانكشير زمنا . . تقابل العمال
وتطوف بالمصانع وتدخل البيوت ، وتسجل الآراء
والبيانات والملاحظات ، وأحبها الفقراء هناك حبا
شديدا ، ولم يأخذوا عليها الا انها كانت أحيانا تدخن
السجائر . . وهو منظر لم يكن مألوفا من النساء فى ذلك
الوقت !

واكتشفت بياتريس لأول مرة أن هناك شيئا اسمه
الحركة التعاونية ، وأن هذه الحركة تنتشر بين العمال
بسرعة .

وعندما عادت الى لندن ، بدأت تضع أول مؤلفاتها ،
دعت فيه الى ديمقراطيات المستهلكين . . أى الى تكوين
جمعيات تعاونية تشتري السلع وتوزعها على الاعضاء
بغير ربح . . ولكنها هاجمت فيه « ديمقراطية الانتاج »

أى أن تقوم مؤسسات إنتاجية عمالها هم أصحابها .
وقالت أنها غير نافعة ولا مجدية ، لأنها لن تستطيع أن
تصمد أمام مؤسسات الانتاج التجارية العادية .

وقد ظلت حتى ساعة صدور هذا الكتاب الاول لها ،
على كراهيتها القديمة للاشتراكية ، بل ولقضية المرأة
أيضا . فقد اشتركت سنة ١٨٨٩ فى اصدار بيان يهاجم
المطالبات بحقوق المرأة السياسية !! .

ولكن نقطة التحول فى حياتها كانت تقترب ..
ففى ذلك الوقت بالذات قرأت أول كتاب لجمعية
الفابيان ، بعنوان « مقالات فابيانة » ، وكان يضم عدة
أبحاث لبعض أعضاء الجمعية ، ولم تك تفرغ من قراءته
حتى كتبت الى صديق لها تقول : « ان أروع ما فيه
المقال الذى كتبه سيدنى ويب فان له حاسة تاريخية
رائعة » .. !

وبعد شهور احتاجت فى بعض أبحاثها الى معلومات
من أحوال الطبقة العاملة فى القرن الثامن عشر ، فنصحوا
لها بأن تقابل مستر سيدنى ويب هذا ..
وذهبت اليه . وعادت من عنده مبهورة بكفايته ،
تروى كيف أنه تدفق أمامها بالمراجع والبيانات الدقيقة
.. ثم بدأت تلقاه على موائد بعض الأصدقاء ..

أما هو .. فقد وقع فى هواها من النظرة الأولى ! ..
أما هى .. فقد أحبته بالتدريج .. كانت أكبر منه
بستين . وكان حبها الخائب الأوستن تشمبرلن قد
علمها الا تنساق بعيدا وراء العواطف . ولكنها وجدت
متعة حقيقية فى مناقشة وتبادل الآراء والمعلومات والكتب
معه . وعندما دعاها للسفر الى جلاسجو لحضور المؤتمر
التعاونى لبيت الدعوة .. وهناك ، فى ليلة العطلة ، وبين
صيحات السكرارى وصخب المحتفلين ، كاشفها للمرة
الاولى بحبه ..

ولم تقابل اعترافه هذا بإجابة واضحة ، ولكنها كتبت
في مذكراتها تلك الليلة جملة واحدة : « أخيرا ..
أصبحت اشتراكية !! »

وكأن بياتريس ظلت تقلب أمر زواجها من سيدنى
زمننا ، متوقعة أن يقابل أهلها هذا الزواج بمعارضة
عنيفة . وبعد سنة تقريبا ، كانا في عربة يتنزهان عندما
أحاطت عنقه بذراعها فجأة .. فاستبد به الفرح ، اذ
عرف انها قد وافقت على الزواج ..

وظلت هي ترسم الخطط لكى تجعل والدها يقبل
زواجها من سيدنى ، ولكن أباه مات بعد شهر دون
أن يعلم ..

وهنا فقط أعلننا انهما قررا الزواج . ونشر الخبر في
مجلة جمعية الفايان ، أما أهلها فقد قاطعوها وقالوا
انها تزوجت رجلا من حثالة المجتمع ، بالرقم من شهرته
ككاتب ، أما أستاذها القديم هربرت سينسر فقد ذعر
ذعرا شديدا ، وقال لها : من أجل سمعتى التى أحافظ
عليها ، لا أتحمل أن يذاع عنى أن تلميذتى أصبحت
سيدة اشتراكية ! مستحيل ! اننى مضطر أن أعلن أن
الصلة بيننا كانت شخصية محضة !

ولكنه ، عندما اقترب أجله بعد ١٢ سنة ، لم يجد
من تزوره وترعى شئونته وتساءل عليه غير واحدة فقط
هى بياتريس !

ولم يكن « سيدنى ويب » - كما قال أهل بياتريس -
من حثالة المجتمع .. ولكنه كان فقيرا فحسب ! ..

كانت أمه تملك دكانا للخردوات ، وأبوه يتنقل من
عمل الى عمل ، بائعا أو حارسا ، أو ما شابه ذلك من
الاعمال . وتعلم سيدنى أول حروف القراءة من لافتات
المجلات في لندن ، ثم فى المدارس الليلية ، واضطر للعمل

وهو صغير ، ولكنه عندما صار شابا كان موظفا صغيرا في الحكومة ، يتقن اللغة الانجليزية والفرنسية والالمانية ، ويقرأ الفلسفة والاقتصاد ويتأمل تطور المجتمع . . وقبل خطبته لبياتريس بقليل ، ترك الحكومة وقرر أن يكسب رزقه من الكتابة في الصحف ، وأن يكرس بقية وقته لجمعية الفايان ، حيث كان هو وبرنارد شو محوري الحركة والنشاط .

كان هذا هو الرجل الذي تزوجته بياتريس ، بنت الطبقة الفنية الناجحة ، وفضلته على الأزواج اللامعين من نجوم المجتمع ! . . وقد ذهبت في تحديها لأسرتها حتى أنها تخلت عن اسم أسرتها وقررت أن تحمل اسمها ، فأصبحت من ذلك الوقت « بياتريس ويب » . .

وانضمت معه الى جمعية الفايان . وعرفت أعضاء الجمعية وأحبته واحترمتهم ما عدا برنارد شو الذي قالت انه ساخر أكثر من اللازم ، وانها لا تستطيع أبدا أن تحمله محمل الجد !

أصبحت بياتريس عضوا في جمعية الفايان مع سيدني وقد قلت لك منذ قليل ان اشتراكية جمعية الفايان تقوم على التدرج ، بل وعلى « التسلسل » . . فلم تكن الجمعية تصطدم مع الحكومات القائمة ، ولم تكن تستند الى أية حركة أو منظمة عمالية ، ولكنها كانت تقوم بمهمة الاقناع . . اقناع الجميع ، حتى الاحزاب المحافظة ! . . ولخصت الجمعية رسالتها آنذاك في كلمتين : الدراسة . . والنشر ! . .

دراسة المجتمع الانجليزي من جميع نواحيه ، واستخلاص كل ما يؤيد الدعوة الى تغيير هذا المجتمع . . ونشر هذه الدراسات على أوسع نطاق ممكن حتى يتكون حولها اقناع عام قوى . .

وكانت وسائل «النشر» تشمل اصدار الكتب والنشرات
والمجلات .. والقاء المحاضرات واقامة حلقات البحث
والمناقشة ، والوقوف على أي صندوق فارغ أمام أي
جمهور ممكن ، لشرح مبادئ الجمعية ..

ومنذ تزوج سيدني وبياتريس ، قررا أن يكرسا
حياتيهما لهذه الرسالة : رسالة الدراسة والنشر ..
واستأجرا في قلب لندن بيتا عاشا فيه ثلاثين سنة
متوالية ، لم يلبث أن أصبح أقرب الى خلية النحل التي
تموج بالحركة والنشاط منه الى العش الهادي الذي
يركن اليه زوجان !

فالان تبدأ زمالة من تلك الزمالات النادرة في التاريخ .
زمالة دامت ما يقرب من خمسين سنة ، لم يسكت فيها
هذا « الثنائي » عن الدراسة والانتاج والاتصال بالناس
كان أول نشاط مشترك لهما كتابا في « تاريخ الحركة
النقابية » ثم كتاب « الديمقراطية الصناعية » ، ومنذ
تلك اللحظة لم يتوقف انتاجهما حتى أصبحت مؤلفاتهما
المشتركة تعد بالعشرات ..

وحتى سنة ١٩٠٥ ، كان اسم سيدني هو اللامع ،
في حين ظل اسم بياتريس باهتا بجواره ، خصوصا
وان الناس كانوا معتادين على نسبة الفضل في مثل هذا
العمل المشترك الى الرجل ..

وفي سنة ١٩٠٥ ، كان ضغط المطالبة بالعدالة
الاجتماعية قد اشتد على الحكومة ، وقررت الحكومة
الانجليزية تشكيل لجنة تحقيق لتنظر في أمر القانون
العتيق الذي كان معروفا باسم «قانون الفقراء» والذي
كان مصدر كثير من الظلم الواقع على الطبقات الفقيرة ،
واختارت الحكومة بياتريس لتكون عضوا في اللجنة .
قامت اللجنة بدراسة شاملة للحالة الاجتماعية

والاقتصادية في إنجلترا . وكان طبيعيا ألا يتفق أعضاؤها على رأى واحد . . . وانتهى الأمر بأن يصدر عنها تقريران : تقرير للأغلبية يحمل توقيع كل الأعضاء عدا عضوا واحدا . . . وتقرير للأقلية تكتبه وتوقعه بياتريس وحدها !! وانفجر تقرير « الأقلية » كالقنبلة ! . .

لقد كان الجو العام في إنجلترا محافظا وكانت نقابات العمال ينظر اليها شذرا على أساس أنها وباء يجب القضاء عليه ، وكان أكثر الناس تساهلا يعتبرها نوعا من البثور تظهر على وجه المجتمع في فترات الازمة ثم لا تلبث أن تزول . . . وكان التفكير السائد المستتر في نفوس الناس أن الفقر جريمة ! . . وأن الفقراء وحدهم هم المسئولون عن فقرهم ، أما لأنهم جهلة أو لأنهم أغبياء ! . . وكانت الحكومة تعتبر نفسها غير مسئولة عن رعاياها الذين لا يجدون عملا ، أو لا يجدون سكنا أو طعاما . .

ولكن تقرير بياتريس - مستفيدا من كل تعاليم جمعية الفايان - جاء معارضا لهذا كله . . . لقد دعت فيه الى الاعتراف بنقابات العمال . ودعت الى تدخل الحكومة في الحياة الاقتصادية لتأمين العمال ضد العجز والبطالة والشيخوخة والمرض . وطالبت بوضع نظام للتأمين على العمال ضد هذه الكوارث ، ولتوفير العلاج لهم ، ولإعانة المتعطل في فترة بطالته . هذا التقرير هو بعينه تقريرا الذي أصبح بعد أربعين سنة برنامجا رسميا لحزب العمال ، ثم لحكومة العمال . وهو المنبع الأول لتقرير « بيفردج » الشهير الذي ظهر بعد الحرب الأخيرة ! . .

وقد يبدو الحديث عن هذه الأشياء الآن عاديا . وقد ترين أنها استقرت في الأذهان - حتى في أذهان الكارهين

لها - كحقوق طبيعية للمواطنين . ولكنها لم تكن كذلك منذ نصف قرن . . حين صدر تقرير بياتريس . . ورفضت الحكومة بالطبع أن تأخذ بتقرير «الأقلية» . ولكن صدور هذا التقرير كان فرصة فريدة ، اقتنصتها الجمعية للدعاية لمبادئها على نطاق واسع

وتزعم سيدنى وبياتريس حملة هائلة للدعاية لهذا التقرير أعلن سيدنى وبياتريس أن لكل مطبعة الحق في أن تطبع التقرير وأن تبعة كما تشاء . . فتدفقت من المطابع طبعات مختلفة الأشكال والأحجام ، وبأسعار زهيدة جدا

وحاولت الحكومة أن تقاوم هذا النشر فاندرت بياتريس بأن التقرير ملك للحكومة ، ولكنها لم تدعن لهذا الانذار ، ثم أعلن سيدنى وبياتريس عن تكوين جمعية للدفاع عن هذا التقرير وانطلقا يعملان عملا مضنيا بغير انقطاع لتكوين هذه الجمعية . . فلم تمض شهور حتى أصبح لها مقر ، وبلغ عدد الأعضاء المقيدين فيها ١٦ ألف عضو ، يضمون رجالا ونساء وشبابا من جميع الطبقات والطوائف والهيئات . . حتى الشاب ونستون تشرشل ، كان أحد المشتركين فيها !

واذ أصبح للجمعية هذا الدور والانتشار ، بدأ سيدنى وبياتريس يحولانها من جمعية للدفاع عن التقرير الى هيئة تطالب بتغيير النظام الاجتماعى بقصد القضاء على الفقر ، بدلا من الانصراف الى علاج آثاره . .

وهنا . . كان لابد أن ينفض عن الجمعية الكثيرون . كان لابد أن يخرج منها كل الذين دخلوها بدافع المروءة ، عندما وجدوا أن رسالتها تتطور الى أحداث تغيير أساسى كبير . . يضر بمصالح الكثيرين منهم . وكان من أول الخارجين . . الشاب ونستون تشرشل ! . .

وبعد سنوات من الكفاح الرائع تمزقت الجمعية :

ولكن بقى منها أمر هام . . هو اقتناع سيدنى وبياتريس بأن الاعتماد على الأحزاب الموجودة وعلى الأفراد لا يجدى . وأنه قد آن الأوان لتكوين حزب اشتراكى قوى يستمد قوته من نقابات العمال .

فبعد أن اشتركا فى جمعية ألفا بيان ، وأسسوا مدرسة لندن للعلوم الاقتصادية ، وبعد أن خاضا معركة قانون الفقراء ، وبعد عشرات من الكتب ومئات من الأبحاث والمحاضرات عن النقابات وحركات التعاون والعمال ، وجد الزوجان ، الزميلان ، ان الوقت قد حان لتكوين حزب

وأعلن عن تكوين حزب العمال . . وكان المهندس اللذان وضعوا برنامجا ورسموا له خطة العمل هما : هندرسون وسيدنى . ويب . . وعندما يقول التاريخ سيدنى فهو يعنى بياتريس أيضا . . كما انه عندما يقول بياتريس انما يعنى سيدنى ! . .

ودخل الحزب الجديد أول معركة انتخابية سنة ١٩١٨ ، وفاز بستين مقعدا فى مجلس العموم . وأصبح بذلك هو المعارضة الرسمية لحكومة صاحب الجلالة !

وكان أكثر نواب الحزب من العمال غير المدربين على العمل ، وجعلت بياتريس رسالتها أن تعلمهم وتدريبهم وتعقد لهم حلقات المناقشة والبحث .

وكانت بياتريس تعتقد أن أعضاء الحزب - نوابا وغير نواب - لن يستطيعوا شيئا كثيرا ، اذا كانت زوجاتهم جاهلات برسالتهم . . فأنشأت جمعية لزوجات أعضاء الحزب ، أطلقت عليها اسم « جمعية نصف الدائرة » - فالدائرة لا تتم الا برجل وامرأة - جعلتها أداة لرفع الزوجات الى مستوى رسالة الأزواج . . حتى يصبحن مثلها شريكات وزميلات . . لا مجرد تابعات ! . .

وبعد : يا آنستى . . فأظنك سوف توافقين على اعفائي

من سرد بقية القصة.. فقد أردت ان اقدم لك «صورة»
فحسب .. لا قصة كاملة ..

هذا الى أن بياتريس وسيدني قد عاشا طويلا .. عاشا
حتى تجاوزا الثمانين .. لا ينقطع كفاحهما ، ولا يتردد سيدني
عن خوض المعركة ، في دائرته ..

وقد أصبحا عجوزين ، وباتت أعصابهما المرهقة لا
تحتمل ضجيج لندن . وذات يوم نشرت الصحف في
اعلاناتها المبوبة اعلانا صغيرا يقول : « مسز ومستر ويب
يريدان شراء بيت ريفي ، قريب من لندن ، في مكان
لا تصل اليه أصوات الديكة والكلاب !! » ..

أما هو ، فقد أصبح عضوا في اللجنة العليا للحزب
وصاحب الرأي الاول فيه ، ودخل وزارات العمال أكثر
من مرة ، وحمل لقب « لورد باسفيلد » ، حتى يدخل
مجلس اللوردات ويستريح في هذه السن من الانتخابات ،
ولكن بياتريس رفضت أن تحمل لقب « ليدى باسفيلد »
وأصرت أن تبقى « بياتريس ويب » وشنت عليها الصحف
حملة عنيفة لرفضها أن تحمل لقباً انجليزيا عريفا !

ولأول مرة خلال زمالة دامت خمسين سنة ، اضطرا
الى الافتراق فترات طويلة .. هي في بيتها الريفي ،
وهو في أعماله الضرورية في لندن ..

ولأول مرة ، عندما أصبح يغيب عنها ، ندمت على
القرار الذي اتخذته عندما تزوجت منذ نصف قرن !
بالأ تنجب أطفالا ! ..

ولكن أقاربها الذين انفضوا عنها يوم تزوجت ذلك
الشاب الاشتراكي المجهول الخالي من الأناقة ، أصبحوا
يحجون اليها في بيتها الريفي ، ويقدمون اليها أطفالهم ،
فتقضي معهم أوقاتا سعيدة ..

وأصبحت الهيئات الرسمية أيضا تعترف بها ،

فالإذاعة الرسمية تدعوها من حين لآخر الى الكلام ..
وأكاديمية لندن تضمها عضوا ، فتصبح السيدة الوحيدة
في الأكاديمية ومدرسة لندن الاقتصادية تضع في مدخلها
لوحتين لها هي وزوجها اللذان قاما بإنشاء المدرسة ..

ولكنها كانت في أيامها الأخيرة ساخطة على حزب
العمال .. لا تفتأ تردد أنه أصبح يشبه حزب المحافظين
في وجوه كثيرة . وكانت تسأل زوارها دائما ، عن الشبان
اللامعين في الحزب أو تتعجل ساعة توليهم زمام القيادة
لعلهم يكونون أصلب عودا .. وكان هؤلاء الشباب الذين
يترددون عليها ويستمعون الى آرائها هم : سستافورد
كريس وكليمنت آتلي وهربرت موريسون ! ..

ولم تتوقف خلال ذلك كله عن التأليف والدراسة
لحظة واحدة ! ..

وماتت بياتريس سنة ١٩٤٣ ، خلال الحرب الأخيرة
وعندما فاز حزب العمال لأول مرة بالأغلبية المطلقة
سنة ١٩٤٥ ، وبدأ في تنفيذ برنامجه ، وقف هارولد
لاسكي يقول : « إن كل الناخبين الذين اختاروا حزب
العمال ، يتوجهون اليوم الى ذكرى بياتريس وسيدنى
ويب ويحيون » زمالتهما « .. »

فما رأى « القارئة المجهولة » ؟ ..

اننى لم أقدم لك هذه الصورة لكى تصنعى مثلها ،
أو لتحاولى تقليدها .. كلا .. فان أروع ما فى التاريخ
إن الناس يتعلمون منه ، ولكنهم يضيفون اليه !

وأنت قد ولدت بعد ميلاد بياتريس بثمانين سنة على
الأقل .. ثمانون سنة تفصلك عنها لا بأيامها فحبس
ولكن باكتشافاتها وتجاربها وأحداثها ! ..

وجه جديد في عائلة نهرو

« نحن ثلاث شقيقات .. ليكها وريثا وأنا . نشأنا والهند مسرح تدور عليه دراما سياسية عظيمة ، سوف تبقى مشاهدها عالقة بأفئدتنا الى الأبد .. وهذا الكتاب يروي قصة الاثر الذي تركته هذه الدراما في حياتنا ، لعلها تعجب أولئك الذين لم تكن لهم طفولة كالتى مرت بنا ! »

هكذا تقول الفتاة الجميلة التى لايزيد عمرها على العشرين الا قليلا .. وهى تقدم كتابها الحافل بصور من الأحداث الكبيرة والمشاعر الرقيقة !

والفتاة مؤلفة هذا الكتاب اسمها « ناينتارا ساجال » أو « تارا » كما تنادىها أمها . أما أمها فهى السيدة فيجايا لاكشيمى ، شقيقة نهرو المعروفة التى زارت مصر عدة مرات ، ورأست دورة الأمم المتحدة منذ سنتين والتى تشغل الآن أهم منصب دبلوماسى فى بلادها ، وهو منصب سفيرة الهند فى إنجلترا ..

وعندما كانت الهند مستعمرة ، كان الحاكم الانجليزى للمقاطعة يقول عن عائلة نهرو : « هذه العائلة الملعونة » ! وكانت عائلة ملعونة حقا ، فهى التى تثير الاضطرابات ، وتبث الثورة ، وتدخل بأسرها الى السجن .. من الجد المعجوز « موتيلال » والد نهرو الى الحفيدة « ليكها » التى

تبلغ الثانية عشرة من عمرها فحسب !!

وليس في الأحداث التي ترويها لنا «تارا» جديد . .
فالدراما التي مثل أدوارها أربعمائة مليون هندي ،
والتي تمخضت عن استقلال الهند وتحولها الى قوة
دولية كبرى ، أحداثها معروفة للجميع . .

أما الجديد ، فهو الزاوية التي تنظر منها «تارا» الى
الأحداث بنظرة طفلة ثم شابة تنظر الى الحوادث من
الباب الخلفي . . فهي ترسم لنا صور المجاهدين ،
والمجاهدات لا في ميادين المعركة ، ولكن في بيوتهم ، في
ساعات راحتهم ولهوهم . . في طعامهم ونومهم وبين
أطفالهم . . ومن هنا جاءت رقة الكتاب وعذوبته . .
وانسانيته !!

ففي فصل بعنوان «نحن والسياسة» تروى لنا كيف
بدأت وهي طفلة صغيرة تفتح عينيها على ما يحيط بها
من أحداث . . فتقول : « كنت في الثالثة من عمري ،
وكنّا - أمي وأبي وشقيقتي - نتناول الشاي ساعة
العصر ، وقد صنعت لنا أمي في ذلك اليوم كعكة
بالشيكولاتة . وكان وجود كعكة الشيكولاتة مع الشاي
نوعا من الترف لا يتكرر كثيرا ، فله في نفوسنا الصغيرة
فرحة كبيرة . . وبينما نحن نشرب الشاي ونرمق الكعكة
بشغف اذ دق الباب ودخل علينا عدد من جنود البوليس ،
وسألت أختي « ليكها » عن سبب قدومهم ، فقالت لها
أمي : لقد جاءوا لكي يأخذوا أباك الى السجن . وليس
هذا مزعجا ، لأن «بابو» يريد أن يذهب اليه . فقمنا
وقبلناه جميعا ، وودعناه ، ورأيناه ينصرف وهو يتبادل
الحديث مع رجال البوليس ، ولما أغلق الباب وراءه
أكملنا التهام كعكة الشيكولاتة .
ومن تلك اللحظة بدأت تعلم شيئا عن حركة العصيان

المدنى التى يتزعمها غاندى ، واقترن السجن فى عقلها
الباطن بكعكة الشيكولاتة ، حتى أطلقت على هذا الكتاب
اسم : « السجن وكعكة الشيكولاتة » .

ثم هى تصور لنا انطباعات الفتاة الصغيرة ازاء هذه
الأحداث التى لا تفهمها بالضبط فتقول : « وعندما
وجدنا أن أبى وأمى وخالى وجدى يذهبون كلهم الى
السجن أصبحت أنا وشقيقاتى نريد أن نكبر بسرعة
لنذهب اليه مثلهم !! » . وقد جربت أختى الكبرى
« ليكها » السجن بعد ذلك عندما بلغت الثامنة عشرة ،
وعادت تقول لنا : « ان الحياة هناك ليست سارة كما
كنا نظن ! »

وفى جميع صفحات الكتاب نلاحظ ان «تارا» كانت
تتأثر بأمها وتعجب بها أكثر مما تتأثر بأبيها وان كانت
تكن له نفس التقدير . وقد ذهبت أمها أيضا الى السجن
وسمحت السلطات لها يوما وهى فتاة صغيرة بأن تزور
أمها فى السجن ، وهى تسجل تلك اللحظات فى سطور
بارعة فتقول : « كنا قد تعودنا أن نرى « مامى » فى
البيت تحوطها هالة من الجمال والرقّة . كنا نراها
تخرج فى الصباح الباكر الى الشرفة ، وتركع على ركبتيهما
ثم تأخذ فى تنظيم الزهور فى آنيتهما بعناية وصبر . وكنا
نسمع صوت ضحكاتها الفضية يتراعى إلينا من حجرة
الصالون فى الليالى التى يزورنا فيها الضيوف . وما
أقسى أن نرى أمنا هذه تذهب الى السجن الكثيب ،
وأن نراها واقفة وسط عشرات غيرها فى ثياب السجن
الخشنة تلوح لنا من وراء القضبان !.. وأن نرى
السيارات المسلحة والجند المدججين بالسلاح يأتون
ليقبضوا على هذه المرأة الجميلة الرقيقة التى تدعو الى
هدم العنف !! »

هشى الخدم فى البيت كان لهم دور فى المعركة . وعندما
وقف خادمها الساذج هارى فى المحكمة وسأله القاضى
الانجليزى :

— ما عمرك ؟ ..

سكت الخادم طويلا يفكر ، ثم قال : لا أعرف بالضبط
ولكنى بدأت أحلق ذقنى عندما تخرج مستر نهرو من
الجامعة !!

فلم تتمالك تارا وشقيقتها أنفسهن من الضحك ، ،
وكن جالسات فى مقاعد المتفرجين !!

وبنفس الطريقة تحكى قصة أول مرة رأت فيها غاندى :

« كنت فى الرابعة من عمري ، وجاء غاندى الى بيتنا
وجلس فى الحديقة يقيم أحلى صلواته بين جمع من الناس
» وأعطتنى أمى باقة من الورد وطلبت منى أن أقدمها
اليه ، وعندما نزلت الى الحديقة اتجهت الى أبى ،
فجذبنى من ذراعى الى رجل ضئيل يجلس على الأرض
.. وصحت بصوت عال : ان شكله قبيح .. لن أعطيه
الزهور ! »

وضحك الرجل الجالس على الأرض وربت على خدي
وقال : « أرجو أن تظلى صريحة على الدوام ! » ..

من هذه الحوادث الصغيرة والانطباعات المتوالية تكون
الوعى السياسى عند « تارا » ..

وهى عندما تحاول الرجوع بذاكرتها الى بدء ظهور
هذا الوعى فى نفسها لا تستطيع أن تحدد تاريخا معيناً

« لقد بدأ اهتمامنا بالسياسة ينمو تدريجياً وبغير ارادة
منا . لقد نشأنا فى الوقت الذى انضوت فيه الهند
تحت زعامة غاندى . وكنت أنا وشقيقتاى من أصغر
بنات الهند اللواتى أدركهن جانب من اشعاع غاندى الذى
أضاء بلادنا كلها .. »

« ولم تكن نرى غاندى كثيرا . ولكن أسرثنا كانت ترى فى خالى جواهر لال نهرو رمز انضواء العائلة كلها تحت لواء غاندى . فقد كان خالى مقربا اليه ، وكان من أوائل الذين انضموا الى حركته » .

ولا بد ان يخطر لنا فى هذا المقام سؤال ..

ان « تارا » وشقيقتها لم يتمتعن بالطفولة الهادئة التى يعرفها أغلب الناس . كانت طفولتهن عاصفة ، أهون ما فيها أن تذهب الأم ويذهب الأب الى السجن كل حين وآخر .. فكيف كان أثر هذه الحياة المضطربة على طفولة البنات الصغيرات ..

ان « تارا » تشرح لنا هذا الأثر ، فى أسلوب من الزهو والفخر ! ..

« لقد كان نمونا ونضجنا مطردا مع نمو النضج السياسى فى الهند على أساس من التضحية وضبط النفس والسلم . وقد أثر هذا فى حياتنا ، وبعث فيها نوعا فريدا من الروعة ! ..

« الروعة ؟ .. ربما تبدو هذه الكلمة غريبة فى وصف فترة عاش فيها أبى وأمى بعيدين عنا ، بين السجن والعمل السياسى الشاق . ولكن هذا بعض سحر غاندى لقد علمنا أن نرى فى هذا الكفاح نوعا من الفخار لا يدانيه أى فخر !!

« لقد كان أروع ما فى تعاليم غاندى انها أقنعت الناس بأن يهجروا روتين حياتهم الرتيب ويخوضوا معركة الحرية فى بسالة . كانت دعوته الى دخول السجن نوعا من عدم التعاون مع الحكومة بأسلوب سلمى . وكان الذهاب الى السجن يتم فى بساطة ولباقة وكبرياء وقد أدى برنامج عدم التعاون هذا الى الفصل بين الأزواج وزوجاتهم ، وبين الآباء والأمهات وأبنائهم .. كان معنى

هذا ارتباك الحياة العادية التي يجب أن تتوفر للأطفال وأن ينعدم شعورهم بالامن ، الأمر الذي يؤدي الى اضطراب نفسياتهم .. ولكن شيئا من ذلك لم يحدث لنا ، بل على العكس ، لقد خلق لنا عالما جديدا من القيم التي أصبحنا نؤمن بها ونعيش من أجلها .

« نعم ، لقد كانت تمر بنا ساعات موحشة من فراقنا عن أبينا وأمنا ، كنت أفقد أمي في بعض الليالي وأبكي في الخفاء . اذ كان من تقاليد أسرتنا ألا نبكي علنا مهما كان الأمر ، ومع ذلك ففي كل مرة كانت الأزيمة تمر ، وكنا نزداد اقتناعا بأن أبانا وأمنا يسلكان الطريق السليم

» لقد أصبح الوقت الذي نقضيه معهما جميلا ، لأنه كان قصيرا ! وأصبحت حياتنا العائلية أكثر سعادة ، لأننا كنا نشعر برابطة عميقة من المثل تربط بين قلوبنا!«

ولا ننسى في هذه التربية الرائعة ، فضل الأم ! .. بل ان تربية الأم فيجاليا لاكشيمى لبناتها على هذا النحو ، ليعد أروع ما قامت به من أعمال ! ..

أليس رائعا حقا ، ان تعرف هذه الأم انها ذاهبة الى المعركة غدا ، فتترك لصغرى بناتها - ريتا - رسالة تشرح لها فيها كل شيء ، وتقول في ختامها : «سنذهب جميعا الى السجن وستبقين أنت وليكها وتارا في الخارج وليس معنى ذلك انكن غير مشتركات في العصيان المدني . ان مجرد احتفاظكن بعلم المؤتمر مرفرفا على البيت لهو دور كبير! .. فكرى في بلادنا الكبيرة الجميلة ، وفي أمك وأبيك وخالك الذين يساهمون في جعلها حرة... أليس هذا شيئا تفخرين به ؟ ! «

ومن أجمل صفحات هذا الكتاب ، الصفحات التي تحكى فيها «تارا» كيف دخلت أمها معركة الانتخابات ، وكيف فازت في المعركة ، وكيف أصبحت أول امرأة

تشغل منصب وزيرة في الهند.. وكيف كان احساسها
هي الابنة الصغيرة بهذه الأحداث !..

ففي سنة ١٩٣٦ ، قرر حزب المؤتمر أن يدخل
الانتخابات الاقليمية لعضوية المجالس التشريعية .
وعادت « تارا » من اجازتها الدراسية لتجد أباهما وأمها
قد رشحا نفسيهما في دائرتين مختلفتين ..

وسألت تارا أباهما : كيف تدخلون الانتخابات في بلاد
ليست حرة ، وللمجالس يملك الحاكم العام الانجليزى
حق حلها ؟..

وقال لها أبوها : لقد قررنا دخول الانتخابات بقصد
التحدى . ثم ان الانتخابات سوف تساعد الحزب على
الاحتكاك بالناس والاتصال بهم عن كثب . اننا لا نريد
الفوز بالاغلبية بقدر ما نريد أن نثبت تعلق الجماهير
بدعوتنا ..

ثم تسرد لنا المصاعب والمشاكل التى واجهت أباهما
وأُمها كمرشحين : « كان لابد للفلاحين الناهيين أن
يقطعوا أميالا طويلة حتى يصلوا الى صناديق الانتخاب
ولم يكن الحزب يملك السيارات التى ينقل بها أنصاره ،
كما كان يفعل خصوم الحزب من المرشحين الأغنياء .
ولكن المشقة لم تكن شيئا جديدا على الفلاح الهنـدى .
انه قد يرتاب فى الراحة التى تعرض عليه لأنه لم يتعود
المعاملة الكريمة . ولكنه لا يرتاب فيك أبدا اذا عرضت
عليه أى لون من المشقة !!.. ودعا الحزب كل الهنود
الى الزحف نحو صناديق الانتخاب بنفس الروح التى
يحجون بها سيرا على الأقدام الى نهر الكنج المقدس !!
وقال لهم ان التصويت شيء مقدس فى حياة البلد
كالحنج !!.. وانتشرت صيحة « الاقدام الى صناديق
الانتخاب ! » .. والناس يظهرون بطولتهم اذا رأوا مثلاً

واحدا من البطولة ماثلا امام أعينهم وقد ساروا الى الصناديق لأنهم رأوا غاندى يسير أميالا طويلة ، وزاده البسيط على كتفه ، الى شاطئ المحيط ، ليخرق قوانين الملح ! .. وخرجت الهند من معركة الانتخاب وقد أبت أن يشتريها المال أو الضغط ، ونجح حزب المؤتمر نجاحا ساحقا في الانتخاب ! »

فكيف عرفت « تارا » نبأ فوز أمها في الانتخابات ؟ ..

« كانت الايام التي سبقت النتيجة حافلة بالقلق ، لم نكن نأكل أو ننام ، لا نكاد نسمع صوت التليفون يدق حتى نتسابق اليه . وفي ذات ليلة كنت أتناول العشاء أنا وليكها وريتا عندما وصلت إلينا برقية ، فتحتها ليكها وصاحت : « مامى نجحت ! » .. وتبادلنا النظرات أول الأمر في ذهول ، ثم أسرعنا الى حجرة جدتى حيث كانت تجلس على الأرض وأخبرناها بالنبا السار ..

« وقد تكرر نفس المنظر عندما تلقينا بعد قليل أنباء تقول أن أبى قد هزم خصمه في الانتخابات ، وكان من كبار الملوك الاغنياء ..

« وفي الصيف التالى تلقينا من مامى خطابا تقول : انها عينت وزيرة للصحة فى وزارة المقاطعة . وفى جميع أنحاء الهند أخذت الصحف والمجلات تنشر صورة مامى وتتحدث عن شعرها الناعم الجميل ، وتقول انها أول هندية تشغل منصب الوزارة ، بل ومن أوائل النساء اللواتى شغلن هذا المنصب فى العالم كله ! .. وكنا نحن البنات الصفار نتلقى التهاني من الجميع فى فخر ! ..

« وقد استمرت حياتنا كما هى بعد أن أصبحت أمى وزيرة ، فيما عدا رحلاتنا الى مقر الوزارة ، نحمل الأمى طعامها فى سلة صغيرة ، ونسمع الناس يشيرون اليها قائلين : « جناب الوزيرة ! »

« وكانت مامى قد فرشت مكتبها فى الوزارة بذوقها
البديع ، وملأته بأوانى الازهار المقطوفة من حديقة
الوزارة . وقد فزع السكرتيرون أول الأمر عندما بدأت
مامى تعيد ترتيب المكتب على ذوقها . وكانوا يعتقدون
ان أية لمسة نسائية رقيقة فى المكتب سوف تبعده عن
جو العمل الجاد . وعندما طلبت أمى قطف الزهور من
الحديقة لوضعها فى الحجرات عبر الموظفون عن استيائهم
علنا ، وقال أحدهم لها :

— ولكن ياسيدتى ان هذا لم يحدث من قبل !..

فقالت له : فليحدث من الآن !

وحملت سلة صغيرة ونزلت الى حديقة الوزارة تقطف
الزهور بنفسها !!

ورأى الموظفون وزيرتهم تقطف الزهور فى الحديقة
أمام أعين الرأئحين والفادين ، فأسرعوا الى القيام بدلا
منها بهذا العمل !

وأصبح اسم فيجايا لأكشيمى أسطورة فى المقاطعة .
وأخذت كل أم تطلق اسمها على أول بنت تولد لها .
كانت البنات الصغيرات يقلدنّها ، والسيدات العجائز
يتحسرن لأنها لم ترزق ولدا ، اذ أنجبت ثلاث بنات
فقط !!..

وقد كان منظر امرأة تخوض مناطق الكوليرا وتزور
أماكن المجاعات منظرا غريبا حقا . بل لقد ظل بعض
الفلاحين البسطاء لا يصدقون ما يقال لهم من أنها امرأة .
حدث مرة وهى تلقى خطبة فى جمع من الفلاحين أن
همس زوج فى أذن جاره يقول :

— تصور .. انها امرأة حقا !!..

وتلاحظ « تارا » هنا ان الحركة النسائية للمطالبة
بجقوق المرأة لم توجد فى الهند أصلا . ذلك ان غاندى

دعا النساء منذ بدء الحركة الوطنية الى اتخاذ مكانهن في صفوف الحركة الوطنية بجوار رجالهن . كما تلاحظ ان تحرر المرأة في الغرب قد صاحبه تغير منظرها وملابسها ، فظهر الشعر المقصوص والثياب القصيرة البسيطة . أما في الهند فقد ظلت المرأة رغم تحررها محتفظة بالساري الجميل والشعر الطويل فأثبتن بذلك ان المرأة تستطيع ان تؤدي واجبها كاملا مهما كانت ثيابها رقيقة أو طبيعتها ناعمة !..

وتمضي الأحداث بفتاتنا الذكية المرهفة الحس .. وببلوغها سن الشباب الباكر تعرف طريقها الى المظاهرات .. وتقع أختها الكبرى « ليكها » في قبضة البوليس ، وتبقى هي وأختها الصغرى ريتا مطلقتي السراح ..

وتلتقي الأم والأب في السجن لحظات ، يقرران فيها ارسال تارا وريتا الى بلد بعيد آمن تتلقيان فيه العلم ، ولما كانت الحرب العالمية الثانية ناشبة في ذلك الوقت في أوروبا ، فقد قررا ارسال البنيتين الى أمريكا ..

وذهبت الفتاتان الى سجن الرجال ثم الى سجن النساء تودعان الأم والأب ، ثم ركبتا الباخرة الى أمريكا ، الى لوس أنجلوس .. فكيف رأت المؤلفة الشابة أمريكا ؟

الأنوار الساطعة ، الخاطفة ، المرنة .. الحياة السريعة التي تلهث مترنحة من التعب .. البائعات الفاتنات في كل المحلات ، كل واحدة منهن تقف طول النهار وهي تحلم بالمخرج السينمائي الذي قد يمر بها مصادفة فيكتشفها ويجعلها نجمة سينمائية لامعة !.. الناس لا يعرفون شيئا خارج حدود أمريكا .. تسأل واحدا من الناس : هل تعرف الهند ؟ فيقول لها : ليست تلك

البلد التى تقع بالقرب من مصر ؟ ! فتحزن ، لأن كفاح
أربعمائة مليون من البشر، وحضارة خمسة آلاف سنة ،
ليست هنا الا .. « تلك البلدة القريبة من مصر ! »
وتسأل لماذا يعرف مصر ولا يعرف الهند فتعرف السبب :
ان هوليوود أخرجت أخيرا فيلما عن كليوباترا ! وإذا
سألها أحد عن الهند كان السؤال : هل عندكم سيارات
وراديوهات كما عندنا ؟ .. فإذا أجابتهم : ليس بهذه
الكثرة شعروا بالتفوق والارتياح « ؟ !
وفي خلال حياتها في أمريكا لا تنقطع لحظة واحدة عن
متابعة أنباء الكفاح الوطنى فى الهند ..

وتنتهى الحرب ، وتنال الهند استقلالها ..
وتعلم « تارا » يوما ان أول وفد يمثل الهند المستقلة
سيصل الى أمريكا قريبا ليحضر أول دورة لهيئة الأمم
المتحدة ، وان على رأس هذا الوفد أمها .. السيدة
فيجايا لاكشيمى !!

أنها الآن فى قمة سعادتها .. لا تملك نفسها من الزهو،
وهى ترى أمها تنتقل فى هذا المحفل الدولى ، وتصول
وتجول بين أقطاب السياسة الدولية مثل فيشنسكى
وغيره .. وهى تسجل ملاحظات سريعة طريفة على
رؤساء الوفود .. ينفن ضيق الصدر بقواعد الاتيكيت
التي لا يعرفها جيدا .. وفيشنسكى بعيونه الزرقاء التى
تنطق ذكاء وابنته الطالبة فى جامعة موسكو .. والأمير
فيصل بشبابه الفضفاضة ، يفض طرفه كلما مرت به
امراة .. حتى ولو كانت أمها ! .. واسم خالها نهرو
يتردد على كل لسان ، ولا أحد بعد يجهل الهند !!

الآن ، تعود تارا الى بلادها ، تعود وقد أصبحت
الهند بلدا مستقلا ، وأصبح خالها الطيب الذى كان
يلعب معها فى الحديقة رئيسا للوزارة .. وعندما وصلت

« تارا » الى البيت الكبير ، كان خالها في الحمام يستعد للذهاب الى حفلة رسمية ، فذهبت وجلست تنتظره في حجرة نومه .. فلما عاد وراها قفزت اليه وتعلقت بعنقه تقبله ، وهو يدور بها في وسط الحجرة ..

ولكن .. ان وجهه يحمل من التعب والجهد والضنى أكثر مما كان يحمل في أخرج أوقات الجهاد ، فلا بد ان مسئولية الحكم أشق من مسئولية الكفاح .. ومضت تهيب نفسها لكي تعيش مع خالها ، ومن أجل خالها ..

لقد اكتشف نهرو الهند خلال رحلاته وقراءاته واختلاطه بالملايين ، أما هي فقد أحبت الهند من خلاله لقد قررت ان تجعل رسالتها ان تهيب لنهرو بيتا مريحا ، بعد ان ماتت زوجته وتزوجت ابنته ، وبعد ان لاحظت قدرته الفريدة على العمل ، واحتقاره للراحة ، وعقله المشغول دائما بالخطط الواسعة والمشروعات ، وإهماله التام لمطالبه الشخصية .. انه الرجل الذى تنطبق عليه حكمة جالاهاو « اننى أعمل عشرة رجال .. لأننى صافى القلب ! » ..

انه لا يحكم بروح رئيس الوزارة .. ولكن بروح الفنان المستغرق فى اتمام لوحة خالدة .. هكذا تمضى خواطرها عن خالها وهى تراه ينهض بهذا العبء الكبير ..

وهى لا تكاد تبادله كلمة واحدة .. لأن برنامجها لا يخلو دقيقة واحدة من الزوار أو اللجان أو التقارير .. انه يعمل حتى فى الفراش ، حتى على مائدة الطعام ، بينما تكتفى هى بالتهام طعامها فى المطبخ ..

وفى احدى الليالى أصابها أرق جعلها تسهر فى فراشها حتى ساعة متأخرة من الليل . ورأى خالها النور مضاء

وهو عائد الى فراشه فمر بها .
قال لها وهو يجلس بجوار فراشها :
- ها نحن فى بيت واحد .. ولا أراك الا نادرا ..
قالها فى صوت متعب ، ثم استطرد : ما أكثر الكلام
الذى أريد أن أقوله لك .. ولكن المسائل الشخصية
كلها يجب أن تنتظر ..
ثم قال لها باسمه كأنه يقترح نزهة : تعالى معى غدا
نزور بابو ..
وبابو هو اللقب الذى كان ينادى به غاندى ..
وقد كانت رؤية غاندى هى راحة نهر و الحقيقة ..
هى خلاصه من كل مشاكله المعقدة !!..
وذهبت تارا مع خالها لزيارة غاندى ، فأحست
بالراحة فعلا ، وفى الدوامه المحمومة التى كانت تعيش
فيها الهند عقب الاستقلال ، ظل غاندى هو العقل الهادئ
والقلب المستريح .. ليس حوله سوى الاغانى والصلوات
والهدوء !!..
ان غاندى لا يتكلم ، ولا تشعر بأنه يريد أن يقنعك
بشيء ، انه فقط يفكر أمامك بصوت مسموع ..
أما فلسفته التى أوصاها بها حتى النهاية ، فهى :
لا تسلكى الى الهدف السليم .. الا الطريق السليم ..
وبعد أيام اغتال أحد المهورسين غاندى ..
وكتبت « تارا » تقول : سىظل الناس الى الأبد
عاجزين عن ايجاد سبب معقول لصلب المسيح أو اعدام
سقراط ، أو اغتيال غاندى !!

صدى ايشتين

مؤلف هذا الكتاب - فيليب فرانك - ليس اديبا فقط ، ولكنه عالم أيضا . . . وهو عالم فى نفس الفرع الذى تخصص فيه ايشتين ، وقد توثقت بينهما روابط صداقة وطيدة دامت أكثر من ثلاثين سنة ، عاشا خلالها فى أحداث وأبحاث واحدة . .

والكتاب فى حجمه الاصلى يزيد على خمسمائة صفحة . . وقد صدر قبل وفاة ايشتين بسنة واحدة . وقد بدأ المؤلف كتابه متحدثا عن حياة ايشتين فى أواخر أيامه فقال :

يسكن ايشتين بيتا خشبيا بسيطا يقع فى حديقة مجاورة لجامعة برنستون الشهيرة ، بالقرب من نيويورك وفى نهاية سلم ضيق ، بالطابق الاول يلقاك البرت ايشتين مرتديا صندلا وبنطلونا وقميصا . . أما مكتبه فعبارة عن مائدة عمل ، ومقعدين وثيرين ، ورفوف عليها مذكرات وكتب ، وآلة كمان ، وعلى الحائط صورتان لفاراداي وماكسويل ، وعلى المائدة أوراق صغيرة متناثرة مليئة بمعادلات وأرقام حسابية ، مكتوبة بخط دقيق جدا ، فهذه الاوراق تضم الكثير من أسرار الكون . . .

وبالنسبة لسكان برنستون ، كما هو الشأن بالنسبة لسكان العالم أجمع ، يعد البرت ايشتين من الشخصيات

الاسطورية في القرن العشرين ، فهنا تروى قصص كثيرة عنه . . هذه واحدة من جاراته ، لها ابنة في العاشرة من عمرها ، لاحظت يوما أن ابنتها تذهب كثيرا الى اينشتين في بيته وتمكث عنده طويلا . . وسألتها أمها في ذلك فقالت : « اننى أجد صعوبة في حل واجباتي المدرسية في الحساب ، وقد سمعت ان الرجل الذي يسكن البيت رقم ١١٢ يعرف الحساب جيدا ، فذهبت اليه أطلب منه مساعدتي ، وقد رحب بي كثيرا وشرح لي كل شيء ، وفهمت منه بوضوح وسهولة أكثر مما أفهم من مدرستي في الفصل بكثير ، وقد طلب مني أن أذهب اليه كلما احتجت الى شيء !! » . . وأسرعت الأم الى العالم الكبير تعتذر عن وقاحة ابنتها فأجابها : لا داعي لهذا الاعتذار ياسيدتي . . فأنا أستفيد من الشرح لها أكثر مما تستفيده هي مني !!

وحين كان اينشتين في الثانية من عمره ، لم يكن قد نطق بالكلام بعد ، وظن أبواه أن ابنهما سيكون شاذًا ناقصا ، فلما نطق بأول كلماته فرحت العائلة بذلك فرحا شديدا ، وكان أبوه يدير مصنعا كهربائيا صغيرا في ميونيخ ، بافاريا . .

أما أم اينشتين فقد كانت موسيقية بارعة . وكان يقيم مع الأسرة واحد من أخوة اينشتين ، يختص بالإشراف على الجانب الفني في مصنع أبيه ، ومنه تلقى اينشتين أول دروسه في الرياضة ، وكان طفلا هادئا ليس فيه شقاوة الاطفال أو ميلهم الى اللعب والجري والنط . . وكانت لعبة « العسكر » التي يلعبها أقرانه تسبب له الفزع . وحدث يوما أن كان يقف مع أبيه يتفرج على استعراض عسكري تتقدمه الموسيقى ، اذ صرخ باكيا فجأة : الرجال المساكين ! لن أفعل مثلهم

أبدا حين أصبح كبيرا !

وفي التاسعة من عمره كان طفلا حالما ، جباناً ، لا يكذب أبداً ، وكان مشهوراً بدقته في رواية ما يقع أمامه بلا أى تحريف ، وفي العاشرة من عمره دخل مدرسة لوييتيون في ميونيخ حيث أغرقوه في طوفان من القواعد اللاتينية واليونانية ، واينشتين مدين لذكاء أحد أساتذته ، الأستاذ رويس ، فانه لم يكره بالرغم من ذلك الثقافة القديمة ، وكان التلاميذ الذين يحصلون على درجات منخفضة يوضعون بعد انتهاء الدراسة في حصص إضافية تحت إشراف أحد المدرسين كعقاب لهم ، ولكن اينشتين كان يفرح جداً حين يعاقب لأن الأستاذ المشرف على التلاميذ المعاقبين هو .. رويس .

وبعد سنوات طويلة ، حين أصبح اينشتين أستاذاً في زيوريخ ، قرر أن يذهب لزيارة أستاذه القديم ، وأخذ يتخيل ماسيكون من فرح أستاذه به حين يرى تلميذه قد أصبح أستاذاً في الجامعة .. ولكنه حين ذهب إليه ، في ثيابه المهملة كهادته ، لم يعرفه أستاذه قط ، وحسبه طالبا فقيرا جاء يطلب مساعدة مالية ، فكان ذلك صدمة لاينشتين حتى أنه فر من وجهه هارباً دون أن يوضح الأمر أو يقول شيئاً ..

وفي سن الثانية عشرة ، تلقى أول قبس من العلم .. حين بدأ يقرأ كتاباً موجزاً في الهندسة ، فلم يكد يفتحه حتى أصبح لا يقوى على مفارقتها .. ولكن حادثاً مفاجئاً بعد ذلك بسنوات ثلاث ، أثر في حياته وغير مجراها ، فقد قرر أبوه تصفية مصنعه في ميونيخ والبحث عن الثروة في مكان آخر ، وسافر الى ميلان لتأسيس مصنع للمنتجات الكيماوية تاركاً ابنه في ميونيخ حتى يتم دراسته . وكان الصبي متفوقاً على زملائه في الرياضة

تفوقا كبيرا وان ظل متخلفا بعض الشيء في اللغات القديمة .

وكانت أشهر مدرسة علمية خارج المانيا هي مدرسة بوليتكنيكوم في زيوريخ وسافر اينشتين الى زيوريخ وتقدم لامتحان القبول ، فأحرز درجات في الرياضة أذهلت המתحنيين ، ولكنه رسب في اللغات رسوبا شنيعا . واختار عميد المعهد : فهو لا يستطيع قبول الفتى الراسب في اللغات ، وهو لا يريد أن يفرط فيه بعد أن رأى عبقريته المبكرة ، فأشار عليه أن يلتحق سنة بمدرسة صغيرة في زيوريخ ويحصل على شهادتها فيدخل المعهد بغير امتحان ، وفي السنة التالية دخل اينشتين المعهد العتيق

وكان المعهد لما يتمتع به من شهرة دولية ، يضم بين جدرانه شبابا من جميع الجنسيات ، وبين طلبته الاجانب كانت فتاة هنجارية اسمها « ميلفا ماريتشى » لا تهتم الا بدراسة العلوم الطبيعية .. وبلغ اينشتين الحادية والعشرين وحصل على الجنسية السويسرية ، وكانوا يعطون الممتازين حوالي ٣٠٠٠ فرنك في الشهر ، وهو مبلغ كان كافيا في ذلك الوقت لكي يعيش بلا هموم ، بل لقد فكر في أن يتزوج ويبني أسرة .. وبعد وصوله الى برن بقليل خطب زميلته ميلفا ماريتشى .. كانت أكبر منه بقليل ، ولكن اينشتين لم يكن يستطيع أن يشغل بالحب ذهنه الخلاق .. وقد استفاد منها اذ نظمت له تيار افكاره الموهوشة ، وانجبت له طفلين ، والاطفال مصدر متعة عظيمة لاينشتين .

وعلى العكس من معظم العلماء والمخترعين الذين يقضون فراغهم في لعب الشطرنج أو قراءة الروايات البوليسية ، نرى اينشتين يقضى فراغه في اختراع صنوف من الادوات والآلات الفجيبة لاستعمالها في شؤون الحياة اليومية .

وفى كل حياته ، ظل اينشتين معتصما بوحده . .
لا يغادرها الا ليقابل من الاصدقاء من يستطيع أن يعزف
لهم الموسيقى أو يتناقش معهم حول آرائه فى الكون ،
وشخصيته البسيطة الجذابة ، السمحة ، طالما اجتذبت
اليه الاصدقاء والناس ، ولكن اعتزازه بوحده صد عنه
الذين لم يفهموا هذه الوحدة .

وهو يقول : « ان الفوائد التى تعود من الاحتكاك
بالناس والمسؤوليات الاجتماعية ، تتعارض دائما مع
رغبتي العميقة فى تجنب كل اختلاط أكثر مما يجب
بالناس الذين أصادفهم ، لقد خلقت لكى أكون وحيدا ،
لا أرتبط بفريق خاص أو جماعة بعينها ، انى فى الحقيقة
لست تابعا لدولة أو شعب أو صديق معين ، بل ولا
حتى لعائلى ، ان هذه الروابط تتعارض دائما مع رغبة
كامنة فى الانطواء على نفسى ، تنمو مع الايام ، وهذه
الوحدة قاسية ولاشك ولا أستطيع أن أعتذر عن اقتطاع
نفسى من مجتمع الناس والاصدقاء وفى مقابل ذلك ،
فاننى غير مرتبط بأى حكم سابق ، أو أى أفكار أو
عادات للآخرين ، ولا أقامر أبدا بأن أبنى سعادة روحى
على أسس متغيرة » .

ومع انه لم يعرف عن اينشتين أبدا انه بذل أى مجهود
ليدعو الأفكاره بين الناس ، فانه يحب أن ينشر رأيه بين
المحيطين به ، والذين يتصل بهم ، وفى « برن » كان
أهم صديق له مهندسا ايطاليا اسمه «بسو» كان أكبر
منه فى السن قليلا، كانت له روح ناقدة ذكية وحساسية
شديدة . وكانت انتقاداته لآراء اينشتين كلها خالقة
منتجة ، ومن أقواله التى ما يزال اينشتين يرددها :
« اذا كانت فكرتك جميلة كالزهرة ، فلا بد أن تنتشر
لها رائحة » .

وهنا يصل المؤلف الى المرحلة التى تعرف فيها الى اينشتين :

لم أكن أعرف الأهمية الخطيرة التى تنطوى عليها نظرية اينشتين فى النسبية قبل سنة ١٩١٢ ، حين قرأت فى جريدة نمساوية مقالا تحت عنوان « الدقيقة فى خطر .. حدث فى العلوم الرياضية » .. وشرح لنا استاذ الطبيعة حينئذ كيف ان عالما طبيعيا اسمه اينشتين أثبت بطريقة رياضية لم يسبق لها مثيل ان الوقت يمكن ان يقصر ويطول ، ان ينكمش ويمتد ، وانه يمضى فى فترات معينة أسرع منه فى فترات أخرى . وان هذه الفكرة قد قلبت كل أفكارنا عن الروابط بين الانسان والكون .. فحتى تلك اللحظة كان الناس يولدون ويموتون ، والاجيال تتعاقب ، وبقي الزمن جامدا لا يتزحزح ، أما الآن فكل شيء قد تغير ، فالزمن نفسه يمكن ان يعدل وكل ذلك بطريقة رياضية بسيطة .

وفى كلمات بسيطة دعا اينشتين الى ألا نقيس الزمن الذى يستغرقه الحدث بالطريقة القديمة « الزمن الحقيقى الذى يستغرقه الحدث هو الذى تسجله ساعة دقيقة مرتبطة بطريقة ما بالحدث الذى يحدث نفسه ، وكل زمن آخر غير ذلك خداع » .

بهذا جمع اينشتين بين المكان والزمان فى صيغة واحدة ..

كما وحد بعد ذلك بين الكتلة والطاقة ..

ثم اكتشف نظرية جديدة للجاذبية تتعارض مع نظرية نيوتن التى تعلمناها جميعا فى المدارس .

وكان للأبحاث التى نشر اينشتين نتائجها فى برن دوى شديد فى أنحاء العالم ، فلم يلبث أن عين بعدها فورا استاذا فى جامعة زيوريخ ، ولكن مركز هذا الاستاذ من

الناحية المالية لم يكن مريحا ، فاضطرت زوجته الى أن تدير جزءا من بيتها « بنسيونا » للنزلاء !

وفي خريف سنة ١٩١٠ ، شفر كرسى أستاذ الطبيعة النظرية في جامعة براغ فأسرعت الحكومة الألمانية تعرض الكرسى الشاغر عليه .. ووصل اينشتين الى براغ ، وقال الذين شاهدوه في ذلك الوقت ان هيئته كانت أقرب الى هيئة مغنى أوبرا ايطالى منها الى هيئة أستاذ المانى .. وكان صيته وشهرته الهائلة بأنه عالم طبيعى غير عادى قد سبقته .. وأصبح كل شخص على أحر من الجمر لرؤية هذا الانسان النادر .

وقد عينت في كرسى اينشتين حين ترك براغ بعد ذلك ، ورحيله عن براغ يرتبط في ذاكرتى بحادثة طريفة فقد كان على الاستاذ الجامعى في النمسا في ذلك الوقت ان يلبس بذلة شبه عسكرية : قبعة مثلثة الاركان مزينة بالريش المرتفع وسترة مزركشة وبنطلونا محلى بضفائر مذهبة ، وعباءة فضفاضة ، وسيفا !.. وقد اضطر اينشتين لشراء هذه البذلة حين عين في براغ .. فلما انتهت مدته وقرر العودة الى سويسرا ، اشتريت أنا منه هذه البذلة حتى لا أتجشم ثمن بذلة جديدة ، وهى لن تنفعه بعد ذلك ، وكان ابنه الصغير - فى الثامنة من عمره - حاضرا هذه الصفقة ، فصاح فى أبيه يريد أن يحتفظ بالبذلة ليسير بها أبوه فى شوارع زيوريخ ويراه الجيران ... وضحك اينشتين وقال : انهم سيقولون عنى حينئذ اننى أميرال من البرازيل مثلا !!

وكان صيت اينشتين قد ذاع حتى أصبحت الهيئات العلمية تتنافس على الظفر به ، وكان منها حكومة المانيا التى طلبته لكى ينظم الابحاث العلمية فى برلين بصفته استاذا فى جامعتها ، وبعد فترة من وصوله الى برلين

الفصل عن أسرته وعاش في مسكن بمفرده ، كانت سنة
حينئذ ٣٤ سنة .. أصفر من كل زملائه الاساتذة ..
وقد تعودنا أن نرى العلماء دائما مشغولين لا وقت
لديهم ، ولكن اينشتين على العكس من ذلك كان يجد
دائما الفراغ الطويل !! .. وقد قابلته في برلين - وكنت
أعمل فيها بدورى - وكنت أريد أن أذهب الى
«الابسرفاتوار» ولم أكن قد عرفت برلين جيدا بعد ،
فاقترح على أن يقابلنى على جسر بوتسدام ليوصلنى الى
هناك .. واستكثرت أن يقف هذا العالم الكبير على
الجسر ينتظرنى ثم يسير معى مسافة طويلة ليوصلنى ،
وقلت له اننى أخشى أن أضيع له وقته ، فقال : « ان
مهمتى هى التفكير .. وما الفرق بين التفكير فى البيت
والفكير على جسر بوتسدام ؟ » .

حقا .. أن أفكاره تنشال دائما كالمجرى الذى لا ينقطع ،
فاذا قاطعته بحديث أو حوار ، فكما تلقى حجرا صغيرا
فى مجرى النهر ، قد تحدث منه حلقات صغيرة ، ولكنه
لا يعطل جريان النهر لحظة واحدة ، وروحه تدفعه عادة
الى عمل شاق لا ينقطع بشكل قد لا تتحمله صحته فى
بعض الأحيان ..

وقد ظل أقاربه الأكثر غنى يعتبرونه كالشاة الضالة
عن القطيع ، حتى أجرى له استقبال رسمى فى الاكاديمية
البروسية ببرلين ، وراوا كيف أحيط فى ذلك اليوم بكل
علامات الاحترام .. فأصبحوا من تلك اللحظة يفخرون
بقربته لهم ولا يجدون غضاظة فى استقباله عندهم ،
بالرغم من فقره وغناهم ! .. وقد استقبل هذا الوضع
بروح مرحية طيبة .. وعند أحد أعمامه قابل قريبته
« الزا » التى عرفها فى ميونيخ طفلة ، كانت أرملة ولها
ولدان .. وكانت امرأة بارعة تخلق حولها جوا جميلا

وتقدم طعاما ممتازا وان لم تكن لتستطيع أن تفهم -
مثل ميلفا الزوجة السابقة - أهمية هذا العالم الطبيعي
.. كذلك كانت لها روح مرحة ليست جافة صلبة مثل تلك
التلميذة السلافية .. وقد أعجبها اينشتين على أي
حال .. لأنه كان شهيرا !!

و ذات يوم خلال الحرب العالمية الاولى ، دعانى
اينشتين الى تناول الغداء عند عمه ، وهناك رأيت الزا
لأول مرة .. وقد قالت لى يومها بين الجد والهزل :
« اننى أعرف أن صغيرنا البرت عالم عظيم .. فان كل
الصناديق التى ليست لدينا مفاتيح لفتحها ، يفتحها
اينشتين بسهولة تامة !! » .

وقبل انتهاء الحرب تزوج اينشتين من الزا .. فهذا
الذى عاش دائما عيشة بوهيمية بدأ يعيش عيشة
بورجوازية رتيبة .. وقد احتفظت الزا مع اينشتين
بكل عاداتها الموروثة عن «السواب» موطنها الاصلى .
فهى تهتم اهتماما زائدا بأن تصنع لحياتها اطارا ثابتا ..
ولكن زوجة الرجل الشهير لا يقف أمرها عادة عند المظهر ،
وكل من اتصل باينشتين لم يستطع الا أن يحكم على
الزا بقسوة ، ففى بيئات العلماء ببرلين كان الجميع
يقولون انها ليست المرأة الجديرة باينشتين « ترى لو
فكر اينشتين كما فكروا فأى امرأة أذن كان يمكن أن
يتزوجها ؟ » وأكد البعض انها تحيط زوجها بسور
لا يفتحهم وقال علماء آخرون انها تفضل أن يكون أصدقائه
من المؤلفين والفنانين ورجال السياسة ، لأنها أكثر اتفاقا
معهم ، ويسهل عليها مصادقتهم .

وقد حدث أن اعترضت بعض الاندية النسوية فى
امريكا سنة ١٩٣٢ على دخول اينشتين أمريكا بحجة انه
على صلة ببعض المبادئ « الهدامة » فقال لرأسه

الاسوشيتدبرس ساخرا : لماذا يكرهون هنا رجلا يريد أن يمنع من العالم كل أنواع الحروب .. ماعدا الحرب بين الرجل وزوجته ؟

فهذه الكلمة تدلنا على شيئين فيه : مبادئه الانسانية الواسعة ، وعدم سعادته في الحياة الزوجية .

ومن تعليقاته اللاذعة التي تدل على قسوة تجربته « حين أكون في البيت تكون زوجتي مشغولة بقطع الاثاث التي لديها ، وحين اخرج معها للنزهة أصبح أنا قطعة الاثاث الوحيدة تحت يدها ! »

كانت لاكتشافات اينشتين أهمية غمرت العالم أجمع ، وقد اهتم بها علماء الفلك اهتماما خاصا .

ولكن لم يكن ثمة من سبيل للتحقق من صحة نظرياته بدون حدوث كسوف كلي للشمس لقياس درجة معينة من انحراف أشعة الضوء ، تنبأ بها اينشتين .. وحدثت مصادفة رائعة اذ تبين علماء الفلك ان كسوفاً كلياً للشمس على وشك الحدوث .

ونظم المعهد الملكي للعلوم الفلكية في لندن بعثتين للتحقق من نظرية اينشتين فلما وقعت الهدنة في سنة ١٩١٨ شرعت البعثتان في العمل فوراً وكان ذلك بإشراف سير آرثر ادينز ادينجتون ، أحد القلائل الذين يفهمون نظرية النسبية .

وأرسل المعهد بعثتين الى نقطتين متباعدتين من الكرة الارضية .. واحدة في جنوب البرازيل والثانية برئاسة ادينجتون نفسه في إحدى جزر غينيا وحين وصلت البعثة الاولى الى البرازيل قبلت مقابلة عدائية غريبة !! وكتبت أكبر جرائدها تقول : « بدلاً من أن تتعب البعثة نفسها في اثبات نظرية سخيفة لعالم الماني .. اليس الاجدر بها أن تبحث عن طريقة لاسقاط الامطار عندنا ،

ونحن نشكو الجفاف بهذا الشكل ؟ » . وكان الشعب يشكو الجفاف جفا ، وكان حظ البعثة حسنا ، إذ أمطرت السماء بعد وصولها بأيام !

ومضت شهور قبل أن تعود البعثتان الى لندن وتخرج الصور التي أخذتها في المعامل بدقة متناهية تلافيا لأي خطأ محتمل . وفي ٧ نوفمبر سنة ١٩١٩ وكانت لندن تحتفل بعيد الهدنة الاول، خرجت التيمس تحمل في صدرها عناوين « الشهداء الابطال ، احتفالات الهدنة ، توقف المواصلات في جميع أنحاء البلاد » وفي صفحاتها التالية حملت عناوين « ثورة في العلم ، نظريات نيوتن تنقلب رأسا على عقب ! » . وتحتها تفاصيل اجتماع المعهد الملكي الذي أعلنت فيه رسميا نتائج الأبحاث . وأعلن المعهد أن بعثتيه اللتين سافرتا الى البرازيل وعنيتا بملاحظة الخسوف الشمسي خرجتا من مشاهداتهما وأبحاثهما بأن الأشعة الضوئية منحرفة في نطاق جاذبية الشمس وفقا لنفس النسبة التي قررها اينشتين في نظريته عن الجاذبية .

وقد رأيت اينشتين بعد ذلك سنة ١٩٢١ في براج . . كان قد تغير قليلا وإن بقي شديد الشبه بعازف الموسيقى البسيط . وكنت قد تزوجت ، ونظرا لأزمة المساكن اضطررت أن أقيم أنا وزوجتي في نفس العمل حيث كنت أجرى أبحاثي . . وهو أيضا نفس المكان الذي كان فيه مكتب اينشتين. حين كان أستاذا ، وقد اضطر مرة الى أن يقضي الليلة عندي ، نائما على مقعد طويل ، ليتجنب فضول الناس وتجمعهم حوله في طريقه الى الفندق الذي كان نازلا فيه . .

وبعد ذلك بقليل سافر الى أمريكا للمرة الاولى ليلقي المحاضرات، وكان وصوله الى نيويورك نديرا باستقبالات

هائلة ، ومظاهر من الحماسة زائدة .
وتجتمع حوله الصحفيون والمصورون ، وسأله واحد
منهم : « كيف يمكن أن تلخص في سطور قليلة نظريتك
في النسبية ؟ »

وسكت اينشتين برهة ثم قال :

— استطيع أن أقول لك اننا كنا نظن انه اذا حدث
واختفت المادة من الكون كله فسوف يبقى بعد ذلك
الفراغ والزمن .. ولكنه وفقا لنظرية النسبية فان
الفراغ والزمن سيختفيان بدورهما .

واستدار الصحفيون الى زوجته يسألونها : هل فهمت
شيئا ؟

فقالت :

— أوه .. كلا .. انه لم يشرحها أبدا .. ولكن أظنني
سميدة هكذا بدون أن أفهمها !

وقد سألت اينشتين عن حقيقة شعوره ازاء كل
مظاهر الحماسة التي أحيط بها .. فقال :

— اننى لم أكتشف بعد أشياء غير عادية .. وأظن
ان أي بطل من أبطال الملائكة يحظى من الجماهير بأكثر
من هذه الحماسة ! ..

ولما عاد اينشتين الى أوروبا ، لفحته موجة الاضطهاد
التي شنّها النازيون في الجامعات الألمانية ، اذ بدأوا
يطردون الاساتذة والعلماء بالجملة لأسباب عنصرية !

وتساقبت اليه الجامعات كل منها تدعوه اليها ،
وتسبحو في الأغراء ، ولكنه كان قد قرر أن يترك
أوروبا .. تلك القارة المضطربة المشتعلة كلها ، ويقبل
وظيفة استاذ في جامعة برنستون بجوار نيويورك ،
وانصرف يعمل في هدوء .

وعاد اسم اينشتين وصورة تشغل الصفحات الاولى

من الجرائد ، وأصبحت النتائج التي ترتبت على نظرية النسبية التي أعلنها سنة ١٩٠٥ في الصلة بين المادة والطاقة حديث الناس جميعا .. حتى قيص له أن يلعب دورا ايجابيا من أخطر الادوار في تاريخ الانسانية ..

ففى سنة ١٩٣٩ ، بعد أبحاث خطيرة قام بها جوليو كورى الفرنسى وهان وليز الالمانيان بدأت الافواه تتناقل اسم قنبلة ذرية يمكن صنعها .. وكانت المانيا بالذات - فى استعدادها للسيطرة على العالم - تبذل جهودا جبارة للوصول الى صنعها .. وفى الولايات المتحدة حاول اثنان من علماء جامعة كولومبيا أن يحركا روزفلت ورجال القيادة الامريكية الى صنع هذه القنبلة .. وكانا يؤكدان فى الحاحهما ان هتلر لو عرف سر القنبلة الذرية أولا ، فسوف تكون هذه نهاية الحرية ..

وعبثا حاول الرجلان .. فماذا يصنعان بعد ؟ .. لا بد من ايجاد رجل له من الشهرة والسمعة والقوة ما يجعل لطلبه صنع هذه القنبلة قيمة كبرى لا يمكن تجاهلها .. وقابلا اينشتين .. وشرحا له خطورة وجود هذه القنبلة بين أيدي النازيين ، وكان قد جرب النازيين من قبل ..

وفى ابريل سنة ١٩٣٩ ، كتب اينشتين رسالة تاريخية الى روزفلت :

« .. ان الابحاث التي قام بها جوليو كورى فى فرنسا ومزحى وسزيالارد فى الولايات المتحدة تجعلنى أعتقد ان مادة اليورانيوم سوف تكون ذات أهمية عظيمة فى المستقبل كمصدر للطاقة ، وأعتقد انه من واجبى أن ألفت نظركم الى ذلك .. والى ان مصادر هذه المادة فى الولايات المتحدة ضعيفة جدا ، على حين هى موجودة بكثرة فى كندا وتشيكوسلوفاكيا .. وقد علمنا ان هتلر

يبدل جهودا هائلة للحصول عليها ، وهو يقوم في هذا السبيل بتجارب سرية خطيرة ، وان ميزانيات الجامعات الامريكية الأفقر من أن تقوم بمثل هذا العمل ، فعلى ميزانية الدولة أن تساهم ، وسوف يمكن حينئذ صنع قنبلة تحسم الأمر ، ان قنبلة واحدة من هذا النوع تحملها سفينة الى ميناء ما كافية لتدمير المدينة وما حولها من مدن تدميرا شاملا ، يمنع الحياة فيها الأمد طويل . »



وبغير اسم اينشتين ، المهور في نهاية الرسالة ، لم يكن روزفلت ليوافق على اعتماد مليارات الدولارات للأبحاث الذرية .

وهكذا غيرت نظرية اينشتين ، ليس فقط الابحاث العلمية ، بل والاستراتيجية السياسية والعسكرية في العالم أجمع كما أثر في تاريخها تأثيرا خطيرا .
غير أنه لما وجد القنبلة الذرية - وقد أفلحت مع اليابان مرة - أصبحت تفرى الساسة والعسكريين بالعدوان .. وقف في الصف الاول مع المطالبين بتحريمها وصرف البحوث الذرية الى الانتاج السلمى .. محذرا ومنذرا البشر أجمعين من هول ما ينتظرهم لو تركوا لشهواتهم العنان ..

بعد الحرب الذرية

هذه قصة غريبة كتبها الكاتب الانجليزى «الدوس هكسلى» وهو كاتب متشائم ، تنتابه القشعريرة منذ سنوات طويلة .. فهو يتأمل ما يسود العالم من توتر وقلق وخوف ومن خطر الحرب المعلق فوق الرؤوس فيقشعر فكره ، وقلمه .. ويكتب قصة «العالم الطريف» يتخيل فيها العالم وقد تقدم حتى أصبح يصنع أطفاله فى أنابيب الاختبار! .. وفى كتاب «السلام والعلم والحرية» الذى قدمته اليك ، يثبت ان التقدم العلمى أصبح الآن لمصلحة الاستبداد ، لا الحرية ..

أما فى هذه القصة وعنوانها الاصلى «Ape and Essence» يتحدث عن العالم بعد ١٣٠ سنة . وقد تصور أن الحرب العالمية الثالثة قد نشبت وان العالم قد فنى تقريبا من القنابل الذرية والايديروجينية ..

والمؤكد ان «هكسلى» فى تشاؤمه هذا كله ليس على حق ، ومع ذلك فان لقصته هذه قيمتها ، كتحذير رهيب ، للذين يمهدون للحرب ، أو يتصورونها حلا لمشاكل البشر ..

يقول «هكسلى» :
فى اليوم الذى قتل فيه غاندى ، كنت جالسا مع

زميلي بوب في حجرتنا المشتركة ، بالشركة السينمائية التي نعمل فيها . وكان بوب قلقا ساخطا ، لا لمصرع غاندى - الرجل الذي دعا الى السلام وآمن بالانسان فلم نكتف بطرح الثقة بمبادئه بل قتلناه ايضا - لم يكن بوب قلقا ساخطا لهذا السبب ، بل لأن عشيقته الجميلة تريد منه أن يطلق زوجته ويتزوجها .. وزوجته تأبى عليه الطلاق .. والعشيقة تهدد بالقطيعة ، وقد بدأت تظهر في الحانات مع مليونير برازيلي صامت .. وهو لا يدري ماذا يصنع !

وكنت أحاول أن أحدث صديقي عن المأساة الكامنة في مصرع غاندى ، وأبرز ذلك بأنه آمن بالانسان نفسه ، لا بالعلم والقوة وغير ذلك ، وبأنه مضى يفتش عن الجوهر ، عن النور الداخلى ، لا عن الإرادية الخارجية .. ولكنه لم يكن يستمع الى ، ماضيا في حديثه عن عشيقته .. بل وعن سخطه على «لورلوبيين» الرجل صاحب الشركة السينمائية الضخمة التي نعمل فيها ككتاب سيناريو .. فقد ذهب بوب اليه وطلب زيادة مرتبه .. ونظر اليه الرجل الضخم الثرى من وراء مكتبه وقال :

- لو هبط هنا المسيح نفسه .. فلن أرفع أجرك دولارا واحدا ! ..

وأخذت أتخيل تلك الصورة البديعة : المسيح هابط أمام مكتب «لورلوبيين» على رأسه هالة من النور ، وقد ضم يديه في دعة ، يستعطف الرجل في زيادة مرتب كاتب السيناريو .. وكيف ان المسيح سينصرف بعد ذلك آسفا ، يلفه ظلام الرجاء المرفوض !

وصاح بوب : اذا كنت قد شربت قهوتك .. فلنخرج وخرجنا من المكتب ، مارين في فناء الاستديو بالديكورات ، والابنية الزائفة ، والستائر والمناظر ..

حتى اقتربنا من باب الخروج ..
وكنت تائه الذهن أفكر في غاندى الذى قتل .. حين
جذبني بوب من ذراعى فجأة .. فأنقذنى من الوقوع
تحت سيارة نقل ضخمة كانت تعبر الباب . وكانت
السيارة تسير بسرعة ، وقد تكدست فوقها آلاف
المخطوطات .. وهى قصص الافلام التى يرسلها الهواة
والمغمورون كل يوم الى الشركة .. وكانت السيارة
تحميلها الى حيث تحرق ويتخلصون منها ..

وصاح بوب : فى هذه السيارة أدب بمليون دولار !
وانحنى يجمع بعض المخطوطات التى وقعت منها ،
يتصفحها . واستوقفنى مخطوط له عنوان غريب ..
وقلبت الغلاف ، فوجدت فى أول صفحة منه شعرا
غريبا ، حزينا ، رائعا ، مقلعه :

الانسان .. يختار الوسائل فقط ..

أما الغايات ، فتختارها القروء !

وعدت الى الغلاف أقرأ اسم صاحب هذا السيناريو
.. « وليم طاليس » كوتنود ، كاليفورنيا .. وقررت
ان اذهب لمقابلة هذا الرجل الغريب ..

وركبت السيارة مع بوب الى تلك الضاحية النائية ،
رفعتنا الهضاب وخفضتنا الوهاد ، حتى عثرنا على بيت
غريب منفرد ، على ربوة مشجرة .. طرقتنا بابه وسألنا :
مستر طاليس هنا ؟

فأجابتنا سيدة عجوز : لقد ذهب منذ أسابيع ..

— ذهب .. الى أين ؟ ..

— الى هناك !

وأشارت الى قبر منعزل فريد ، تحت شجرة ضخمة
تقوم وحيدة فى السهل المنبسط ، ولما أردنا ان ننصرف ،
أصرت السيدة على أن تدخل ونجلس ، وطلقت تحدثنا

في أسى عن مستر طاليس ، وطيبته ، وشذوذه ، ووجدته القاسية التي كان يعيش فيها ، مفكرا في أشياء غريبة . . وكان قد استأجر منها هذا البيت لمدة سنة ، ودفع لها الأيجار مقدما . . غير أنها جاءت ذات يوم تحمل اللبن . . فوجدته في الحمام ، جثة هامة عارية وقد أوصى بالآ مدفن في مقابر المدينة ، واختار ذلك القبر الوحيد تحت الشجرة المنعزلة .

وسألتها : هل كان مستر طاليس مريضا ؟

فقلت : كلا . . لم يكن مريضا قط . وان كان يشكو من تعب في القلب .

وأخبرتني السيدة بمعلومات أخرى عن الرجل ، فقد مات في السادسة والستين ، وهي تعلم أنه كتب سيناريو وأرسله إلى إحدى الشركات السينمائية ، ليحصل على بعض المال .

— لم يكن يريد المال لنفسه . بل كان يريد أن يرسله إلى أوروبا ، فقد تزوج مستر طاليس من فتاة ألمانية قبل الحرب الأولى وأنجب منها طفلا ، وعاد إلى أمريكا وقامت الحرب ، واليوم لم يبق له إلا حفيذة على قيد الحياة هناك . كان يريد أن يرسل لها بعض المال . .

وذكرت صفحات كتبها طاليس في السيناريو الذي معي . . عن البنات اللواتي يعن أنفسهن بعد الحرب من أجل قطعة شيكولاتة ، أو شريحة خبز . .

ترى فيم كان يفكر هذا الرجل طاليس ؟ . . لا بد لنا على ذلك غير مخطوطه الذي وجدناه مصادفة يقع بين المهملات في الاستديو . . وهو سيناريو لفيلم تقع حوادثه في سنة ٢١٨٠ . .

وهذا هو المخطوط :

أول منظر يظهر على الشاشة ، بحر واسع مضطرب

هو المحيط الهادى ، وعند الافق البعيد يلوح شاطئ
صامت مهجور لا معالم له ، هو شاطئ كاليفورنيا ..
وثمة سفينة صغيرة ، تحمل علم نيوزيلندا ، تقترب في
بطء ..

واليوم يوم ١٢ فبراير سنة ٢١٨٠ وهؤلاء الرجال
والنساء الواقفون على ظهر السفينة يتطلعون هم جماعة
من العلماء والمستكشفين النيوزيلنديين فان نيوزيلندا ،
حين نشبت الحرب العالمية الثالثة ، قررت أن تعتزل
العالم لتنجو من شرور القنابل الذرية وأشعة الموت
وحرب الميكروبات .. واعتزلت العالم مائة سنة كاملة .
لا يدخلها انسان ولا يخرج منها انسان . وفي تلك الاثناء
كانت الحرب العالمية الثالثة تدمر العالم الخارجى تدميرا
شاملا .. حتى كانت سنة ٢١٨٠ فقررت نيوزيلندا ان
تخرج من عزلتها ، وأرسلت على هذه السفينة أول بعثة
من المستكشفين ، ليكتشفوا أمريكا من الغرب هذه
المرة لا من الشرق كما فعل كولومبس .

وفي ذلك الوقت كله ، وفي جانب آخر من العالم ،
هو وسط افريقيا خرجت جماعة أخرى من السود الذين
نجوا من شرور الحرب أيضا يستكشفون نهر النيل ،
من الجنوب الى الشمال هذه المرة .

واقتربت الباخرة النيوزيلندية من الشاطئ الخاوي
.. وصاح رجل من الواقفين على سطحها : انظروا هذا
هيكل حديدى قائم ! .. كانت هنا آبار زيت !
فقال عالم جيولوجى من أعضاء البعثة : اذن فهذه
المنطقة لم يحدث فيها أى انفجار ذرى .
قال عالم الطبيعة : لا يلزم حدوث انفجار ذرى لافناء
الحياة .. يكفى أن يكونوا قد استعملوا أشعة الموت !
قال عالم الاحياء : بل ان الميكروبات التى استعملت

كان لها ولاشك النصيب الأكبر في أفناء العالم .

فقال العالم النفساني : ان التأثيرات النفسية قد أدت مهمة الميكروبات الفاتكة في حالات كثيرة .. فها هي الدعاية المتصلة في الصحف والراديو ، ترفع الضغط العصبي عند الناس ، وتبث فيهم خوفا فظيما ، خوفا هائلا ، خوفا مركبا .. فينطلقون أفواجا الى الانهار والبحار ينتحرون فيها بالجملة ويقتلون بعضهم بعضا ، وينهبون لغير غرض .. قد أصابهم مس من الجنون .. ألم يحدث ذلك في نيويورك وبوسطن ولندن وباريس وكيف؟ .. ان الحب يطرد الخوف ولكن الخوف لا يطرد الحب فقط ، بل يطرد أيضا العقل والتفكير السليم والثقة والخير .. أزرع الخوف بين الناس ينهار كل شيء !

وتلقى الباخرة مراسيها على الشاطئ الساكن ، وينزل العلماء والمستكشفون الى الارض ، ويهرعون جميعا الى الهيكل الحديدي القائم على تل بعيد .. في حين يتخلف عنهم عالم النبات المشهور «الدكتور بول» اذ لفتت نظره بعض نباتات متحجرة ، فهو ينصرف الى فحصها .. والدكتور بول عالم مشهور ولكنه في سن الشباب .. جميل الصورة ، تلاحقه أنسة تدعى «مس هوك» وهي عالمة في النبات مثله ومساعدة له .. ومن الواضح انها تنصب شباكها حوله .. وهو يحترمها ويقدرها بغير شك .. ولكنه لا يتصور أبدا أن تفدو زوجة له ..

ويتغير المنظر على الشاشة ، وتتجول بنا «الكاميرا» في ذلك الوادي الذي كانت تقع فيه مدن كاليفورنيا .. وهوليوود .. ولوس انجلوس .. هذه المدن الزاخرة قد تركتها الحرب الذرية الثالثة أطلالا خاوية ، وأكواما

من الجثث والجماجم والحجارة ..
وفي خرابة واسعة بجوار احدى هذه المدن ترى اول
جماعة بشرية تسكن المنطقة وتهبط الكاميرا اليها ..
اربعة رجال وامرأتان ، في أسمال بدائية قدرة بالية ،
لحاهم طويلة وشعورهم مرسلة وأظافرهم طويلة هائلة
.. وعلى ظهورهم وصدورهم نقشت فوق الثياب
بحروف ضخمة كلمة « لا » ، وهم جميعا يحفرون بهمة
بعض المقابر القديمة وينبشونها بينما جلس رئيسهم
يرقبهم وينظف أظافره بأسنانه .

ويعثر الحاضرون على تابوت يفتحونه ويخرجون منه
جثة ملفوفة في أكفانها ويرتفع صوت الرئيس وهو يقضم
أظافره ، يسألهم :
- رجل أم امرأة ؟

كان رجلا ، ويبدو انه كان من الاثرياء أيضا ، ويمضى
الحافرون يجردونه من القماش المتكفن به ، ومن بعض
الخواتم الذهبية التي تزين أصابعه .. ويحاول أحد
الرجال أن يخفى في ثيابه خاتما منها ، ويلمحه الرئيس ،
فيضربه بالسوط الذي في يده ضربة قاسية ، تسقط
الخاتم من يد الرجل .. ويقول :
- ستجلد ٢٥ جلدة .

- سيدى ..

- هكذا هو القانون .. فكل محاولة لسرقة مال
الجماعة يعاقب عليها بخمسة وعشرين جلدة .

وهم معذورون . فهم لم يعودوا يملكون آلات
للصناعة ، ولا فحما يخرج البخار ولا كهرباء لتوليد
القوى .. ولا أي مادة صالحة من المواد الخام .. فلا
مفر لهم من الاعتماد الى حد كبير على المقابر القديمة
ينبشونها ويستخرجون منها كل ذي قيمة .

ويدير الرئيس وجهه على وقع أقدام آتية تسرع ،
فيرى اثنين آخرين من رجاله يقبضان على رجل نظيف ،
حليق .. غريب الشكل .. ويدفعانه الى الارض أمام
الرئيس .. انه الدكتور بول قد ابتعد عن زملائه دون
أن يشعر فعثر عليه هذان الرجلان وأمسكا به وقيدها
وقاداه الى هنا .

وعجب الرئيس لمنظر هذا الرجل .. ومد يده
يتحسس بها ذقنه الحليقة وسأل :
- أتحدث الانجليزية ؟

- نعم ..

- حسنا .. فكوا قيده .. من أين جئت ؟

- من نيوزيلندا ..

- نيوزيلندا ؟ .. أبعد هذا المكان ؟

- جدا ..

كان صوت الدكتور بول يخرج خافتا متعشرجا ،
وقد جف حلقه .

- هل جئت على سفينة كبيرة ؟ لها شراع ؟

- كلا .. لقد جئت على باخرة ..

ولمع وجه الرئيس ... باخرة ؟ ..

تعنى انه ما زالت لديكم بواخر ؟ أتعنى انه تركها لكم
- من تركها ؟

- الشيطان ..

وكان الرئيس يشير على رأسه بهيئة قورنين ، ولم
يفهم الدكتور بول شيئا وانطلق الرئيس يوضح الأمر :
- نعم .. فقد أصبح الشيطان سيد كل شيء ، بعد

أن كسب المعركة حين صنع الانسان كل هذا ..

وكان يشير بيديه الى السهل المترامي من الخرائب
والاطلال والحجارة ، حيث كانت فيما مضى .. لوس
انجلوس ..

وأدرك الدكتور بول ما يعنى الرجل ، فقال :
- آه .. انت تعنى الحرب العالمية الثالثة .. كلا ،
لقد كنا محظوظين فخرجنا منها دون خدش واحد ..
فان موقعنا الجغرافى البعيد لم تكن له أي أهمية
استراتيجية بالنسبة لكم ..

وقاطعه الرئيس : أما زالت عندكم قطارات ؟
- طبعاً ..

- والآلات ما زالت تعمل ؟

- طبعاً ... وقد كنت أقول ...

ولكن الرئيس لم يستمع بل صفق بيديه فى جذل ،
ثم ربت على كتف الدكتور :

- اذن فسوف تساعدنا على اعادتها هنا كما كانت ..
سيكون عندنا قطارات .. قطارات حقيقية ..

وفى غمرة حماسه هجم على الدكتور بول يقبله
والدكتور يرتجف من قدارته .

- ولكنى لست مهندساً .. أنا عالم نبات ..
- ماذا .. ؟

- عالم النبات هو الرجل الذى يعرف كيف يستنبت
الزروع ..

- والآلات ؟ ..

- اننى لا أعرف الفرق بين الآلة البخارية والديزل ..

- اذن فلن تستطيع أن تصنع قطارات ..

- مستحيل ..

ورفع الرئيس قدمه فى غضب .. ورفس الدكتور
بول رفسة ألقتة على الارض .. وحين كان الدكتور
ينهض وينفض التراب عن ثيابه ، كان الرئيس يصيح
فى غضب : ادفنوه !

وصاحت واحدة منهم : حيا او ميتا ؟

— حيا ..

وهجموا عليه ، يضغطونه في إحدى الحفر وهم
يضحكون ، بينما كان واحد يهيل التراب في الحفرة ..
حتى دفن نصفه تقريبا عدا فتاة واحدة كانت تقف
محتجة على ذلك .. وكان الدكتور بول يصيح في الرئيس :

— الرحمة .. الرحمة !.. اننى أستطيع أن أنفعمكم
.. أستطيع أن أعلمكم الزراعة .. وأضعف لكم الطعام
واستوقفت هذه الجملة الأخيرة رئيس الجماعة ..
— تضعف لنا الطعام ؟

— نعم .. أقسم بالله ..

— لا نعرف الله .. هذا تقسم به في نيوزيلندا ...
عليك أن تقسم باسم «بليال» ، وبليال هو اسم الشيطان
في الجحيم الذى صور « ملتون » ..
فصاح الدكتور بول قائلا :
— أقسم ببليال العظيم !..

وأمر الرئيس به فأخرجوه .. وتقدمت منه الفتاة
التي كانت تقف معترضة فأعطته جرعة ماء من زجاجة .
وأصدر الرئيس الأمر بالذهاب الى مركز الرئاسة العليا
وسار الجمع في طابور .. وتلفت الدكتور بول حوله ،
فراى انهم يسيرون في أطلال مدينة هائلة .. طرقات
غطتها كثبان الرمل والتراب .. أكوام هائلة من الحجارة ..
هياكل مزعزعة منهارة لمبان ضخمة كانت تقوم ها هنا
يوما .. لا شيء أخضر على الإطلاق .. آلاف الآلاف من
الجماهير والعظام البشرية ملقاة كالحجارة في كل مكان
لا تشير انتباه أحد ..

وفي أثناء الطريق اقتربت منه تلك الفتاة ، وقالت له :

— اسمى لولا .. ما اسمك ؟

— الفريد بول ..

— سأدعوك آلن .. انى اكره هذه القبور ، على
العكس من الآخرين ..

— يسرنى أن أسمع ذلك .

وأخذ بول يتأملها .. فاذا بها فتاة فى الثامنة عشرة
من عمرها على الاكثر ، حمراء الشعر ، دقيقة الحجم ،
رائعة الجمال .. هى نموذج الزوجة التى يريدونها ..
لا عقل ولا ذكاء ، بل أنوثة وعواطف طيبة ساذجة ..
ولكن هذه الاسمال التى تلبسها ، والاظافر القذرة ،
وهؤلاء الوحوش الذين يحيطون بها ؟ ..

وتحدث بول مع لولا طول الطريق .. وعرف منها
أشياء كثيرة فظيعة عن هذه الجماعة التى تعيش فيها ..
فهى واحدة من الجماعات التى خلفت عن الحرب العالمية
الثالثة التى أهلكت كل شىء .. تتكون من بضعة آلاف من
الرجال والنساء .. وهم اذ رأوا « الشيطان » ينتصر
هذا الانتصار الباهر على الانسان وعلى قوى الخير ،
عبدوه ، وسموه «بليال» ، والاله «بليال» يحرم اتصال
الرجل بالمرأة وتكوين أسرة .. ذلك لأن أسلافهم الذين
تعرضوا للأشعة الذرية ولم تقتلهم ، أثرت فيهم هذه
الأشعة القاتلة ، فى أجهزتهم الحيوية .. فأصبحت النساء
يلدن أطفالا مشوهين .. بقدم واحدة ، أو بثلاث أقدام ،
أو بأربعة عشر اصبعاً .. وهكذا .. ودين «بليال» يقضى
بقتل من يولد من الاطفال المشوهين وحلق شعور أمهاتهم
عقاباً .. فالمرأة تخشى لذلك أن تتصل برجل ! وقد
كتبوا على ظهورهم كلمة « لا » لتذكرهم دائماً بذلك !

ولكن الشيطان إله الشر ، يرغمهم على اتيان الشر
والاتصال ، فهم كمجتمع القروء .. لا أسرة ولا أزواج ..
الجميع للجميع ..

وارتجف الدكتور بول من هول ما سمع ، وكانت لولا
قد وقعت في قلبه ، فبدأ يتأملها في شفق .. وفهمت
هى بفريزتها ، وقد شعرت فجأة انها أيضا تحبه ..
ولكنها لا تعرف ما ينتظرها ، فهي تصرخ فجأة ، مبتعدة
عنه : لا .. لا .. لن أنجب طفلا ! لن يقتلوه !

وفرت هاربة ، وعلى ظهرها تسطع كلمة « لا » !
ووصلوا الى قلب المدينة ، وكان ثمة جزار ينفذ يده
من دم ثور بعد أن ذبحه ، وقد فتح باب فرن كبير
مشتعل لانضاجه ، ولمح بول بعض الرجال يذهبون الى
بقايا بناء ضخيم قريب ، كان فيما مضى دار الكتب العامة
بالمديشة ، ويعودون بأكداس من الكتب والمجلدات
والمخطوطات ، يضعونها وقودا للنار !

ولم يطق الدكتور بول ، وهو الاستاذ العالم ، هذا
المنظر .. وكان احراق التراث الفكرى العظيم أبشع في
عينيه من كل ما رأى فصاح :

— هذا فظيع ! ألا تقرأون ؟ .. ألا تتعلمون ؟

فقال الرئيس باسم : كلا .. اننا لانريدها ، اننا
لا نتعلم غير كلمة واحدة ، هى هذه ..
وأشار الى كلمة « لا » المنقوشة على ظهور الرجال
والنساء !

وسقط من أحد الجمالين كتاب صغير ، التقطه الدكتور
بول فاذا به ديوان شعر «شيللى» .. فدسه في جيبه !
ورأى في ناحية النساء الخاطبات يحملن المشوهين

وقد خلقت شعورهن وسأل فأخبروه ان الليلة ليلة
« بليال » .. اذ يقوم الاسقف بقتل كل هؤلاء الاطفال
المشوهين .

وفي الليل وقف يشهد الاحتفال فرأى رئيس الاساقفة
على منصة عالية تتقدم الأم اليها تحمل طفلها باكية
فيمسكه الاسقف من رقبته ويدبحه ذبح الشاة ، ويلقيه
في جب خلفه .. وتسقط الأم صارخة باكية بلا جدوى
والحاضرون يرددون نشيدا دمويا رهيبا .

ونظر بول الى الاطفال وهم يذبحون .. والنشيد الرهيب ،
وصراخ الأمهات وصيحات الاطفال .. وسقط مفشيا
عليه ، وقد أطلق صرخة هائلة .

واستيقظ بعد وقت لا يدريه ، على الماء البارد
يسكبونه على رأسه والصفعات تنهال على وجهه ..
فإذا به يرقد في حجرة رئيس الاساقفة .. وقد أقبل
عليه هذا الاخير باسم ، وأمر له بالطعام فأحضروا له
طعاما بدائيا وأدوات مائدة فضية فاخرة ، مما وجدوه
بين الاطلال من آثار الحضارة الدارسة .

وكان رئيس الاساقفة رجلا ذكيا . أخذ يتحدث مع
الدكتور بول وجرهما النقاش الى هذا الدين الجديد ،
وكيف أدى اليه سلوك البشر في تاريخهم السابق على
ظهورهم .

— ان « الشيطان » أدخل في رأس الانسان فكرتين
كان فيهما القضاء المبرم عليه ، هما : التقدم والوطنية
.. آمن البشر بالتقدم ، فصنعوا الآلات بأمر الشيطان
.. وظلت الصناعة تتقدم والزراعة تجف وتنضب
واعتمد العالم زمنا على استيراد الطعام من العالم الجديد

.. ثم جاء دور هذا العالم الجديد : الصناعة تتقدم أيضا والزراعة تجف وتنضب .. وصار الناس في عالم غريب ، يتوفر فيه الراديو والقطار والطائرة .. ولا يوجد فيه طعام . وأحس مئات الملايين بالجوع الفظيع .. الجوع المركب .. الجوع الشامل .. والجوع يؤدي الى الحرب ، والحرب تؤدي الى الجوع ..

كذلك آمن الناس بالوطنية ، وطن كل واحد ان وطنه هو المقدس ولا شيء سواه .. انظر كيف اسكن الشيطان هذا الضلال في رؤوس الساسة : المانيا وروسيا تتفقان

على بولندا ، فاذا فئت تحاربا وجها لوجه .. هتلر يقذف لندن بالقنابل ليدمرها ، وكذلك يفعل الانجليز في برلين . كان هتلر يعلم النهاية . فلماذا أقدم عليها ؟ لأن « الشيطان » فيه أرغمه على ذلك . فاذا اقتربت

النهاية ردد تشرشل كلمة هائلة ، التسليم بلا قيد أو شرط ! فتكون النتيجة أن يجوع الالمان ، وتبيع الالمانية نفسها نظير قطعة من الشيكولاتة !

وسأله بول : واذا كنتم تعرفون ان الشيطان شرير هكذا ، فلماذا عبدتموه ؟ ..

— لأنه الأقوى ، والمنتصر !

ويخبو الضوء على الشاشة ، ويتغير المنظر ، وقد انتصف الليل وصعد القمر الى كبد السماء .. وبول يسير مع لولا في سكون . وفجأة ، يبرز من بين الاطلال رجل ضخمة الجثة ، ما أن يرى لولا حتى يفتح فمه وتتسع حدقتاه ، ويتقدم ، فيحمل لولا قسرا ، ويختفي بها خلف الاطلال ..

ويقفز بول وراءهما ، وقد غلى الدم في عروقه .. ثم
يتذكر فجأة في أي مجتمع يعيش اليوم ، فهنا لا يستطيع
أن يستأثر بامرأة . إنما هي للأقوى وينكس رأسه في
خزي عظيم ..

ويمر به رئيس الاساقفة .. فيخبره بأن أصدقاءه
المستكشفين كانوا يبحثون عنه ، فطاردهم الرجال
بالسهام والنبال ، فلم يجدوا بدا من أن يعودوا الى
باخرتهم ، بعد أن قتل واحد منهم ، راحلين الى
كاليفورنيا ..

وهكذا انقطع عن بول أمله في العودة !
ويشرق النور على الشاشة ، ويطلع الصبح على
الدكتور بول وهو راقد في وكر بين بعض الاطلال .. وهو
يستيقظ من نومه ، ويتشاءب ، ويزفر من أعماقه :

— يا الهى ! .. يا الهى !

وغطى وجهه بيديه ..

وتظهر أمامه «لولا» كأنما نبئت فجأة .. وهى تحمل
في يدها لفافة كبيرة ، وتصيح مقبلة عليه :

— آلن .. لقد بحثت عنك كثيرا ..

وتجلس بجواره ..

— هل نمت جيدا ؟

وتخرج من اللفافة خبزا وبرتقالا ، وتقطع له قطعة من
الخبز ...

— انت جوعان ولا شك .. بعد ما حدث بالأمس .

وتغير لونه فجأة ، وقال في صوت ملتهب : لا تتحدثنى
عن الأمس ..

فتأملته برهة .. ثم قالت له : انك تفكر كثيرا ..

وهذا خطر عظيم .. اننا لو فكرنا فى الامر لوجدناه فظيما .. فظيما ..

وكانت ترتجف ، وقد امتلأت عيناها بالدموع .. ونظر اليها بول فى رقة ، ثم ضمها اليه .. ورفعت عينيها اليه فى فرح وقالت :

— هذا ما كنت احلم به دائما ..
— حقا ؟

— ولكنه لم يكن ممكن التحقيق ابدا .. حتى اتيت ، لكم اتمنى الا تطول لحيتك ، حتى لا تبدو كالآخرين .. ولكنك لست مثلهم ابدا .. فضحك وقال : لست مختلفا عنهم تماما .

ومال يقبلها فى عينيها ووجنتيها وثغرها .. وقالت : نعم .. ولكن انظر .. كيف نجلس سويا .. انت وانا ؟ نتحدث سعداء .. ليس كالآخرين ..

وفجأة تنحنى لولا على يده تقبلها ، فيسألها : ماذا ؟ فتقول له : لقد فهمت الآن معنى الحياة .

— وانا ايضا ! ..

لقد اكتشف الاثنان سويا ، من جديد ، الحب النبيل ، وما نسميه : الزواج بواحدة ! ..

وتمضى أسابيع ، ونرى الدكتور بول ، وقد طالت ذقنه وأظافره ، فأصبح كالآخرين ، ونقشت على صدره وظهره كلمة « لا » .. ونرى معه رئيس الاساقفة .

وقد عثر الدكتور بول بين اطلال المدينة الدارسة على بقايا معمل من معامل جامعة كاليفورنيا ، فنظفه وأصلح منه ما استطاع وبدأ يجرى بعض التجارب . وعين له

رئيس الاساقفة اثنين يساعده وقد طلبت « لولا » أن تكون بين مساعديه ، ولكن الرئيس رفض .. فان المجتمع هنا لا ينظر بعين الارتياح الى الصلة التي يبدو انها تربط بينها وبين بول .. لذلك يقرر الرئيس ارسال « لولا » مع فرق نبش القبور لابعادها عنه ...

وتنصرف لولا الى عملها .. ويقترح رئيس الاساقفة على بول أن ينضم الى دينهم ، ويعبد « بليال » مثلهم .. فيطلب بول مهلة أربعة أسابيع ، يفكر فيها في الأمر .



وتمر الاسابيع الاربعة بسرعة ، ونرى « بول » فيما يشبه حديقة صغيرة يجرب فيها زراعة الطماطم . ويخرج « بول » من الحديقة وهو يصفر ويتمتم بأبيات من شعر « شيللى » .

وسار بين أطلال المدينة ، والسكون هائل راسخ .. سكون مدينة كان يسكنها ثلاثة ملايين نسمة ، أصبحت تضم ثلاثة ملايين جثة وبضعة آلاف فقط من الاحياء .. وهذه الخرائب والاطلال والهيكل المصدوعة .. وشعر « بول » بشعور غامض من ... السعادة ! ..

السعادة ؟ .. ألم يحطمها الانسان هنا منذ سنوات ؟ بلى .. ولكنها طبيعة الانسان المتفائلة ، التي استعاض بها عن طبائع القُرود : من الحقد والخوف والنزاع الدائم ودخل « بول » بقايا بناء ضخيم .. فلاحظ انه كان « جاراجا » للمدينة .. وقصد الى بقايا سيارة « شيفروليه » ذات أربعة أبواب ، ملقاة امامها جمجمتان لرجل وطفل .. وفتح أبواب السيارة الممزقة ونادى :
- لولا ..

ودخل وجلس بجوارها . وهم بضمها الى صدره
فأبت ، وقالت في حزن :

— اننا نرتكب خطيئة ..

— كيف ؟ ..

— انه لا يريد .. وهو قادر على الانتقام من العصاة ..
الشيطان ! ..

— ولكنك لست مثلهم .. فأنت ما تزال فيك
مشاعر البشر وأحاسيسهم .. شكرا لله .

— الشيطان سينقم منا .

— لن يستطيع ..

— ماذا ؟ .. انه استطاع فعلا .. ألم ينتصر ؟

— انتصر الآن الناس ساعدوه على النصر ، وما كان
لهم أن يساعدوه .. انه قد يحطم كل شيء .. حتى
يحطم نفسه .. ثم تطفو الفضائل أخيرا على السطح .
— هذا مستقبل بعيد جدا ...

— بعيد للعالم .. ولكنه قريب بالنسبة لاثنيين ..
لزوجين .. لى ولك .. ومهما صنع الشيطان ، فعلىنا
أن نعود الى طبائعنا .. الى حقيقتنا .
ويتبادلان قبلة طويلة .

ويعود المنظر الى معمل الدكتور بول ، ورئيس الاساقفة
يبحث عنه .. وقد تبين انه هرب ، فيطلق الجنود في
أثره .

وتنتقل بنا الكاميرا أخيرا الى جبل هائل ، يتسلق
سفحه لولا وبول ، وكل منهما يحمل على ظهره لفافة
ضخمة .. ويقفان بعد سير طويل ، ويبسط بول خريطة
كبيرة يتأملها ثم يقول :

— بقي أمامنا ٨ ساعات سيرا على الأقدام ثم نصل
إلى غايتنا .. انهم يستقبلون الهاربين هناك استقبالا
حسنا .

وتبتسم «لولا» وتخرج من لفافتها برتقالا وخبزا ..
ثم تقول فجأة : انظر .

وينظر إلى حيث تشير ، فيلمح في قلب الوادي شجرة
ضخمة وحيدة ، قد تعرت من أوراقها ولكنها ما تزال
قائمة شامخة .. وتحتها قبر وحيد .
وينطلقان إلى القبر يفحصانه ، ويقرآن عليه الأبيات
الآتية :

وليم طاليس ١٨٨٢ — ١٩٤٨
لماذا تتردد وترتجف ، وتتلقت إلى وراء أيها القلب؟
لقد ذهبت الآمال ، مع كل ما ذهب .
لقد ذهبت ، وأن لك أن تذهب !
قالت لولا : يبدو أنه كان رجلا حزينا ..
وناولت بول قطعة خبز ، أخذ يقضمها في سكون .

ديجول ووحدة الغرب

بينما كان العالم مشغولا بمتابعة أنباء الخلاف الضخم التاريخي بين الاتحاد السوفييتي والصين ، داخل المعسكر الشرقي ، فوجيء بانفجار خلاف آخر لا يقل عنه من حيث خطره ومفزاه التاريخي وهو الخلاف الذي فجره ديغول ، برفضه دخول إنجلترا السوق المشتركة ، ورفضه لمشروع الدفاع الذري الموحد للغرب ، وبتوقيعه معاهدة عميقة الأثر مع ألمانيا .

ومن المراقبين من يعتقدون ان هناك صلة قوية بين خلاف روسيا والصين ، وبين هذا الخلاف بين ديغول وإنجلترا وأمريكا ، أو هذا الخلاف بين «أوروبا» وبين «الانجلوسكسون » كما يحب ديغول أن يسميه . والصلة هنا ليس معناها أن الخلافين متشابهان أو أنهما يرجعان الى أسباب واحدة . ولكن الصلة معناها ان «الطقس» العالمي الذي أنتجتهما هو طقس واحد . ففي الخلاف الاول تتمرد الصين على قيادة روسيا للمعسكر الشرقي وعلى طريقتهما في ادارة الحرب الباردة ، والاستعداد لاحتمالات الحرب الساخنة . وفي الخلاف الثاني تتمرد فرنسا على قيادة أمريكا للمعسكر الغربي وعلى طريقتهما في ادارة الحرب الباردة والاستعداد لاحتمالات الحرب الساخنة . . والغريب انه قبل ذلك كان ديغول معارضا

في فكرة عقد مؤتمرات للأقطاب تماما مثل ماوتسي تونج!
وكان ديجول معارضا في عقد مؤتمرات نزع السلاح ،
الى حد انه رفض حضورها بتاتا ، تماما مثل ماوتسي
تونج !

وامريكا عندما تريد أن تغيظ روسيا تقول انها لن
توقع معها اتفاقا بنزع الاسلحة الذرية الا اذا اشتركت
فيه الصين . . ومنذ أيام أرادت روسيا أن تغيظ أمريكا
وتعزز موقف ديجول فقالت انها لن توقع مع أمريكا
اتفاقا على نزع الاسلحة الذرية الا اذا وقعتة معها فرنسا!
ومن بين الانتقادات الاساسية التي توجهها الصين
الى روسيا - خطأ أو صوابا - ان روسيا في رسمها
لاستراتيجية المعسكر الشرقي انما تراعى مصالح «روسيا»
قبل مصالح المعسكر الشرقي بأكمله . . كما ان ديجول
يتهم أمريكا بأنها تراعى مصالح أمريكا قبل مصالح
المعسكر الغربي بأكمله !

والمقارنات دائما خطيرة ، لأنها تضلل المرء أحيانا عن
الفروق الجوهرية الاساسية . فالصين من حيث المبدأ
تؤمن بضرورة وحدة المعسكر الشرقي وضرورة قيادة
الاتحاد السوفيتي له ، ولكنها تعترض على سياسة
الاتحاد السوفيتي ذاتها . أما ديجول فخلافه له شكل
عكسي : فهو لا يؤمن بوحدة المعسكر الغربي من حيث
المبدأ ، بل يؤمن بضرورة انقسامه الى قوتين منفصلتين ،
وبعد ذلك يصبح الخلاف قليلا على الاستراتيجية
السياسية العامة .

ولكن النتيجة واحدة . .
النتيجة هي ان الزعامة المطلقة للدولتين الكبيرتين -

روسيا وأمريكا - داخل معسكريهما ، تتعرض لمحنة شديدة . وقد تحدث بعض النواب الفرنسيين في البرلمان فقالوا : ان المعسكر الشيوعي الآن يفكر في الأخذ بمبدأ « تعدد المراكز » فلماذا لا يحدث مثل هذا في المعسكر الغربى ؟ . . . واذا كان كنيدي يرفض تعدد المراكز داخل معسكره ، فما الفرق اذن بينه وبين خروشوف ؟ . . .

بل ان ديغول نفسه يرى الصلة بين هذين الخلافين الروسى الصينى والفرنسى الأمريكى أشد مما يراها سواه . فهو حين يتحدث عن أوروبا في المستقبل البعيد يقول : « من الاطلنطى الى جبال الأورال » أى ان أوروبا في رأيه تضم روسيا . ويتحدث عن ساعة تصبح فيها أوروبا هذه التى تمتد من الاطلنطى الى الأورال عازلا بين قوتين أخريين : الصين فى الشرق ، وأمريكا فى الغرب !

وهذه هى النظرة اليمينية المتطرفة ، التى ترى ان التاريخ يحركه صراع القوميات الكبرى ، فى حين أن اليسار المتطرف فى نفس الوقت يعود الى النبوءة الماركسية الاولى ، وهى : حتمية الصراع حتى الموت بين

الدول الرأسمالية . بل ونبوءة ستالين التى أطلقها قبل موته بقليل من أن الحرب قد تقع بين الدول الرأسمالية وبعضها وليس بينها وبين الدول الشيوعية ، وذلك

بحكم الصراع الرأسمالى المحتوم على المصالح الاقتصادية . يعزز رأيهم هذا وجود متناقضات اقتصادية حادة وراء

هذه الأزمة العنيفة داخل المعسكر الغربى . . . وان كانت مختلطة بخلافات أخرى أشد حول الدفاع ، والحرب الباردة ، وما الى ذلك . . .

وننظر بعد ذلك الى قضية اليوم ، قضية التصدع

التاريخي في المعسكر الغربي .. وهو التصديق الذي
فجرت به قضية دخول إنجلترا أو عدم دخولها في السوق
الأوروبية المشتركة ..

وأكبر ما يضلنا في فهم المشكلة هو هذا الاسم «السوق
الأوروبية المشتركة» لأنه يعطي إحساسا بأن المسألة
كلها تجارية .. وهو إحساس غير صحيح ، عبر عنه
رئيس منظمة السوق حين قال : « نحن رجال سياسة
ولسنا رجال أعمال » أما الاسم الصحيح الذي يستوعب
أبعاد هذا الكيان الجديد ويساعدنا على فهم طبيعته فهو :
الوحدة الأوروبية .

إن الوحدة الأوروبية ليست اختراعا جديدا . فبالرغم
من أنه لا توجد قارة مزقتها حروب أبناؤها كالقارة
الأوروبية .. فإن فكرة الوحدة الأوروبية كانت تبرز من
حين لآخر ، في رأس فيلسوف أو في رأس قائد طموح .
ودائما ، كانت هذه الفكرة تبرز ، حين يكون هناك
تحد خارجي .

في نهايات الإمبراطورية الرومانية ، حاولت أوروبا أن
تحتفظ بوحدةها في ظل هذه الإمبراطورية ، أزاء موجات
الغزو الخارجي ، ولكن عوامل التحلل والفساد كانت
أقوى ، فتحللت الإمبراطورية إلى عناصر مختلفة ، هي
بدور القوميات الحالية في أوروبا ..

وفي سنة ٨٠٠ بعد الميلاد بعد ١٤ سنة من جلوس
هارون الرشيد على عرش الإمبراطورية الإسلامية في
بغداد توج شارلمان الفرنسي نفسه إمبراطورا على أوروبا ،
بعد سنوات قليلة من نجاح سلفه شارل مارتل في وقف
زحف الموجة الإسلامية عند «تور» في جنوب فرنسا .
وسميت أوروبا الموحدة نفسها باسم الإمبراطورية الرومانية

المقدسة ، وكان « بابا » روما هو الذى توج شارلمان ،
ارتباطا بالماضى السحيق .

وبعد ألف سنة كاملة ، فى سنة ١٨٠٠ بعد الميلاد ..
استحضر نابليون « بابا » روما الى باريس ليتسوجه
امبراطورا بعد ان دانت له أوروبا كلها ، وعينه على
تجربة شارلمان .

ويومها كانت الفكرة الدينية قد شحبت وبدأت الفكرة
القومية فى البزوغ ، وأصبحت السياسة أكثر حرصا
على استقلالها عن الدين : ففى سنة ٨٠٠ كان البابا هو
الذى فاجأ شارلمان بأن وضع على رأسه تاج
الامبراطورية . أما فى سنة ١٨٠٠ فقد فاجأ
نابليون البابا ساعة التتويج بأن أخذ التاج من يد البابا
وضعه بنفسه على رأسه ، متوجا نفسه بنفسه إشارة
الى التغير الذى طرأ خلال ألف سنة فى علاقات القوى
بين رجل الدين ورجل الدولة .

وفى سهرة تالية ، اعترف نابليون لوزير داخلته
« فوشيه » بقوله مبررا حروبه المتوالية : « أريد قانونا
أوروبيا ومحكمة نقض أوروبية ، وعملة أوروبية موحدة ،
وموازين ومقاييس واحدة ، أريد قوانين واحدة لأوروبا
بأسرها . هذا يا حضرة الدوق هو ما يناسبنى » .
وبعد مائة وثلاثين سنة ، حاولها هتلر على صورة
أخرى ، أكثر تشويها .

ولكن هذه المحاولات كلها كانت تفشل . يقول الكاتب
الفرنسى الشهير « اندريه مورا » ان السبب فى فشلها
هو ان كل واحد من هؤلاء حاول ان يفرض الوحدة
الأوروبية بحد السيف . وأضيف الى قوله هذا ان كل

واحد من هؤلاء حاول أن يفرضها على أساس وجود عنصر أوروبى متفوق على ما عداه وأن المصالح الاقتصادية التى نمت مع التطور كانت مصالح انفصالية ، لم تنشأ متكاملة ، فلم يكن أمامها إلا أن تتصارع وتشتبك فى حروب دامية . . أو كما يقول اندريه مورو : « تمزق وجهها بيديها » . .

ولاشك أن ديجول أسير هذه الرؤى التاريخية المتعاقبة ، لأن كثيرين جدا فى أوروبا يرون نفس هذه الرؤى وهو إذا كان يرى أوروبا من هذه الزاوية ، فهو اذن أكثر الناس منطقية مع نفسه فى كل تصرفاته السياسية وقد قال أحد وزرائه منذ أيام ، عن تمرد فرنسا على أمريكا « اننا نقول علنا ما يقوله غيرنا من الاوروبيين همسا ! » .

وديجول — من دراسة مؤلفاته وتصريحاته وتصرفاته — ليس الرجل الذى يرى التاريخ فى حدود عشرات قليلة من السنين ، ولكن فى نطاق عشرات من القرون الطويلة . وهو يعتقد أن هذه الصراعات الراهنة بين النظم الاقتصادية المختلفة ، كالشيوعية والاشتراكية والرأسمالية ، صراعات زائلة لا تلبث أن تذهب جفاء ، وتبقى الحقائق التى يراها خالدة : صراع القوميات ، والقارات والحقائق التاريخية والجغرافية الأخرى . وهو لهذا حين يتحدث عن التحولات الكبرى لا يتحدث عن أوروبا وآسيا وأمريكا ، وإنما يتحدث عن الجنس الأبيض والجنس الأصفر ، يتحدث عن أوروبا من الاطلنطى الى الأورال ، متخطيا تقسيمها الوقتى الحالى الى شرق شيوعى وغرب رأسمالى . . . يتحدث عن انجلترا فلا يرى أن النظم الاجتماعية والاقتصادية

تجمعها مع غرب أوروبا كما يرى سواه ، إنما يرى أنها
- كما قال بالحرف الواحد - جزيرة ، ودولة بحرية
دائما ، لها طبيعة خاصة ، لا يمكن أن تلتحم «بالقارة» .
فهو يعود الى الظروف « القديمة » التي يراها خالدة .

وهو في هذا يختلف عن نظرة خروشوف وكنيدى معا .
خروشوف الذى يرى ان هذه الاعتبارات نزول متجهة
بالعالم الى عالم شيوعى واحد ، وكنيدى الذى يرى مثل
خروشوف ان هذه الاعتبارات نزول ولكن مع اتجاه
العالم الى مجتمع رأسمالى واحد .

ان ديجول من الاوروبيين الذين يعتقدون ان أوروبا
هى خالقة هذه الحضارة العالمية . هى خالقة الصناعة
والصواريخ والرأسمالية والشيوعية على السواء . وهى
قد هان أمرها وتضاءل شأنها حين اختلفت وتناحرت
وتمزقت . . مما شجع « الخارج » عليها . أو كما قال
مفكر فرنسى فى هذا المقام : « اذا تشاجر الآباء . . ساء
أدب الأبناء ! » واليوم تواجه أوروبا تحديات خارجية
خطيرة : تحديات من آسيا . . ومن أمريكا . . ومن
أفريقيا . . لابد ازاءها أن تتحد أوروبا . . أوروبا
الحقيقية الصافية . . لكى تعود الى سابق عظمتها
وسطوتها من جديد . .

وانجلترا ؟

ما دمنا فى سياق هذه الرؤى التاريخية والذكريات ،
لابد من الإشارة الى حقيقة هامة وهى : ان نزعات توحيد
أوروبا - بالقوة أو بالحسنى - كانت تنبع دائما من
القارة ، ولم يكن لها أبدا أى صدى فى «الجزر البريطانية» .
على العكس كان دور انجلترا التاريخى دائما : أن تحول

دون قيام قوة كبرى في أوروبا تستقطب حولها بقية القارة فكما كانت تقوم دولة كبرى أوروبية ، تهدد بالسيطرة على القارة ، كانت إنجلترا تقوم بتجميع الدول الأخرى في حلف يستهدف تحطيم هذه الدولة الكبرى وإعادتها إلى حجم أقل . هكذا حاربت إنجلترا مع روسيا والمانيا ضد فرنسا وحاربت مع فرنسا وتركيا والمانيا ضد روسيا . . وحاربت مع فرنسا وروسيا ضد المانيا . واليوم ، يوجد في أوروبا « القارة » من يقول : ان جيوش إنجلترا نزلت أرض أوروبا مرات عديدة مع هذا وضد ذلك . أما جيوش أوروبا فلم تنزل أرض إنجلترا مرة واحدة . ان شعوب القارة تشعر ان حسابها متساو . كلها تبادلت النصر والهزيمة على حد سواء مره بعد مره . أما إنجلترا فكانت دائما في صف المنتصر ، لم تعرف مرارة الاحتلال . وهذا أحد أسباب كبريائها وشعورها التقليدي بالتفوق على أوروبا .

ومن التاريخ القريب الثابت أن كونراد اديناور ، بعد الحرب العالمية الأولى ، وفي سنة ١٩١٩ بالتحديد ، رأى أن الحل الوحيد لأوروبا هو تفاهم وتحالف المانيا وفرنسا . ويومها استنكر مواطنوه رأيه ، وأغرقته صيحة الثأر من فرنسا فلم يرفع رأسه الا بعد كارثة ثانية سنة ١٩٤٦ .

ومن التاريخ القريب الذي ان لم يكن ثابتا فان القرائن الكثيرة ترجحه ، ان ديجول شعر بنفس هذا الشعور حتى المانيا تحتل فرنسا ، في غمرة الحرب العالمية الثانية . فيومها كانت فرنسا جاثية على ركبتيها . المانيا التي تحتل أوروبا بأكملها كالوحش الجريح المحبوس في قفص . أوروبا الغالب والمفلوب ممزقة محطمة . وفي

الخارج أمريكا و « الجزيرة » البريطانية وروسيا ، يجتمع
أقطابها ليتصرفوا في خريطة أوروبا . وقد كانت عين
روسيا مقصورة على جاراتها الملاصقات . أما « الورثة »
الحقيقيون لفرنسا فقد وجدهم ديجول في أمريكا وانجلترا .
الكل يحاولون تصفية الامبراطورية المحطمة والتهامها .
ولديجول تاريخ طويل من الصراع ضد انجلترا وأمريكا
في هذا المجال خلال الحرب : انتصر حينما حدث حين
تغلب على الجنرال جيرو الذي قيل انه رجل أمريكا في
شمال افريقيا . وهزم حينما حدث حين انذره تشرشل
بالانسحاب من سوريا ولبنان . ولو عدنا الى مؤتمر
الصحفي الشهير الذي عقده قبل استقلال الجزائر بقليل
وذكرنا اتهامه العلني الصريح لأمريكا في هذا المؤتمر بأنها
تريد أن ترث فرنسا في الجزائر ، لوجدنا ان هذه الرؤى
لا تبرح مخيلته هو بالذات .

هذا هو بايجاز التراث التاريخي الذي قد يفيدنا في
فهم جانب من جذور الأزمة الحالية ..

ان الناس حين يسمعون أنباء انشقاق المعسكر الغربي ،
والحديث عن احتمالات قيام محور باريس موسكو ..
وهذه الاشياء الغريبة .. تبدو لهم لوحة السياسية
الدولية وكأنها نوع من الرسم التجريدي الغامض .. أو
مسرحية من مسرحيات اللامعقول . ولكننا حين نراجع
الموقف الى عناصره الأساسية يتضح لنا ان هذا اللامعقول
معقول جدا .. وان اللوحة التجريدية لم يرسمها « ذيل
حمار » كما قال خروشوف عن الفن التجريدي ، بل
رسمتها مصالح ، وتواريخ ، وجراح ، كلها عميقة
الجذور في أرض الواقع ..

بهذا التاريخ كله . . عاد ديجول الى حكم فرنسا سنة ١٩٥٨ ، ليجد ان كيانا جديدا قد بدأ ينفذ قبل ذلك بشهور ، اسمه : السوق الأوروبية المشتركة . . فكان لابد أن يرتطم القديم بالجديد، ويتفاعل معه ويؤثر فيه . فما هو هذا الجديد ؟

ان « معاهدة روما » التي سجلت مولد السوق الأوروبية المشتركة ، والتي وقعت هي وملحقاتها سنة ١٩٥٧ ، من أكثر المعاهدات التي عرفها العالم صعوبة وتعقيدا . ذلك انها كانت أشبه بعملية هندسية تريد أن تفتح الخزانات والسدود القائمة بين ست دول ، في حذر شديد ، حتى لا تفرق هذه المصلحة أو تلك في طوفان مفاجيء . .

ولسنا هنا في حاجة الى هذه التفاصيل المعقدة . يكفي الإشارة الى ملامحها العامة التي تطلعنا على أبعاد التجربة واحتمالاتها المثيرة . .

ان الدول الست المشتركة في السوق هي : فرنسا - ألمانيا الغربية - إيطاليا - هولندا - بلجيكا - لوكسمبرج والفكرة في السوق أن ترفع الحواجز كلها - لا الحواجز الجمركية وحدها - بين هذه الدول الست بالتدريج ، بحيث تصبح في تاريخ محدد قريب هو سنة ١٩٧٠ ، كيانا واحدا من الناحية الاقتصادية .

✳ بالتدريج . . ترفع الحواجز الجمركية على السلع التي تنتجها الدول الست . . حتى تنعدم الرسوم الجمركية تماما . فتباع المنتجات الصناعية والزراعية التي تنتجها الدول الست في أي مكان وتنتقل من مكان الى آخر وكأنها تتحرك في بلدها .

* وبالتدريج . . ترفع القيود المفروضة على انتقال رؤوس الأموال . . حتى يصبح الممول الايطالى مثلا قادرا على أن يؤسس مشروعا في المانيا أو فرنسا أو هولندا أو غيرها من دول السوق وكأنه في بلده . وفى سبيل هذا تتجه القوانين المنظمة لهذا النوع من النشاط ، بما فيها الضرائب ، الى التوحيد .

* وبالتدريج . . ترفع القيود المفروضة على انتقال الأيدي العاملة . وذلك على مراحل أيضا . ففي البدء يجوز لرب العمل الفرنسى مثلا أن يقبل عاملا ايطاليا إذا خلا المكان دون أن يجد له عاملا فرنسيا لمدة كذا أسبوعا . وبعد ذلك يجوز له ذلك إذا قصرت المدة . ثم يجوز للعامل الايطالى - بعد مدة أخرى - الذى يعمل فى فرنسا ، أن ينتقل من عمل الى عمل بدون شرط هذه المدة . . وهكذا على مراحل الى أن يصبح انتقال العامل من دولة الى دولة واشتغاله بأى عمل غير مشروط بأى شرط .

* وبالتدريج . . تعمل الدول على تقريب قوانينها الخاصة بالأجور والمعاشات والتأمينات الاجتماعية والخدمات . . الى آخره . وذلك بقصد توحيد ظروف العمل من جهة ، وبقصد جعل المنافسة بين جهات الانتاج عادلة . ففرنسا مثلا تقول ان المزايا الاجتماعية التى يحصل عليها عمالها أعلى من المزايا التى يحصل عليها العامل الالمانى . ومعنى هذا ان السلعة الفرنسية تتكلف أكثر من مثيلتها الالمانية ، الأمر الذى يجعل المانيا أقدر على منافسة السلعة الفرنسية . أما إذا تعادلت الخدمات الاجتماعية وبالتالي تعادلت التكاليف فهذا

يجعل المنافسة عادلة .

* وبالتدريج . . تزداد عملية التنسيق بين القرارات الاقتصادية التي تتخذها الدول المشتركة في السوق .

وفي هذا المجال يوجد بنك أوروبي مشترك لمساعدة المناطق الأوروبية المتخلفة عن غيرها في هذه الدولة أو تلك ويوجد صندوق مشترك لمواجهة حالات البطالة التي قد تظهر فجأة بسبب السوق المشتركة في هذه البقعة أو تلك .

* وهذا السوق ، له أربعة أجهزة تديره وتحركه طبقا لجدول مواعيد متفق عليه في معاهدة روما وهي :

* مجلس لوزراء يمثلون الدول الست . وهو أعلى جهاز ، ويجتمع من حين لآخر .

* مجلس أوروبي دائم ، هو أشبه بمجلس تنفيذي للسوق يباشر عمله يوما بيوم .

* محكمة أوروبية من سبعة قضاة تقوم بتفسير الاتفاقات التي قد ينجم نزاع حول تفسيرها .

* مجلس نواب من أعضاء في برلمانات الدول الست ، يراقب أعمال المجلس التنفيذي .

وحتى الآن ، لا بد أن تصدر القرارات الأساسية باجماع كل الدول الاعضاء ، أى ان كل دولة محتفظة حتى الآن داخل السوق بسيادتها كاملة ، لا ترتبط الا بما توافق عليه . أما ابتداء من سنة ١٩٧٠ فسوف يكفي أن يصدر القرار بالاغلبية فتخضع له كل الاعضاء . وبذلك يختفى حق الفيتو أى ان كل دولة حينئذ تعد متنازلة عن جانب من سيادتها كدولة مستقلة لمصلحة منظمة دولية أعلى سلطة منها .

هكذا استطاع «الرأسماليون» أن يحققوا الوحدة الأوروبية التي طالما تغنى البروليتاريون الأوروبيون بأنهم هم الذين سيحققونها ، بعد القضاء على الرأسماليين . وقد كان لهذا أثره في ردود الفعل المختلفة يوم ولدت السوق ! إذ اعتبرتها روسيا سما قاتلا ، ونظر اليها اليسار الأوروبي في تحفظ أقرب الى المعارضة ، ورقصت أمريكا طربا وفرحا . . وهذا كله قبل أن تخطر على البال الاحتمالات الجديدة التي أتى بها ديجول الى هذه السوق . وقد قلت في صدر هذا الحديث ان كلمة «السوق» كلمة مضللة . وان الكلمة الصحيحة هي الوحدة الأوروبية وهذا لا ينفي ان الاقتصاد هو الذي يلعب الدور الاول . ولكن الاقتصاد كان دائما مفتاح التطورات السياسية . فمؤرخو أوروبا مثلا يقولون ان ظهور السكك الحديدية ورفع الحواجز الجمركية هو الذي حقق الوحدة الألمانية ، فحولها من عشرات الامارات والولايات المستقلة الى دولة واحدة . ونفس الشيء يمكن أن يصدق على أوروبا اليوم . فهذه الخطوات الهائلة نحو الوحدة الاقتصادية ، لا بد أن تؤدي الى علاقات عضوية بين هذه الاقطار ، يجعل الوحدة السياسية بعد ذلك خطوة منطقية بل وضرورية لاكمال هذه الآثار الاقتصادية .

بهذه الوحدة الاقتصادية لا بد أن تصبح للدول الست سياسة اقتصادية خارجية واحدة . وبالتالي سياسة دولية واحدة . ولا بد أن تقرب بين النظم السياسية الداخلية . وكذلك ستخلق علاقات وحدة بين الحركات العمالية والاحزاب السياسية . وحيث ان الضمانات الاجتماعية يجب أن تتشابه بين هذه الدول فمعنى ذلك

ان الضغط الاجتماعى للطبقات المختلفة فى بلد ما لابد
أن يسمع صداه فى كل البلاد . . الى آخر هذه الحلقة .

وقد نجحت السوق حتى الآن نجاحا هائلا من الناحية
الاقتصادية . فبينما زاد انتاج انجلترا الصناعى مثلا من
سنة ١٩٥٨ الى الآن بنسبة ١٣ ٪ نجد أن انتاج المانيا
زاد فى نفس المدة ٢٩ ٪ وفرنسا ٢١ ٪ وإيطاليا
٤٣ ٪ وهولندا ٢٩ ٪ وبلجيكا ١٧ ٪ .

أما حجم التبادل بين هذه الدول فزاد بما يقرب من
١٠٠ ٪ .

وفى نفس الوقت تفتحت الاحتمالات السياسية
الأكيدة الكامنة فى فكرة السوق وفى بنائه العضوى . .
بدليل هذه الازمة السياسية الطاحنة . فلو كان الأمر
أمر تجارة فقط لكان الأمر ولكن الأمر أبعد من ذلك بكثير
وهنا يجىء دور انجلترا . .

أقرب الدول الخارجية الى السوق ، وأولى الدول
قابلية للتأثر بها . .

كيف تلقت انجلترا هدير هذا الحادث التاريخى
الجديد ؟

فى البدء هزت انجلترا كتفيها استخفافا بالتجربة
كلها . وذلك انها بدورها نظرت اليها من خلال التاريخ
القديم لأوروبا فوجدت ان الصعوبات أكثر من فرص
النجاح .

وأذكر اننى كنت فى لندن قبل توقيع معاهدة روما
وسألت صحفيا انجليزيا عن رأيه فى المشروع واحتمالات
دخول انجلترا فيه فقال لى : مستحيل أن يقبل الشعب
البريطانى هذا الدخول . ان الانجليزى العساذى يكره

الالمان ، ويحتقر الطليان ولا يثق بالفرنسيين . . فكيف
تريده أن يقبل أن يذوب فيهم ؟ . .

يومها . . كان الانجليز هم الذين يتحدثون عن الفروق
بينهم وبين أوروبا . . وهى النعمة التى يغنيها ديجول
الآن . .

« نحن أمة بحرية . . البحر الذى شكل تاريخنا كما
لم يشكله أى عنصر آخر . هو الذى منح شعبنا صفاته
فى الصبر والمغامرة والقدرة على ارتياد الآفاق المجهولة » .

« نظمنا الديمقراطية المستقرة . . انها أعرق نظم فى
العالم . . انها تعطى تاريخنا منطقاً خاصاً . . فلم نعرف
ثورات فرنسا الدامية أو دكتاتوريات المانيا المجنونة أو
تطاحن الأحزاب بالعشرات كما فى سائر بلاد القارة .
انهم يريدوننا ، لكى ننقل استقرارنا إليهم . . ولكن قد
يحدث أن ينقلوا فوضاهم إلينا .

« الكومنولث . . آخر صورة للأمبراطورية العزيزة . .
الرابطة السحرية التى تعطينا أسواقاً عدد سكانها يبلغ
ثلاثة أضعاف سكان السوق المشتركة . انهم يريدوننا
أن ننفصل عنها . . أو أن يشاركونا فيها وكلا الأمرين
مستحيل » .

« سياستنا الخارجية . . انها أكثر السياسات تشعباً
وتعقيداً . . ولهذا نحن فى أشد الحاجة الى أن نبقى
مستقلين . كيف نحرك سياستنا ذات الدهاليز
والمنحنيات اذا لزمنا أخذ الأصوات قبل كل قرار ؟

ولكن هذا الموقف أخذ يتغير شيئاً فشيئاً . ليس عند
كل الانجليز ، اذ ما زالت قوى كبيرة فى انجلترا ترفض
دخول السوق من الأساس . ولكن طائفة كبيرة من

القادة والرأى العام .

عندما قدمت انجلترا رسميا طلب الانضمام الى السوق ، قال لورد هيث مندوبها الذى قدم الطلب فى خطابه الرسمى ، ان الذى جعل انجلترا تقرر دخول السوق ثلاثة اعتبارات :

الأول : رغبتها فى العمل معا مع جاراتها (كلمة انشائية!)
والثانى : ان أوروبا عليها أن تتحد أو تندثر .

والثالث : النجاح الاقتصادى الهائل الذى حققته السوق فى السنوات القليلة التى مضت من عمرها ..
ولكن انجلترا أرادت أن توفق بين كل المتناقضات ،
وتجمع بين شتى الامتيازات ..
أرادت :

* أن تدخل السوق المشتركة ..

* أن تضمن مصالح منطقة التجارة الحرة الأوروبية.

* أن تحتفظ بعلاقاتها مع الكومنولث .

* أن تحتفظ (بعلاقاتها الخاصة) مع أمريكا .

وهنا ارتطمت انجلترا بديجول، الذى يرى أن انجلترا لن تكون داخل السوق سوى (طابور خامس) لأمريكا !
وكشف هذا الارتطام عن كل المتناقضات المحتدمة فى المعسكر الغربى : من خلاف حول الدفاع .. وحول التعامل مع روسيا .. الى المصالح والشركات ورؤوس الأموال ..

ديجول وإنجلترا

لقد استمرت المباحثات بين إنجلترا ودول السوق سنة ونصف سنة ثم فجأة ، أعلنت فرنسا رفضها دخول إنجلترا . وهو القرار الذى فجر الأزمة الأخيرة ..

وقال المراقبون : ان ديغول يثار من معركة ووترلو التى هزمت إنجلترا فيها نابليون ! وان ديغول عرف ان غلطة نابليون هى ان الالمان كانوا فى ووترلو الى جانب الانجليز ، ولذلك عمد الى ان يجعل الالمان هذه المرة الى جانبه .. فأسرع بعد هذا القرار بأيام ، يوقع معاهدة مع اديناور ، وبدأت الهمسات تتردد بأنه على صلة خفية بموسكو !

والواقع ان الحجة التى دارت فيها مباحثات إنجلترا ودول السوق فى « روكسل » والتى أعلن فيها وزير خارجية ديغول قرار الرفض . لا تبعد عن الأرض التى دارت فيها معركة ووترلو بأكثر من عشرة أميال !

ومع ذلك فالشبه بين ديغول ونابليون ليس فى معركة ووترلو ، ولكنه فى القرارات الشهيرة التى أصدرها نابليون سنة ١٨١٠ ، وأعلن بها ما سماه بالنظام القارى ، ومن مقتضاه أن تحرم التجارة بين أوروبا وإنجلترا وان يمنع دخول أى سفينة انجليزية الى أى ميناء أوروبى ! ويومها تحملت أوروبا هذا النظام ، بمزيج من الوعد

والوعيد أقل من سنة ، ثم تمرد قيصر روسيا وخرج على الاتفاق .. فكانت حملة نابليون الشهيرة على روسيا .. الحملة التي انتهت به الى وحول ووترلو .

ولكن الأمر لو كان مسألة ثار ، أو رجوع الى تاريخ قديم ، لكفى فيه الرجوع الى أقل من عشرين سنة الى الوراء . روت الصحف الفرنسية هذا الاسبوع أن زائرا أجنبيا لقصر الاليزيه سأل موظفا كبيرا فيه عن سر خصومة دييجول لانجلترا . فأخرج الموظف من مكتبه كتاب مذكرات دييجول . قرأ له منه فقرة تقول : «جاءنى السفير البريطانى بعد انذار انجلترا لفرنسا بسحب قواتها من شوارع دمشق (سنة ١٩٤٥) فقلت له طبعاً نحن لسنا فى حالة تسمح لنا باعلان الحرب عليكم .. ولكن هذا العمل من جانب انجلترا لايمكن أن ننساه !»

ومرة أخرى، لايجب أن تدير هذه المقارنات التاريخية رؤوسنا فالفوارق بعد مائة وخمسين سنة من الزمن هائلة .. وأكبر هذه الفوارق هى : أن دييجول لا يريد فى الواقع أن يطرد انجلترا من أوروبا .. أنه يريد أن يطرد أمريكا ! .. وهو اذا كان قد وجه الصفعة الى انجلترا فلأنه يعتقد انها « حصان طروادة » الذى تريد أمريكا أن تدفعه داخل أسوار الوحدة الاوروبية الثامية

فمنذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، دخلت أوروبا الغربية تحت جناح أمريكا . أصبحت أمريكا سطوة سياسية واقتصادية وعسكرية فى أوروبا . واليوم يريد دييجول أن يحطم هذه السطوة . أوروبا فى رأيه يجب أن تستقل . أوروبا هى الأم . وقد كان كل ما مر بها محنة ، عليها الآن أن تخرج منها وتعود الى سابق

مجدها من جديد ..

الميزة الكبرى للسوق الاوروبية المشتركة في رايه هي انها ستجعل من أوروبا كيانا قوميا كبيرا في حجم روسيا وأمريكا . فاذا كان هذا الكيان الكبير سيصبح تحت سطوة أمريكا .. فما الفائدة إذن ؟ ..

ولهذا يجب أن نتأمل الموقف ازاء أمريكا قبل أن ننظر في موقف إنجلترا .

يقول ديجول : ان الدولة لكي تكون مستقلة ، يجب أن تظل مهيمنة على قوتها العسكرية والدفاعية ، وفي رايه ان الفكرة الأمريكية للدفاع الغربى تسلب أوروبا استقلالها العسكرى . فجوهر الفكرة الأمريكية هو أن تنصرف أوروبا الى تعزيز قوتها المسلحة بالاسلحة التقليدية، بينما تنفرد أمريكا بانتاج الاسلحة الصاروخية، الذرية والهيدروجينية ، الحديثة . أما جوهر فكرة ديجول فهو أن أوروبا يجب أن تكون لها قوتها الذرية المستقلة ، وكل وجهة نظر لها ما يبررها .

كنيدى : يعتقد ان الخطر الوحيد الذى يهدد المعسكر الغربى هو المعسكر الشرقى . وان الاسلحة الصاروخية الأمريكية الحديثة جدا كافية لحماية المعسكر الغربى كله وان ما يمكن أن تصنعه أوروبا من أسلحة فى هذا المجال لن يصل الى واحد على عشرين مما لدى أمريكا الآن ولو أنفقت فى هذا الأموال الطائلة والسنوات الطوال . بل ان محاولة أوروبا اللحاق بأمريكا وروسيا عسكريا يمكن أن تحطم أوروبا اقتصاديا ، أو تؤثر فى اقتصادها على الأقل الى حد خطير .

وهذه الفكرة كما هو واضح يحركها «حس تاريخى»

معين ، هو السائد في أمريكا : فأمریکا ترى ان ثم نوعا من « المجتمع الاطلنطى » الآخذ فى النمو باستمرار . وان هذا المجتمع الاطلنطى الذى يشمل أمريكا وغرب أوروبا يزداد كل يوم ترابطا وانصهارا سياسيا واقتصاديا وعسكريا . مثل هذا المجتمع لا يمكن أن ينقسم ولا يمكن أن تقوده وتسوده إلا الولايات المتحدة الأمريكية .

ولكن ديجول يرى التطور التاريخى من زاوية أخرى تماما ..

انه لا يؤمن بأن الاطلنطى هو البوتقة التى ستصهر أوروبا وأمريكا فى كيان واحد . لا يؤمن بما يقال من أن عصر النفاثات جفل الاطلنطى بحيرة مالحة فى قلب مجتمع واحد . بل على العكس يؤمن بأن البوتقة الأوروبية هى الحقيقة الباقية . أكثر من ذلك فهو يعتقد أن تقسيم أوروبا الى شيوعية ورأسمالية سيختفى ، سيصبح الشيوعيون بورجوازيين معتدلين وسيصبح البورجوازيون فى الغرب اشتراكيين معتدلين . وإذا كانت أوروبا ستبقى مستقلة فلا بد أن تكون لها أسلحتها الدفاعية الخاصة بها ، المستقلة عن أمريكا ..

لماذا ؟ .. يقول ديجول فى بعض أحاديثه « تذكروا ان حلفاءنا هم فى الوقت نفسه منافسونا » . ويقول : ان مصالح أمريكا وأوروبا يمكن أن تختلفا ذات يوم .. بل انه يؤكد ان هذا الخلاف سوف ينمو حتما كلما توحدت أوروبا وزادت قوتها وزاد نفوذها من جهة ، وكلما ادى هذا بالتالى الى انكماش قوة أمريكا نسبيا من جهة أخرى .

وازاء هذا الخلاف المنتظر أو المحتمل لابد أن تحتفظ أوروبا باستقلالها . ومفتاح هذا الاستقلال هو استقلالها

العسكري ، بأن تكون لديها أسلحة العصر ، الصواريخ والقنابل الذرية والهيدروجينية الخاصة بها ، والتي يتوقف استخدامها على قرار منها لا على قرار من أمريكا .

بهذا وحده لا تكون أوروبا تابعة لأمريكا . .

ويضرب ديجول مثلين : المثل الأول هو قصة مدينة ستراسبورج ، والمثل الثاني هو ما حدث في حرب السويس .

* ففي سنة ١٩٤٥ ، حين كان الحلفاء يدفعون قوات هتلر الى الوراء ، وصلت الحرب الى مدينة ستراسبورج الفرنسية ذات القيمة التاريخية والقومية الكبيرة . وكانت أوامر أيزنهاور فيما يبدو ستؤدي الى تدمير المدينة . فالمهم لدى القيادة الأمريكية العليا هو تدمير قوات هتلر بأسهل وسيلة . ولكن ديجول أصدر أوامره الى قوات فرنسا التي كانت تابعة له بأن تضع المحافظة على المدينة في مقدمة أهدافها .

والعبرة : ان القرار الاستراتيجي العام قد يهمل المصلحة المحلية . وما حدث لستراسبورج سنة ١٩٤٥ قد يحدث لفرنسا كلها في أي ظرف مقبل .

* وفي حرب السويس ، كانت قوات فرنسا التي جاءت لتشتبك في محاولة غزو مصر مندمجة في قوات انجلترا وتابعة لها . ولذلك فحين اضطر ايدن الى اصدار الأمر بوقف القتال والانسحاب رغم أنف القادة الفرنسيين ، لم يكن أمام فرنسا سوى الازعان والانسحاب .

وبصرف النظر عن نتيجة الحرب ، فالعبرة التي يريدونها ديجول هي : ان الدولة اذا قبلت أن تذوب قوتها في قوة أخرى ، فهي تصبح عاجزة عن التصرف

تصرفا مستقلا . .

يروى عن ديغول انه يقول لوزرائه : انه لا ينظر في تحركاته السياسية الى سنة ١٩٧٠ ، ولكنه ينظر الى سنة ٢٠٠٠ !

ماذا يمكن أن يحدث من « افتراق » بين استراتيجية أوروبا واستراتيجية أمريكا خلال هذه المدة ؟ . .

الرأى الفرنسى يقول : ان أمريكا تدافع عن أوروبا منذ نهاية الحرب ، نهاية أوروبا كانت ضرورة للدفاع عن أمريكا. فيها على الأقل قواعد الطائرات والصواريخ الموجهة الى روسيا . ولكن هذه الضرورة تقل . وكل يوم يمضى تصبح أمريكا أكثر استغناء عن أوروبا في استراتيجيتها العسكرية. بعد ١٥ سنة من نهاية الحرب العالمية الثانية ظهرت الفواصات الذرية المحملة بالصواريخ وهى تغنى تماما عن كل القواعد العسكرية الأرضية . فكيف يمكن التنبؤ بما قد يحدث فى خمس عشرة سنة أخرى من الآن .

الآن لم يعد الدفاع عن أرض أوروبا ضروريا للدفاع عن أرض أمريكا . فمن يستطيع أن يؤكد أن أمريكا ستضع الدفاع عن أرض أوروبا فوق مصلحتها الوطنية؟ لو فرضنا أنه قامت حالة يمكن أن تتعرض فيها أوروبا للحرب الذرية دون أمريكا فهل تعرض أمريكا نفسها للقنابل الذرية ، لمجرد الدفاع عن أوروبا ، وأضعة بذلك مصلحة أوروبا فوق مصلحة أمريكا ؟ . .

ان الأمم تبقى ، ولكن المحالفات تتطور ، خصوصا اذا كانت محالفات بين دول يفصلها خمسة آلاف ميل من مياه المحيط .

ان كنيدي يحب أوروبا ، ولكنه يحبها على انها «تراث»
قديم للحضارة الغربية ، وان مصيرها التاريخي الوحيد
هو أن تفودها أمريكا . أما ديغول فانه يرى ان أوروبا
لها مستقبل لا يقل عن مستقبل أمريكا . بل يرى ان
المستقبل لابد أن يعود اليها مرة أخرى .

هذا من الناحية العسكرية .. فماذا عن الناحية
الاقتصادية ؟

لقد بدأ بعض الذين كانوا يرحبون برأس المال
الأمريكي في أوروبا ، يديرون له ظهورهم .

ومنذ أسابيع نشرت الصحف ان حكومة فرنسا نبهت
دول السوق الأوروبية المشتركة الى خطورة «اغراق»
دول السوق برؤوس الأموال الأمريكية واستيلاء هذه
الأموال على بعض الصناعات الهامة . وفي الاسبوع نفسه
كانت فرنسا قد انتبعت الى نبأ يقول ان شركة سيارات
كريزلر الأمريكية قد اشترت شركة سيارات سيمكا
الفرنسية الكبيرة . وان شركة أمريكية أخرى للأغذية
قد اشترت عشرات الآلاف من الأفدنة في فرنسا لتحويلها
الى مزارع خاصة تمون انتاجها ..

وهذا كله ليس غريبا ..

فالأحصاءات تقول ان في فرنسا حوالي ٥٠٠ شركة
تحكمها الأموال الأمريكية بشكل مباشر أو غير مباشر .

وانه منذ بدء السوق الأوروبية المشتركة سنة ١٩٥٨
- أى في خلال أربع سنوات - زحف الى أوروبا ١٥٠٠
مؤسسة أمريكية ، بعضها بدأ يعمل فعلا وبعضها ينتظر
تطورات السوق ليبدأ العمل . ومن هذه المؤسسات
٢١٨ مؤسسة في فرنسا و ٢١٥ في ألمانيا و ١٩٧ في إيطاليا

و ٣١.١ في باقي دول السوق .

والاحصاءات تقول ان رؤوس الاموال الامريكية المستثمرة في الانتاج في أوروبا وصلت سنة ١٩٦١ الى ٣٥٢٣ مليون دولار في انجلترا و ١١٧٠ مليوناً في المانيا و ٨٤٠ مليوناً في فرنسا و ٤٦٧ مليوناً في ايطاليا و ٣٠٨ ملايين في هولندا و ٢٥٦ مليوناً في بلجيكا .

والتقارير الرسمية الفرنسية تقول ان ١٤ ٪ من رأس المال الانتاجي في فرنسا كلها .. أمريكي !

وان الأموال الامريكية في فرنسا تنتج ٧٥ ٪ من انتاج فرنسا من وسائل نقل و ٦٠ ٪ من الآلات الزراعية والتليفونات والمصاعد و ٥٠ ٪ من المصاييح و ٣٠ ٪ من الأدوات الكهربائية و ١٢ ٪ من الأجهزة الالكترونية .

كتب الكاتب الفرنسي ميشيل بوسكيه يقول : « ان ربة البيت الفرنسية حين تدخل دكان بقسالة تشتري بضائع أمريكية وهي لا تعرف : اللبن المجفف ، الأطعمة المحفوظة ، البسكويت ، وهي تنظف بيتها بسوائل كيميائية أمريكية وتقتني أدوات كهربائية أمريكية » .

وبينما يعتقد فريق من الاقتصاديين الفرنسيين ان هذا الوضع كان مفيداً لفرنسا ، لأنه الى جانب تهيئته لفرص العمل والانتاج ، قد أوجد صناعات جديدة ومهارات جديدة لفرنسا ، وجعل الصناعات الفرنسية نفسها تنشط وتتجدد حتى تصمد في المنافسة .. فان

فريقاً آخر يقول ان هذا الوضع يحرم الدولة من أي فرصة جديدة لعمل تخطيط قومي حتى في الاطار الرأسمالي لأن صناعات كبرى تتخذ قراراتها في ديترويت وفيلادلفيا ونيويورك وليس في فرنسا . ويقولون : ان هذا الوضع

يؤدي عمليا الى احتكار أمريكا للتقدم الفني والعلمي ،
استنادا الى أن هذه الأبحاث تجري في أمريكا ، وتستورد
جاهزة الى فرنسا . . مما يجعل الفروع الفرنسية لهذه
الصناعات عاجزة عن الانطلاق بمفردها لو احتاج الأمر .
تماما كالصواريخ الذرية التي تعرض أمريكا على أوروبا
أن تستخدمها . . بشرط أن تبقى أسرارها في يد أمريكا
وان هذا أيضا يؤدي الى تبعية أوروبا لأمريكا من الناحية
الاقتصادية والفنية والعلمية ، تبعية قد تصبح بعد
عشرين سنة نهاية . لا رجعة فيها ! . .

ومن المقالات المثيرة التي نشرتها الصحف الفرنسية في
الشهور الأخيرة دراسة عنيفة عن الحرب الاقتصادية بين
أمريكا وأوروبا في الكونفو . فنحن نعرف جيدا مصالح
بلجيكا وإنجلترا وفرنسا في الكونفو وما حولها ،
والتركة في شركات المناجم والتعدين وهي المصالح التي
جعلت هذه الدول تحمي تشومبي وتحبذ استقلال كاتنجا
حتى الرمق الأخير . فلما ساندت أمريكا أخيرا جهد
الأمم المتحدة لانهاء استقلال تشومبي . . انفجرت صحافة
غرب أوروبا تهاجم أمريكا . ولكن أعنف اتهامات هي التي
وردت في هذه الدراسة .

قالت هذه الدراسة : انه لوحظ انه كلما ضعف مركز
تشومبي ، ارتفعت أسعار النحاس في العالم . وانه ليس
سرا أن الشركات الأمريكية التي تنتج بمالها من فروع في
شيلي وبيرو ٤٠ ٪ من نحاس العالم ، تضيف دائما على
حكومة أمريكا لتؤيد الأمم المتحدة في ضرورة انهاء انفصال
كاتنجا وان ادلاي ستيفنسون مندوب أمريكا الدائم في
الأمم المتحدة وأكثر الأمريكان حماسا لهذه السياسة هو

المعامي السابق لشركة «تمبلنسمان وولده» التي حصلت أخيرا من حكومة الكونغو المركزية على امتياز استغلال مناجم الماس في كاتنجا . وأن الشركة السويديّة «جرانجسبرج» التي تنقب في أراضي كاتنجا يرأسها

شقيق السكرتير العام الراحل داج همرشولد، وأن شركة أمريكية اسمها «أمريكان ميتال كليماكس» تسعى للحصول على امتياز استخراج المواد الاستراتيجية من الكونغو وفي مقدمتها الكوبالت واليورانيوم النقي . وأن نائب رئيس هذه الشركة هو مستر آرثر دين رئيس وفد أمريكا في مباحثات نزع السلاح الذي استقال أخيرا ليعود الى الإشراف على أعمال الشركة ..

وقال كاتب المقال - ادوار سابلية - في الختام : ان أمريكا تشن حربا اقتصادية ضد المصالح الأوروبية . وأن أمريكا تخشى أن ينتهى النمو الاقتصادى الأوروبى الى منافسة أمريكا ذاتها . وانها لهذا تحاول أن تفيد أوروبا عسكريا . واستشهد بمقال كتبه الصحفي الأمريكى الكبير جون جنتر وقال فيه : «لابأس أن نشجع أوروبا على أن تنمو اقتصاديا» بشرط أن «تصبح قادرة على الدفاع عن نفسها بدون مساعدة حلف الاطلنطى» .

من يملك مفاتيح القوة الاقتصادية ، ومفاتيح القوة العسكرية ، يستطيع أن تكون له كلمة مسموعة في عالم السياسة . ولذلك فإن المحاولة - التى يمثّلها ديجول - لتحرير قوة أوروبا العسكرية والاقتصادية من سيطرة أمريكا ، تهدف فى النهاية الى أن يكون لأوروبا صوتها المستقل فى عالم السياسة . لقد قبلت أوروبا - منذ زمن - ما يعتقد ديجول انه زعامة أمريكية مطلقة . وكلما

اندفع التقدم العسكري في مداه ، واتسعت الهوة بين روسيا وأمريكا من جهة وسائر بلاد العالم من جهة أخرى ، زادت امكانية انفراد أمريكا وروسيا بتقرير مصير العالم .

وقد جاءت أزمة كوبا لتؤكد لأوروبا هذه العبرة . لقد ذهبت روسيا وأمريكا الى حافة الحرب الذرية وسار العالم كله خلفهما أوتوماتيكيا ، بحكم الارتباطات العسكرية والاقتصادية والسياسية ، دون أن تستشيرا أحدا ، روسيا وضعت صواريخها الموجهة في كوبا رغم ما في ذلك من دفع عنيف للحرب الباردة دون أن تستشير أحدا . وكنيدي أعلن الحصار ووجه الانذار رغم ما في ذلك من خطر قيام حرب ذرية دون أن يخطر أحدا ، وعندما اتفق الطرفان على التسوية اتفقا عليها بمفردهما ، والعالم مكتوف الذراعين ، ينظر . وأوروبا بالذات أول من سوف تدوسها الصواريخ ، لا رأى لها على الإطلاق .

وقد أشارت بعض الصحف الفرنسية الى أن «السبب المباشر» الذي جعل ديجول يبدأ معركته الفنية المفتوحة ضد أمريكا وانجلترا معا هو تقرير سري جاء فيه : أن قرار أمريكا نزع قواعد الصاروخية في تركيا وإيطاليا كان جزءا من التسوية السرية التي تمت بين كنيدي وخروشوف خلال أزمة كوبا ، وأن كانت أمريكا تؤكد علنا أن هذا القرار جاء نتيجة منطقية لاحتلال الفواصات الذرية محل القواعد الأرضية الثابتة التي يسهل تدميرها وتقول الصحف الفرنسية أن ديجول استخلص من هذا أن أمريكا عازمة الآن أكثر من أي وقت مضى على حل المشاكل رأسا مع روسيا ، دون استشارة حلفائها استشارة جدية ، حتى في أمور تتعلق بأوروبا ذاتها ،

كقواعد الصواريخ في ايطاليا وتركيا .

وأغلب الظن أن دييجول استدار الى آديناور ، ولوح له بهذا التقرير قائلاً : وبرلين ؟ ألا يجب أن نحسب حساب الهمس المستمر باحتمال بزوغ سياسة أمريكية روسية منفردة بالنسبة لبرلين ؟

المهم : أن الاستقلال السياسى لأوروبا هو التنمية المنطقية للاستقلال العسكرى والاقتصادى ، أو أن الاستقلال السياسى هو الغاية التى يهدف اليها دييجول ، ولا يمكن أن يصل اليها الا اذا حقق لأوروبا درجة من الاستقلال العسكرى والاقتصادى .

تقول مجلة الاكسبريس الفرنسية — والله أعلم ! — أن دييجول قال هذا الأسبوع لخصائه : « اننى أحاول أن أنقذ أوروبا من تبعية أبدية .. سياسية وعسكرية واقتصادية وعلمية .. فإذا فشلت فمعنى ذلك أن تندثر أمجاد أوروبا الى الأبد .. وأن تخضع لحكم البرابرة » .

وبهذه الحيشيات كلها فجر دييجول سلسلة قنابله السياسية الكبرى ، التى بدأت برفض دخول انجلترا السوق المشتركة .

لماذا ؟ ..

لأن انجلترا ما زالت « غير أوروبية » .

لأن انجلترا ، كما سردت فى القسم الاول من هذا البحث ، هى القوة البحرية المنعزلة عن أوروبا التى كان دورها فى السياسة الأوروبية هو دور منع وحدتها ، وهى التى فضلت دائماً علاقات عميقة مفتوحة عبر البحار ، وما زالت متمسكة بها فى صورة كومنولث ،

ولكنها قبل كل شيء طابور أمريكي خامس في قلب الوحدة الأوروبية ، ودخول إنجلترا السوق معناه دخول عميل قوى أمريكا يمكنها من أن تحكم السوق من الداخل فتنهار كل المبررات الكبرى التي يراها ديغول لقيام هذه السوق . .

لقد كانت إنجلترا تتباهى دائما بأن لها «علاقة خاصة» بأمريكا . وعندما عاد ديغول الى الحكم سنة ١٩٥٨ ، كان أول شيء اقترحه هو عمل « قيادة ثلاثية » للمعسكر الغربي من أمريكا وإنجلترا وفرنسا ، بقصد الاشتراك في هذه العلاقة الخاصة ، التي قد تصل الى حد تبادل الأسرار الذرية الكاملة . ولكن أمريكا وإنجلترا رفضتا هذا الاقتراح رفضا أهان ديغول في ذلك الوقت ، فهو اليوم يعامل إنجلترا وأمريكا على هذا الأساس : على أساس هذه « العلاقة الخاصة » بينهما .

وباب الحديث عن هذه «العلاقة الخاصة» بين إنجلترا وأمريكا يفتح مجالات لا آخر لها ولا حاجة لها هنا . ولكن يكفي أن نتذكر كل التراث التاريخي المشترك الذي يربط إنجلترا وأمريكا .

ويكفي أن نذكر ما جاء ذكره منذ قليل من أن استثمارات أمريكا في إنجلترا وحدها تصل الى أكثر من ثلاثة آلاف مليون دولار ، أي ما يساوي استثمارات أمريكا في سائر بلاد غرب أوروبا . والصلات بين الشركات الانجليزية والأمريكية أقوى بكثير من صلات هذه الشركات بالمؤسسات الأوروبية . كذلك فإن السياسة الدولية كانت على الدوام محل «تساور خاص» بين إنجلترا وأمريكا وإن كان هذا قد شخب في عهد كنيدي بالذات ، والشيء نفسه ينطبق

على الضلالت العسكرية وعلى المعلومات الذرية المتبادلة بينهما . وقد كانت قمة هذا الارتباط في رأى ديجول هي اتفاقية «ناسو» الأخيرة ، التي قبل فيها ماكسويلان نوعا من التبعية العسكرية الأمريكية في مجال القوة الذرية الصاروخية حين قبل أن يهجر صواريخ «سكاي بولت» الى الصواريخ الأمريكية «بولاريس» ..

ديجول يعتقد ان انجلترا ، بكل هذه الارتباطات ، سوف تكون عنصرا فعالا يدعو الى السياسة الأمريكية داخل الوحدة الأوروبية ، سوف تستطيع انجلترا بما لها من نفوذ قوى وأصدقاء كثيرين أن تجمع حولها «كتلة أمريكية» داخل السوق ، وقوة اقتصادية أوروبية مستقلة وكتلة أوروبية ثالثة غير تابعة لأمريكا سياسيا ..

لهذا قرر ديجول أن يسد الطريق في وجه انجلترا ..

ولأن هذا القرار الذي فجر الأزمة كان مجرد جزء من خطة شاملة ، فقد أعقبته سلسلة تحركات سياسية كبرى ، لاشك انها مدروسة ومحسوبة من زمن بعيد ..

✳ أولها .. المعاهدة التي وقعها ديجول مع اديناور . ان هذه المعاهدة تنص على تنظيم لقاءات منتظمة بين قيادة أركان الحرب في البلدين ، وعلى اجراء مناورات مشتركة لجيوش الدولتين ، والتعاون في صناعة بعض الاسلحة ، وتبادل الضباط والوحدات العسكرية ، وتنسيق الأبحاث العلمية في المجالات العسكرية والاستراتيجية . والتشاور السياسي بينهما لتنسيق موقفهما في المنظمات الاخرى كالسوق المشتركة وحلف الاطلنطي ..

فهى ليست معاهدة صداقة تقليدية ، بل انها حافلة

بالاحتمالات البعيدة.. ومع ذلك فلو عقدت هذه المعاهدة في وقت آخر لما كان لها نفس رد الفعل العنيف الذي حدث ، ذلك انها ابرزت كجزء من خطة شاملة. كخطوة في بناء « مركز ثقل » أوروبي جديد ينافس مركز الثقل الذي تمثله أمريكا وانجلترا .

وقد سبقّت هذا تمهيدات طويلة. أظهرها على السطح زيارة ديغول منذ شهور لألمانيا . وهي الزيارة التي أراح فيها ديغول الستار ، في حركة رمزية ، عن أن له أقارب في ألمانيا ، وأن عائلته لها جود المان تراوجوا مع الفرنسيين.. وقيل يومها - سخريّة - انه يذكر الناس في الوقت نفسه بأن جدة ماكميلان أمريكية ! وأعمق هذه التمهيدات هو الترابط الاقتصادي المتعاظم بين ألمانيا وفرنسا . حتى قيل أن أهم ما في السوق المشتركة هو الزواج بين الزراعة الفرنسية والصناعة الألمانية ، وفي مجال المساعدات الخارجية تتفاهم السياسة الألمانية والفرنسية تفاهما عميقا . وفي احصاء آخر جاء أن ألمانيا توظف مئات الملايين من الماركات في المساعدات الاقتصادية لدول افريقيا الداخلة في الاتحاد الفرنسي ، وأن ٨٠ ٪ من هذه الأموال تنفقها هذه الدول لشراء حاجات .. من فرنسا !

ولاشك أن ألمانيا - بحكم وضعها الخاص - ليست في مركز يسمح لها بأن تستغنى بديغول عن حماية أمريكا العسكرية لها. ولكن حركة ديغول أريد بها جذب ألمانيا خطوة نحو فرنسا.. وكسر الولاء الألماني المطلق لأمريكا. وفتح الباب للاحتمالات واسعة في المستقبل. والضغط بهذا الحلف الفرنسي الألماني على بقية دول السوق

المشتركة وأرغامها على الطاعة !

✽ وثانى هذه التحركات الديجولية كان فى محاولة فتح أبواب السوق أمام دول أخرى أوروبية ، غير انجلترا . فبعد أيام من رفضه دخول انجلترا ، استقبل دييجول رئيس وزراء الدانمارك وعرض عليه دخول السوق ، والدانمارك اذا دخلت سوف تسحب وراءها اسكندينايا كلها . وهى اذا كانت لا تستطيع ان تدخل السوق اليوم « على جثة بريطانيا » كما قال رئيس وزرائها الا انها قد اعترفت بان العرض مفر ومثير وقابل للتحقيق . وفى الوقت نفسه نشط دييجول فى اسبانيا نشاطا واسعا ، وأخذ وزراؤه يعبرون جبال البرينيه واحدا بعد آخر ، بقصد جذب اسبانيا الى الكتلة الأوروبية المستقلة التى تريد ان تنمو ، قبل أن تتفاقم ارتباطاتها مع أمريكا . وآخر الأنباء تؤكد أن دييجول يفكر فى نوع من الارتباط العسكرى مع اسبانيا ، وانه سيحصل على « تسهيلات » عسكرية هناك كقواعد جوية تكون خطا متصلا من فرنسا الى دول افريقيا الفرنسية ، بعد أن استقل شمال افريقيا ولم يعد يصلح طريقا لفرنسا الى قلب افريقيا .

✽ وثالث هذه التحركات ، ما تشير اليه الأنباء والتعليقات الفرنسية ، من اهتمام واسع جديد لدييجول بمنطقة الشرق الاوسط من جهة ، وأمريكا الجنوبية من جهة أخرى . . وعزمه على أن يدخل ميدان المساعدات الاقتصادية مدعما بالصناعة الألمانية - أسوة بأمريكا وروسيا - وقالت بعض صحف فرنسا : ان دييجول يعتقد أن دول أمريكا الجنوبية مثلا تكره أمريكا ولكنها لا تريد أن تكون شيوعية ، وهنا يمكن أن تكون القوة

الآخري - أوروبا - هي التي تقودها في طريق التطوير الاقتصادي . بل قيل أن اتجاه ديجول لتسوية علاقاته مع إسبانيا يقصد بها فتح الطريق الأوروبي إلى أمريكا الجنوبية ، لأن نفوذ إسبانيا الروحي في أمريكا الجنوبية عميق . . وعزلة إسبانيا عن أوروبا يعزل عنها أيضا أمريكا الجنوبية كلها .

✳ على أن رابع هذه التحركات ، وخطرها ، هو الهمس المتصاعد عن اتجاه ديجول إلى التفاهم مع روسيا

طبعاً - وهذا تحفظ ينطبق على كل الاحتمالات الواردة في هذا البحث - لا شيء يعنى أن هذه التطورات ستقع بين يوم وليلة ، أو ستقع بشكل حاسم ، أي بجرة قلم ، ينقلب بها الأبيض إلى أسود أو العكس . ولكنها احتمالات متتالية ، كل منها يفتح الباب أمام الآخر . .

وفكرة قيام «حوار مباشر» بين ديجول وخروشوف تبدو منطقية تماماً مع باقي التطورات . أن كنيدي يتحدث مباشرة إلى خروشوف . وديجول ثائر أساساً على فكرة انفراد كنيدي ، أي أمريكا ، بهذا الحوار . وهو يطالب بأن يكون لأوروبا دورها المستقل ، وبالتالي فمن المنطق أن يطالب أما بالتشاور على أساس المساواة بين أمريكا وأوروبا قبل أي بحث مع روسيا ، وأما أن يكون لأوروبا نفس حق أمريكا في الحوار المنفرد مع روسيا وأنصار هذا الرأي يقولون أن أوروبا لديها فرصة أكبر من أمريكا لعمل تسوية مع روسيا . فأوروبا - الديقولية طبعاً - ليس لديها مشاكل « ساخنة » مع روسيا متناثرة حول العالم ، من كوبا إلى لاوس وفيتنام ،

مثل أمريكا. وديجول قد يفكر في عقد تسوية مع روسيا
نظير أخراج النفوذ الأمريكي من أوروبا وديجول بالفعل
أعطى روسيا شيئاً لم يعطه لها أى حاكم غربى وهو :
انه دعا رسمياً الى ضرورة الاعتراف بنهر « الاودر »
كحدود نهائية بين المانيا « الشرقية » وبولندا ، فى حين
ان الموقف « الرسمى » للغرب انه لا يعترف بالحدود
الجديدة بين بولندا والمانيا . ولكن أصعب مشكلة فى
محاولة التفاهم بين ديغول وخروشوف هى برلين
والمانيا ، لأن ديغول يرسم جانباً كبيراً من سياسته على
أساس تأييد المانيا الغربية له . فكيف يوفق بين ارضاء
خروشوف وارضاء اديناور ؟ . هل يبنى سياسته على
أساس أن اديناور - زعيم المعسكر المتشدد - سوف يعتزل
المسرح السياسى بعد أقل من سنة ؟ .

ان بعض المعلقين يقولون ان ديغول لا يمكن أن يحاول
التفاهم مع روسيا فى حين انه يتظاهر بأنه أشد الواقفين
ضد نفوذها . . ولكن معلقين آخرين يقولون : لا تنسوا
ان ديغول جاء الى الحكم بأن تظاهر بأنه سيكون أشد
الحكام تشدداً ضد ثوار الجزائر وظل يتظاهر بذلك حتى
بدأ يفادهم سرا على الاستقلال !

ليس معنى هذا كله ان الطريق الجديد ، العجيب ،
الذى يفتحهم ديغول ، سيكون مفروشاً بالزهور ،
بالعكس ، انه يصطدم بعقبات هائلة . .

والدلائل تشير الى ان سياسة ديغول تحظى - داخل
فرنسا - بتأييد كبير وتحظى بشيء أهم ، هو : حيرة
خصوم هذه السياسة وبلبلتهم واضطرابهم ازاء هذه
المواقف الجديدة التى لم يتوقعوها قط : فاليمين المتطرف

يجد في مضامرة دييجول الجديدة ، التي ترفع لواء الوطنية المتطرفة ، عزاء عن صدمة هذا اليمين المتطرف في الجزائر ، والمحايدون يرون في تصرفات دييجول اقترابا غير مقصود من فكرة تحييد أوروبا . واليساريون يرون ان كل بعد عن أمريكا ، قلعة الرأسمالية الكبرى فال طيب لهم .

ولكن الأمر خارج فرنسا على العكس من ذلك فأغلب دول غرب أوروبا تعارض اتجاه دييجول في طرد انجلترا وأمريكا .

ورد دييجول التقليدي : انه لايطرد انجلترا نهائيا . انه فقط يبقيا خارج الباب حتى تقرر فعلا أن تصبح أوربية وتترك كل ارتباطاتها الاخرى القديمة . ويومها أهلا وسهلا بانجلترا .



روت مجلة بارى ماتش ان أكثر ما يفيظ دييجول هو النشرة الجوية في انجلترا ! فحين يفمر الضباب بحر المانش تقول النشرة : « ان الضباب غمر المانش ، وأصبحت القارة الاوربية معزولة تماما ! »

ويفتاظ دييجول من هؤلاء الانجليز الذين يرون أن الضباب يعزل أوروبا ، في حين أنه يعزل جزيرتهم ، كأن جزيرتهم هي القارة ، والقارة كلها جزيرة صغيرة مجاورة !

انه الآن يعزل انجلترا . ويعلمها ان القارة هي الأصل !

فهرس

صفحة

روسيا وأمريكا — والانسان والآلة	٧
قصة فاطمة	٢٠
من هم الذين ينجحون في الحياة ، ولماذا ؟	٣٢
الاشتراكية الوطنية وسقوط الرايخ الثالث	٤٠
أزمة الضمير الحديث	٥٦
في مطابخ الثورات	٧٣
الاعلانات ٠٠ الاعلانات	٨٣
ثورة الآمال الكبيرة	٩٨
العقل اليميني يفكر :	
المحنة التي تواجهها الاشتراكية	١٠٥
هل الاشتراكية تنقل من	
الرأسمالية أم العكس ؟	١١٥
الاشتراكية ما زالت تبحث	
عن شكلها السياسي	١٢٥
في الشباب والحب	١٣٤
الشباب والحب	١٤٥
الامريكي الهاديء	١٥٣

صفحة

فن الكذب السياسى	٢١٢
السلام والعلم والحرية	٢٢٤
رباعية الاسكندرية	٢٣٥
١ - روسيا والصين	٢٥٠
٢ - روسيا والصين	٢٦٣
بين الصين والهند	٢٧٥
مذكرات مدرسة في خدمة ستالين	٢٨٦
فجأة في الصيف الماضى	٣٠٠
التفسير السياسى للموسيقى	٣١٩
خطاب الى قارئة مجهولة	٣٣١
وجه جديد فى عائلة نهرو	٣٥١
صديقى اينشتين	٣٦٤
بعد الحرب الذرية	٣٧٨
ديجول ووحدة الغرب	٣٩٧
ديجول وانجلترا	٤١٣

وكلاء اشتراكات مجلات دار الفيلاد

**THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU**

**7, Bishopstrove Road
London S.E. 26
ENGLAND.**

البريطانيا :

**M. Miguel Maccul Cury,
R. 25 de Marac, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo, BRASIL.**

البرازيل :



هذا الكتاب

« أفكار معاصرة » كتاب يجمع فيه أحمد بهاء الدين مجموعة من الفصول الهامة التي كتبها في السنوات الأخيرة ، والتي تتناول قضايا رئيسية في الفكر والسياسة والثقافة ... وفي هذا الكتاب يلتقى القارئ العربى مع أحمد بهاء الدين كما نعود أن يلتقى به دائما ، فهو كاتب واسع الثقافة عميق الصلة بالفكر الإنسانى المعاصر فى مختلف ميادينها ، وهو الى جانب ذلك كاتب اشتراكى ينظر الى الدنيا من وجهة نظر عربية رحبة .. وأحمد بهاء الدين صاحب مدرسة فى الكتابة تعتمد على الوضوح والجمال والبساطة والضمير اليقظ الحساس ، ومن هنا استطاعت هذه المدرسة أن تلتقى بقلوب الناس وعقولهم بلا تعقيد ولا عناء . وقد مكنت هذه الصفات كتابات أحمد بهاء الدين من أن يكون لها تأثيرها الواسع على جماهير القراء العرب فى كل مكان . بل ان كثيرا من الدارسين الاجانب للثقافة العربية المعاصرة يرون فى أحمد بهاء الدين وجها مشرقا من وجوه وتعبيرا عن جانب من اصح الجوانب وأكثرها عمقا وسلامة فى المعاصر . وفى هذا العمل الفكرى الجديد الذى يقدمه « كتاب القراء العرب رحلة واسعة وعميقة حول بعض المشاكل تواجه عالم اليوم وتنعكس على واقعنا العربى بصورة او ب لان الوطن العربى وثيق الصلة بكل ما يجرى فى العالم من سياسية وحضارية ، بحكم موقعه وثرواته وتراثه القديم وبهء الدين يمكننا أن نلتقى بنظرة فاحصة ومدققة وعميقة الدنيا من وجهة نظرنا العربية المفتحة .. وفى هذا الكتاب نأمل أن نعيش لحظات ممتعة مع أسلوب من أرقى وأجمل الأساليب الكتابة العربية فى عصرها الحديث .

